

الإلحاد .. والدجل

(٤)

الحياة..

تصميم .. لا صدفة

ردود علمية على التفسيرات الإلحادية لنشأة الحياة وتنوعها

د. نور الدين أبو لحية

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب أن ينـاقش أكـثر الأطروحـات المادية والإلحادية شهرة وانتشارا، والـتي اسـتعملت كـل الوسـائل، ومارسـت كـل الخـدع لتفسـير نشـأة الحياة وتنوعها تفسيرا ماديـا يبعـدها عن الحاجـة إلى الله، وإلى تصميمه المبدع، وعنايته الرحيمة.

وبمـا أن النظريـة الـتي تـولت ذلـك هي نظريـة التطـور، بمراحلهـا المختلفـة، فـإن هـذا الكتـاب هـو مناقشة علمية هادئة لكل أطروحـات تلـك النظريـة، وردود علمية عليها، وإجابات عن كل الشـبهات الـتي تطرحها، ابتداء من نشأة الحياة، وانتهاء بتنوعهـا إلى الصورة التي نراها عليها.

وقد اعتمدنا في هذه الردود على ما ذكره العلم الحـديث من حقـائق لم تكن موجـودة زمن دارون والعلماء الذين وقفوا في صفه.. فالعلم اليـوم يسـير بخطا سريعة نحو تحطيم هذه النظرية والأسس التي تقوم عليها.. بل ظهرت مؤسسات وجمعيـات كثـيرة من الغرب نفسه تبين أن هذه النظرية لم يبق لها ما يسـندها، ويـدل عليهـا، لا من الحفريـات، ولا من غيرهـا.. ولـذلك رموهـا بالخرافـة والـدجل.. وكونهـا تحولت إلى أداة أيديولوجية، لا نظرية علمية.

الإلحاد.. والدجل

(4)

الحياة..

تصميم .. لا صدفة

ردود علمية على التفسيرات الإلحادية لنشأة الحياة وتنوعها

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1439 . 2018

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

يحاول هذا الكتاب أن يناقش أكثر الأطروحات المادية والإلحادية شهرة وانتشارا، والتي استعملت كل الوسائل، ومارست كل الخدع لتفسير نشأة الحياة وتنوعها تفسيرا ماديا يبعدها عن الحاجة إلى الله، وإلى تصميمه المبدع، وعنايته الرحيمة.

وبما أن النظرية التي تولت ذلك هي نظرية التطور، بمراحلها المختلفة، فإن هذا الكتاب هو مناقشة علمية هادئة لكل أطروحات تلك النظرية، وردود علمية عليها، وإجابات عن كل الشبهات التي تطرحها، ابتداء من نشأة الحياة، وانتهاء بتنوعها إلى الصورة التي نراها عليها.

وقد اعتمدنا في هذه الردود على ما ذكره العلم الحديث من حقائق لم تكن موجودة زمن داروين والعلماء الذين وقفوا في صفه.. فالعلم اليوم يسير بخطا سريعة نحو تحطيم هذه النظرية والأسس التي تقوم عليها.. بل ظهرت مؤسسات وجمعيات كثيرة في الغرب نفسه تبين أن هذه النظرية لم يبق لها ما يسندها، ويدل عليها، لا من الحفريات، ولا من غيرها.. ولذلك رموها بالخرافة والدجل.. وكونها تحولت إلى أداة أيديولوجية، لا نظرية علمية.

وانطلاقا من هذا، فقد حاولنا أن نعطي القارئ الكريم ثقافة علمية مبسطة ترتبط بهذه النظرية وغيرها من التفسيرات المادية للحياة، ليتبين من خلالها حظها من العلم، ولتكون له القدرة العلمية على مناقشة الدعاوى الإلحادية المتعلقة بها.

بالإضافة إلى ذلك ذكرنا الكثير من شهادات العلماء المتخصصين وانتقاداتهم لها..

ولأن غرضنا من الكتاب، ومن السلسلة عموما هو محاولة استيعاب كل أصناف الشبهات التي يتعلق بها الملاحدة، واستيعاب الردود عليها، فقد رجعنا إلى المراجع الكثيرة التي تحصي تلك

الشبهات، أو تلك التي ترد عليها.

وقد وجدنا أن المراجع الأساسية لكل من كتب في التعريف بهذه النظرية أو الرد عليها كتب هارون يحي الكثيرة، والمخصصة أصلا للرد على هذه النظرية، فقد اعتمدنا عليها كثيرا، لا لكونها كتبه فقط.. وإنما لكونها جمعت الكثير من الاقتباسات والنقول من العلماء والمختصين في الغرب، سواء من أولئك الذين لا يزالون يؤمنون بنظرية التطور، أو من الذين تراجعوا عنها.

وقد حاولنا أن نرتب الشبهات والردود ترتيبا علميا ليتسنى للقارئ أن يطلع على كل جزئية بتفصيلاتها المختلفة، ويطلع في نفس الوقت على الردود العلمية الكثيرة المرتبطة بها.

وبناء على ذلك قسمنا الكتاب إلى سبعة فصول بدأت بالرد العلمي على التفسيرات المادية لنشأة الحياة، وانتهت بالرد العلمي على قصر الحياة على المادة دون العقل والروح.. وبينهما رددنا على كل الشبهات التي يعتمدها التطوريون لتفسير التنوع في الحياة.

وهذه الفصول السبعة هي:

أولا ــ الصدفة.. والخلق: وقد خصصناه للرد على التفسيرات المادية لنشأة الحياة.. واعتبرنا أن كل تلك التفسيرات ليست سوى رجم بالغيب، ولا دليل علمي يثبتها، وحتى لو ثبتت فإنها لا يمكن أن تفسر التعقيدات الكثيرة المرتبطة بالبروتين أو الخلية أو الحياة.

ثانيا ـ التطور.. والعلم: وقد خصصناه لإثبات عدم توفر العلمية الكافية لنظرية التطور، بل إنها مجرد تخمين وخيال، ولا علاقه لها بالعلم، وذلك لغياب جميع مقاييس النظريات العلمية فيها من البيانات الرصدية.. والتنبؤات الدقيقة.. والمنطقية العلمية.. والانفتاح للنقد.. والمعلومات الدقيقة.. وعدم التحيز.. وغيرها.

ثالثا ـ العشوائية.. والتصميم: وقد خصصناه لذكر ما رد

به دعاة التصميم الذكي، وهي النظرية الغربية التي تأسست في العقود الأخيرة للرد على نظرية التطور، وذلك باعتماد أسس علمية منطقية أعانت عليها الاكتشافات العلمية الحديثة.. وتناولنا فيه نماذج عن التعقيد المتخصص، والإبداع المقصود، والتصميم الذكي، والتعقيدات غير القابلة للاختزال.

رابعا ـ الصراع.. والسلام: وقد خصصناه للرد العلمي على ما يعتمده أصحاب نظرية التطور من تفسير الحياة على أساس الصراع من أجل البقاء.. وقد رددنا عليها ببيان العلاقة الحقيقية بين الكائنات وتجاوزها للصراع.. وبينا أن كل ما نراه هو تعبير عن التوازن المحكم والمقادير المضبوطة التي بنيت عليها الحياة، كما بني عليها الكون.

خامسا ـ التكيف.. والعناية: وقد خصصناه للرد العلمي على ما يعتمده أصحاب نظرية التطور من آليات لتفسير التطور من الانتقاء الطبيعي، أو الطفرات الوراثية، وغيرها.. وبينا أن ما نراه من تنوع هو نتيجة للعناية الإلهية، وليس للتطور الذاتي للكائنات الحية، فهي أعجز من أن تفعل ذلك.

سادسا ـ الغريزة.. والإلهام: وقد خصصناه للرد العلمي على التفسيرات المادية للسلوك الحيواني أو الخصائص المودعة فيه، وبينا أن كل ذلك عناية وإلهام وفضل إلهي، والعلم لا يستطيع تفسير ذلك إلا بذلك.. فنظرية التطور تعجز عن تفسير التعقيد المرتبط بالسلوك الحيواني دون إرجاعه لمصدر خارجي.

سابعا ــ المحدودية.. والامتداد: وقد خصصناه لبيان الرؤية الدينية للحياة، وكونها أكبر من أن تنحصر في هذا العالم المحدود، وقد ذكرنا ما يدل على هذه الرؤية من الأدلة العلمية، والشهادات المرتبطة بها من كبار العلماء والمتخصصين.

وكعادتنا في هذه السلسلة التي تحاول تبسيط الحقائق العلمية، ووضعها في قوالب مشوقة، فقد اعتمدنا بعض الأحداث الرمزية، التي تجعل القارئ يشعر بنوع من التسلية والمتابعة للأحداث بالإضافة إلى ما يستفيده من معلومات، أو قدرات على

الجدل والمحاجة والمناظرة.

وقصة هـذا الجـزء تبـدأ من خلال زيـارة يقـوم بهـا سـبعة من العلمـاء المتخصصـين في الحيـاة ونظريـة التطـور للمدينـة الـتي يسكن بها المؤلف.. ويسعى المؤلف بكـل جهـده ليتواصـل معهم، ويرد على الأطروحات المادية التي جـاءوا بهـا.. لكنـه يصـرف عن ذلك من طرف الجهات المنظمة للزيارة.

لكنه، وبعد أن ييأس من الالتقـاء بهم يفاجـأ بهم يـدقون بـاب بيته، ثم يخبرونه بأن معلم الإيمان هـو الـذي أرسـلهم إليـه ليكتب قصصهم.

ثم يحكي كـل واحـد منهم قصـة رحلتـه إلى الإيمـان، وكيفيـة توبتـه من التفسـيرات الماديـة للحيـاة في كـل فصـل من فصـول الكتاب.

هذه هي قصة هذا الجزء.. و ننبه إلى أن الهـدف منهـا هـدف علمي، وليس الروايـــة ولا أحـــداثها، ولـــذلك لم نتبن في كتابـــة الأحداث مناهج الكتابة الروائية بصـيغتها العاديـة.. وإنمـا حاولنـا أن نمـزج بين العلم والتسـلية حـتى نخفـف على القـارئ، ونيسـر لـه التحصيل والاستيعاب، كما نيسر عليه المناقشة والتفاعل.

البداية

في صباح ذلك اليوم الذي حـدثت لي فيـه هـذه القصـة الـتي سأحكيها لكم كنت مارا على بعض المراكز الثقافية.. وهنـاك رأيت جمعا من الشباب يتحدثون بأصوات مرتفعة، وقد جذبني إليهم أني سمعت بعضهم يذكر دارون، وكتابه عن أصل الأنـواع، ويـذكر معـه أسماء كثيرة، فاقتربت منهم، لأسمع حديثهم.

فرأيتهم يلتفون حول إعلان عن حضور سبعة من كبار علمــاء الحياة لإلقاء محاضرات في ذلك المركز الثقافي، الذي بـدا لـه أن يقيم أياما ثقافية علمية أطلق عليها وصف [الأيام التنويرية لكشف أسرار الحياة: بدايتها، وتطورها]

وقـد امتلأت عجبـا أن يهتم ذلـك المركـز، وفي تلـك المدينـة البسيطة بمثل هذه المسائل.. في نفس الـوقت الـذي يغفـل فيـه عن التنوير بـالقيم الأخلاقيـة والحضـارية والعلميـة والصـحية الـتي يحتاجها المجتمع أكثر من حاجتهم إلى التعرف على تـاريخ الحيـاة، وكيف بدأت، وكيف تطـورت.. والـذي لا يعـدو أن يكـون نوعـا من الرجم بالغيب، أو الحديث الذي لا معنى له.

وامتلأت بالعجب أكثر أن أولئك الشباب الـذين اقـتربت منهم لأسمع حديثهم، كانوا يتحدثون بسرور عظيم، وكأن وليا من أوليـاء الله قادم إليهم، لينيلهم من بركاته..

قال لي بعضهم، وهو لا يكاد يملك نفسه من الفرح: أرأيت يـا عم.. نحن الذين اقترحنا على مـدير هـذا المركـز استضـافة هـؤلاء العلماء الكبار، حـتى نسـاهم في تنـوير مـدينتنا، ونبعـد عنهـا شـبح الجهل..

قلت: عن أي جهــل تتحــدث؟.. النــاس بحاجــة إلى توعيــة وتربية.. ولا يحتاجون إلى الحديث في مثل هذه المسـائل الـتي لم تثبت علميا..

بمجرد أن قلت هـذا، راح أحـدهم يصـرخ بغضـب شـديد غـير

مراع فوارق السن بيننا، وهو يقول: دع عنك هذه الأغلوطات.. فالتطور حقيقة علمية، تدعمها ملايين الحفريات، والتجارب المعملية، والأبحاث الجينية.

قال آخر، وهو لا يقل عن صاحبه غضبا: التطور واقع مثبت، وآلياته أصبحت معروفة تماما، ولهذا يتم دراستها كل يوم في كل معامل العالم.. ويتم تدريسها في جميع جامعات العالم المعترف بها.. بل لا يستطيع اليوم عالم محترم أن ينفي أو يرفض التطور، وإلا فإنه ينتحر بذلك انتحارا علميا أكاديميا.

قال آخر: بل إن نظرية التطور تضاهي في درجة إثباتها نظريات نيوتن وأينشتين التي ثبتت بالأدلة المعملية والرصدية مئات الألوف من المرات.

قال آخر: ألا تعرف [دوكنز] ذلك العبقري الألمعي، صاحب كتاب [الجين الأناني] الذي صحح فيه ما وصفه بسوء الفهم للداروينية.. حيث ذكر أن الانتقاء يكون على مستوى الجينات، وليس مستوى الأنواع أو الأفراد كما كان يُعتقد.

قال آخر: لقد أثبت دوكينز أن مجتمع الإنسان المبني على قانون الجينات الأناني، من الممكن أن يكون منفراً ومزعجاً العيش فيه.. لكن استنكارنا ذلك كله لن يؤدي إلى تعديله.. فنحن ولدنا أنانيين.. هكذا خطط لنا في جيناتنا الأنانية، ولن نستطيع إفساد خططها.

ثم التفت لي، وهو يقول: أرأيت أهمية هذه الأفكار.. إنها ليست أطروحات علمية مجردة، بل إن لها صلة مباشرة بحياتنا.. فبدونها لا يمكننا أن نعرف حقيقتنا.

لم أجد ما أقول له.. إلا أنني عدت أدراجي إلى بيتي، وأنا ممتلئ بالألم والغثاء من هذه الموضات الجديدة التي صارت تخرج لنا كل حين، لتملأ حياتنا بكل ما يبعدنا عن ربنا وديننا.. وحينها تذكرت مقولة [ألكسيس كاريل]: (إن نظريات النشوء والارتقاء هي مصدر كل الهموم الإنسانية، وإنها في الحقيقة ليست إلا حكايات خرافية وجدت من يحميها ومن يقدمها للجماهير

بحلة خادعة لا يعرفها كثير من الناس)[1]

وصدق في ذلك، فما كـان الاسـتعمار ولا الرأسـمالية ولا كـل تلـك الجـرائم البشـعة الـتي ارتكبت في القـرون الأخـيرة إلا ابنـة شرعية لنظرية التطور في تجلياتها الاجتماعية.

وهكذا.. ما كانت بدع الموضة التي تخرج لنا كـل حين، والـتي يطرح معها الكثير من الحياء والعفة والأدب إلا مظهـر من مظـاهر ذلك الفكر الخطير الذي حول من الإنسان لعبة يُتلاعب بهـا باسـم التطور والتقدم والسير إلى الأمام.. والذي لا يختلف أحيانـا كثـيرة عن السير إلى الهاوية نفسها.

لكني بمجـرد أن دخلت بيـتي انبعثت في همـة عجيبـة، أردت من خلالها أن أستعيد تجربـة أولئـك الشـباب الـذين مـررت عليهم في رحلــتي الســابقة.. رحلــتي إلى الكــون الموحــد.. فقلت في نفسي: دعي عنك الحـزن والألم.. فلن ينفعـك في هـذا المحـل إلا الإرادة والعزيمة..

ثم رحت أشـحذ إرادتي وعزيمـتي، وأخـرج من بيـتي قاصـدا مدير ذلك المركز، طالبا منه أن يسمح لي ببعض الـوقت للحـديث مع أولئك الزائرين الذين يريدون أن ينشروا سمومهم بيننا.

قال لي المدير، وهو يتملقني، أو يريد أن يصرفني بـأدب: مـا بك يا رجل.. كيـف تـنزل بنفسـك إلى هـذا المسـتوى.. فـأنت لـك قيمتك وحرمتك.. وهؤلاء الذين تتحدث عنهم ـ مع شهرتهم الكبيرة ـ لن يحلمـوا بالحـديث معـك، ولا بـالجلوس إليـك، فشـتان بينـك وبينهم.. فلا تضــع وقتــك الثمين في الحــديث إليهم.. وامكث في بيتك لتخرج لنا من كنوز المعرفة ما تعودت أن تخرج.

قلت: أتريــدني أيضــا ألا أحضــر مــا يريــدون تقديمــه من محاضرات؟

قال، وهـو يبتسـم بخبث: أجـل.. فوقتـك أثمن من أن تضـيعه في الاستماع إليهم.. وإن احتاجوا إلى الحديث إليك، فسـيأتون هم

---

[1] () الإنسان ذلك المجهول، ص 158.

إليك بأنفسهم، من دون أن تتوسل وتتوسط للحديث إليهم.

لم أجد ما أقول له.. لكني عرفت بعد ذلك أنه لم يكن يريد من قوله ذلك إلا أن يصرفني، وقد تأكدت من ذلك من بعض الذين حضروا مجلسه، وأخبروني أنه كان حريصا على توفير الجو لهؤلاء الزوار حتى لا يعكر صفوهم أحد.. وحتى يظهر هو الآخر بصورة المتقدم المتحضر الذي تقدم في سلم الارتقاء، ولم يبق في مستنقع الثباب والاستقرار.

***

وقد ازداد يقيني بالنية المبيتة لمدير المركز عند بداية أشغال الأيام الدراسية، وفي اليوم الأول منها.. فعندما دخلت القاعة امتلأت عجبا من الرجل الذي كلف برئاسة الجلسة، فقد كنت أعرفه جيدا، وأعرفت تقلباته وتطوراته المختلفة، وغير المنضبطة.. والتي يربطها جميعا بالدين..

أذكر جيدا أنه عندما زارنا بعض الشيوعيين، وكلف حينها بتقديم محاضرته، راح يثني عليه وعلى الشيوعية، ويحول منها دينا سماويا، ويحول من كتاب [رأس المال] لكارل ماركس كتابا من الكتب المقدسة.. بل يضيف إلى ذلك كله اعتباره المادية الديالكتيكية من الإسلام.. بل راح يتلاعب بالآيات الكريمة ليستدل بها على شيوعية الإسلام.

وهكذا عندما زارنا بعض دعاة الغرائز من تلامذة فرويد.. راح يحطم كل جدران العفة والحياء والأدب التي جاء بها الإسلام ليحول منه إلى دين غرائزي بهيمي ممتلئ بالفحش والبذاءة.

وهكذا عندما زارنا بعض رجال الأعمال من الرأسماليين.. فقد راح يلقي خطبة طويلة يحاول أن يثبت فيها أن رسول الله ﷺ لم يكن مليونيرا فقط، بل كان ملياديرا أيضا.. ثم راح يصف لنا الحياة المترفة التي كان يعيشها.. مقتنصا في ذلك كل شادرة وواردة، يقبل ما يشاء هواه، ويرفض ما يشاء.

وهكذا لم يختلف أمره في ذلك اليوم.. فبعد أن اجتمعت

الجموع راح بصوته المجلجل، يصيح: لا شك أنكم جميعا تتطلعون لمعرفة حقيقة الحياة.. وكيف نشأت.. وكيف تطورت إلى ما هي عليه الآن.. وقد جاءكم من أقصى الأرض من يشرح لكم ذلك..

وأحب قبل أن يتقدم هؤلاء الأعلام الكبار ليشرحوا لكم بتفصيل ما ينص عليه العلم الحديث في آخر تطوراته أن أخبركم أن كل ذلك لا يتناقض مع القرآن، ولا مع الدين.. فديننا دين التطور، لا دين الثبات والسكون..

ثم راح يذكر المعترضين على نظرية التطور، متهما إياهم بالتخلف والمروق والإساءة للدين، ويقول في ذلك[1]: افهموني جيدا.. فالاعتراض على نظرية التطور ليس له أي سبب علمي.. بل إني أكاد أجزم أنه أيضا ليس بسبب ديني.. فلا يوجد تعارض بين الدين وبين التطور إطلاقا[2] ..

السبب في إنكار هذه النظرية هو بمنتهي البساطة [الغرور

1() من مقال بعنوان: نظرية التطور والقرآن، بتصرف.. وانظر في الموضوع مقالا بعنوان: الاستدلال بالقرآن على فرضية التطور الموجه.. قراءة نقدية، سلطان العميري، مجلة البيان.

2() نذكر هنا للأسف أولئك الباحثين من المسلمين الذين لم يتمعنوا جيدا في مدى علمية نظرية التطور، وراحوا يلوون أعناق النصوص المقدسة ليثبتوها من خلال القرآن الكريم بتكلف كبير ممقوت.

وقد قال المفكر المسلم الهندي [وحيد الدين خان] في هؤلاء كتابه [الاسلام يتحدى]: (هناك نوع آخر من علمائنا يدركون موقف الفكر الحديث من قضية الدين و لكنهم، لشدة تاثرهم بالفكر الحديث، يرون ان كل ما توصل اليه أئمة الغرب يعد من المسلمات العلمية، و من ثم تقتصر بطولتهم على اثبات هذه النظريات،التي سلم بها علماء الغرب،هي نفس ما ورد في القرآن الكريم و كتب الاحاديث الاخرى) و يتم قوله بعد ذلك: (وأوضح مثال في هذا،هو تلك الجماعة من علمائنا الذين قبلوا نظرية النشوء والارتقاء، لان علماء الغرب اعلنوا اقتناعهم الكامل بصدقها، بعددراساتهم و مشاهداتهم، و اضطروا بناء على هذا الى تفسير جديد للاسلام في ضوء النظرية الجديدة،و حين احتاجوا الى لباس جديد، قاموا بتفصيل ثوب للاسلام مرة أخرى، ولكنه ثوب مشوه المعالم، لا أثر فيه من روح الاسلام، التي ضاعت مع الاجزاء المقطعة في عملية التلفيق الجديدة)

و يقول د. عمرو عبد العزيز صلاح في كتابه [الداروينية المتاسلمة]: (اراد العقلانيون المسلمون محاكاة عقلانيي العرق التاريخي الغربي، في ترويج ان دينهم يقبل نظرية التطور، و القذة بالقذة قاموا طبعا بترويج الداروينية بالاسلام عنوة، و بالرغم من انها ملحدة اصلا و لايصح الزواج منها، الا انهم انطقوها الشهادتين بعجالة ثم اعلنوا انتصارهم: قد تزوجت الداروينية بالاسلام..هكذا خرج الى النور مولودها المشوه:الداروينية المتاسلمة!)

الإنساني]، فهو الذي دفعه لأن يتوهم أنه أفضل من الكائنات الأخرى.. ولذلك يحاول أن يربأ بنفسه من أن يكون من سلالة القردة أو غيرها من الكائنات.

لكنا إن عدنا إلى قرآننا، وقرأناه قراءة جديدة بعيدة عن قيود السلف والخلف، بل بعيدة عن قيود اللغة التقليدية.. فسنراه ينص على نظرية التطور بصراحة ليس دونها صراحة[1].

اسمعوا إلى القرآن الكريم، وهو ينص بصراحة على [نظرية الأبيوجينيسيس] التي تقول بنشأة الحياة في أعماق المحيطات..

ثم راح يرتل بصوت خاشع قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: 30]، ويعقب عليها بقوله: لقد استنبط المفسرون من هذه الآية استنباطات كثيرة منها أن الماء له فوائد للجسم.. وأننا نحتاج إليه لنعيش.. وأن كل الأحياء تتكون من نسبة عالية من الماء..

لكن كل هذه التفاسير وهمية خاطئة ذلك أن أي قارئ منصف يستطيع أن يري بجلاء أن كل هذه التفاسير هي تقويل على النص.. فالآية لا تتحدث عما ذكروا، وإنما تتحدث تحديدا عن نشأة الحياة.. إنها تتحدث عن الخلق الأول، وليس عن فوائد الماء.

ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: 45].. فالماء المقصود هنا هو مياه المحيطات كما أسلفنا، والتي نشأت منها أول خلية حية.

راح يتمعن في أثر كلامه على جمهور الحاضرين الممتلئين بالاستغراب، ثم قال: بعد هذا.. ماذا عن تطور الكائنات؟.. ماذا يقول القرآن في ذلك؟

1() سنذكر الرد المفصل على هذه المقولات بتفصيل في ثنايا الرسالة، وخاصة في مقدمة فصل [التطور والعلم]، وإن كان الكتاب ردا عليها.

راح يقلب صفحات مصحف بين يديه، ثم يقول: اسمعوا لهذه الآية الـتي تنص على نظريـة التطـور بكـل صـراحة.. فاللـه تعـالى يقـول: ﴿وَلَقَـدْ خَلَقْنَـا الإنسـان مِنْ سُـلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنـون: 12].. المفســرون القــدامى بحكم معــارفهم المحــدودة راحــوا يفسرون الآية بأنها تعني أن كل منا كبشر هو نهايـة سـلالة طويلـة بـدأت بخلـق الإنسـان الأول من طين.. لكن لغـة القـرآن القويـة الواضـحة تعانـد هـذا التفسـير بوضـوح.. فهي تنص على أن بين الإنسـان وبين الطين يوجـد سـلالة.. والسـلالة لاهي طين ولا هي إنسان، أليس هذا واضحا وضوح الشـمس؟.. كيـف لايسـتطيع كـل من يقـرأ هـذا الكلام أن يتسـاءل كيـف يكـون تفسـير المفسـرين صحيحا؟.. كيف يكون المقصود من السلالة أنها سلالة البشر حتي سيدنا آدم إذا كانت الآية توضح أن السلالة لم تكون أناسا مثلنا؟

ثم راح يتساءل: أتعلمون مـاهو الطين؟.. أليس هـو مركبـات جمادية مخلوطـة بالمـاء؟.. فاللـه إذن خلـق من هـذا حيـاة.. ومن الحياة نشأت سلالة.. ومن السلالة نشأ الإنسان.. أليس هذا وصفا رائعا ودقيقا لما تقوله نظرية التطور؟

صفق بعض الحضـور من الشـباب، وتبعتهـا تصـفيقات أخـرى كثـيرة.. فـازداد انتفـاخ الرجـل.. وراح يزيـد في درجـات تصـعيده ليجعـل من القـرآن الكـريم كتابـا لأصـل الأنـواع، مثلمـا حولـه في مجالســه الســابقة إلى كتــاب في الرأســمالية أو الشــيوعية أو الفوضى الأخلاقية.

بعد انتهائه من حديثه، وبعد أن كدت أنفجـر من ذلـك التلاعب بالنصوص المقدسة، بدأ العلماء حديثهم، وقد حمدت الله على أنـه كان حديثا ممتلئا بالمصطلحات الغريبـة، والأرقـام الكثـيرة، والـتي لم يفهمها أحد من الناس..

بعد انتهاء الجلسات، رفعت يـدي طالبـا التعقيب.. لكن مـدير المركز بعد أن لمح يدي، وهي ترتفع تقدم إلي، وكأنه لم يــرني إلا تلـك اللحظـة، ثم راح يصـافحني بحـرارة، بـل يعـانقني، وكأنـه لم يـرني منـذ سـنوات، ثم راح يأخـذ بيـدي إلى مكتبـه، ويطلب من العمـال أن يحضـروا لي بعض الحلويـات والقهـوة والشـاي، وهـو

يقول بكل تزلف: مرحبا بك في مركزنا.. كم نفرح بزيارتك يا رجل.. لم لا تشرفنا كل حين؟

ثم تملص مني، بعد أن تركني محجوزا في مكتبه، وكلما كنت أنوي الخروج منه، يقسم علي السكرتير بالبقاء ريثما يحضر القهوة والشاي.. ثم يخبرني بأن المدير سيغضب منه أو يفصله إن خرجت من غير أن أشرب شيئا..

وهكذا بقيت في انتظار القهوة والشاي إلى أن انفض المجلس، وخرج الناس.. وخرجت معه من دون أن أقف أي موقف، أو أدلي بأي حديث.

***

لكن.. وفي وقت متأخر من الليل سمعت طرقا شديدا على الباب، فخرجت مسرعا، فرأيت أولئك العلماء السبعة يقفون أمام الباب، ويطلبون مني أن أدخلهم إلى البيت بسرعة، ثم ما لبثوا أن دخلوا مسرعين، وكأنهم يخشون أن يتعقبهم أحد.

تصورت في البداية أن مدير المركز هو الذي أرسلهم لي.. لكني علمت منهم أنهم خرجوا خلسة من الفندق الذي يقيمون فيه، وأن الذي أرسلهم لي، ليس مدير المركز، وإنما معلم الإيمان.

قلت: أتقصدون أن معلم الإيمان هو الذي أرسلكم لي، ودلكم على بيتي؟

قال أحدهم: أجل.. ونحن لم نقصد هذه البلاد إلا لزيارتك..

قلت: لكن كيف تعرفتم إلى معلم الإيمان.. وكيف دلكم علي.. ولماذا؟

قال: رويدك، فنحن أضعف مما تتصور.. وأنت أقل من أن تفهم حقائق الوجود، فلذلك سلم لربك، ولا تسأل مما لم تؤت علمه.

تعجبت أن يكون المتحدث إلي بهذه الصيغة، وهذا الأسلوب،

وهذا الإيمان هؤلاء العلماء الذين جاءوا لنشر الإلحاد في البلدة، وتهديم عقائدها.

لكني بعد أن عاينت ما عاينته في رحلتي السابقة إلى الكون الموحد لم أستغرب ذلك، بل رحت أقول لهم: مرحبا بكم، وأنا طوع أمركم، ومسلّم لكم، ولمعلمي معلم الإيمان.. فهل تطلبون مني شيئا؟

قالوا: أنت تعلم لما أرسلنا إليك.. فهلم أحضر قلمك ودواتك وقراطيسك لنملي عليك قصة رحلتنا إلى الحياة الموحدة.

قلت: الحياة الموحدة.. ما تعنون بذلك؟

قال أحدهم: لقد رحلت في رحلتك السابقة من الكون الملحد إلى الكون الموحد.. وسترحل في هذه الرحلة معنا من الحياة بحسب الرؤية الإلحادية إلى الحياة بحسب الرؤية التوحيدية.

قلت: هل تريدون مني أن أسافر أيضا؟

قال: ما دام لك خيال يمكن أن يسافر، فلا حاجة لك أن تتعب قدميك.

قلت: لم أفهم ما تعنون؟

قال: لقد مررنا في حياتنا برحلة طويلة، مررنا فيها بتجارب مختلفة، واعتقدنا اعتقادات متباينة إلى أن هدانا الله للإيمان، ونحن نريد منك أن تسجل حديثنا، وخبر رحلتنا من الإلحاد إلى الإيمان.

قلت: ولكنكم سبعة.. فهل رحلتم جميعا رحلة واحدة؟

قال: لا.. بل لكل منا رحلته الخاصة به.. وقد التقينا في الأخير في رحاب الإيمان.. وقد دعانا معلمنا إلى أن نزورك لتكتب أخبارنا، كما نقصها عليك، فلعل ذلك يشفع لنا عند ربنا.

قلت: ما دمتم قد عدتم للإيمان.. فكيف جئتم لهذه البلدة

لتنشروا الإلحاد؟

قال: نحن لم نأت لننشر الإلحاد.. وإنما جئنا لننشر الإيمان.

قلت: والمحاضرات التي ألقيتموها في الصباح، والأرقام التي نطقتم بها.. وذلك الشيخ الذي قدم لكم بتلك الأحاديث الرعناء.

قال: لا شأن لنا بـه وبتخرصـاته.. ومـا ذكرنـا تلـك الأرقـام إلا لندعم الإيمان.. وسترى من حديثنا مع أهـل مـدينتك بعـد أن نقص عليك قصتنا ما يملؤك بالعجب.

قلت: فهلا أذنتم لي لأقـــدم لكم طعامـــا قبـــل أن تبـــدؤوا حديثكم..

قالوا: لا شأن لنا في طعامك.. فوقتنا محـدود جـدا.. فأحضـر سلاحك، وتعال لتكتب ما نمليه عليك.

لم أجـــــد إلا أن أســـــلم لهم، فأحضـــــرت أقلامي ودواتي وقراطيسي، ورحت أجلس إليهم، بهيئة التلميذ الذي يكتب كل مــا يملى عليه فهمه أو لم يفهمه.

الصدفة.. والخلق

بدأ أولهم الحديث، وقال: تبدأ قصتي من ذلك اليوم الذي اجتمعت فيه مع مدير مركز الأبحاث الذي كنت أعمل به، فقد طلب حضوري إليه، بعد أن رأى بعض أبحاثي، وأعجبته كثيرا.

وعندما دخلت إليه راح يقول لي: نحن فرحون بأن يكون في مركزنا باحث مثلك.. لكنا نريد منك أن تتوجه بأبحاثك وجهة أخرى، لعلها أنفع للبشرية من الوجهة التي تعمل فيها الآن.

قلت: لكن الوجهة التي أعمل فيها نافعة جدا، فأنا أبحث في الكائنات الحية الدقيقة، وتأثيرها على البيئة، وهذا يفيدنا كثيرا في واقع الحياة العملية.

قال: أجل.. أعلم ذلك.. لكن ذلك يمكن أن يقوم به آخرون بدلا عنك.. ولهذا، فأنا أريد منك شيئا آخر.. أو بالأحرى المركز يريد منك شيئا آخر أكثر نفعا للبشرية.. بل البشرية نفسها هي التي تريد ذلك منك.

قلت: أنا في خدمتك، وخدمة المركز، وخدمة البشرية.. فمرني بما شئت.

سكت قليلا، كالمتردد، ثم قال: قد تقول بأن ما أريد أن أكلفك به نوع من الفلسفة أو الميتافيزيقا.. أو تذكر أن فيه نوعا من البعد عن العلمية.. لكني أبادرك، فأقول بأن قولك هذا غير صحيح.. فالعلم الآن راح يخترق حجب الغيب، ليكشف حقائق الوجود، حتى لا يترك لغيره أن ينشر الخرافات بين البشرية.

قلت: أنا إلى الآن لم أفهم ما تقصد.. ولست أدري هل لما تريد أن تطلبه مني علاقة بالفلسفة أم لا.. لكن إن كان ذلك، فاعذرني، فأنا رجل علم ومخابر، ولا علاقة لي إطلاقا بالفلسفة.

قال: ما تقول يا رجل.. هل يمكن لأحد من الناس ألا تكون له علاقة بالفلسفة؟.. ألا تعرف أولئك الفلكيين والفيزيائيين الكبار الذين وضعوا النماذج الكثيرة التي تواجه المؤمنين الذين راحوا

يستثمرون الحقائق العلمية الدالة على نشوء الكون ليثبتوا بها وجود الله؟

قلت: بلى.. أعرف ذلك.. وقد ذكر بعض أساتذتنا الدوافع النفسية لكل تلك النماذج، فقال: (اعتقد علماء الكون أنّ عليهم الالتفاف وراء المشكلة.. لقد حاولوا على مرّ السنوات الماضية إثبات عدة نماذج مختلفة للكون تتفادى الحاجة إلى بداية، مع الاستمرار في اشتراط انفجار عظيم.. يبدو الآن من المؤكّد أنّ الكون كانت له بداية)

قال: ولكنهم نجحوا في ذلك..

قلت: أجل.. هم نجحوا في تحقيق أغراضهم الفلسفية، ولكنهم لم ينجحوا في تحقيق أغراضهم العلمية، فكل ما ذكروه من نظريات ونماذج لم تكن سوى دعاوى لا دليل عليها.

قال: لا يهم ذلك.. فقد يأتي ما يدل عليها في المستقبل.

قلت: وقد يأتي ما ينقضها.. بل إنه لا يمكن لأحد من الناس أن يبرهن عليها في يوم من الأيام.. لقد قال بعد علماء الفيزياء الكبار عن [نظرية الأوتار]: (إنها نظرية تحتاج لمصادم هيدروني بحجم مجرة لاختبارها وهذا غير ممكن.. حسنا لو قلنا ــ طبقا للنظرية ـ إن الكون خلق نفسه، فمن أوجد النظرية؟ ومن أوجد القوانين الفيزيائية الخاصة بها؟.. ورغم ذلك فلا توجد لها معادلة فيزيائية حتى الآن.. أطلب منهم أن يكتبوا معادلة فيزيائية.. لن يفعلوا لانهم ببساطة لايمتلكونها)

وقال آخر عن صاحب نظرية الأكوان المتعددة، والتي قال عنها البروفسور [جون بولكنجهورن] الفيزيائي الشهير معبرا عن نقده الشديد لها: (إنها ليست فيزياء.. إنها في أحسن الأحوال فكرة ميتافيزيقيه، ولا يوجد سبب علمي واحد للإيمان بمجوعة من الأكوان المتعددة)

وقال آخر: (إن فلسفة هوكينج تحديدا ما أعارضه، فهي كما وصلتني مثال واضح على التعالم، فطرح أن العلم هو مصدر

المعلومات الوحيد، وأننا لدينا فهم كامل لكل شيء هراء، بل هراء خطير أيضا، فهو يشعر العلماء بالكبر والغرور بشكل مبالغ فيه)

قال: لا بأس.. ربما يكون لهؤلاء الحق فيما يذكرون.. لأن الكون الواسع لا يمكن الإحاطة به، ولا التجربة عليه.. ولكن ما أريد أن أطلبه منك سهل، وفي المتناول.. فنحن كما تعلم لا نبحث في الكائنات الضخمة، بل نبحث في الكائنات الدقيقة.. نحن لا نستعمل المراصد الكبرى العاجزة، بل نستعمل المجاهر الإلكترونية الدقيقة.

قلت: إن كان لما تريد أن تطلبه مني علاقة بالعلم، فذلك اختصاصي.. يمكنني أن أبحث فيما تشاء.. وأنت فسره بعد ذلك كما تريد.. أو يمكنك أن تحضر من الفلاسفة من يستفيد من نتائج أبحاثي ليوجهها كما يشاء.

قال: لا بأس.. اتفقنا على ذلك..

قلت: فما تريد مني؟

قال[1]: لاشك أنك تعلم أن نظرية التطور طرحت في أواسط القرن التاسع عشر، وفي ذلك ذلك الحين لم تكن العلوم والتكنولوجيا متطورة بمثل ما هي عليه اليوم.. فقد كان علماء ذلك القرن يُجرون أبحاثهم في معامل بسيطة، وبأجهزة بدائية جداً.. وذلك ما جعلهم يقعون في بعض الاعتقادات الباطلة التي ترسبت في أذهانهم في غضون العصور الوسطى، ولا تزال مؤثرة في ثقافتهم حتى الآن.

قلت: أعلم ذلك.. ومن ذلك قولهم: إن للحياة طبيعة بسيطة في أساسها، أو كما عبر على ذلك الفيلسوف اليوناني الشهير أرسطو الذي قال: (إنّ الحياة تبدأ صدفة بمجرد وجود بعض المواد التي لا حياة فيها، وتكون هذه المواد متلازمة جنبا إلى جنب في بيئة مبتلة رطبة ومن هنا تبدأ الحياة).. وهكذا اعتمد داروين في بناء نظريته على فكرة أن: (الحياة لها طبيعة بسيطة في أساسها)

---

[1] () انظر: السّلوك الواعي لدى الخلية: هارون يحيى، ترجمة: مصطفى الستيتي..

قال: أجل.. وقد اعتنق علماء الحياة ما ذكره داروين وناصروه، وبنوا أفكارهم على أساسه، وكان من أهم مناصري داروين [أرنيست هايكل] الذي كان يعتقد أن الخلية الحية ـ والتي لم تتمكن المجاهر البسيطة حينذاك من رؤيتها بشكل صحيح ـ بسيطة التكوين بطبيعتها، وقال عنها كما تصورها: (إن الخلية ما هي إلا بالونة بسيطة مملوءة بسائل هلامي)

قلت: ولهذا، فإن الكثير من النتائج العلمية التي ذكرها هايكل وداروين وهكسلي وغيرهم لم تعد نتائج علمية لاعتمادها على أفكار بدائية، ولعدم تطور الوسائل حينها.

قال: ولهذا طلبت منك ومن بعض الباحثين الكبار أن تقوم بدورك في هذا المجال.

قلت: لم أفهم ما تعني.

قال: لاشك أنك تعلم أن تلك النظريات التي طرحها هايكل وداروين وهكسلي وغيرهم كان لها أثرها الكبير في مواجهة الخرافة والجهل والتطرف والإرهاب الذي يلبس عادة لباس الإيمان.. وتعلم أيضا أنها وإن لم تكن علمية بالشكل الكافي، لكنها مع ذلك استطاعت أن تؤدي ذلك الدور الاجتماعي الخطير في مواجهة التطرف والعنف.. ولذلك نحتاج إلى إحيائها من جديد، وبأساليب أكثر علمية.

قلت: لا أرى علاقة بين تلك النظريات والتطرف والعنف.

قال: كيف لا ترى ذلك.. وأنت ترى في نشرات الأخبار أن كل ما يحصل من جرائم بيد أولئك الإرهابيين من المسلمين.. ولولا إيمانهم بما يسمونه إلها، لما وقعوا في ذلك.

قال ذلك، ثم أخرج من مكتبه شيكا، وأمضاه، وهو يقول: دعنا من كل هذه التفاصيل.. هذا شيك وفره لك المركز، يمكنك أن تضع فيه المبلغ الذي تشاء، لتسد به ديونك، ولتتجنب دخول السجن.. فلا يصح أن يدخل عالم مثلك السجن.. فمكانك هو المخبر، وليس وراء القضبان الحديدية.

ثم ابتسم، وقال: نحن نعرف جيدا الظروف الصعبة التي تمـر بها.. ولذلك لا نريد أن ندعك تحت رحمة أعدائك.. لا نريد منك في مقابـل هـذا سـوى أن تثبت عـدم حاجـة نشـأة الحيـاة إلى مصـدر خارجي..

أو بعبارة أخرى لا نريد منك سـوى أن تضـع نظريـة جديـدة لـ [نشأة الحياة صدفة] في لباس علمي يتيح لها المزيـد من القبـول في العصـر الحـالي، وبالوسـائل الحديثـة.. ولا يهم أن تعـارَض في المسـتقبل أو لا تعـارض.. المهم أن تبقى لهـا فعاليـة، ولـو لمـدة قليلة من السنين.

وإن استطعت أن تقنع باحثين آخرين ليؤدوا هذا الـدور معـك، فلك ذلك، فالبحث الجماعي أهم وأقوى تأثيرا من البحث الفردي.. لكن لا نريدهم إلا من كبار علماء الحياة في العالم.. ولذلك لك أن تتنقل حيث تشاء.. وتتصل بنا لنهبهم من الأموال ما يرغبون.. فكل شيء موفر لك.

***

لا أكتمكم أني حينها، وبمجـرد أن رأيت الشـيك سـال لعـابي، وتشتت ذهني تشتتا تاما، فقد كنت في حاجة مالية شـديدة.. فقـد اسـتدنت من بعض البنـوك مبلغـا ضـخما لشـراء بيت في ضـاحية المدينة، ووفرت فيه كل مستلزمات الأبحاث التي أريـد إجراءهـا.. وكنت أحلم أن أكسب وراء تلك البحـوث أمـوالا كثـيرة أسـدد بهـا ديوني، لكن ذلك لم يحصل، فقد كانت النتـائج الـتي وصـلت إليهـا عكس المتوقع، وقد جعلني ذلك أنهار انهيارا تاما.

ولهذا تـركت معملي، والتحقت بـذلك المركـز الـذي حـدثتكم عنه، وقـد علمت بعـد ذلـك أنهم علمـوا بمـا حصـل لي، وبالمبـالغ الضخمة التي أحتاج إلى سدادها، فراحوا يستعملون هذه الوسـيلة لإقناعي بما يريدون طرحه.. ونجحوا في ذلك.

بعد أن عدت إلى بيتي، رحت أقلب دفاتري بحثـا عن الفريـق الذي يمكنـه أن يسـاعدني في المهمـة الخطـيرة الـتي وكلت لي، وبعد جهـد كبـير اسـتطعت أن أجمـع أسـماء عـدد منهم، كلهم من

كبار الباحثين.. ولم تكن لـدي مشـكلة سـوى المسـافات الطويلـة التي تفصل بينهم.

لكن المبالغ الماليـة الضـخمة الـتي هـيئت لي جعلتـني أقـوم بمهمة التواصل معهم، من غير أي عناء..

الصدفة.. والرجم بالغيب:

كان أول عالم قمت بزيارته، والحديث معـه في هـذا الشـأن، عالما بيولوجيا كبيرا، كانت له صلة نسـبية بـذلك العـالم التطـوري المخـادع [أرنسـت هيجـل]، صـاحب النظريـة الـتي يطلـق عليهـا [نظرية التلخيص]، والتي ثبت زيفها وخـداعها بعـد ذلـك، واعـترف أرنست نفسه بما فعله.

عندما دخلت مكتبه الذي كان يشبه مكاتب رجال الأعمـال، لا مكاتب العلماء والخبراء، قال لي، وهو يصافحني بحرارة: لدي لـك الكثير من الصفقات التجارية المهمة التي تخلصك من كل ديونك.

قلت: أرجو ألا تكون مثل شبيهاتها التي أوقعتني فيها.

قال: لا تخف.. هي مضمونة مائة في المائـة.. فأنـا أفكـر في اختراع مركب يحوي جميع المسكرات مثل الكحول والكلوروفورم والبـــنزين.. ومســـببات النشـــوة مثـــل الأفيـــون ومشـــتقاته.. والمهلوسات: مثل الميسكالين وفطـر الأمـانيت والبلاذون والقنب الهندي..وغيرها جميعا، مـع تفـادي السـلبيات المرتبطـة بهـا.. وأنـا أحتاج إلى فريق بحثي لتحقيق ذلك.. ولا شك أن لك من القـدرات ما يسمح باختراع هذا المنتوج الذي سيغزو الأسـواق، ويحولنـا إلى ملياديرات بين عشية وضحاها.

قلت: دعني من هذه العوالم، فـأنت تعـرف أني قـد تبت من أمثال هذه الصناعات التي لم تجر علي سوى الوبال.

قال: فهل تراك جئتني بصفقة أخرى أكثر جدوى؟

قلت: ألا تعرف الحـديث سـوى عن الصـفقات؟.. لقـد جئتـك لغرض علمي.

قال: لقد انتهينا من العلم بعد خروجنا من الجامعـة مباشـرة، ونحن الآن في طور التجارة بالعلم.. فإن كـان لـك صـفقة مهمـة، فهاتها، وإلا فاذهب إلى طلبة الجامعة، واعرض عليهم مشاريعك.

قلت: يمكنك أن تعتبر أني جئتك بصفقة..

نهض من مكتبه، وراح يصفق، ويقـول: هـذا مـا كنت أنتظـره منك، فهلم بها.

ذكرت له ما حدثني به مدير المركـز، فـراح يقـول لي: الأمـر بسيط جدا، يمكنني عبر الفريق البحثي الـذي تريـده أن نحـيي أي نظرية من النظريات، وندعمها بخدع جديدة، لتؤدي دورها الوقتي، ولا بـأس بعـد ذلـك أن تنتقـد، لتخلفهـا نظريـات أخـرى.. فمـا دام الهدف هو إبعاد الله عن خلق الحياة، فهذا سهل جدا.

ثم ابتسم، وقال: إننا نقدم بذلك خدمة للإنسانية.. فأنت تـرى ما يجره الإيمان بالله من مآس للبشرية، فقد صار اسم الله مبررا لكل الجرائم.. وفوق ذلـك لا يمكن للحيـاة أن تحلـو، وأن نمـارس فيها كل حريتنا، ونحن نعتقد بإله يحاسبنا على الصـغيرة والكبـيرة، بل يتوعـدنا بعـد ذلـك بالعـذاب الشـديد إن خالفنـا القـوانين الـتي يسنها.

قلت: لا بأس.. فما هي البدائل الـتي تقترحهـا، والـتي يمكننـا من خلالها أن نواجه الطروحات الإيمانية.

قـال[1]: هي كثـيرة جـدا.. من أمثلتهـا أننـا يمكن أن نلبس نظريـة [الحسـاء البـدائي] ثوبـا جديـدا من العلميـة، متناسـبا مـع التطـورات الجديـدة.. فـأنت تعلم أن أثـواب تلـك النظريـة والـتي لبستها منذ سنة 1924 قد بليت كثيرا.. وتحتاج إلى تبديل..

سكت قليلا، ثم قال: لقد لاقت حينها استحسـان العلمـاء من مختلف الأوساط العلميـة.. فهي تـذكر أن الحيـاة نشـأت ببسـاطة من زمن سحيق في القـدم، حيث كـان للأرض غلاف جـوي صـغير

1() من مقال بعنوان: ثمانية نظريات حول نشأة الحياة على الأرض، موقع الباحثون المغاربة.

يحتــوي على العناصــر الأساســية لنشــأة الحيــاة من الكــاربون، والهيـدروجين، والآزوت، وغيرهـا.. حينهـا تعرضـت الأرض لأشـكال مختلفة من الطاقة، ممـا أدى إلى ارتبـاط هـذه العناصـر وتصـلبها فيما بينها، مشكلة مركبات كيميائيـة، أعطت انطلاقـة للحيـاة على الأرض.

قلت: ولكن هذا يطـرح تسـاؤلات حـول كيفيـة نشـوء الحيـاة فقط عبر هذه العناصر والمركبات البسيطة؟

قال: هذا ما تجيب عليه نظرية [التولد التلقـائي] أو [التخليـق الـذاتي]، وهي الـتي تـذكر أن الحيـاة نشـأت في ظـروف طبيعيـة انطلاقا من مركبات غير حية..

قلت: لكن كيف تم ذلك؟

قـال: يمكن طـرح الكثـير من التوقعـات لكيفيـة ذلـك.. وفي ذاكرتي الآن الكثير منها.. وجميعها يمكنها أن تصـمد فـترة طويلـة، حتى تأتي بدائل لها.

قلت: فهات أولها؟

قـال: أولهـا هـو القـول بـأن الحيـاة نشـأت أول مـرة تحت الجليــد.. حيث تشــير مجموعــة من الأدلــة إلى تغطيــة الجليــد للمحيطـات قبـل حـوالي 3 ملايـير سـنة من الآن، حيث تشـكلت طبقة جليد سميكة بعمق مئات الأمتـار نتيجـة البعـد السـحيق بين الأرض والشمس آنذاك، وعكس ما هـو عليـه الآن، وهـذه الطبقـة حمت المركبـات العضـوية بقـاع المحيطـات ومكنتهـا من التفاعـل فيما بينها لتعطي بذلك انطلاقة للحياة.

قلت: دعنا من هذا، فما أصعب تصديقه؟

قال: لا بأس.. فلنذكر بأن الحياة نشأت بسبب الكهرباء.

قلت: كيف ذلك؟.. إن إثبات هذا صعب، بل مستحيل.

قال: رغم أنها فكرة غريبة نوعا ما، إلا أنه يمكننا أن نذكر بأن الحياة تشكلت بفعل الكهرباء، فقد تم اثبـات قـدرة الكهربـاء على

تشـكيل أحمـاض أمينيـة وسـكريات بسـيطة انطلاقـا من عناصـر بسيطة في الغلاف الجوي.. وبذلك فإنـه يمكن أن نـذكر أن الـبرق هو السـبب في ظهـور الحيـاة على الأرض، وذلـك بصـعق الأدخنـة الصاعدة من البراكين، والغنية بالعناصر الأساسـية للحيـاة مشـكلا بذلك جزيئات أعقد، شكلت أسس الحياة.

قلت: دعنا من هذا، وحدثنا عن توقع آخر أكثر عقلانية؟

قال: فلنذكر لهم أن الحياة نشأت بسبب [التبذر الشامل]

قلت: فما [التبذر الشامل]؟

قـال: هي نظريـة تنص على أن الحيـاة على الأرض تطـورت من كائنات مجهرية فضائية، دخلت للأرض عن طريق نيازك قادمة من المريخ.. مما يجعل منا امتدادا لكائنات فضائية متطورة.

قلت: إن هـذا سـيدعو إلى التسـاؤل أيضـا عن سـبب نشـأة الحياة في المريخ.. فلذلك حدثنا عن توقع آخر أكثر عقلانية؟

قـال: فلنــذكر لهم أن الحيــاة نشــأت من [الحمض النــووي الريبوزي]، فهذا الحمض له دور أساسي في ترجمـة الجينـات إلى بروتينـات.. وبـذلك يمكن أن تنشـأ الحيـاة بتشـكل هـذا الحمض النووي الريبوزي انطلاقا من الحساء البدائي.

قلت: إن هذا يطرح تساؤلات أخرى كثيرة.. فهل هنـاك توقـع آخر؟

قـال: أجـل.. يمكننـا أن نـذكر أن مكونـات الحسـاء البـدائي اسـتمرت في التفاعـل فيمـا بينهـا، وبمـرور الـزمن أنتجت هـده التفاعلات جزيئات أكثر تعقيدا من سابقتها، فشكلت أساس الحياة على الأرض.

قلت: إن هذا يطرح تساؤلات كثيرة.. فهل هناك توقع آخر؟

قال: أجل.. يمكننا أن نذكر أن الشرارة الأولى للحياة ظهرت عبر المتنفسات المائية الحراريـة، وهي فتحـة تشـبه المدخنـة في

قاع المحيط، تنفث مياه معدنية حارة غنية بالعناصر الأساسية، وهي بذلك توفر ظروف ملائمة وعناصر أولية لتشكل الحياة على الأرض.

قلت: فهل هناك توقع آخر؟

قال: أجل.. يمكننا أن نذكر [تربة الأرض الطينية]، فقد قدم باحثون من جامعة غلاسكو الشهيرة باسكتلندا نظرية حول نشأة الحياة من تربة الأرض الطينية، لكونها غنية بالعناصر الأساسية للحياة، وقد حاجج الباحثون من خلال هذا الطرح على أن كل تلك العناصر قد تفاعلت فيما بينها لتعطي جزيئات معقدة كالحمض النووي [دى إن إيه] وجزيئات أخرى مشكلة بذلك قاعدة انطلاق الحياة على الأرض.

قلت: فهل هناك توقع آخر؟

قال: أجل.. يمكننا أن نذكر تلك النظرية الجديدة التي ظهرت بمعهد [ماساتشوستس للتكنولوجيا]، والتي تفترض أن تعريض المادة لطاقة خارجية داخل حمام حراري يجعلها تنتظم وفق نظام أكثر كفاءة في تبديد الطاقة، وقد أكدت الدراسات المنجزة أن تعريض مجموعة من الذرات للطاقة يجعلها تنتظم وفق نظام أكثر كفاءة في تبديد الطاقة.

قلت: فهل هناك توقع آخر أكثر علمية وعقلانية؟

قال: أجل.. يمكننا أن نذكر لهم نظرية [سفانت أرينياس]

قلت: فمن هو [سفانت أرينياس]؟

قال: إنه صاحب النظرية التي تنص على أن الحياة التي نراها على سطح البسيطة اليوم كانت قد نشأت من كائنات حية أخرى أتت من عالم أو كوكب آخر غير كوكبنا الأرضي.. وقد وضع نظريته في نهاية القرن التاسع عشر بناء على معرفته بأن كثيراً من البكتيريا والفطريات تنتج جراثيم تنقلها الرياح من مكان لآخر حيث يمكنها بتوفر الظروف الملائمة أن تنبت لتكون مستعمرات جديدة للكائنات المنتجة لها، وبناء على ذلك قدم نظريته والتي

تعني أن الكائنات الحية التي نراها اليوم نشأت من أجسـام تشـبه الجراثيم أتت من عالم أو كوكب آخر غير كوكبنا الأرضي.. وبتـوفر الظروف الملائمة لإنبات هـذه الأجسـام في أرضـنا نمت فـأعطت الكائنات الحية التي نراها اليوم.

قلت: ولكن هـذه النظريـة لم تأخـذ في عين الاعتبـار كيفيـة وجود الحيـاة على كوكبنـا الأرضـي، ولم تأخـذ في اعتبارهـا كيفيـة نشأتها سواء كان ذلك هنا أو في عالم آخر؟

قال: ذلك لا يهم.. فنحن لا نريد أن نثبت حقيقة علمية، وإنمـا نريد أن نضع افتراضات مختلفة ينشغل بها البشـر عن التسـاؤلات المحيرة التي لا تؤدي إلا إلى الإيمان.

قلت: دعنا منها.. فهي غريبة جدا.. فهل هناك توقع آخر أكـثر علمية وعقلانية؟

قال: حاليا.. ليس لدي أي توقع آخر.. لكن لا تقلق، يمكنك أن تمر علي بعد أسبوع واحد فقط، لأضع بين يـديك مجموعـة أخـرى جديدة من التوقعات.. لكن لا تنس أن تقدم مبلغا من المال يقـوي خيالي على التفكير.. فخيالي لا يمكن أن يتحرك من دون مال.

الصدفة.. والتوالد الذاتي:

وهكذا ضـممت إلى فـريقي العضـو الأول، والـذي لم يصـعب علي التعامل معه، فقد كان لا يختلف كثيرا عن مدير المركز الذي كنت أعمل به..

لكن الصـعوبات الشـديدة لاقتـني مـع سـائر الأعضـاء الـذين سجلتهم في دفتري.. فكلهم رفض العرض رغم الحاجة الشديدة.. وكلهم راح يؤنبني على التفكير بهذه الطريقة.

وكـان أولهم عالمـا بيولوجيـا كبـيرا، كـانت لـه صـلة نسـبية بالطبيب الكبير [لويس باستور]، وبمجرد أن التقيت بـه، وعرضـت عليه الفكرة، وأخبرته أني اتفقت مـع [أرنسـت هيجـل] بشـأن مـا يمكننا عمله، حتى راح يضحك بصـوت عـال، وهـو يقـول: ألا تـزال عائلة [أرنست هيجل] تمـارس دورهـا القـذر في تـاريخ العلم، ألم

يتخلصوا بعد من الحيلة والمخادعـة؟.. ألم يكفهم مـا فعـل جـدهم من جرائم؟

قلت: وما الذي فعل؟

قال: لقـد قـدم مجموعـة من أشـهر رسـوماته عـام 1874م لمراحل الجنين البشري، حيث قام بتزييف الحقائق ووضـع بصـمة تطورية في كل مرحلة جنينية لدرجة أنـه رسـم خياشـيم مزعومـة للجنين الإنساني، بل وأضاف صورتين من عنـده أصـلا دسـهما بين صـور مراحـل الجـنين، إلى الدرجـة الـتي قـال فيهـا عـالم الأجنـة البريطــاني الــدكتور [مايكــل ريتشاردســون] وزملاؤه في ســنة 1997م: (يبـدو أن هـذا [أي رسـومات هيغـل] من أكـبر عمليـات التزييف في علم الأحياء!)

قلت: لمَ تلقي عليـه هـذه التهمـة الخطـيرة، فلعـل ذلـك مـا وصل إليه جهده وعلمه وتفكـيره.. ولا يمكن اعتبـار التفكـير بحـال من الأحوال خداعا أو احتيالا؟

قال: صدقت في ذلك.. لكن الواقـع التـاريخي كشـف بالأدلـة القطعيـة أن [أرنسـت هيجـل] لم يكن مجـرد مخطئ، وإنمـا كـان مخادعا أيضا، ففي نهايات عام 1908م اكتشف الدكتور [بــر إس] الـتزوير الـذي قـام بـه، وكتب مقالـة في إحـدى الجرائـد متحـديا أرنست هيجل وداعيا له للاعتراف بما قام به من تزوير.

وانتظـرت الأوسـاط العلميـة جـواب العـالم التطـوري المتهم بـالتزوير، وبعـد تـردد قـارب الشـهر، كتب هيغـل بتـاريخ 14/12/ 1908م مقالة تحت عنوان (تزوير صور الأجنة)، حيث اعترف فيها بعملية التزوير التي قام بها قائلا: (إنـني أعـترف رسـميا ــ حسـما للجدال في هذه المسألة ـ أن عددا قليلا من صور الأجنة نحو ستة في المائة أو ثمانية موضوع أو مزور)

ثم عقب على هذا الاعتراف بقوله: (بعد هـذا الاعـتراف يجب أن أحسب نفسي مقضيا عليّ وهالكا، ولكن ما يعزيني هو أن أرى بجانبي في كرسي الاتهام مئات من شركائي في الجريمـة، وبينهم عــدد كبــير من الفلاســفة المعــول عليهم في التجــارب العلميــة

وغيرهم من علماء الأحياء ـ البيولوجيا، فإن كثيرا من الصـور الـتي توضح علم بنية الأحياء وعلم التشريح وعلم الأنسـجة وعلم الأجنـة المنتشرة المُعول عليها مزور مثل تزويري تماما لا يختلف عنه في شيء)[1]

بل إن علماء الداروينية الحديثة لم يجدوا بُدا من التملص من هـذه الفضـيحة للحفـاظ على اسـتمرار المخـدر التطـوري سـاري المفعـول في عقـول الغـافلين والملحـدين واللادينـيين، فهـذا أحـد مؤسسـي الدارونيـة الحديثـة وهـو [جـورج جـايلورد سيمبسـون]، يقول: (لقد شـوَّه هيجـل المبـدأ النشـوئي الـذي تناولـه، فقـد ثبت اليوم علميـا بمـا لا يـدع مجـالا للشـك، أن الأجنـة لا تمـر بمراحـل ارتقاء الأجداد)

قلت: لا بأس.. قد أعترف معك بكون [أرنسـت هيجـل] الجـد كان مخادعا، لكن ما ذنب [أرنست هيجـل] الحفيـد.. أم أنـك تريـد أن تلقي ذنب الأجداد على الأحفاد؟

قال: لا.. لا أقول هذا.. ومعاذ الله أن أقوله.. ولكن ما ذكرتــه لي من مشاهد لنشـأة الحيـاة ذكـرني بمـا فعلـه [أرنسـت هيجـل] الجد، فهو الذي اسـتعمل الحيلـة والخـداع لتمريـر فكرتـه.. ونفس الشيء راح يفعله [أرنست هيجل]

الحفيد.. فتلك المشاهد لا يقبلها العقل ولا المنطق، ولا تعدو أن تكون مجرد رجم بالغيب لا يمكن التحقق العلمي منه بحال من الأحوال.

قلت: لا بأس.. ربما يكون ما تقول مقنعا، ولكن ما رأيـك في إحياء نظرية التوالد الذاتي، ومحاولة بعث الحياة فيها؟

ضحك بصوت عال، وقال: لا شك أنك تريد أن تعود بنـا مئـات السنين إلى الوراء..

قلت: كيف ذلك؟

---

[1] () نقل المقالة الكاتب الإنجليزي فرانسيز هيتشينج في كتابه الشهير (عنق الزرافة - حيث أخطأ داروين).

قـال[2]: أنت تريـد أن نقـول للعـالم بعـد كـل هـذا التطـور العلمي: إن الـبراغيث متولـدة من مـواد غـير حيـة كالغبـار.. وأن الديدان نشـأت من اللحم.. وأن الضـفادع وبعض الكائنـات المائيـة نشـــأت مباشـــرة من طين الجـــداول والـــبرك.. وأن الأســـماك والزواحف والفئران يمكنها أن تنشأ تلقائياً من تربة رملية أو حـتى من مواد متعفنة.. وأن الإنسان نفسه يمكن أن ينشأ من بركـة من الوحل بطريقة التوالد الذاتي.

أو تريد أن نذكر لهم بأن [فان هلمونت] الذي اشتهر بتجاربــه في التمثيل الضوئي للنبـات ذكـر بأنـه لـو أخـذنا كميـة من القمح، وبعضـا من التبن والقش، وقطعـة من قمـاش قـديم، وقطعـة أو قطعتين من ملابس داخلية وسخة.. ثم أضـفنا إلى الكـل قليلاً من الماء، ثم تركنا هذه المجموعة في مكـان هـادئ لعـدة أيـام، فإنـه سرعان ما تولد هذه المجموعة مجموعة من الفئران.

قلت: لا أريـد أن أقـول هـذا بالضـبط.. ولكن ألا يمكن إحيـاء هذه الأفكار بطريقة أخرى علمية؟

ابتسـم، وقـال: كيـف تقـول ذلـك يـا رجـل.. فقـد انتقـد تلـك النظرية كـل البـاحثين المحققين ابتـداء من [فرانسيسـكو ريـدي] الـذي أثبت بتجربـة بسـيطة أن يرقـات الـذباب توجـد في اللحم المتعفن نتيجة لفقس البيض الذي تضعه أنثى الـذباب على اللحم، لا من توالدها ذاتياً ومباشـرة من اللحم المتعفن، فلـو جنبنـا اللحم من الذباب، وذلك بتغطية الوعاء المحتوي على اللحم وبقطعة من القماش النظيف لاستحال ظهور اليرقات مهما تعفن اللحم وطـال تعفنه، إلا أن ترك اللحم بدون تغطيـة ولّـد عليـه يرقـات الـذباب.. وقد أدت هذه التجربة وتجارب أخرى من هذا القبيـل إلى أضـعاف شوكة نظرية التوالد الذاتي.

قلت: ولكن.. وبعد اختـراع المجهـر في نهايـة القـرن السـابع عشر على يد العالم [أنطـون فـان ليفنهـوك]، واكتشـافه لكائنـات دقيقـة لم تكن تـرى بـالعين المجـردة، بـل ظهـرت خلال المجهـر

2() انظر: مقالا بعنوان [نظريات نشـأة الحيـاة]، والمعلومـات الـواردة فيـه موجـودة في مواقع ودوائر معارف علمية كثيرة.

الضوئي، عاد فأنعش نظرية التوالد الذاتي بعض الشـيء، ذلـك أن وجـود هـذه الكائنـات الدقيقـة في السـوائل المتخمـرة لا يمكن شرحه إلا على أساس فكرة التوالد الذاتي.

وكـان من بين الـذين وجـدوا في اكتشـاف ليفنهـوك انتعاشـاً لفكرة التوالد الذاتي القسيس [الويلزي نيد هام]، لذا أجـرى عـدة تجارب، وجد من خلالهـا أن حسـاء لحم الضـأن سـوف يـؤدي إلى إنتاج كائنات دقيقة حتى بعد تسخينه لدرجة الغليان.

قال: لكن تلك التجارب لم تكن علميـة، فقـد وجـد القسـيس الإيطـالي [لازورا سـبالانزاني] أن الحسـاء الـذي اعتمـد عليـه [الويلزي نيد هام] كان عرضة للتلـوث بـالهواء بعـد التسـخين ممـا يشـرح ظهـور الميكروبـات في تجاربـه.. ولإثبـات ذلـك قـام بعـدة تجارب سخن فيها الحساء لمدة طويلة تستمر بالساعات، وعاملـة بطريقة تحـول دون تلوثـه بـالهواء.. وفي نهايـة هـذه التجـارب لم يظهر أي نوع من الميكروبات.

وهكذا أجرى قريبي [لـويس باسـتور] تجـارب عديـدة قـدمت دلائل قاطعة على عدم صحة التوالد الذاتي.. وقـد أثبت أن الهـواء ملئ بالكائنات الدقيقة التي يمكنها أن تنمـو على الحسـاء بتعـرض الحساء للهواء.. ذلك أنـه لـو عرضـنا الحسـاء المعقم لهـواء معقم فإنه لا تنمو أيـة ميكروبـات على الحسـاء، إلا أن الحسـاء بتعرضـه لهواء غير معقم تنمو عليه كائنات دقيقة مختلفة.. وبناء على هــذه التحارب فقد صرح باستور قائلا: (سوف لا تحيا أبداً نظرية التوالـد الذاتي بعد أن صرعتها هذه التجارب البسيطة)

الصدفة.. والحساء البدائي:

[1]

ل يمكن للحياة أن تنشأ مصادفة كما تدعي نظرية التطور؟

تقول نظرية التطور أن الحياة قـد نشـأت من خليـة تشـكلت في ظل ظروف بدائية على وجه البسيطة. لنتفحص مكونات هـذه

---

[1] انظر: لا يعرف الله إلا بالعقل، هارون يحي.

الخلية مع مقارنات بسيطة لنعرف كم هو خيالي أن ينسب وجود هذه الخلية الموجودة - والتي لا زالت تحتفظ بخفاياها من جهات عدة، حتى في الوقت الذي أصبحنا فيه على أعتاب القرن الحادي والعشرين - إلى مصادفات أو ظواهر طبيعية.

لا تقل الخلية في تعقيدها بما تحمله من أنظمة، أنظمة الاتصال، النقل والإدارة عن أي مدينة. فهي تحتوي على محطات طاقة لتوليد الطاقة التي تستهلكها الخلية، مصانع تصنع الأنزيمات والهرمونات الأساسية للحياة ، بنك للمعلومات تُسجل فيه المعلومات اللازمة حول كافة المنتجات التي يتوجب إنتاجها، أنظمة نقل معقدة وأنابيب لحمل المواد الخام والمنتجات من مكان إلى آخر. مخابر متطورة ومصافٍ لتفتيت المواد الخام إلى أجزائها المفيدة، وغشاء بروتيني خاص بالخلية للتحكم بالمواد الداخلة والخارجة عنها. وهذا كله يشكل جزءًا صغير فقط من نظامها المعقد الذي لايُصدق.

بعيدا عن كون هذه الخلية قد تشكلت عن طريق الصدفة، فإنه لا يمكن تركيب هذه الخلية ببنيتها المعقدة في أكثر المخابر تعقيدا ، حتى مع استخدام الحموض الأمينية، أحجار الأساس للخلية، من المستحيل انتاج ولا حتى عضية واحدة من هذه الخلية مثل المتقدرات أو الريباسة، ما هو أقل بكثير من الخلية. إن ادعاء نشوء الخلية الأولى في الحياة عن طريق الصدفة أمر مغرق في الخيالية تماما كوجود حيوان أحادي القرن الأسطوري.

البروتين يتحدى المصادفة

ليست الخلية فقط هي التي لا يمكن انتاجها، بل إن إنشاء جزيء بروتين واحد من بين آلاف البروتينات التي تشكل الخلية

تحت ظروف طبيعية أمر متعذر.

البروتينات جزيئات ضخمة تتكـون من حمـوض أمينيـة مرتبـة في سلسـلة معينـة وبأعـداد وبنيـات محـددة. هـذه الجزيئـات هي اللبنات الأساسية للخلية، وأبسط واحدة منها تتكون من 50 حمضاً أميناً ومنها ما يحتوي على آلاف الحموض الأمينية. إن أي نقص أو زيـادة أو تغيـير في أمـاكن هـذه الحمـوض الـتي يختص كـل منهـا بوظيفة معينة داخل الخلية الحية، يجعل جـزيء الـبروتين كومـة لا نفع منها. لقد أخفقت نظرية التطـور عنـد نقطـة تشـكل الـبروتين لكونها عاجزة عن عرض "التشكيل التصادفي".

يمكننا بكل سـهولة أن نعـرض بطريقـة يفهمهـا الجميـع بعض الحسابات الاحتمالية البسيطة، تبين أن البنية الوظيفية للبروتين لا يمكن أن تنشأ مصادفة.

هناك عشـرون حمضـا أمينيـا مختلفـا. وإذا اعتبرنـا أن معـدل احتواء جـزيء بـروتين من الحمـوض الأمينيـة 288 حمضـا، يكـون هناك 10300 من التراكيب الحمضـية المختلفـة. واحـد فقـط من كل هذه السلاسل المحتملة تشكل جزيء البروتين المطلـوب.أمـا باقي سلاسل الحموض الأمينية الأخرى، فهي إمـا عديمـة الفائـدة، أو محتمـل أن تصـبح ضـارة للكـائن الحي. بعبـارة أخـرى، نسـبة احتمال التشكل التصادفي لجزيء بروتين واحد فقط كالذي تحدثنا عنـه سـالفا هي 1 في (10300). وإمكانيـة حـدوث "1" من رقم "فلكي":1 وأمامه 300 صفر هي بكل الأحـوال الفعليـة صـفر: أي مستحيلة. على أن هذا الجزيء الذي يتألف من 288 حمضاً أمينيـاً يعتبر متواضعا بالمقارنة مع الجزيئات العملاقـة الـتي تحتـوي على آلاف الحموض الأمينيـة. وإذا طبقنـا حسـابات الاحتمـال على هـذه الجزيئات العملاقة، نجد أن كلمة"مستحيل" غير كافية.

وإذا كان احتمال التشكل التصادفي لواحد من هذه الجزيئـات البروتينية مستحيلا، فإن إمكانية تجمـع مليـون من هـذه الجزيئـات عن طريق الصدفة بطريقة منظمة لتشكيل خلية بشـرية متكاملـة أمر أكثر استحالة بملايين المرات. علاوة على ذلك، ليست الخليــة مجموعـة من البروتينـات، بـل تحتـوي بالإضـافة لهـا على حمـوض نووية ودهون وفيتامينات ومواد كيميائيـة أخـرى مثـل الالكـتروليت وجميعها منظمـة بانسـجام وانتظـام وبنسـب محـددة، من الناحيـة البنيوية والوظيفية، وكل منها يعمل كلبنة أسـاس أو أحـد مكونـات العضيات المتنوعة.

وكما رأينا عجزت نظرية التطـور عن تفسـير تشـكل بـروتين واحـد من الملايين الـتي تـدخل في تـركيب الخليـة، ولنتنـاول الآن الخلية.

ناقش الأستاذ الدكتور علي دميروزي Pro. Dr. Ali Demirosy أحد أشهر المناصرين لفكرة التطور في كتابـه (الوراثـة والتطـور) إمكانيـة حـدوث انـزيم سـيتوكروم- س " ytochrome - C" أحـد الأنزيمات الأساسية للحياة عن طريق الصدفة:

"إن إمكانية تشكل سلسلة "ochrome - C" هي صفر. بمعنى أنه إذا احتاجت الحياة إلى سلسلة معينة فإن إمكانية تحققها مـرة واحدة في كل الكون. وإلا فإن قوى ميتافيزيقية لا يمكن أن يصــل إليها إدراكنا يمكن أن تقوم بهـذا التشـكيل. وقبـول هـذه الحقيقـة الأخــيرة لا يناســب العلم. لــذلك علينــا أن نبقى على الفرضــية الأولى."11

وبعد هذه الأسطر يعترف ديمروزي بأن الإمكانية الـتي قبلهـا لأنها "أكثر ملائمة للأهداف العلمية" بأنها غير حقيقية:

"إن احتمال توفير سلسلة الحمض الأميني الخاص بـالأنزيم " ytochrome- C" غير ممكن تماما كاستحالة قيام قرد بكتابة التاريخ الإنساني على الآلـة الطابعـة، مـع اعتبـار امتيـاز ا سـتخدام القـرد للوحة المفاتيح بشكل عشوائي."12

إلا أن وجود سلسلة من الحموض الأمينية بشكل منظم ليس كافيا بالنسـبة لجزيئـات الـبروتين الموجـودة في الكائنـات الحيـة. أضـف إلى ذلـك أن كـل حمض من الحمـوض العشـرين المختلفـة الموجودة في تركيب البروتينات، يجب أن تكون يسـارية. كيميائيـا هناك نوعان مختلفان من الحموض الأمينية "يسـارية" و "يمينيـة". الفرق بينهما هو التماثل العكوس بين بنيتيهما الثلاثية الأبعاد، الـتي تشـبه يـدي الإنسـان اليمـنى واليسـرى. أعـداد الحمـوض الأمينيـة المتواجدة في الطبيعة من كلا النوعين متساوية ويمكنها أن ترتبط ببعضـها بشـكل محكم. ومـع ذلـك فقـد كشـفت الأبحـاث حقيقـة مذهلة: وهي أن جميـع البروتينـات الـتي تظهـر في بنيـة الكائنـات الحية مصنوعة من الحمـوض الأمينيـة اليسـارية. لا يوجـد أي بنيـة تحمل ولا حتى حمضا يمينيا واحدا، وإلا كانت عديمة الفائدة.

لنسلم جدلا أن الحياة جاءت إلى الوجود عن طريـق الصـدفة كمـا يـدعي التطـور. في هـذه الحالـة تحـدث الحمـوض الأمينيـة اليمينيـة واليسـارية بأعـداد متسـاوية. السـؤال الآن كيـف يمكن للبروتين أن يلتقط الحموض اليسـارية، وكيـف لا يـدخل أي حمض أمـيني يميـني في عمليـة الحيـاة، أسـئلة بقيت مربكـة للتطـور ومناصـريه. ورد في الموسـوعة البريطانيـة، المتحمس الشـديد للتطور، أن الحموض الأمينية الموجـودة في كـل الأحيـاء الأرضـية وفي لبنات الأسـاس في البـوليمر المعقـد مثـل الـبروتين جميعهـا

بتناظر يساري. ويضيف إلى أنَّ هذا يشـبه رمي قطعـة النقـود في الهواء مليون مرة وفي كـل مـرة تـأتي على وجههـا (طـرّة). وفي نفس الموسوعة يقولون إنه حتى الآن لم يتمكنوا من فهم السبب وراء كون الجزيء يمينيا أو يساريا وأن هذا الخيار يعـود إلى أصـل الحياة على الأرض.13

لا يكفي أن تكون سلاسـل الحمض الأميـني بأعـداد صـحيحة، وبالبنية الثلاثية المطلوبة. بـل يتطلب تشـكيل الـبروتين أن ترتبـط الحموض الأمينية الـتي تملـك أكـثر من ذراع مـع بعضـها من خلال أذرع معينة. مثل "الرابطة الببتيديـة". يمكن للحمـوض الأمينيـة أن تتصل مع بعضها بأنواع أخرى من الروابط، إلا أن الـبروتين يتطلب فقط الحموض الأمينية التي تحمل الروابط الببتيدية.

أظهر البحث أن 50% فقط من الحموض الأمينيـة، المتصـلة بروابط عشوائية، ترتبـط بروابـط ببتيديـة، وأن الحمـوض الأخـرى تتصل مع بعضها بروابط مختلفة غـير موجـودة في الـبروتين. ومن أجل عمل متقن يجب أن تكون كل الحموض الأمينيـة الـتي تـدخل في تركيب البروتين متصلة بروابـط ببتيديـة، وأن تكـون من النـوع اليساري فقـط. بـالطبع ليس هنـاك آليـة تتحكم باختيـار الحمـوض اليسارية وترك اليمينية ولا تحقق شخصي من أن كل حمض أميني يحقق رابطة ببتيدية.

وفي ظل هذه الظروف تكـون نسـبة احتمـالات قيـام جزيئـة بــروتين تحمــل 500 حمض أميــني بــترتيب نفســها بالكميــات والسلاسل المضبوطة ، بالإضافة إلى احتمالات كون كل الحمـوض الأمينية التي تحتويها يسارية وترتبط فقط بروابط ببتيدية كالتالي:

- احتمال كونها بسلسلة صحيحة = 1/20500 = 1/10650

- احتمال كونها يسارية = 1/2500 = 1/10150

- احتمال ارتباطها برابطة ببتيدية = 1/2499 = 1/10150

مجموع الاحتمالات 1/10950 أي احتمال "1" في 10950 .

إن احتمال تشكل جزيء بروتين، كما هو موضح، يحتوي على خمسمائة حمض أميني هي"1" مقسوم على 950 صفر أمامها 1، رقم يستعصي إدراكه على العقل البشري. هذه الإمكانية موجــودة على الورق فقط. أما عمليا فهذا الاحتمال يأخذ درجة الصــفر على أرض الواقع. إن احتمال 1 على 10 50 في الرياضيات يعتبر برتبة احتمال صفر على أرض الواقع.

وإذا كــان احتمــال تشــكل بــروتين يحتــوي على 500 حمض أميني يصل إلى هذه النسبة، فيمكننــا أن نــدفع بحــدود العقــل إلى مستويات أعلى. يوجد داخل جزيئات "الهيموغلوبين"،خضاب الدم، البروتين الحيوي، خمسمائة واربع وسبعون حمضــا أمينيــا أي أكــبر من المثال الســابق. والآن لنتأمــل هــذا: تتضــمن واحــدة من بلايين الخلايــا الدمويــة الحمــراء في جســمك 280 مليــون جــزيء من الهيموغلوبين. إن العمر الافتراضي للأرض لن يكون كافيا لتشكيل بروتينٍ واحدٍ، إذا وضعنا جانبا خلية دم حمراء، عن طريق "التجربة والخطأً". النتيجة هي وقوع التطور بفشل ذريـع عنـد وقوفـه أمـام استحالة نشوء بروتين واحد.

لم يكن باستطاعة التطوريين، بعد معـرفتهم بـالخلاف الكبـير مـع مبـدأ نشـوء الحيـاة عن طريـق الصـدفة، أن يقـدموا تفسـيرا عقلانيا عن معتقـداتهم، لـذلك أخـذوا يبحثـون عن طـرق يـبرهنون فيها أن الخلافات ليست كبيرة.

قاموا بتصميم مخابر للتجـارب لطـرح سـؤال كيـف يمكن أن تنشأ الحياة من مادة غير حية. عرفت أشهر هذه التجارب "بتجربة ميللر" أو " Miller Experiment"، التي قام بهـا البـاحث الأمـريكي ستانلي ميللر عام 1953.

قام ميللر ، في سبيل إثبـات إمكانيـة نشـوء الحمض الأميـني عن طريق الصدفة،بصنع جو في مخبره زعم أنه كان موجودا على الأرض البدائية (والـذي ظهـر في مـا بعـد أنـه غـير حقيقي)، وبـدأ يعمل. المزيج الذي استخدمه في جوه البدائي مكـون من الأمونيـا والميتان والهيدروجين وبخار الماء.

عرف ميللر أنه لا يمكن أن يتفاعـل الأمونيـا والميتـان وبخـار الماء تحت ظروف طبيعية. وكـان يعلم أن عليـه أن يحقن المـزيج بالطاقة ليبـدأ التفاعـل. افـترض أن هـذه الطاقـة كـانت تـأتي من الومضات الضوئية في جو الأرض البدائية، وبناء على هـذا الاعتقـاد استخدم تيارا كهربائيا مصطنعا في تجربته.

قام ميللر بغلي مزيجه حتى درجة 100 درجـة مئويـة وادخـل في الغرفــة تيــارا كهربائيــا. وبعــد نهايــة الأســبوع حلــل ميللــر الكيميائيات التي تشكلت في الغرفـة ولا حـظ أنـه قـد تم تـركيب ثلاثة من الحموض الأمينية العشرين، التي تشكل أساس البروتين.

أثارت هذه التجربة مشاعر التطوريين وبدؤوا يروجون لها على أنها نجاح بارز. وبما أنها أثبتت نظريتهم فقد وجدوا فيها ما يشجعهم على المضي بوضع مخططات جديدة... لقد أثبت ميللر أنه من الممكن أن تنشأ الحموض الأمينية بنفسها. وبناء على ذلك أسرعوا في افتراض الخطوات التالية، حسب مخططاتهم، اتحدت الحموض العضوية فيما بعد في سلاسلها المنظمة عن طريق الصدفة لتشكل البروتينات التي وضعت نفسها داخل غشاء الخلية مثل البنية التي جاءت "بطريقة ما" إلى الحياة وشكلت الخلية البدائية. ومع مرور الزمن تجمعت الخلايا وشكلت العضويات الحية. العماد الأساسي لكل هذا كان تجربة ميللر.

بطلان تجربة ميللر

مضى على تجربة ميللر قرابة نصف قرن تقريبا . وبالرغم من أنها تبدو باطلة من عدة وجوه، إلا أن التطوريين ظلوا يقدمون ميللر ونتائجه عل أنها برهان على إمكانية تشكل الحياة من مادة غير حية. وعندما نقوم بتقييم تجربة ميللر من وجهة نظر نقدية، بعيدا عن النزعة الشخصية للتفكير التطوري، يتضح أمامنا أن الوضع ليس ورديا كما يراه أنصار التطور. وضع ميللر لنفسه هدفا بأن يبرهن أن الحموض الأمينية يمكن أن تكون نفسها في ظل ظروف الحياة البدائية. وتم تشكل بعض الحموض الأمينية. إلا أن الطريقة التي أديرت بها التجربة، تتناقض مع الهدف كما سنرى.

عزل ميللر الحموض الأمينية من البيئة حال تشكلها باستخدامه طريقة تسمى "الفخ البارد".

وفي حال انه لم يقم بذلك فستدمر البيئة التي تشكلت فيها الحموض الأمينية الجزيئات المتشكلة فورا. إن الاعتقاد بأن بعض الآليات المقصودة، التي تتضمن الأشعة فوق البنفسجية ،

العواصف الرعدية، والعديد من الكيميائيات، ونسب عالية من الأكسجين الحر، كانت متكاملة في الظروف البدائية الأرضية اعتقاد فارغ . ودون هذه الظروف المتكاملة،سيكون مصير أي حمض أميني تم تشكيله الدمار.

لم تكن الظروف البدائية الأرضية التي افترضها ميللر في تجربته حقيقية. فقد كان النتروجين وثاني أكسيد الكربون من مكونات الجو البدائي، إلا أن ميللر أهمل هذا واستخدم الميتان والأمونيا كبديل.

ولكن لماذا؟ لماذا يصر التطوريون على القول بأن الجو البدائي كان يحتوي على كميات كبيرة من الميتان CH_4 والأمونيا NH_3 وبخار الماء H_2O؟ الجواب بسيط، وهو أنه لا يمكن بدون أمونيا تركيب الحمض الأميني. تكلم كيفين مكين Kevin McKean عن هذا في مقالة كتبها في مجلة "اكتشف":

"قلد ميللر وأوري البيئة البدائية باستخدامهما خليطا من الميتان والأمونيا. حسب اعتقادهم أن الأرض كانت مخزنا حقيقيا لمزيج حقيقي متجانس من المعدن، والصخور والجليد. إلا أنه، ومن خلال الدراسات الأخيرة، ثبت أن الأرض كانت في تلك الأزمان حارة جدا وأنها كانت تتكون من النيكل والحديد المصهورين. لذلك فإن البيئة الكيميائية لذلك الزمن كانت تحتوي بالدرجة الأولى على النتروجين N_2 وثاني أكسيد الكربون Co_2 وبخار الماء H_2O. ومع ذلك لم تكن ملائمة، كما هما الأمونيا والميتان، لإنتاج جزيئات عضوية."14

بعد فترة طويلة من الصمت، اعترف ميللر بأن البيئة الجوية

التي استخدمها في بيئته كانت غير حقيقية.

• هنـاك نقطة اخـرى هامة جـدا تبطل تجربة ميللر وهي أنه كان هنـاك كمية من الاكسـجين في جو الـزمن الـذي افـترض فيه التطوريون نشوء الحمـوض الأمينية تكفي لتحطيمها كلها لا بد وأن تركيزات الأكسجين هذه أعاقت تشكل الحموض الأمينية. يتعـارض الوضع تماما مع تجربة ميللر التي أهمل فيها الأكسجين نهائيا. ولـو أنه استخدم الأكسجين لتفكك الميتـان إلى ثـاني أكسـيد الكربـون ومـاء، وتحللت الأمونيـا إلى نيـتروجين ومـاء. بتعبـير آخـر، بمـا أن طبقة الأوزون لم تكن قد تشكلت بعد، فإنـه من غـير الممكن لأي جزيء عضوي أن يعيش على وجه الأرض لأنها كـانت غـير محميـة من كميات أشعة فوق البنفسجية الكثيفة.

• بالإضافة إلى الحموض الأمينيـة، أنتجت تجربة ميللر العديد من الحموض العضوية التي تحمل خصائص مؤذية لبنيات ووظائف الكائنـات الحية.. ولو أنه لم يعـزل الحموض الأمينيـة وتركهـا في البيئـة نفسـها مـع هـذه الكيميائيـات فـإن تحللهـا أو تحولهـا إلى مركبات أخرى من خلال التفاعلات الكيميائيـة أمـر محتـوم. علاوة على ذلك تم إنتاج كمية كبيرة من الحموض الأمينية اليمينية. وجود هذا النوع وحـده يـدحض التجربـة، لأن الحمـوض الأمينيـة اليمينيـة وحـدها لا يمكنهـا أن تعمـل في تـركيب الكائنـات الحيـة، بـل إنهـا تعطل البروتين وتجعله دون فائدة إذا ما تواجدت ضمن تركيبه.

النتيجة، هي أن الظروف التي تشكلت فيها الحموض الأمينية في تجربة ميللر لم تكن مناسبة لتواجد أشكال الحياة في الوجود. الوسط الذي تشكلت فيه هذه الحموض كان مزيجا حمضـيا يمكن أن يحطم ويؤكسد أي جزيء مفيد يمكن الحصول عليه.

لقد قام التطوريون أنفسهم بدحض نظريتهم، كما لم يرغبوا، بتقديمهم هـذه التجربـة على أنهـا "برهـان". وإذا كـانت قـد أثبتت شيئاً، فقد أثبتت أنه بالإمكان انتاج حموض أمينية فقـط تحت بيئـة مخبرية مضبوطة حيث تم تنظيم كافة الشروط الضـرورية بشـكل خاص ومتعمـد. أظهـرت هـذه التجربـة أن سـبب الحيـاة (أو حـتى "الحيـاة القريبـة" من الحمض الأميـني) لا يمكن أن يكـون فرصـة غير مقصودة، ولكن إرادة واعية -بكلمة واحدة، أن تكون "خلقا".

لهذا السبب نرى أن كل مرحلة من مراحـل الخلـق تثبت لنـا وجود الخالق وعظمته.

الجزيء المعجز: DNA

لم يتمكن التطوريـون من تقـديم تفسـير مترابـط لوجـود الجزيئات الأساسية في الخلية. علاوة على ذلـك، فقـد قـدم وضـع علم المورثات واكتشاف الحمـوض النوويـة (DNA و RNA) المزيـد من العقبات في طريق التطوريين. في عام 1955 طرح العالمان المختصان في DNA جيمس واطسـون و فرنسـيس كرايـك James Watson, Francis Crick، مذهبا جديدا في علم الأحياء. وجه العديـد من العلماء انتباههم إلى علم المورثات. واليوم وبعـد سـنوات من البحث رسم العلماء الخريطة البنيوية لجزيء DNA.

علينـا هنـا أن نعطي بعض المعلومـات الأساسـية عن بنيـة ووظيفة DNA:

يحتوي جزيء يطلق عليه اسم DNA والـذي يتواجـد في نـواة كل خلايا الجسم والتي تبلغ 100 تريليون خلية، المخطـط البـنيوي الكامـل للجسـم الإنسـاني. المعلومـات الـتي تتعلـق بخصـائص

الإنسان من المظهر الخـارجي وحـتى الأعضـاء الداخليـة، مسـجلة في DNA عن طريـق نظـام تشـفير خـاص. المعلومـات في DNA مشفرة ضمن سلسلة مكونة من أربع عناصر أساسـية خاصـة هي التي يتألف منها الجزيء. هـذه الأسـس هي A,T,G,C وهي الأحـرف الأولية لأسـمائها. تعتمـد كـل الاختلافـات البنيويـة بين النـاس على التغيرات في سلسلة هذه الأسس الأربعة. يحتوي كل جزيء DNA على 3,5 بليون حمض نووي، أي على 3,5 بليون حرف.

تتواجـد معلومـات DNA الـتي تخص عضـواً أو بروتينـاً معينـاً ضـمن مركبـات خاصـة تـدعى "المورثـات". على سـبيل المثـال، تتواجــد المعلومــات الخاصــة بــالعين في سلاســل خاصــة من المورثات، بينما تتواجـد المعلومـات الخاصـة بـالقلب في سلاسـل أخرى مختلفة من المورثـات. تنتج الخليـة البروتينـات باسـتخدامها المعلومات الموجودة في كـل هـذه المورثـات. وتتحـدد الحمـوض الأمينيــة الــتي تــدخل في تــركيب الــبروتين عن طريــق تــرتيب تسلسلي لثلاث حموض نووية داخل DNA.

هنـا وفي هـذه النقطـة، يجب الانتبـاه إلى تفصـيلة تسـتحق الاهتمــام. إن أي خطــأ يمكن أن يحــدث في سلســلة الحمــوض النووية التي تدخل في بناء الخلية يجعل الخلية عديمـة الفائـدة، أو معطلة تمامـا. وإذا علمنـا أن هنـاك 200 ألـف من المورثـات في الجســم الإنســاني، ظهــر لنــا تمامــا اســتحالة نشــوء ملايين من الحموض النووية التي تدخل في تركيب هذه المورثات عن طريـق الصــدفة بالتسلســل الصــحيح. يعلــق التطــوري العــالم فرانــك سالزبوريFrank Salisbury على هذه الاستحالة قائلا:

يحتوي جـزيء الـبروتين المتوسـط على حـوالي 300 حمض أميني. ويحتوي مورث DNA الـذي يحكم هـذا الجـزيئ على 1000

حمض نووي في سلسلته. وبما أنه هناك أربعة أنواع من الحموض النوويــة في DNA فــإن واحــدا مؤلفــا من 1000 رابطــة يمكن أن يتواجد بعدد من الأشكال يبلغ 41000 شكلا.وباستخدام اللوغاريتم يمكننــا أن نجــد أن 41000 =10600. عشــرة مضــروبة بنفســها 600 مــرة، أي 1 وأمامــه 600 صــفر! هــذا الــرقم فــوق تصــورنا تماما.15

الــرقم 41000 يعــادل 10600، نحصــل على هــذا الــرقم بإضافة 600 صــفر إلى "1". وإذا كــان الــرقم 10 وإلى جانبــه 11 صفرا يساوي ترليــون، فــإن رقمــا يحمــل إلى يمينــه 600 صــفر لا يمكن إدراكه.

وجد التطوري التركي الدكتور علي ديمــيروزي نفســه مجــبرا على الإدلاء بهذا الاعتراف:

"في الحقيقــة، احتمــال وجــود معلومــات عشــوائية لــبروتين وحمض نووي (DNA- RNA) احتمال غاية في الضآلة. أما احتمالات نشوء سلسلة لبروتين معين فقط احتمال فلكي."16

بالإضافة إلى كل هذه الاستحالات، فإنه من الصعب أن يدخل DNAفي أي تفاعل بسبب سلسلته الحلزونية المزدوجة. وهذا أيضا يجعل التفكير بأنه أساس الحياة مســتحيلا. علاوة على ذلــك، فــإن DNA لا يمكن أن يتكــرر إلا بمســاعدة بعض الأنزيمــات والــتي هي في واقع الأمر بروتينــات. تــركيب هــذه الأنزيمــات يتم عن طريــق المعلومــات المشــفرة في DNA. وحيث أنهمــا يعتمــدان كــل على الآخر، فإما أنهما يجب أن يتواجدا بوقت متزامن ليحصــل التكــرار، أو أن أحــدهما "خلــق" قبــل الآخــر. يعلــق عــالم الأحيــاء المجهــري

الأمريكي جاكوبسون Jacobson على الموضوع بقوله:

"يجب أن تكـون الاتجاهـات الكاملـة لإنتـاج خطـط الطاقـة واستخراج الأجزاء من البيئـة المتواجـدة، وخطـط سلسـلة النمـو، وخطط الآليات المستجيبة التي تترجم التعليمـات إلى نمـو - كلهـا يجب أن تتواجد بشكل متزامن في تلك اللحظة (عند بدء الحيـاة). هذه المجموعة المركبة من الأحداث لا يمكن أن تتواجد مصـادفة، وهي دائما تعزى إلى تدخل إلهي".17

كتب هذا المقطع بعد سنتين من الكشـف الـذي قـام بـه كـل من واتسون وكرايك فيما يخص بنيةDNA. بـالرغم من كـل التقـدم العلمي بقيت هـذه المشـكلة قائمـة أمـام التطـوريين .بإيجـاز، إن الحاجـة إلى DNA في التكـاثر، وضـرورة وجـود بعض البروتينـات للتكاثر، والحاجة إلى انتاج هذه البروتينات عن حسـب المعلومـات الموجودة في DNA مسألة دحضت فكرة التطور من أساسها.

وقـد شـرح العالمـان الألمانيـان Junker و Scherer جـونكر وشـيرر أن تـركيب كـل جـزيء من الجزيئـات المطلوبـة للتطـور الكيميائي، تحتاج إلى ظـروف واضـحة، وأن إمكانيـة تـركيب هـذه المواد التي لها، نظريا، طرائق اكتساب مختلفة تماما هو صفر:

"حتى الآن لم تُعـرف أي تجربـة يمكن أن نحصـل من خلالهـا على كـل الجزيئـات الضـرورية للتطـور الكيميـائي. لـذلك من الأساسي إنتاج جزيئات مختلفة في أمـاكن مختلفـة تحت ظـروف ثابتة تماما، ثم نقلها إلى مكان آخر لخلقها عن طريق حمايتهـا من عناصر مؤذية مثل التحلل المائي أو التحلل الضوئي".18

باختصـار، فـإن نظريـة التطـور غـير قـادرة على برهنـة أي مراحل تطورية حدثت تدريجيا على المستوى الجزيئي.

ولتلخيص ما أتينا على عرضـه حـتى الآن، نقـول انـه لا يمكن إنتـاج أي حمض أميـني أو أي منتج من منتجاتـه، البروتينـات الـتي تبني الخلية، في مايدعى "البيئة البدائية". ولا تزال عوامـل أخـرى مثـل البنيـة المعقـدة للـبروتين وخصـائص اليسـارية واليمينيـة والصعوبات التي تواجه حدوث الروابط الببتيديـة هي من الأسـباب التي لا تسمح بانتاجها في أي زمن مستقبل عن طريق أي تجربة.

وحـتى لـو سـلمنا جـدلا أن الـبروتين قـد تشـكل عن طريـق المصادفة، يبقى هذا الكلام دون معنى لأن البروتين وحـده ليسـت لديه القدرة على التكاثر. يتوقف تصنيع الـبروتين عـل المعلومـات الموجـودة في كـل من DNA و RNA وبـدونها لا يمكن أن يتكـاثر. تحـدد السلسـلة الخاصـة المتشـكلة من العشـرين حمضـاً أمينيـاً المشفرة داخل DNA بنية كل بروتين موجود داخل الجسم. إلا أنه، وكمـا أوضـح كـل من درس هـذه الجزيئـات، من المسـتحيل لأن يتشكل DNA و RNA عن طريق الصدفة.

حقيقة الخلق

مع انهيار نظرية التطور في كل المجالات بدأت تظهر أسـماء اليوم في علم الأحيـاء المجهريـة تعـترف بحقيقـة الخلـق، وبـدأت تدافع عن فكرة أن كل شيء مخلوق من قبـل خـالق عليم كجـزء من هذا الخلـق المجيـد. هـذه حقيقـة لا يمكن للنـاس أن يتغـافلوا عنها.طور العلماء الـذين يقومـوا بأبحـاثهم بـأعين مفتوحـة نظريـة أسموها "النظام الذكي". العالم ميكائيل بيهي Michael Behe، أحد هؤلاء العلماء، أقر بوجود خالق مطلق ووصف المـأزق الـذي وقـع فيه الذين ينكرون وجوده:

"إن نتيجــة هــذه المحــاولات المتراكبــة للبحث في الخليــة- للبحث في الحياة على المسـتوى الجزيـئي- صـرخة عاليـة وثاقبـة تعلن عن "النظام!" النتيجة لا إبهام فيهـا وهامـة لدرجـة أنـه يجب وضعها كأعظم الإنجازات في تـاريخ العلـوم. هـذا الانتصـار العلمي يجب أن ترتفع له صرخات النصر "يوريكا" من آلاف الحناجر.

ولكن لماذا لم تُفتح أي زجاجة، ولم تصفق الأيادي، وبـدلا عن ذلـك صـمت قلـق يحيـط بالتعقيـد الصـارخ للخليـة. عنـدما خـرج الموضوع إلى العامة بدأت الأقدام تتعـثر والأنفـاس تتسـارع. كـان النـاس يشـعرون بشـيء من الارتيـاح سـراً: بعضـهم كـان صـريحا وواضــحا ولكن بعــد ذلــك أخــذوا يحــدقون في الأرض ويهــزون الرؤوس، ومضى الأمر على ذلك. لماذا لم يقبـل المجتمـع العلمي اكتشافه المدهش بشوق؟ لماذا تم التعامـل مـع النظـام بقفـازات عقلية. البرهان المربـك هـو أن الوجـه الأول للفيـل مكتـوب عليـه نظام ذكي، والوجه الآخر مكتوب عليه الله.19

العديد من الناس لايعرفون أنهم يقبلون فكرة مزيفـة ترتـدي ثوب العلم بدلا من الاعتراف بالله. إن أولئك الـذين لا يجـدون في "الله الذي خلقك من العدم" حقيقة علمية كافية، يمكن أن يؤمنوا بـأن أول حي جـاء إلى الوجـود جـاء عن طريــق عاصـفة رعديـة ضربت "البيئة البدائية" منذ بلايين السنين.

كما ذكرنـا في هـذا الكتـاب،في مكـان آخـر، أن التـوازن في الطبيعة ضخم ودقيق لدرجة لا يتوافق معها ادعـاء عقلي بأنهـا قـد تطــورت مصــادفة. لا يهم كم ســيعاني أولئــك الــذين لا يمكنهم الانعتاق من اللاعقلانية، فآيات الله في السماوات والأرض واضحة تماما ولا يمكن إنكارها.

الله هو خالق السماوات والأرض وما بينهما.

آيات وجوده تشمل كل ما في الكون.

فلاسفة أخطؤوا في إنكارهم لله

رأينا في الفصول السابقة الآيات الواضحة على وجود الله، ولا شك أن ما أتينا على ذكره هنا هو جزء بسيط من وجوده الأبدي.وأينما نظر الإنسان يرى آيات تدل على وجود الخالق.

حسنا،فإذا لماذا لا يزال يوجد الكثير من الملحدين في العالم؟ بل لماذا لا يزال بعض العلماء ملحدون؟ لماذا يصرون على إنكار الله بالرغم من كل الدلائل؟

عند البحث عن إجابات تمثل أمامنا مجموعة من التحيزات الفلسفية في شكل أناس ملحدين - بما فيهم العلماء الملاحدة. بتعريف عام، تدعي الفلسفة، كما تدعي المادية، أن الكون أبدي ويعمل دون الحاجة إلى خالق. وحسب رأي الملاحدة، المادة هي القوة الوحيدة الموجودة، وأن المادة لم تُخلق وانها تعمل بطريقة غير مراقبة وليست بحاجة إلى تدخل خالق. هناك العديد من الفلاسفة الذين تبنوا هذه النظرية عبر التاريخ، بدءًا من معتنقي الوثنية السومرية القديمة، وحتى الفلاسفة الذريون (متبعي المذهب الذري) من الإغريقية القديمة والمذهبيين الماديين في

العصر الحديث. كل هؤلاء ينكرون وجود الله.

إلا أن إنكارهم لا يقوم على أرض صلبة. لقد أقنعـوا أنفسـهم ببساطة أن المادة أبدية واعتنقوا هذا الاعتقاد. قبلوا نظرية التطور بنفس هذه المحاكمة ووضعوها في ملف إيمانهم. وكما قال العالم الأمريكي بيهي عالم الأحياء المجهرية، إنـه عنـدما تمت مجـابهتهم بإثبـات مـدى تعقـد الحيـاة الـتي تستعصـي على النشـوء بطريـق الصدفة، لم يقدموا سوى الصمت والتحول عن الموضوع.

يبدو من هذا الوضـع أن هنـاك تحـيز يـدفع بالنـاس إلى وضـع أنفسهم مع المادية ونتاجها الطبيعي، الإلحاد. ولا يأتي إنكارهم للـه من تقـييمهم للحقـائق الملموسـةمن وجهـة نظـر موضـوعية، بـل بالرغم من هذه الحقائق.

علاوة على ذلك هم يحاولون فرض إنكارهم هذا على العامة.

واضعو "مؤامرات الشيطان"

تشير الحملـة الإعلاميـة المنظمـة ضـد الإيمـان باللـه إلى أن هناك حركات منظمة من قبل مراكز معينة. بتعبير آخر، هناك عـدد من مراكــز القــوى تقــوم بمحــاولات جديــة لخــرق المعتقــدات الدينيةفي المجتمع. ولن يكون غريبا أن اللـه قـد لفت انتباهنـا إلى هذه المجموعةفي القرآن. في إحـدى الآيـات، تنـال مجموعـة من البشـر عقابهـا بنـار جهنم في الآخـرة فيخـاطبون قـوادهم الـذين أضلوهم في الدنيا :

{وقـال الـذين استضـعفوا للـذين اسـتكبروا بـل مكـر الليـل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا..} [سبأ: 33].

هؤلاء الذين يحيكون المؤامرات الشيطانية ويأمرون الآخـرين أن يجحدوا بالله، موجودون في كل زمن عبر التـاريخ تحت أسـماء مختلفة. صفاتهم الأساسية دائما واحـدة . وصـفهم اللـه عـز وجـل في القرآن، فنجدهم في سورة المؤمنون "مترفيهم" (المؤمنون - 64)، وفي سـورة الأعـراف: {الـذين اسـتكبروا من قومـه} [الأعـراف: 75]، ممـا يعـني أن هـؤلاء يتمتعـون بامتيـازات ماديـة واسعة، ويرفلون بالمظـاهر الاجتماعيـة ويتكـبرون ويتجـبرون بمـا لهم من ممتلكات. وبما أن الدين يجردهم من مـا اخـذوه من غـير وجـه حـق، فلا بـد من أن يعملـوا على إلغـاءه. هـذا السـبب وراء تلفيقهم "للمؤامرات الشيطانية الـتي يقـودون فيهـا مجتمعهم إلى الردة.

بالطبع ليس هناك تعريف وحيـد لهـذه القـوى المنظمـة، فهم يتخذون هويات وأشكالاً مختلفة في مجتمعات مختلفة.

على كل حال، إذا نظرنـا إلى تـاريخ القـرون الثلاث أو الأربـع الماضية نأتي على منظمة دولية تتوافق مع الوصف الذي جـاء في القرآن الكريم.

المنظمة هي الماسونية

عند هذه النقطة لا بد من التركيز على المعركة العالمية التي أخذتها الماسونية على عاتقها والتي تم دعمها من قبل مركز قوى

أشار إليه القرآن: اليهود. وبالرغم من أن اليهودية دين سماوي وأن اليهود هم معتنقو هذا الدين، إلا أنهم لعبوا، كما أسلفنا، دورا في الدعاية المعادية للأديان عبر العالم. يعود هذا بالدرجة الأولى إلى البديل الاستبدادي للعهد القديم الذي وضعه الأحبار وللمعتقدات المدسوسة في الدين النقي الذي أنزل على النبي موسى عليه السلام. وبتعطل اليهودية عن كونها ديناً سماوياً بسبب البدائل التي أدخلها الأحبار عليه، اصبحت اليهودية مذهبا عالميا شوفينياً "متعصبا إلى الوطن". أما اليهود المحافظون، الذين يعتبرون الدين مقتصرا عليهم، أخذوا منحى آخر فاعتبروا أن الدينين المسيحي والإسلامي أديان خاطئة لذلك عليهم إبادتها. هذا التداخل الممتع جعل هؤلاء يعملون كقوى تسعى لإزالة كل المعتقدات الدينية من على وجه البسيطة. هذا هو منطق التحالف بين اليهودية والماسونية.

دور الماسونية

أرست هذه المنظمة السرية جذورها في العالم الغربي وانتشرت منه إلى أصقاع العالم الأخرى، وكانت دائما مصدر الأفكار والفعاليات المعادية للدين في كل بلد.

يكشف استقصاء مغلق عن تاريخ الحرب ضد الدين التي تخاض في كل البلدان خلال القرنين الماضيين أن الماسونية كانت دائما مركز هذه المحاولات وتاريخ أوربا جزء واضح من هذا. ولهذا السبب اتخذ قائد العالم الكاثوليكي البابا ليو الثامن موقفا خاصا من الماسونية في منشوره البابوي الشهير عام 1884 "جنس بشري"، الذي وصف فيه أهداف المنظمة كما يلي:

"في وقتنا الحاضر، ومع دعم ومساعدة تجمع يدعى

الماسونية، الذي أصبح له منظمة كبيرة وقوية، اتحدت محاولات أولئك الذين يعبدون قوى الظلام . ولم يعد هناك ضرورة لاخفاء نواياهم المريضة وحربهم ضد الذات الإلهية. إن كل محاولات الماسونية تقود إلى هدف واحد : القضاء على كل الروابط المسيحية الدينية والاجتماعية وإنشاء نظام جديد من القواعد يقوم على مبادئ المادية وأفكارها الخاصة".20

كان هذا التحليل الباباوي صحيحاً تماما ، فعندما نراجع المنشورات الماسونية المعاصرة، نرى أن الهدف الأساسي لها هو القضاء على كل العقائد الدينية في المجتمع. يعلن الماسوني التركي في أحد منشوراته كيف يمكن القضاء على الأديان بترويج العلوم الوضعية في المجتمع:

"في النهاية أريد القول بأن مهمة الإنسانية والماسونية التي تقع على عاتقنا ليست الابتعاد عن العلوم الوضعية والعقل، بل نشرها والترويج إلى أنها السبيل الوحيد للتطور، وتثقيف العامة بهذه العلوم الوضعية. ولإرنست رينان ملاحظة جديرة بالذكر: "إذا كان من الممكن تثقيف العامة وتنويرها بالعلوم الوضعية والعقل، أمكن في النهاية القضاء على الأفكار الدينية الفارغة".21

المقصود هنا بالعلوم الوضعية الفلسفة المادية التي تنكر وجود كل شيء لم يأت عن طريق التجربة والملاحظة. مهمة الماسونية، من جهة أخرى هو فرض هذه الفلسفة على الناس باسم العلم وهكذا يُقضى على المعتقدات الدينية. ولنظرية التطور دور كبير في إنجاح مخطط هذا التجمع، كما هو موضح في المقطع السابق. والماسونية تحمل على عاتقها نشر هذا المذهب في المجتمع.

إن الصلة التنظيمية عامل هام وهو وراء انتشار الفلسفة المادية ونظرية التطور في كل زاوية من العالم.لقد لعبت الماسونية وإفرازاتها دورا هاما في الدعاية التنظيمية التي تم تنفيذها ضد المعتقدات الدينية في القرنين الماضيين. وهذا هو السبب وراء كون مؤسسي الأنظمة الفلسفية المختلفة الذين ينكرون الله ماسونيين.

الفلاسفة الماسونيين

ذكرنا آنفا أن مؤسسي الأنظمة الفلسفية المعادية للدين هم في الواقع جزء من حرب دينية تُخاض ضد الدين، لذلك نجد غالبية الفلاسفة الذين أوجدوا هذه الأنظمة هم جزء من المنظمة الماسونية، التي تقف في مركز هذه الحرب.

وفي هذا السياق نذكر أن أكثر الفلاسفة الذين اجتذبوا اهتماما سريعا هم من العقول الفرنسية، التي حضرت للثورة الفرنسية. إذ لم يكتف هؤلاء بانتقاد السلطات الدينية، بل تعداه إلى عداء للدين يتسم بالعنف.من بين هؤلاء Diderot ديديروت مؤلف "نظام الطبيعة" الذي يشار إليه على انه إنجيل المادية، وفولتير Voltair، الذي كان ماديا متحمسا ومعاديا للدين، والمادي المتطرف مونتيسك Montesquieu وجان جاك روسو Jean Jacques Rousseau الذي قال بدين جديد خاص به؛ وواضعي "الموسوعات" كلهم ملتزمون بالمذهب المعادي للدين. تقول المجلة الماسونية التركية "ميمار سنان" عن هؤلاء الأشخاص:

"تم الترتيب للثورة الفرنسية من قبل الجماعات الماسونية. لقد كتب إعلان حقوق الإنسان الذي يتبنى مبادئ الحرية والمساواة والأخوة بإلهام وتوجيه من الأسياد مثل مونتسكو، فولتير، روسو وديديروت.22

وتقول "المجلة الماسونية" الصادرة عن الماسونيين الأتــراك أيضا:

"إن الدعائم التي قام عليها نظام الضغائن في فرنسا والــذي أشعل فتيل الثورة الفرنسية تم وضعها من قبل مونتسكو، فولتير، روسو والمادي القائد ديـديروت الـذي التـف حولـه الموسـوعيون. كلهم كانوا ماسونيين."23

تطورت المادية والأفكـار المعاديـة للـدين بشـكل متزايـد في السنوات التي تلت الثـورة الفرنسـية ووصـلت ذروتهـا في القـرن التاسـع عشـر. وعنـدما ننظـر إلى قـواد هـذه الحركـة نجـدهم من الماسون.

من الجدير بالذكر أيضا أن هنـاك العديـد من اليهـود بين هـذه الأسماء، وهذا يوضح أن اليهود الذين كانوا دائما حلفاء للماسونية، يجاهـدون في سـبيل إضـعاف الأديـان السـماوية مثـل المسـيحية والإسـلام ويعتنقـون فكـرة الماديــة العالميــة، الــتي تخــدم نفس الغرض على المستوى الفلسفي

وراء صور الاشتراكية

في بافاريا جنوب ألمانيا وجدت عام 1776 جماعـة منحرفـة، مؤسس هذه الجماعة التي تطلق على نفسها لقب "المسـتنيرين" هو الأستاذ في القانون المدعو آدم فايسهاوبت Adam Weishaupt. تتميز هذه الجماعة بأمرين: الأول أنها مجتمـع سـري جـدا والثـاني

أنهـا وضـعت لنفسـها برنامجـا سياسـيا طموحـا جـدا. وتم تحديـد هدفين أساسيين ضمن هذا البرنامج الذي وضعه فايسهاوبت:

1 - إلغاء الملكية والأنظمة الحكومية.

2 - إلغاء كافة الأديان السماوية الموحدة.

وكان موقف هذه الجمعية تجاه الدين شديد العدائية. وحسب رأي المؤرخ الإنجليزي ميشيل

هاوارد، فإن فايسهاوبت كان يعاني من "كره مرضي" للأديان السماوية من أي نوع.24

كان هذا المجتمع في الحقيقة نوعاً من المحافـل الماسـونية، وكان فايسهاوبت من المترفعين في الماسونية، وقـد قـام بتنظيم خطـوط طويلـة في الأسـلوب التنظيمي التقليـدي للمحافـل الماسـونية. ونمـا المتنـورون بسـرعة مذهلـة. وفي عـام 1780 وبالاشتراك مع بـارون فـون كنيغـه Baron Von Knigge، واحـد من أكـبر السـادة في المحافـل الماسـونية الألمانيـة بـدأت قـوة هـذه الجمعية تتزايد بشكل كبير.

كان فايسهاوت وكنيغه يخططان لأرضية ثورية اشتراكية بكل معانيها ما عدا اسمها في ألمانيا ، وعنـدما اكتشـفت الحكومـة مـا يخططـان لـه، وجـدا أنـه من الحكمـة أن يقومـا بحـل المنظمـة. وضُـمت فعالياتهـا إلى محـافلهم الماسـونية المنتظمـة. كـان هـذا

الاتحاد عام 1782.

وفي وقت مبكر من القرن التاسع عشر قام مجتمع آخر في ألمانيا يحمل نفس أفكار "المستنيرين" وأطلق على نفسه اسم "مجتمع الشرفاء". ومع الزمن تغير اسمه إلى "جمعية الشيوعيين". أراد رئيس هذه الجمعية وضع برنامجٍ سياسيٍ لهذه المجموعة، وأول اثنان تم استدعاؤهما لكتابة هذا البرنامج كانا شيوعيين متشددين هما: كارل ماركس Karl Marx وفريدريك إنجلز Fredrik Engels! كتب هذان الشيوعيان البيان الرسمي الشيوعي في تعليمات جمعية الشيوعيين هذا. إحدى العبارات المشهورة المضللة في هذا البيان عبارة "الدين أفيون الشعوب"، ويدّعي البيان أن إلغاء المعتقدات الدينية من متطلبات "المجتمع اللاطبقي" المثالي، الذي وضع على أنه أمل الإنسانية الوحيد في الخلاص. يجب الانتباه إلى أن كلاً من ماركس وإنجلز من أصل يهودي.

واستمرت هيمنة اليهود والماسون في الحركة الشيوعية في السنوات التالية. يمكن ذكر بعض أسماء القادة منهم:

· فريديناند لاسل: كان لاسل الصديق الأقرب إلى ماركس دافع عن التسلط الشيوعي الثوري.

· فيكتور آدلر: باعتباره اليد اليمنى لإنجلز، قام آدلر بالتبشير بالشيوعية. أصبح ابنه فريدريك آدلر قائد الحزب الشيوعي النمساوي.

- موسى هيس: ولد في عائلة يهودية محافظة، كان شـيوعيا وصديقا حميما لماركس، كما كان صهيونياً نشـيطاً. تـزعم الحركة الصـهيونية في أوربا من خلال كتابه "روما والقــدس" وعمل على تأسـيس دولة يهودية في فلسـطين. كما كـان مـدافعا مخلصا عن الداروينية طوال حياته.

- جيـورجي لوكـاكس: من عائلة يهودية ثرية كتب العديد من الكتب يــدافع بها عن الشــيوعية. ســاعد في انتشــار المــذهب الشيوعي بين الشبان.كان أحد الشخصيات القيادية الـتي أوصـلت الشيوعية في هنغاريا إلى السلطة.

- فلاديمير لينين: يهودي، أصبح كغيره من القـادة البلشـفيين في روسيا، مؤسس أكثر الأنظمة دموية واستبدادية في العالم.

- هيربرت ماركوس: من أبناء إحدى العائلات اليهوديـة، أعـاد ماركوس تفسير الماركسية وأعد للاضطراب الطلابي الـذي حصل في عــام 1968.ــ اســتحث الحركــات اليســارية الجامعية الــتي انتشرت عبر العالم وطور المذهب الفوضوي، الذي سـبب ولا زال يسبب موت الكثير من الشبان.

الفلسفة ومفكرتها الخفية

عندما ننظر إلى تاريخ الفلسفة، نجد فلاسفة آخرين ملحــدين ومعــادين للــدين يمكن تميــيزهم بهــويتهم الماســونية. من بينهم مفكرون مثل دافيـدهوم، هولبـاخ، شـيلينغ، جـون سـتيوارت ميـل، أوغست كومن، ماركيز دو ساد، واشتراكيون مثل إميــل دوركــايم،

فريدينانـد تـونيس، هربـرت سبنسـر، سـيغموند فرويـد، هـنري بيرغسون وإريك فروم. كل هؤلاء من أصل يهودي، وكلهم ناضـلوا من أجل إبعاد الناس عن الدين وإنشاء نظام اجتمـاعي وعقلاني لا يمت إلى الـدين بصـلة. لا ضـرورة للقـول بـأن تشـارلز داروين ونظرياته كانت موضع اهتمام كبير بين هـؤلاء الأشـخاص. من أهم النقاط التي تجب ملاحظتها هنا، هي أن الفلسفات الماديـة والـتي تم انتاجها من قبل مفكريها، والآلاف من أشـباههم، تخـدم مصـالح سياسية واجتماعية معينة. وكمـا أسـلفنا، فـإن أهم الأسـباب الـتي تكمن وراء إنكار الناس لله هي عدم ارتياحهم للدين، الـدين الـذي يعتبر النتيجة الطبيعية للإيمان بالله.حاول هؤلاء الأشخاص الالتجـاء إلى الإلحاد لدعم أنفسهم بعد ما انفلتوا من الدين لأنه يتعارض مع مصالحهم أو مصالح الهيئات التي يمثلونها.

لهذا السبب لا يمكن لهؤلاء الأشخاص أن يـروا آيـات اللـه، أو بـالأحرى ليسـت لـديهم الرغبـة في أن يـروا. ناضـل هـؤلاء لمنـع الإيمان بوجود الله ونشـروا هـذا الإلحـاد عـبر المجتمعـات بشـكل عام. وفي النهاية، فإن الذين ينسون الله هو أيضا ينساهم (التوبــة 67).

لـذلك يمضـي بعض الأشـخاص حيـاتهم دون أن يـذكروا اللـه تسـبيحا ظنـا منهم أنـه مفصـول عنهم. إلا أن الإنسـان يجب أن لا يُخدع بهذا "الحشد الفـارغ"، لأن اللـه أخبرنـا في القـرآن أن أكـثر الناس لا يؤمنون (سـورة الرعـد -1).وتشـير هـذه الآيـة أيضـا إلى نفس الموضوع:

{وإن تطـع أكـثر من في الأرض يضـلوك عن سـبيل اللـه إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون} [الأنعام: 116].

(لمزيـد من المعلومـات انظـر: الماسـونية الجديـدة لهـارون يحيى)

أضرار نموذج المجتمع

الذي لا يؤمن بالله

قال الله انـه خلـق الإنسـان حسـب نظـام معين في الكـون: {فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله الـتي فطـر النـاس عليهـا..} [الروم: 30]. ويقوم تنظيم الإنسان على عبوديته للـه وإيمانـه بـه. وحيث أنه لا يمكن للإنسان أن يحقق رغباته وحاجاتـه اللامحـدودة، وجب عليه أن يتواضع أمام الله وأن يُقبل عليه.

وإذا ما عاش الإنسان على هذا الأساس، لقي السعادة والثقة والأمان، وإذا أدار ظهره بعيدا عن الله عاش حياة البؤس والشقاء والأحزان والخوف.

ومـا ينطبـق على الإنسـان ينطبـق على المجتمـع، فـإذا كـان المجتمع مكونا ممن يخافون الله أصبح عادلا آمنا وسعيدا. ولا شك أن العكس صحيح. فإذا كان المجتمع لا يعرف الله فإن نظـام هـذا المجتمع محطم من أساسه وفاسد وبدائي.

وعند التأمل بأوضاع المجتمعات البعيدة عن الله، تظهـر هـذه الحقيقة بجلاء. إن إلغاء المفهوم الأخلاقي ونمو مجتمعـات فاسـدة

تماما هو أحد أهم النتائج التي يفرزها الفكر اللاديني. إن الحضـارة التي تعتمد على مخالفة الروابط الأخلاقية والدينية والتوجـه الكلي إلى إشباع رغبات الإنسان، هي حضارة ظالمـة في كـل المفـاهيم العالميـة. في ظـل نظـام كهـذا، يتم التشـجيع على الانحرافـات الجنسية وإدمان المخدرات. وفي النهايـة ينمـو مجتمـع مجـرد من الحب الإنساني، أناني، جاهل، ضحل وخال من المشاعر.

من المؤكد أنه لا يمكن الاحتفاظ بالأمـان والحب والأمـل في المجتمعات التي يعيش فيها الناس فقط من أجل إشباع رغبـاتهم. ففي مجتمعات كهذه يعيش البشر على أساس المصالح المتبادلـة التي تحكم العلاقات، ويسود انعدام الثقـة. وعنـدما لا يكـون هنـاك من سبب يدفع الإنسان لأن يكون صادقا وشريفا وأمينا، فلا شـيء يقـف في وجـه النفـاق والأخـوة الزائفـة والخيانـة. أعضـاء هـذه المجتمعات اتخذوا الله وراءهم ظهريـا (هـود 92) وهم لا يعرفـون الخـوف من اللـه. وبمـا أنهم غـير قـادرين على "تقـدير اللـه حـق قدره"، فليس لديهم فكرة عن اليوم الآخر ويوم الحساب. بالنسبة إليهم، اليوم الآخر ليس إلا ذكـرا في الكتب المقدسـة. لا يفكـرون أنهم سيقفون بين يدي الله بعد الموت ليُحاسبوا عن كـل الـذنوب التي ارتكبوها خلال حياتهم في الدنيا. أو أنهم سيخلدون في عذاب جهنم. وفي حال فكروا بهذا فلا بـد أنهم سـيدخلون الجنـة بعـد أن "يسددوا حسـاب أخطـائهم"، كمـا جـاء في الآيـة الكريمـة: {ذلـك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أيام معدودات وغـرهم في دينهم مـا كانوا يفترون} [آل عمران: 24].

وهكذا يقضون حياتهم يفعلون ما يحلـو لهم لإشـباع حاجـاتهم ورغباتهم.

تسفر هذه الحالة، بالطبع عن انحلال أخلاقي مثل ذلـك الـذي نراه في العديد من مجتمعات اليوم. حسـب محـاكمتهم يعتقـدون:

"أنهم لن يأتوا إلى العالم سوى مرة واحدة، وأنهم لن يعيشوا أكثر من 50-60 عاما فليأخذوا من الدنيا قدر ما يستطيعون". النظام الفكري الذي تقوم عليه هذه المحاكمة الخاطئة، سيحمل معه كل أنواع الظلم والبغاء والسرقة والانحلال الأخلاقي والجريمة والاحتيال. وعندما يفكر الإنسان أنه يعيش لإشباع رغباته فقط، فكل شيء بعده - بما فيه عائلته وأصدقائه- له أهمية ثانوية. أما أفراد المجتمع الآخرون فليس لهم أية أهمية.

يمنع انعدام الثقة بين الأشخاص في بنية المجتمع القائم على علاقات المصلحة إلى حد بعيد الشعور بالأمن على كلا المستويين الاجتماعي والفردي ويعيش الناس فيه بقلق دائم وشك ومشاكل. ويعيش الناس بخوف وخطر دائم لا يعرفون من أين وممن يمكن أن يأتيهم الشر. ويجعل الشك والقلق حياتهم مجردة من معاني السعادة. وفي مجتمع تُهمل فيه كل أنواع القيم الأخلاقية، تصبح نظرة الناس للمفاهيم مثل الأسرة والطهارة والأمانة في خطر، لأن الناس لا يخافون الله.

في هذه المجتمعات لا تعتمد علاقات الناس فيها على الحب والاحترام المتبادلين.، ولا يظهرون أي نوع من المواقف المحترمة تجاه بعضهم الآخر طالما أنه ليس هناك سبب ملح.. في الحقيقة هم على صواب في محاكماتهم الجاهلة لتصرفهم بهذه الطريقة. لقد تعلموا خلال حياتهم أنهم تطوروا عن الحيوانات وأن أرواحهم ستذهب إلى الأبد بعد موتهم، فلماذا يحترمون جسدا منشؤه قرد سيدفن تحت الأرض ولن يروه مرة أخرى. فحسب منطقهم الفاسد " كل الآخرين، كما هم أنفسهم سيموتون وتدفن أجسادهم وتتلاشى أرواحهم ، فلماذا يهتمون بصنع الخير للآخرين، ويضحون بأنفسهم؟". تخترق هذه المفاهيم لا شعور كل إنسان لا يؤمن بالله وبالتالي باليوم الآخر. لا يوجد مكان في المجتمعات التي لا تؤمن بالله للأمن والسعادة والثقة.

ليس الهدف من كل ما ذكرناه أن نقـول: "أن التحلـل مصـير المجتمعات الـتي لا تـؤمن باللـه، ولـذلك عليهم أن يؤمنـوا باللـه". يجب الإيمان بالله لأنه موجود وكل من ينكر الله يرتكب إثما كبيرا أمام الله. هدفنا من القـول بـأن المجتمعـات الـتي لا تـؤمن باللـه مجتمعـات فاسـدة هي التأكيـد على أن مفـاهيم هـذه المجتمعـات الأساسية خاطئة. والمفاهيم الخاطئة تقود إلى عواقب وخيمة. فلا بد للمجتمعات التي تنكـر وجـود اللـه من أن تعـاني أسـوأ النتـائج. هذه النتائج تستحق الاهتمام لأنها تظهـر الخطـأ الـذي تقـوم عليـه هذه المجتمعات.

الخاصية المشتركة بين هذه المجتمعـات أنهـا خُـدعت جُملـةً. وكمــا ورد في الآيــة الكريمــة: {وإن تطــع أكــثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعـون إلا الظن وإن هم إلا يخرصـون} [الأنعام: 116]، فـإن معظم المجتمعـات الـتي تشـترك بخصـائص عامة تشكل جمهورا يزيد من الكفـر الموجـود. ويصـف اللـه هـذه المجتمعات التي تنكر وجوده واليوم الآخر في القـرآن بالجـاهلين، بالرغم من أن أفراد هذه المجتمعـات قـد تقـوم بدراسـات علميـة وفلسفية وتاريخية وما إلى ذلك من علوم ، إلا أنهم يفتقدون حس التعرف على قوة وعظمة الله وفي هذا هم جاهلون.

وبمــا أن أفــراد هــذه المجتمعــات غــير مخلصــين للــه، فهم يبتعدون عن سبيله بطرق مختلفة. يتبعون العبـاد الجاحـدين باللـه، كمـا هم أنفسـهم، يتخـذونهم مثلا ويعتنقـون أفكـارهم. وكمـا هـو مألوف تنتهي المجتمعات الجاهليـة إلى مجتمعـات مغلقـة تتسـبب في ازديـاد نسـبة العمى لـديها. وتصـبح أكـثر ابتعـادا عن العقـل والوعي. وكما قلنا، فإن الملاحظ في أفراد هـذه المجتمعـات أنهـا تعمل بانسجام مـع المـذاهب المعاديـة للـدين. في صـورة قرآنيـة يخبرنا الله عز وجل في إحدى الآيات أن الدمار مصير هذه الحيـاة

التي تقوم على أسس فارغة وفاسدة:

{أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خـير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار بـه في نـار جهنم واللـه لا يهدي القوم الظالمين} [التوبة: 109].

هناك أيضا نقطة أخرى يجب أن نتذكرها: أن كل إنسان وكـل مجتمع لديه الفرصة للتخلص من هذه الطريقة في الحياة وفلسفة الجهل. لقد أرسل الله لهم الرسل ليعلموهم وينذروهم عن وجــود الله واليوم الآخر ويخبروهم عن معنى الحياة . ومـع رسـله أرسـل الله الكتب الصـحيحة الـتي تجيب عن كـل الأسـئلة الـتي يطرحهـا الناس. هذا قانون الله الموجود منذ الأزل. في يومنا هـذا، القـرآن هو كتاب كل الناس يبين لهم الطريق الصحيح ويبعدهم عن طريق الظلمة. يحاسب الناس على اختياراتهم . قالت لهم رسـلهم الـتي جاءتهم بالكتب:

{قل يا أيهـا النـاس قـد جـاءكم الحـق من ربكم فمن اهتـدى فإنما يهتـدي لنفسـه ومن ضـل فإنمـا يضـل عليهـا ومـا أنـا عليكم بوكيل} [يونس: 108].

مهم

بعد أن ذكر لي كل ذلك، وذكر استحالة أن يبيع علمه بالمـال، رحت أبحث عن عضو آخر من الـذين سـجلتهم في دفـتري، وكـان عالما بيولوجيا كبيرا، وكانت له صداقة طويلة بالكيميائي والإحيائي الأمريكي [ستانلى ميلر] الذي اشـتهر بسـبب دراسـاته في مجـال التولد التلقـائي، وبالتحديـد في تجربتـه الـتي حـاول أن يثبت فيهـا إمكانية إنشاء مركبات عضوية من خلال عمليات كيميائيـة بسـيطة من مواد غير عضوية.

كان اسمه [جيفري بادا][1]، وقد ذكر لي عند لقائي به، أنه الطالب الثاني الذي تخرج على يدي [ستانلي ميلر]، وأنه كان قريبا جدا منه، بل كان معينا له في كل التجارب التي قام بها.

بل أخبرني فوق ذلك كله أنه بعدما مات ميلر بالسكتة الدماغية عام 1999، ورث صناديق من العينات التجريبية من معمله.. وذكر لي بحماسة أنه بينما كان يقلّب فيها وجد مكتوبا على إحداها بخط ميلر [عينة التفريغ الكهربائي]

لقد قال لي، وهو لا يكاد يملك نفسه من الفرح: لقد كانت هذه هي التجارب الأصلية التي قام بها أستاذي وصديقي [ستانلي ميلر] عام 1953 وهو في جامعة كولومبيا.. لقد كانت صناديق العينات محفوظة جيدًا ومُعَلَّمة بحرص مثلما وصفها ميلر في مذكراته..

قلت: هلا شرحت لي بتفصيل ماذا فعل أستاذك وصديقك.. وهل يمكن الاستفادة من تجربته في إثبات عدم حاجة صدور الحياة إلى الخالق؟

قال: مع كوني تلميذا وفيا لأستاذي وصديقي [ستانلي ميلر]، ومع إعجابي الشديد بشخصيته واجتهاداته إلا أنه من الصعب علي أن أحكم هذا الحكم.. ذلك أن الهدف الذي انطلق منه في إجراء تجربته لم يكن هدفا علميا، بقدر ما كان هدفا ميتافزيقيا، والأهداف الميتافزيقية أقرب إلى الفلسفة منها للعلم.

سكت قليلا، ثم قال: لعلك تعلم أن الروسي الملحد [الكسندر ايفانوفيتش أوبارين] كان أول من أخرج فرضية [الحساء البدائى] إلى الوجود، وقد ذكر فيها أن الحياة بدأت فى وقت مبكر من حياة الأرض في محيطات مائية، نتيجة لمزيج من مواد الكيميائية، وبعض المركبات العضوية الأولية من الغلاف الجوي، ونوعا من الطاقة.

قلت: لا يهم الهدف.. بل تهم النتيجة، فهل استطاع أن يثبت

1() انظر مقالا بعنوان: اعادة تحليل تجارب ستانلي ميلر المنسية عن نشأة الحياة!، من موقع: أنا أصدق العلم.

إمكانية نشوء الحياة من تلك التجربة التي قام بها؟

قال[1]: من الصعب قول ذلك.. فالحياة شأن آخر تماما.. كل ما قام به أستاذي ميلر أنه حين كان طالب دراسات عليـا بجامعـة شيكاغو عـام 1953 حـاول أن يحضـر واقعـا يحـاكي فيـه ظـروف الأرض فى وقت مبكـر.. وباسـتخدام خليـط من المكونـات الـتي ادعى أنهـا كـانت تمثـل القشـرة الأرضـية قـديما وهى: (المـاء، الميثان، الأمونيا، الهيدروجين) وتعريضها لطاقه كهربيـة ممثلـة فى صعقات تمثل طاقة البرق.

قلت: فما كانت نتيجة تجربته؟

قـال: لقـد كـانت النتيجـه هي أنـه حصـل على مـادة عضـوية ممثلة فى أحمـاض أمينيـه بسـيطة، وافـترض أنـه كـانت الخطـوة الأولى للحياة.. فضلا عن كمية من القطران كناتج بلمرة.

قلت: هذه تجربـة مهمـة.. ويمكن أن تكـون منطلقـا لأبحـاث أخـرى تسـتطيع أن تواجـه الرؤيـة الإيمانيـة الـتي تفـترض وجـود الخالق.

ابتسم، وقـال: لقـد كـان هـذا هـو الموقـف الـذي وقفـه كـل الماديين عندما سمعوا بالتجربة، أو أعادوا تكرارها.. ذلك أنها كانت بمثابـة قشـة الغريـق للفكـر الالحـادي، حيث تم الاحتفـاء بهـا، واعتمادةا كنموذج عملى لمحاكاة ظروف خلق الحياة الأولى.

قلت: هي بالفعل كذلك.. فلم هذا التشاؤم؟

قـال: أنـا لا أتفـاءل، ولا أتشـاءم، ولكـني أحـترم عقلي.. فالتجربة كـانت مليئـة بـالثغرات الـتي تجعـل منهـا مجـرد محاولـة يائسة، لا قيمة لها من الناحية العلمية.

أول الإشكاليات التي تطرحها التجربـة، والفرضـية المرتبطـة بها هي أن معطيات الافتراض والتجربة كانت انتقائيه بامتياز، وغير ممثلة للظروف الحقيقيه لجو الأرض البدائى.. ذلك أن [أوبـارين]،

1() انظر: نظرية التطور وحقيقة الخلق، أحمد يحيى ، وكتب هارون يحي في الـرد على نظرية التطور.

وهو أول من اقترح جو الأرض البدائية المختزل المكون من الماء، والميثـان، والأمونيـا، والهيـدروجين، أتي من كونـه مختصـا بعلـوم الكيميـاء، ولـذلك راح يختـار هـذه العناصـر بالضـبط، وليس من معطيات حقيقيه متوفره عن جو الأرض البدائى.

وبناء على ذلك راح يقوم بتوليـف المركبـات الأوليـة القـادره على إنتـاج حسـاء عضـوي، مـع ضـرورة اسـتبعاد الأكسـجين أوالمركبات المؤكسدة من الخليط.

قلت: هل تقصـد أنـه لم يكن هنـاك أي حسـاء بـدائي للحيـاة على الأرض؟

قال: أجل.. فبعـد بعـد مضـي سـنوات من تجربـة ميلـر الـتى حاكى فيها ظروف أوبـارين المقترحـه، بيّن التحليـل الجيوكيميـائى الدقيق أن الجو الذي ساد على الأرض لم يكن مختزلا كما افترض لتكوين الحساء البدائى للحياة، وأن مثل هذه الأجواء المختزلة، إذا كانت موجودة فى أي وقت مضى، فإنها لم تدم طويلا.

بالإضافة إلى ذلك فإن الغلاف الجوى الذى تمت محاكاته فى التجارب كتمثيل لنشأة الحياة كان يتألف في المقام الأول من غاز الميثان، والأمونيـا، ومسـتويات عاليـة من الهيـدروجين.. والعلمـاء الآن يجمعون على رفض ذلك السيناريو.

فالجيوكيمائيين اليـوم يعرفـون أن الغلاف الجـوي للأرض في وقت مبكر لم يحتوي على كميات ملموسـة من هـذه المكونـات.. بل إن الغلاف الجوي للأرض في وقت مبكر كان مختلفا جـدا عمـا افترضه ميلر..

بل إنه لا أحد يعرف الأساس الذي استند إليه ميلر فى تقـدير تلك المكونات على أنها محاكاة فعلية لجو الأرض وقتها.. فالعلمـاء يتفقون على أن المصدر الرئيسي للغازات هو البراكين، والبراكين ينبعث منهـا أول اكسـيد الكربـون، وثـانى اكسـيد الكربـون، والنيـتروجين، وبخـار المـاء، ومن المـرجح لـدى العلمـاء أن هـذه الغازات كـانت وفـيرة جـدا في الغلاف الجـوي في وقت مبكـرمن حياة الأرض.

بالإضافة إلى ذلك، فإن تلك التجـارب كـانت تفـترض الغيـاب الكلى للأكسجين، باعتبـاره عـدوا للتجربـة، مـع أنـه كـان متواجـدا بوفرة فى جو الأرض البدائى.. فوجود الأكسـجين الحـر من شـأنه أن يدمر أى مادة عضوية ناشئه، ولذلك تجنب ميلر تلك الإشـكاليه باستبعاد الأكسجين من جو التجربة.. وهذا خلاف ما كان واقعا فى جو الأرض البدائي.

قلت: هل ما تقوله صحيح.. وكيف غاب عنه هذا؟

قال: ما أسهل أن يغيب عنه.. لأن هدفه لم يكن الوصول إلى الحقيقة العلمية، وإنما كان الوصول إلى الحقيقة الميتافزيقية..

فالباحثون الآن يعتقدون أن غاز الأكسجين كان موجـودا على الأرض في وقت مبكـر، لأن غلافهـا احتـوى على الكثـير من بخـار الماء، والإنحلال الضوئي للمياه الناجم عن الأشعة فوق البنفسجية في الغلاف الجوي العلوي سيكون مصدرا رئيسيا للأكسـجين الحـر في الغلاف الجوي، حيث أنتج الأكسجين بمعـدلات مرتفعـه للغايـة على الأرض البدائيـة، لعـدم وجـود درع الأوزون، والمصـنوع من الأكسجين، لمنع ضوء الأشعة فوق البنفسجية.

وقد كشف تحليل أقـرب عصـور مـا قبـل الكمـبري للصـخور الرسوبية على وجود الأكسجين الحر، وبمستويات مماثلـة لمـا هـو عليه اليوم.. كما نشرت مجلة العلوم [عدد ديسـيمر 1995] مقـالا لجون كوهين يظهر ذلك بوضوح، ويؤكد مخالفة جو الأرض البدائى لما افترضه ميلر في تجربته.. وذلك ما يؤكد عدم صلاحيتها.

بل إن الأمر ازداد تأكيدا مع الاكتشافات الجيولوجية الحديثـة، فقـد تم العثـور فى طبقـات الأرض القديمـة على المعـادن المؤكسدة (الهيماتيت) في وقت مبكر قبل 3.8 مليـار سـنة، وهـو دليل لا يقبل التشكيك على وجود الأكسجين بمعدلات مرتفعه جـدا كما هى الآن.

وهكـذا كـان الأمـر مـع الدرسـات والتأكيـدات من قبـل الجيوكيميـائين، والـتي ذكـرت أن الظـروف المؤكسـدة، والتمثيـل الضوئى تواجدا على كوكب الأرض منذ أكـثر من 3،7 مليـار سـنة،

وأن الحياة كانت موجودة تقريبا في أقرب وقت كانت الأرض قادرة على دعم ذلك.

وهكذا راحت تتوالى التأكيدات العلميه الدالة على وجود الأكسجين الحر فى غلاف الأرض بعد وقت قريب جدا من تشكلها، حيث تم اكتشاف وجود نطاقات واسعه من الكائنات الحية المعتمده على التمثيل الضوئى لحياتها.

قلت: وهل ترى أن هذه الاكتشافات كافية وحدها لتهديم النظرية؟

قال: أجل.. فالمفروض في أي تجربة علمية وفق المنهج العلمي مراعاة جميع الشروط المرتبطة بالتجربة، حتى تصح نتائجها، وإلا فإن إجراء أي تعديل عليها سيؤثر لا محالة في مصداقية النتائج.

قلت: فقد كان اكتشاف وجود الأكسجين في تلك المرحلة وحده ما تسبب في تهدم الأسس التي تقوم عليها النظرية؟

قال: أجل، فيكفي إثبات وجود الأكسجين لتنهد النظرية، ذلك أن تجربة ميلر ويوري وشبيهاتها لايمكن أن تتم فى مجال يحتوى على الأكسجين كما أكد ميلر ذلك بنفسه، وهذا يناقض ما كانت عليه طبيعة الغلاف الجوى فى تلك العهود المبكرة.

قلت: ولكن ألا يوجد خلاف بين الباحثين في هذا حتى يمكن الاستفادة منه؟

قال: بلى.. يوجد من يدافع عن نموذج ميلر، ولكن من دون الاعتماد على أي دليل حقيقى.. وأغلب علماء الجيولوجيا اليوم يؤكدون تواجد الأكسجين بنفس نسبة وجوده اليوم فى الغلاف الجوي، بل وفى أعماق البحار قبل 3.46 مليار سنه من هذا الوقت.

بالإضافة إلى هذا، فقد غاب عن بال المدافعين عن نموذج ميلر، والقائلين بغياب الأكسجين من جو الأرض المبكر حقيقة مهمة وخطيرة جدا، وهي أنه إذا لم يكن هناك أكسجين فى ذلك

الوقت من عمر نشـوء الحيـاة فلن يكـون هنـاك أوزون، لـذلك لن تكون هناك حماية من الأشعة فـوق البنفسـجية الـتى تنفـذ لتـدمر المواد الكيميائية الحيوية المتكونه فى الحساء البدائى المزعوم.

***

على الرغم من كون حديث [جيفري بادا] يتنـاقض تمامـا مـع مبتغاي، لكن صدقه وإخلاصه وموضوعيته في طرح فكرته، والــتي يختلف بها مع نفسه، ومع أستاذه.. كل ذلك جعلني أحاول التعرف على كل التفاصيل، وبكل دقة وموضوعية.

قلت: أظنـني اقتنعت بهـذا، فـدعنا منـه، وحـدثنا عن الحسـاء البدائي.. وهـل هنـاك أدلـة جيوكيميائيـة على وجـوده في أي وقت مضى على الأرض؟

قـال: إذا كـان هنـاك فى أي وقت مضـى حسـاء بمركبـات عضوية أوليـة، فلابـد أن تحتـوي الصـخور الرسـوبيه القديمـه على علامات واضحه وطبقـة كبـيرة بسـمك يـتراواح بين (1 ـ 10 مـتر) من القطـران تطـوق الأرض لأنهـا من نـواتج التفاعـل الاولى كمـا بينت تجارب انتـاج الأحمـاض الأمينيـة.. ولكن ليس هنـاك أى أدلـه جيولوجيه كشفت عن هذه الطبقة.

بل لم يُكتشف أي دليل جيوكيميائى على أنه كان هناك حساء فى عمر الأرض المبكر، مع أنـه كـان لابـد للصـخور الرسـوبيه فى تلك الفترة الزمنية أن تحتوي على نسبة كبيرة بشكل غير اعتيادي من الكربون أو المواد الكيميائية العضوية لكن هذا لم يحدث.

وكذلك لا توجـد أى أحـافير يمكن أن يـدل تحليلهـا الكيميـائى على خطوات ما قبل الحياة، وخطوت ظهـور الحيـاة على الأرض، وهـذا يـؤدي بنـا إلى نتيجـه واضـحه وهي أن كـل مـا يطـرح من سـيناريوهات وتوقعـات ليسـت سـوى مجـرد فـروض بدائيـه غـير مدعمة بأي دليل، بل إنها متناقضه مع الشواهد العلمية.

قلت: ولكن ما هي الأسـباب الـتي جعلت العلمـاء يتمسـكون بهذه التجارب، وبالفرضيات المرتبطة بها مـع كـل هـذه المشـاكل

المنهجيه القاتله فى أصل الاستدلال بها؟

قـال: لعـل أهم تلـك الأسـباب الـتي جعلت الكثـير يتمسـك بتجارب ميلر ومثيلتها على إمكانية نشأة الحياة على الأرض بطرق طبيعية عشوائيه هو عدم وجود بديل مقترح أفضل منهـا، وهـو مـا أقره عـالم الأحيـاء التنمويـة [جوناثـان ويلـز] فى كتابـه [أيقونـات التطور]، حيث قال: (نحن لا زلنا جاهلين جهلا عميقا بكيفيـة نشـأة الحيـاة، ومـع ذلـك لازالت تجربـة ميلـر أوري تسـتخدم كأيقونـه للتطور، لأنه لم يظهر شيء أفضل منها.. وبدلا من قول الحقيقـة، أعطينا انطباعا مضللا أن العلماء أثبتوا تجريبيا الخطـوة الأولى في أصل الحياة)

سكت قليلا، ثم قال: لكن مع ذلك، ونتيجـة للتشـكيك العلمى الواضـح في تلـك الفرضـية ومـا ارتبـط بهـا من تجـارب، وبعـد مـا يقارب القـرن من اعتمـاد نمـوذج الحسـاء البـدائى، تخلى جمهـور العلمـاء عن التمسـك بهـا، لتهافتهـا وعـدم صـلاحيتها.. بـل اضـطر أنصار التطور والنشأة العشـوائيه إلى البحث عن سـيناريو بـديل.. حتى صرح [نيك لين] وفريقه بجامعة لندن عام 2010، بأن نظرية الحساء البدائي لا تصمد، وأنها صارت من الماضى.

لكنه بدل أن يقر بنظرية الخلق الإلهي للحياة، راح يقترح بأن الحياة نشأت في الفتحـات الحراريـة المائيـة تحت سـطح البحـر.. ولم يكن قصده من ذلـك إلا الخـروج من الأزمـه الـتي يوقـع فيهـا التخلي عن الحساء البدائي، مع أنه لا يقوم على دعم ما ذكـره أى دليل.

***

بينما كنت مع [جيفري بادا] منشغلين بتلك الأحـاديث العلميـة الراقية إذ جاء تلميذ من تلاميذه يحمل كتابا بيده، وهو يقـول: هـل سمعت أستاذنا ما ذكره [كارل بوبر] في هـذا الكتـاب، فقـد قـال: (التقدم العلمى غير المسبوق فى البيولوجيـا جعـل مشـكلة أصـل الحياة لغزا أكبر مما كـان عليـه قبـل ذلـك، فقـد اكتسـبنا مشـاكل جديدة وأكثر عمقا)

قال جيفري: صدق [كارل بوبر] في قوله هذا.. فقد كان القدماء يؤمنون بالتوالد الذاتي، وهو ما جعلهم لا يقعون في الكثير من الإشكالات التي نقع فيها اليوم.. أما في زماننا هذا، وبعد إدراكنا لأسرار الحياة، فإن الأمر صار أشد تعقيدا، وأكثر غموضا.

قال التلميذ: ولكن العلماء استطاعوا أن ينتجوا أحماضا أمينية ضمن بيئة معينة.. أفلا يكون ذلك اكتشافا لأصل الحياة؟

قال جيفري: لنسلم جدا بأن التجارب التي أجريت في سبيل تحقيق ذلك نجحت فى توليف الجو الفعلى للأرض، فهل أمكنها فعلا خلق الحياة؟

سكت التلميذ، فقال جيفري: من المغالطات التي يوهم بها أنصار النشأة العشوائية عامة الناس وغير المتخصصين هوالقول بأن إنتاج بعض الأحماض الأمينية يجعل من خلق الحياة أمرا فى حدود الإمكان.

بل يتعمد بعضهم اللجوء إلى تسطيح مستفز حتى ظن غير المتخصصين أن إنتاج الخلية الحية لا يختلف عن تصنيع قطعة جيلى فى مصنع حلوى.

قال التلميذ: لكنه لا يمكن أن تقوم الحياة من دون أحماض أمينية؟

قال جيفري: أجل.. ولكنها مع ذلك ليست سوى مادة عضوية بسيطة جدا خالية تماما من الحياة.. بل هي مجرد لبنة بناء بسيطة وأولية.. ويمكن تشبيهها باستخراج معدن الألمينوم باعتباره أحد المعادن المستخدمه فى بناء طائرة وجعلها تطير.. فبالطبع لن يطير معدن الألمنيوم الخام إلا فى الطائرة، وداخل نظام مصمم وذكى بالغ التعقيد.

وهكذا الأحماض الأمينية، فإنها مع أهميتها لا تمثل أى قيمه بيولوجية إلا فى الخلية، ومع اعتبار الفارق الشديد فى نسبة التعقيد بين الطائرة والخلية.

سكت قليلا، ثم قال مخاطبا تلميذه: لتقريب الصورة لك

يمكننا تمثيل الأحماض الأمينية بأنها جـزء من مجموعـة الحـروف.. والخليــة الحيــة هى كتــاب مؤلــف من ملايين الحــروف لتشــكيل ملحمـــة روائيـــة بالغـــة الحنكـــة.. والإشـــكال الحقيقى يكمن فى الاستخدام الـذكى لـترتيب تلـك الحـروف، وليس مجـرد تراكمـات وتراكبات عشوائيه ناتجه من عمليات فزيوكيميائه.

قال التلميذ: صدقت أستاذي.. فالخليـة ــ كمـا شـرحتها لنـا ـ نظام كونى مستقل له إرادة تخالف تلك القوانين.. ونظـرة قريبـة فى الخلية تثير الـذهول من ذلـك التصـميم الـدقيق المحكم، فهى مدينــة كاملــة من الآلات الجزيئيــه المتعاضــده المتكاملــه الــتى لا تضـاهيها عـوالم التقانـات النانويـة.. فمـع اهتزازهـا أو التفافهـا أو زحفهـا المتواصـل في أرجـاء الخليـة، تقطـع هـذه الآلات، وتلصـق وتنسخ جزيئات جينية، وتقوم بنقل المغـذّيات من مكـان إلى آخـر، أو تحولهـا إلى طاقـة، وتبـني أو تصـلح الأغشـية الخلويـة، وتنقـل الرسائل الميكانيكية والكيميائية والكهربائية.

***

انصرف التلميذ، فقال لي جيفـري، وهـو يحـاورني: لا بـأس.. فلنتخط ذلك التعقيد المـذهل فى تـركيب الخليـة، والكـافي وحـده لإقناع أى عاقل بحتمية تصـميمه.. ولنتنـاول أهم الإشـكالات الـتى تلي مرحلة تكوين الحساء البدائى والمكونات الأولية.

قلت: هــل هنــاك مشــاكل أخــرى لا تــزال تعــترض الحســاء البدائي؟

قــال: إن شــئت الصــدق.. فالمشــاكل الــتي يثيرهــا الحســاء البدائي أكثر بكثير من الحلول التي يضعها..

قلت: فما هي المشكلة الجديدة التي تريد أن تذكرها لي؟

قــال: من أبــرز ألغــاز الحيــاة، والــتى تقــف بقــوه ضــد كــل النظريات العشوائيه التي تحاول تفسـيرها، تلـك الغائيـة والتوجيـه المستقل للحياة بعيدا عن العمليات الكيميائية الطبيعية.

فبتخطى تلك العقبات الـتي مـرت بهـا أمثـال تلـك التجـارب،

وبافتراض نجاحها فى محاكاة جو الأرض وإنتاج مادة عضوية أولية للحياة، وتخليق الأحماض الأمينية، فإن تخليقها من مواد أولية ليست الجزء الصعب.. فالإشكال الحقيقى هو الحصول على نوع الأحماض الأمينية المطلوبة للحياة، وطريقة تنظيمها.

قلت: كيف ذلك؟

قال: أنت تعلم أنه يوجد أكثر من 2000 نوع من الأحماض الأمينية في الطبيعة، بينما لا يدخل فى التركيب الحيوى للخلية إلا 20 نوعا فقط.. وعلاوة على ذلك، يتم تجميع الذرات التي تشكل كل الأحماض الأمينية الأساسية في شكلين متناظرين عرفا باسم (اليد اليسرى، واليد اليمنى) مقارنة بتناظر كلتا يدي الإنسان.. فلكل يد نفس المكونات، ومع ذلك فهي مختلفة.

ومثل أيدينا، تأتى الأحماض الأمينية في شكلين حيث تتألف من نفس المكونات، ولكن هي صور طبق الأصل من بعضها البعض، ولهذا تسمى الأحماض الأمينية العسراء، والأحماض الأمينية اليمينيه.

لكن المذهل هو أن جزيئات الأحماض الأمينية اللازمه للحياة كلها عسراء التوجه، وكل السكريات الموجودة في الأحماض النووية اللازمه للحياة يمينية التوجه، أما تلك الأحماض الأمينية المنتجة في المختبر فهي نصف عسراء، ونصف يمينية، وتسمى راسيمات، وهنا تكمن مشكله قاتلة، وهي أن السكريات العسراء والأحماض الأمينية اليمينيه تكون سامة وقاتلة، وتحول دون أى محاوله للتخلق الحيوى المزعوم من تلك المخاليط الراسميه الملوثه.

وعلاوة على ذلك، فقد تم تصميم جميع الإنزيمات لتعمل فقط مع سكريات اليد اليمنى والأحماض الأمينية العسراء.. لذلك إذا تم ارتباط حمض أمينى واحد يمينى الاتجاه أثناء تجميع بروتين، فإن ذلك البروتين الناتج لن يكون له أي قيمة للحياة.

قلت: لكن لماذا استخدمت البروتينات البيولوجية الأحماض الأمينية العسراء فقط.

قال: لا يزال الأمـر لغـزا.. لأن الكيميـاء غـير الموجهـة تعطى نسبا متساوية من كلا النوعين، ولهذا راحوا يحاولون الخـروج ذلـك المأزق الأولى بتفسيرات أفضل ما يقال عنها: إنهـا فرضـيات غـير مدعومة بأي دليل، بل هي مجرد تخيلات فقط لتخطى تلك العقبـة التى تعاند قوانين الكيمياء الأولى، وتظهر إرادة مستقله للحياة.

الصدفة.. ومشكلة البلمرة:

بعد أن ذكر لي كل ذلك، وذكـر لي مثـل صـاحبه اسـتحالة أن يبيع علمه بالمـال، رحت أبحث عن عضـو آخـر ممن سـجلتهم في دفتري.. وكان يعمـل في المركـز الطـبى بجامعـة [بـايلور] بولايـة تكسـاس الأمريكيـة، وهـو [جوزيـف كـوهن]، الـذي كـان بالإضـافة لكونه عالما بيولوجيا كبيرا، جراحا بذلك المركز.

وكنت قد علمت بعد ذلك أنه من العلماء الذين انتقدوا نظرية التطـور، فقـد عـرض فى بحث نشـره بعنـوان [دحض الدارونيـة] بعض الأخطاء البارزة التى تكتنف النظرية، وعلى رأسـها اسـتحالة نشـوء الحيـاة من مـواد كيماويـة فقـط، مبرهنـاً على ذلـك بـأن المعلومـات الـتى يحتويهـا الحـامض النـووى [دى إن إيـه] تتطلب معلومات من الطبيعة الخارجية.

وقد ذكر في بحثه ذلك أن جسم الإنسان عبارة عن منظومــة شـاملة لكى تـؤدى وظائفهـا فى الحفـاظ على حياتـه يجب تـوافر مكوناتها الأساسية والمواد الكيماوية اللازمة لعملهـا دفعـة واحـدة وبصورة متزامنة.

وقـد أيـد كـوهن آراء علمـاء الكيميـاء الحيويـة من أن جسـد الإنسان يعمل كوحدة واحدة، وفى حالة نزع أى عضو من أعضـائه يتوقف الباقى عن أداء وظائفـه، ممـا يـدل بجلاء على أن الإنسـان خلقه الله منذ البدايـة ــ كمـا هـو ــ بجميـع أعضـائه دفعـة واحـدة، وليس بالتدرج الطبيعى عضواً عضواً كما تدعى نظرية دارون.

بالإضافة إلى ذلك، فقد ذكـر أن الجسـد البشـرى مكـون من عدة أجهزة لا يمكن اختزالهـا أو الانتقـاص منهـا على أى مسـتوى، بــدءا من التشــريح الفســيولوجى العــام إلى منظومــة الكيميــاء

الحيوية.

وخلص في الأخير إلى أن خلق الإنسان بهيئته البديعة لا يمكن أن يصدر إلا عن خالق حكيم، مشيراً إلى أن نظرية التطور تفتقر إلى أية براهين عن أصل عضو واحد من أعضاء الإنسان، ناهيك عن شبكة متكاملة بالغة التعقيد يتألف منها الجسد البشرى.

عندما التقيت به، وحدثته عن الأبحاث التي نريد إجراءها، وذكرت له ما قاله لي [جيفري بادا] نظر إلي مبتسما، وقال: كل الإشكالات التي طرحها لك صديقي جيفري لا تساوي شيئا أمام الإشكالات التي لم يذكرها.

قلت: فهل هناك إشكالات أخرى لم يذكرها؟

قال: أجل.. فبالإضافة لما ذكره لك [جيفري بادا]، فإن هناك إشكاليات كثيرة لا يمكن حلها وفق الظروف المفترضه، ومن أمثلتها كيفية ربط الأحماض الأمينية أو الجزيئات العضوية الأساسية الأخرى لتشكل سلاسل طويلة (البوليمرات) مثل البروتينات أو [رى إن إيه] كنموذج ذاتى التكرار..

قلت: ما تعني بقولك هذا؟

قال: أعني [البلمرة].. ولاشك أنك تعرفها.. فهي العملية التي من خلالها تشكل [المونومرات]، أو الجزيئات العضوية البسيطة روابط تساهمية مع بعضها البعض لإنتاج [البوليمرات]، أو الجزيئات العضوية المعقدة.

ولذلك يجب أن تحتوي [المونومرات] المكونة للحساء البدائى على الأحماض الأمينية، والسكريات، والدهون، والكربوهيدرات البسيطة، والقواعد النيتروجينيه، والبوليمرات، وهي سلاسل من تلك المونومرات.

سكت قليلا، ثم قال: سأقرب لك هذا بمثال قياسى.. فإذا افترضنا أن [المونومرات] كالأحماض الأمينية حروفا.. وافترضنا [البوليمرات] كالببتيدات والدهون الفوسفاتية و[رى إن إيه]و [دى إن إيه] كلمات وجملا.. فإنه يمكن بكل بساطه يدركها أى

بيولوجى اعتبار الخلية بمثابة مجلد ضخم مصمم ومؤلف بفعل قريحه عبقريه ليحكى ملحمة بالغة التعقيد، وليس مجرد تراكمات عشوائيه لركام من تلك الحروف أو تلك الكلمات.

لكن مع استحالة أن تصنع الحروف بمفردها كلمات وجملا مفيدة، فضلا عن أن تصنع روايه ملحميه ضخمه، فإنه لا توجد أى فرص لالتقائها وترابطها بالأساس فى حيز معين يوفر لها إمكانية الترابط.

قلت: ألا يمكن أن تنشأ البلمرة فى ظروف النشأة الطبيعية المقترحه؟

قال: ذلك مستحيل.. لأن هناك الكثير من المشاكل التي تعترض تحقيق ذلك.. منها مثلا أن فرضيات الحساء البدائى والفوهات الحارة تفترض حدوث التخلق قبل الحيوى فى حيز مائى كالمحيطات.. ووفقا لمبدأ [انزياح التوازن] أو مبدأ [لو شاتيليه] فإن وجود منتج كهذا لايمكن بحال من الأحوال أن يسير عكس التوازن لإنتاج بوليمرات وجزيئات معقدة، لأن الماء هو بالأساس مذيب ومخفف للمونومرات ليجعل فرص التقائها معدومه.

بالإضافة إلى ذلك، فإن المركبات العضوية تتحلل بسرعة إذا تعرضت لحرارة عالية من الفتحات الحرارية في أعماق البحار، لذلك فإن خطوة البلمرة في الأصل الكيميائي للحياة لا يمكن أبدا أن تجري في حيز هائل من المياه، كالمحيطات، وفرص التقاء المونمرات مستحيلة.

ولذلك فإن تركيب البروتينات والأحماض النووية من السلائف العضوية ولبنات الحساء البدائى يمثل واحدا من أصعب التحديات لنموذج التخلق قبل الحيوى.. فهناك العديد من المشاكل المختلفة التي يواجهها أي اقتراح.. وهواستحالة البلمرة، وتكوين المعقدات في المياه.

فمع افتراض بدء الحياة في المحيطات،فان الجزيئات العضوية المفترض تكونها فى الماء سوف يتم تدميرها على الفور

خلال عملية التحلل المائي، وهو إضافة جـزيء المـاء بين جزيـئين المستعبدين (اثنين من الأحماض الأمينية في هذه الحالة)

وعلاوة على ذلـك، تميـل الميـاه لكسـر سلاسـل الأحمـاض الأمينيـة وتفكيكهـا عن بعضـها البعض إن وجـدت تلـك البروتينـات المزعومه التى شكلت في المحيطـات بترابـط الأحمـاض الأمينيـة منذ 3.5 مليار سنة مضت.

قلت: أعلم ذلك.. فإن تشـكيل البـوليمرات يحتـاج بالضـروره إلى ظروف جافه.

قال: وهذا لا يتفق مع فرضيات التخلق اللاحيوي المطروحة..

قلت: وعيت هذا.. فهل هناك مشكلة أخرى غير هذا؟

قال: أجل.. المشـكلة الأخـرى هي أن الأحمـاض الأمينيـة مـع كونهـا بطبيعتهـا قـادرة على الارتبـاط في العديـد من المواقـع من قبل العديد من أنواع الروابـط الكيميائيـة..إلا أن تشـكيل سلاسـل ببتيد يتطلب تقييد وصلاتها إلى روابط الببتيـد فقـط، وفي المواقـع الصحيحة فقط.

و يجب منع تشكل كل أنـواع الروابـط الأخـرى، وهى ليسـت مهمة سهلة في الخلايا الحية، ذلك أنه يتحكم فيها نظام معقـد من الإنزيمات البالغة التخصص، والموجـودة لضـمان عـدم حـدوث أى روابط غير ملائمه، وبدون هذا النظام الإنزيمى، فإن هذه الروابـط الكيميائه العشوائيه تدمر فورا البروتينات المنتجة..

قلت: وعيت هذا.. وهي حقا مشكلة عويصة.

قـــال: لس ذلـــك فقـــط.. فثمـــة مشـــكلة أخـــرى، وهي التأثيرالحرارى الهادم لروابط الببتيد وكسـرها في المـاء، والـتى لا تتشكل فى الطبيعه بدون المركبات ذات الطاقـة العاليـة مثـل ATP والإنزيمات.. حتى أن تكون رابطه ببتيديه واحده فقط من ارتبـــاط حمضيين أمينين فقـط يصـعب تشـكيلها تحت الظـروف الطبيعيـة، فمـاذا عنـد بـروتين متوسط يتكـون من أربعمائـة من الأحمـاض الأمينية؟

وقد وضع الكيميائيون معادلات لاختبار فرص ذلك الاحتمال وفق الظروف الكيميائية والفيزيائيه الطبيعية، وخرجوا بأرقام مذهلة، ذكر بعضها على أننا بحاجة إلى محيط من الحساء البدائى بحجم يساوي 10 أس 229 من الأكوان المنظورة، وذلك لإنتاج جزيء واحد من أي بروتين مع 100 من الروابط الببتيديه..

قلت: وعيت كل هذا.. ولكن ألا يمكن إيجاد أي حل لهذه المشكلة؟

قال: هل تقصد حلا علميا.. أم حلا مخادعا؟

قلت: هل يمكن أن يكون في عالم العلم حلول مخادعة؟

قال: أجل.. عندما يصبح العلم خادما للهوى وللرغبة حينها يتحول إلى ثعلب مخادع.. وقد حصل هذا.. ذلك أنه عندما عرف أنصار النشأه الطبيعية والتطوريون استحالة تكون المعقدات الحيويه اللازمه كلبنة بناء للحياة الأولى فى المحيطات المائية، ورأوا أنها عقبة لا يمكن تخطيها بسهولة، لجأوا إلى اقتراح سيناريوهات خيالية وغير واقعية لتخطى الازمة.

ومن بين تلك الاقتراحات اقتراح [سيدنى فوكس] الذي نال اهتماما كبيرا باعتباره حلا لتلك الأزمة..

قلت: فهل حلها بالفعل؟

قال: لقد استخدم فوكس الحرارة الشديدة كآلية القيادة في نموذجه..حيث تم تسخين خليط خاص من الأحماض الأمينية النقيه والجافه في حوالي 175 درجة مئوية لفترة زمنية محدودة.. ثم تم توقيف التسخين، وحرك المنتج مع الماء الساخن، وتم إزالة المواد غير القابلة للذوبان عن طريق الترشيح، وعندما برد المحلول المائي ترسب على شكل كريات.. وبتحليلها تبين أنها تتكون من البوليمرات، أو سلاسل من الأحماض الأمينية.

وقد ادعى فوكس أنها ـ أي ما سماه [بروتينات حرارية، أو الخلايا شبية البروتينات] شكلت الخلية الأولى.. وادعى أيضا أن هذه المركبات تمتلك خصائص الحفاز أو إنزيم.. بل إنه ادعى فوق

ذلك أن هذه المعقدات يمكنها التكاثر بالانقسام إلى حد مـا بنفس طريقة الخلايا الحقيقية..

قلت: فهل استطاع بهذا السيناريو تجاوز الأزمه؟

قـال: أنت تـرى أن فـوكس اقـتراح ظروفـا خياليـة لا يمكن توافرها لتمام نجاح ذلك السيناريو، حيث لا يمكن أن تتوافر درجـة التسـخين المقترحـة إلا على حـواف الـبراكين بشـرط أن يسـقط المطر بعدها بساعات قليلة.. وهذه الظروف غـير واقعيـه لا يمكن أن يتم توافرهـا على سـطح الأرض فضـلا عن أن تنجح فى إنتـاج كميات كافيه من المعقدات.. بالإضافة إلى هـذا، فقـد واجهت هـذا الاقتراح إشكالات كثيرة قاتلة..

قلت: فهلا ذكرتها لي.. لعلنا نجد حلولا لها.

قـال: يسـتحيل ذلـك.. فمن تلـك المشـاكل مثلا الانقطـاع الواضح فى السلسـله المزعومـه، فبـدلا من أن يسـتخدم فـوكس المكونـات الأوليـة الـتى حصـلت من تجـارب الحسـاء الاولى من أحماض أمينيه راسميه بنسب متساويه، وهى غير صـالحه للحيـاة، اسـتخدم أحماضـا أمينيـه بيولوجيـة بلوريـه نقيـه عسـراء التوجـه الكفى.. وهذا إشكال لا يمكن تخطيه.

قلت: ألا يمكن أن يوجـد مكـان على الأرض يتم العثـور فيـه على خليط من الأحماض الأمينية النقية؟

قال: أجل.. يوجد.. وهو مكان وحيد فقط.

قلت: إذن حلت المشكلة..

قال: أجل.. لكن مع العلم أن ذلك المكان الوحيد ليس سـوى مختبر عالم في القرن العشرين.. أمـا في الواقـع، فـإن مجموعـة كبيرة ومتنوعة من المركبات الكيميائية العضوية التى يبلـغ عـددها بالآلاف يمكن أن تتكون على الأرض البدائية، واحتمال وجود خليط من الأحماض الأمينية النقية تتراكم في أي مكان يفرض أنـه يمكن انتاجها هو الصفر المطلق.

ذلـك أنهـا سـتكون ممزوجـة مـع السـكريات، والألدهيـدات، والكيتونــات، والأحمــاض الكربوكســيلية والأمينــات، البيورينــات، البريميدينات، والمواد الكيميائية العضوية الأخرى.

وتسخين الأحمـاض الأمينيـة في أي درجـة حـرارة تقريبـا مـع خليط من هذه المواد الكيميائية سيؤدى يقينا إلى التـدمير الكامـل للأحماض الأمينية.

قلت: أجل.. هذه مشـكلة كبـيرة.. وهـذا العامـل وحـده يلغى مخطط فوكس تماما من أي نقاش عقلاني.

قال: ليس ذلك فقط.. بـل إن نمـوذج التكـاثر الخلـوى الـذى اقترحه فوكس، والتجارب التى تلتـه لتفسـير الانقسـام عبـاره عن ظاهره فيزيائيـه بسـيطة ليس لهـا اى علاقـة بانقسـام الخلايـا فى الكائنات الحية.

ذلـك أن انقسـام الخلايـا حـتى في أبسـط الكائنـات يتطلب آليات معقدة بشكل لا يصـدق لنسـخ كـل وحـدة فى الخليـة بدقـه بالغه ونظام مذهل.. بخلاف ما يذكره أنصـار النشـأه الطبيعيـة من أنه مجرد ظاهرة فيزيائية بسيطة، مثل فصل فقاعة الصــابون إلى قسمين، وهى ظاهره لا تمت للنسخ المتماثـل الـدقيق فى الحيـاة بصـله، لأنهـا عمليـه عشـوائيه بحتـه كانقسـام كريـات الـدهون أو فقاعات الدهون بسبب التحريك أو الاهتزاز إلى كريات صغيره.

لذلك فإن الاستدلال بهذه الطريقه السطحية على التكاثر هو استهزاء تام بالعقول وتستطيح لا يمكن تجاوزه.

ولهذا نرى أنصار النشأه الطبيعية، ولتمرير مثل هـذه الأفكـار السطحية يلجأون إلى التحايل على الحقائق بتصـوير جـدار الخليـة على أنه مجرد حاجز لمنع محتويـات الخليـة من الهـرب والاختلاط مــع الوســط المحيــط أو القــدره على الاســتقطاب الفيزيــائى العشـوائى.. ولكن غشـاء البلازمـا يفعـل أكـثر من ذلـك بكثـير.. فالمغذيات يجب أن تمر عبرها إلى الداخل لتستطيع الخلية البقــاء على قيد الحياة، والنفايات والمنتجات يجب أن تمـر إلى الخــارج.. وهكذا يتم اختراق الغشـاء عـبر قنـوات انتقائيـة للغايـة ومضـخات

تشكلت من جزيئات البروتين.

قلت: هذه مشكلة لا تقل عن سابقاتها.

قـال: ليس ذلـك فقـط.. فهنـاك مشـكلة أخـرى أخطـر من الجميع.. وهي مشكلة الوقت وفرص الاحتمالات..

قلت: أجل.. فـالوقت ــ كمـا يـذكر الاحيـائى الشـهير [جـورج والـد] ــ (هـو بطـل هـذه المـؤامرة.. تعطى الكثـير من الـوقت، والمستحيل يصبح ممكنا، والممكن يصبح من المحتمل، والمحتمل قد يصبح مؤكدا.. وما على المرء إلا الانتظار والـوقت نفسـه ينفـذ المعجزات)

قال: لكن فى حالتنا هذه يصبح الوقت عامـل هـدم، لا عامـل بناء.. ذلك أنه يدخل المعادلة في نطاق الاستحالات العقلية.

قلت: كيف ذلك؟

قـال: سأشـرح لـك إلى أى مـدى من الـزمن يتـوجب علينـا الانتظار؟.. وكم من الوقت كان متاحا على الأرض لنشوء الحياة؟

لقد عاشت البكتيريـا في وقت مبكـر قبـل 3.5 مليـار سـنة.. والحيـــاة كـــانت موجـــودة في وقت ســـابق قبـــل 3.8 مليـــار سنة..وبالنظر إلى عمر الأرض المفترض الأرض حوالي 4،5 مليـار سنة، وبـالنظر إلى أن القشـرة الأرضـية لم تتصـلب حـتى قبـل 4 مليار سنة، فإنه لن يكون هناك إلا 200 مليون سنة لتظهر الحيـاة على الأرض.. وهذا الرقم يعتبر ضئيلا جدا للسـماح لفـرص الحيـاة الأولية بأن تحدث وفق ظروف طبيعية.. وبـالطبع لا يمكن اعتبـاره رقما ذا أهميه مقارنة بمـا سـيتم ذكـره وفـق الاحتمـالات الـتى تم اجراؤها.

فوفقـا للقـانون الإحصـائى المعـروف الـذى صـاغه عـالم الرياضـيات [اميـل بوريـل] فى كتابـه الـذى ينـاقش فيـه حـدود الاحتمالية الرياضيه لحـدوث حـدث مـا، ذكـر أن أى حـدث تتجـاوز نسبة الاحتمالية له 1 من:10 أس 50.. أي (واحد بجواره خمسـين صـفرا) حـدث يمكن القـول على وجـه اليقين أنـه لن يحـدث أبـدا

بغض النظر عن إمكانية توافر الوقت أو المكان المخصص له.

وبناء على هذا عندما ننظر في الاحتمالات الرياضـية لإمكانيـة تكوين بروتين بسيط مكون من (100حمض امينى) وفق الظروف الكيميائية ووفق ظروف مثاليه لأقصى نسبه احتمالية ممكنه، نجـد أن احتمال الحصول على ذلك البروتين الصـغير المكـون من مائـة من الأحماض الأمينية العسراء (مع العلم بأن الـبروتين المتوسـط لديه ما لا يقل عن 300 من الأحمــاض الأمينية العســراء).. هي نفسها احتمالية الحصول على نفس الوجه للعملة عند رميهـا 100 مرة.

ومن أجل الحصول على نفس الوجه من العملـه عنـد رميهـا 100 مرة يجب علينا أن نرمى عمله واحدة 10 أس 30 مـره (اى تكرارحاصـل ضـرب 10 ×ـ 10 30 مـرة) كحـد أدنى متـاح على أقصـى تقـدير ليسـمح بحـدوث ذلـك.. والمـدى الزمـنى لإمكانيـة حدوث ذلك يتعدى عمر الكون المنظور بمراحل..

وقد أجرى بعض علماء الكيمياء وعلوم المادة حسابا لاحتمال تكوين بروتين متوسـط الحجم، فوجـدوا أنـه 4.9 /ـ 10 أس 191 وهو رقم يتعدى حد الاحتمال الممكن بقانون بوريل بأشواط.. ومع ذلك، فإن ذلك البروتين المتوسط يقف على مسـافه شاسـعه من تركيب الخلية البالغ التعقيد..

ومثــل ذلــك أجــرى الفيزيــائى [فريــد هويــل]، و[شــاندرا يكواماسـينغ] أسـتاذ الرياضـيات التطبيقيـة وعلم الفلـك، حسـابا لاحتمـال الحصـول على الخليـة عن طريـق العمليـات الطبيعيـة، وكانت النتيجـة هي 1 /ـ 10 أس 40000.. وهـذا الاحتمـال فقـط لاحتماليـة تكـوين الإنزيمـات الخلويـه كمـواد خـام، ولم يتعـرض لاحتمال تصميم النظـام، فهـذا أمـر آخـر تمامـا تعجـز أى آليـه عن الخوض فيه.

وقد صور العالمان احتمال تكوين تلك الإنزيمات بأنه لا يمكن أن يحدث حتى لو تألف الكون كلـه من الحسـاء العضـوى.. وكـان لهـذه النتـائج دورا كبـيرا في تغييراعتقـاد السـير فريـد هويـل إلى

الاعتقاد في حتمية الخلق.

الصدفة.. وطيّ البروتين:

بعد أن ذكر لي كل ذلك، وذكـر لي مثـل صـاحبه اسـتحالة أن يبيع علمه بالمال، رحت أبحث عن عضو آخر.. وكان اسمه [ديفيـد برلنسـكي]، وهـو عـالم في الرياضـيات والبيولوجيـا الجزيئيـة والفلسفة.

وقد علمت بعد ذلـك أنـه من الـذين انتقـدوا نظريـة التطـور، والإلحاد الذي يروج باسمها نقدا شديدا بعدما تبين له حجم الزيـف والغش الذي يسوقه الملحدون والتطوريـون للنـاس باسـم العلم، وخصوصا في العقـدين الماضـيين بقيـادة [ريتشـارد دوكيـنز] وقـد كتب في الرد عليه كتابه الشهير [وهم الشيطان] عام 2008م.

وقـد شـاهدت لـه بالإضـافة إلى ذلـك حـوارا مصـورا باسـم [العنيد]، وهو مليء باعترافاته من سخرية العلمـاء الحقيقـيين من خرافة التطور، ومليء بالسـخرية العلميـة من افتراضـات التطـور الخيالية ونقاط ضعفها القاتلة.

بعد أن التقيت به، وقدمت له العرض السخي الذي ذكـره لي مدير المركز، قـال لي بكـل بـرودة: لـو كنت أريـد المـال، لـتركت العلم، وذهبت إلى التجــارة.. أو لمارســت السياســة.. أو صــرت مهربا أو تاجر مخدرات.. لكنني لم أرد إلا العلم.. والعـالم المحـترم ليس تاجرا ولا لصا ولا مخادعا.

أعجبتني قوة شخصـيته هـذه، فـرحت أطـرح عليـه مـا ذكـره [جوزيف كوهن]، فقـال لي: المشـكلة ليسـت فيمـا ذكـره فقـط.. فهناك مشاكل كثيرة أعقد بكثير تجعل من تلـك الفرضـيات مجـرد لغو وخرافة.

قلت: هل هناك مشاكل أخرى غير التي ذكروا؟

قال[1]: أجل.. ألم تشاهد الرقصـه البيولوجيـة الـتى اعجـزت

---

[1] () اسـتفدنا المـادة العلميـة الـواردة هنـا من مقـال بعنـوان (طيّ الـبروتين: الرقصـه البيولوجيه التى اعجزت العقول)، إعداد فريق صفحة نظرية التطور وحقيقة الخلـق، بمنتـدى

العقول؟

قلت: ما تعني؟

قال: إنها تعبير عن عملية واحدة من العمليات بالغة التعقيد التى تحدث داخل الخلية الحية.. بل هي مجرد عملية بسيطة تحدث لمادة حياة تلك الخلية، وهى البروتين.

قلت: فما هي هذه العملية؟

قال: ألم تفكر يوما في سر التنوع الهائل في أشكال وألوان وروائح وتراكيب الكائنات الحية التي يزيد عدد أنواعها عن عدة ملايين؟

قلت: أعلم أن السر يكمن في البروتين.

قال: لا تسمه باسمه هكذا حافيا.. بل هو الجزئ المعجز والتحفه البيولوجية التي صنعها الخالق القدير.

قلت: أراك شديد الإعجاب به.

قال: وما لي لا أكون كذلك.. والبروتين هو أعظم مكونات الأجسام الحية شأنا، ولا يزال يحير العلماء بتشكيلاته المذهلة عددا وتنوعا.. فهناك البروتينات التي تدخل في بناء خلايا أعضاء الحيوانات كالجلد واللحم والعظم والشعر والريش والأظفار والغضاريف والقلب والكبد والرئة والمعدة والعين والأذن وغير ذلك من الأعضاء.. وهنالك البروتينات الموجودة في أوراق وأزهار وثمار وبذور النباتات التي تتفاوت تفاوتا كبيرا في ألوان وروائح أزهارها وطعم ثمارها وبذورها.. وهناك البروتينات التي تقوم بالعمليات الكيميائية والحيوية داخل الخلايا الحية المختلفة كالأنزيمات والهرمونات التي لا حصر لعدد أنواعها.. باختصار البروتين هو سر الحياة.

قلت: أجل.. فالبروتينات تحوي منظومه هائله من التنوع والتباين.

التوحيد.

قال: والمذهل الأكثر في ذلك هو أنها تتكون من لبنات تسمى الأحماض الأمينية لا يتعدى عددها 20 فقط.. وهذه الأحماض الأمينية تتجمع مع بعضها البعض، لتكوين عشرات الملايين من البروتينات المتخصصة في وظائف معينة، في كل الكائنات الحيّة التي تعيش فوق الأرض؟

أخذ بيدي إلى مكتبه، ثم أخرج صورا كثيرة أرانيها بحماسة، وهو يقول: انظر معي داخل أغوار الخلية المجهريه لترى أى عالم مذهل تكون فيه.. ولترى كيف يحدث هذا التباين والتنوع الوظيفى البالغ الاتقان فى الكائنات الحية..

أراني صورة منها، وهو يقول: انظر.. إن الأمر ببساطه لا يعدو كونه معجزه بيولوجية تسمى بطى البروتين.. إن البروتين في هذه الصورة يشبه قلاده بها حبات خرز مختلفة الألوان، هى الأحماض الأمينية.. كل لون يمثل حمض أمينا معينا.

انظر إلى هذه الالتواءات والبروزات والانخفاضات والتجاويف التى يتخذها جزيء البروتين فى عملية الطى.. إنها ليست عشوائية أبدا.. إنها نفسها ما يحدد وظيفة البروتين المتكون من تلك العمليه البالغة التعقيد.. فالبروتينات تنثني وتلتوي وتلتف في شكل حلقات أو حلزونات، بينما تنضغط بعض البروتينات الأخرى في رقائق مطويّة تشبه الآلة الموسيقية (الأكورديون)، وكذلك في أشكال أخرى.

أراني صورة أخرى، وهو يقول: انظر إلى الزوايا والشقوق في طيات أي إنزيم هضم، وهو ليس سوى نوع من أنواع البروتينات.. انظر إليه.. فباستطاعته احتجاز جزيئات النشاء ثم الاقتراب بعد ذلك من الكيماويات التي تحللها إلى سكر.. وهكذا تكمن البكتريا والفيروسات بقوة في ثنايا وطيّات الأجسام المضادة، التي تمسكها بإحكام.، بينما تطلب (النجدة) من آليات الدفاع الأخرى بجهاز المناعة في الجسم.

أراني صورا أخرى، وهو يقول: انظر إلى هذه الأشكال المختلفه والرائعة لبروتينات مختلفه.. فالشكل المحدد ما هو إلا

مفتاح أو قالب لأداء وظيفه محدده أو لبنه معينه فى كيـان الحيـاة المهيب حيث تدخل فى تركيب التنوع الهائل لتراكيب الجسد.

سار بي إلى مكتب آخر، وهو يقول: لن تنتهي جرعة الدهشـة إلى هـذا الحـد.. بـل هنـاك الكثـير ممـا يعجـز العقـل ويقعـده عن الاستيعاب..

أراني لوحة كبيرة معلقة في الجدار تشـبه اللوحـات الزيتيـة، وهو يقـول: انظـر إلى ذلـك الخيـط من الحبـات الملونـة، صـفراء وخضراء وحمراء وزرقاء وبنية.. إنها ليست مجرد ألوان عشوائية.. بـــل إن الحبـــات الصـــفراء تنجـــذب إلى بعضـــها البعض مثـــل المغناطيسات.. وتتنـافر الحبـات الخضـراء مـع مثيلاتهـا.. وتنجـذب الحبات الحمراء بقـوة ضـعيفة إلى الحبـات الزرقـاء، مـا لم توجـد بجوارها حبة بنية اللون.. وتذكر أيضا أن الحبات الحمراء تفضل أن تستقر بين الحبات الصفراء، ما لم توجد حبات خضراء بينها!

كل هذا كـوّن تسلسـلاً عشـوائياً من بضـع مئـات من الحبـات الملونة المختلفة ـ التي تمثل الأحماض الأمينيـة ــ وتنبـأ بـالتركيب ثلاثي الأبعاد، الذي سوف ينطوي الخيط ذاتيا إليه!

تخيل أن لكـل بـروتين تسلسـلا للأحمـاض الأمينيـة خـاص بـه وحده فقط، وينتهي بطريقة ما، بالطيّة المميزة له وحده فقط.

التفت إلي، وهو يقول: إن مثل هذه السلسلة المعقـدة يمكن أن تنطوي بعـدد كبـير جـداً من الطـرق المختلفـة.. ومن ثم كيـف يتأتى للبروتين أن ينتهي بالشكل الصحيح له بالضبط؟

لم أجد ما أقول له، فقال: لا يمكن الإجابـة عن هـذا السـؤال بالتخمين، أو باتباع طريقة التجربة والخطـأ.. فعمـر الكـون نفسـه يعد قصيراً مقارنة بالوقت الـذي يسـتغرقه بـروتين صـغير لتجربـة بلايين من الطيّات الممكنة واحدة وراء أخـرى، وصـولاً إلى الطيّـة الصحيحة!

فتح حاسوبا كان أمامه، ثم فتح بعض ملفاته، وهو يقول: هــل ترى سرعة هذا الجهاز في حل العمليات التي تعرض عليه؟

قلت: أجل.. هو إبداع من إبداع الحضارة.

قـال: لكن عمليـة الطي وتجميـع البروتينـات لنفسـها تحـدث بسرعة أكثر بكثير.. إنها سرعة مذهلة جـدا، تقريبـا في أجـزاء من مليون في الثانية.. رغم أن هذا الوقت يعتبر سريعا للغاية بالنسـبة للإنسان، إلا أنه طويل بشكل ملحوظ لأجهزة الكمبيوتر لكي تقـوم بمحاكاته.

فجهاز الكمـبيوتر يحتـاج يومـا كـاملا لكي يسـتطيع محاكـاة 1 نانوثانيــة (1/1000000 من الثانيــة) من الطي، وبالتــالي يحتــاج الكمــبيوتر إلي 10 آلاف يــوم لكي يقــوم بعمليــة طي واحــدة.. وبحساب سريع: سيحتاج لثلاثين عاما لكي ينتهي منها، وهذه فـترة طويلة جدا للحصول على نتيجة طي واحدة.

أراني بعدها فيـديو لمحاكـاة حاسـوبية توضـح مـدى احتماليـة توجيه وطى سلسله بسيطة جدا مكونه فقط من 6 احماض أمينيه حيث تمثــل الخــرزات الملونــه الأحمــاض الأمينيــة فى سلســلة البروتين.

ثم قال: ليس هذا فحسب.. بل الأمر يتعدى ذلـك إلى عمليـه أخرى بالغة التعقيد لا يمكن اختزالها أو تبسيطها.

قلت: ما تقصد؟

قـال: هـل تعلم مـاذا يحـدث لـولم يتم الطى بشـكل صـحيح، وكيف تتلافى الخلية ذلك؟

قلت: ماذا يمكن أن يحدث؟

قال: لو تأخرت في مرحلة بينيّة واحدة، لتعرضت للتكتـل مـع بروتينات أخرى، أثناء عملية الطي، وهذا ربما يكون مدمراً للخلية، حيث تتحول هذه البروتينـات إلى (بريونـات) أي بروتينـات مُعْدِيـة، قد تصل إلى الخلايا العصبية في المخ، وتقوم بتدميرها، تاركة فيها فجوات عديدة فيبدو النسيج العصبي كالإسفنج.

وقد اكتسب هذا المجـال النشـط من البحث العلمي، المزيـد

من الاهتمـام في الـوقت الحاضـر إثـر تزايـد معرفتنـا بـأن أخطـاء عملية طي البروتين، ربما تفضـي إلى اضـطرابات صـحية خطـيرة مثل مرض (الزهايمر) وأمراض الاعتلال الدماغي الإسـفنجي مثـل مرض كرويتزفيلد جـاكوب وهـو الشـكل البشـري لمـرض (جنـون البقر)

لكن المذهل هو ما اكتشفه العلماء في أواخر الثمانينيات من القرن العشـرين، حيث اكتشـفوا أن الخلايـا تحتـوي على جزيئـات خاصــة مرافقــة، هي نفســها عبــارة عن بروتينــات يطلــق عليهــا (البروتينات المقترنة)، وهي تساعد في توجيه جزيئات البروتينــات غيركاملة النضج بعيداً عن المؤثرات السيئة، وحمايتها لكي تنطوي بالطريقة الصحيحة.

وقد أصيب البـاحثون بالدهشـة من هـذا (التعـاون الجزيـئي)، ومن ثم خضعت البروتينات المقترنة لأبحاث علمية دقيقة للتعـرف على طبيعتها والدور الذي تقوم به في إتمام عملية طي البروتين.

الصدفة.. والتقنيات المعقدة:

بعد أن ذكر لي كل ذلك، وذكـر لي مثـل صـاحبه اسـتحالة أن يبيع علمه بالمال، رحت أبحث عن عضو آخر، كان اسمه [جوناثـان ويلز]، وهو عالم البيولوجيا الجزيئية الأمـريكي الـذي اعـترف بأنـه كــان ملحــدا، ولكن بعــد دراســته للبيولوجيــا الجزيئيــة، ومــع الاكتشافات الحديثة الدالة على الغائية والخلق تراجع، وأصــبح من المؤمـنين، بـل صـار من أعـدى أعـداء نظريـة التطـور وفضـحها وكشف زيفها للناس، وقد ألـف في ذلـك كتابـه الشـهير [أيقونـات التطور]

وقد سمعت أنـه كـان بالإضـافة لتخصصـه في علـوم الحيـاة، صاحب مهـارات كثـيرة في تقنيـات الإعلام الآلي، وقـد علمت أنـه قام بذلك المزج بينهما ليفهم سـر الحيـاة من خلال تلـك التقينـات المعقدة التي توفرت في الحواسيب.

وقـد أردت من زيارتـه، ومن وضـعه ضـمن فريـق البحث، أن أسـتفيد من التقنيـات الحديثـة المتـوفرة في ذلـك العـالم الجامـد

لأثبت من خلالها الصدفة في عالم الحياة.. لكن صاحبي، وبعد أن ذكرت له هذا، راح يقول لي، وهو يمسك بيده بعض القطع من حاسوب مفتوح كان أمامه: كما أن الخلية ممتلئة بالتعقيد، ولكل جزء منها دوره الخاص، فكذلك عالم الحواسيب ممتلئ بالدقة العالية، ولكل جزء دور المحدد المضبوط.

وضع القطعة من يده، ووضع الغطاء على الحاسوب، وراح يقول لي: دعنا منه.. وهيا بنا نتحدث.. فلعل حديثنا أنفع لنا من هذه الآلات المتجمعة، والتي لا معنى لها، ولا جدوى منها.

قلت: كيف تقول ذلك.. وهذه الآلات إبداع عظيم.. وبه وصلت البشرية إلى ما وصلت إليه من تطور؟

قال: لك الحق في ذلك.. ولكنه تطور متناقض.. أو بالأحرى هو تطور أعرج.. أو بالأحرى تطور أعور.

قلت: ماذا تعني؟

قال: ماذا يقول أصحابنا في الخلية الحية، وكيف نشأت أول خلية؟

قلت: هم يذكرون أنها نشأت بالصدفة، وأنه كان للزمن والمادة تأثيرهما في نشوئها، ونشوء كافة أصناف الحياة بعدها.

قال: ولكنهم إن ذكروا هذه الأجهزة.. والتي لا تعدو أن تكون سوى خردة بسيطة أمام تعقيد الحياة.. راحوا ينظرون إليها بانبهار.. وينفون عنها الصدفة.. بل ينسبون كل جزء فيها لصانعه ومصممه ومخترعه.

قلت: هم يذكرون ذلك لأنهم رأوا الصانع والمصمم والمخترع.. وقد صممه أمامهم.

قال: فهل رأوا أول خلية، وكيف نشأت؟

قلت: لا.. لا يمكن ذلك، فتلك الخلية نشأت قبل الإنسان، بل قبل كل الكائنات الحية.. ولم تكن هناك أي أداة لتصوير ذلك المشهد.

قال: فلم تجرؤوا وراحوا يصفونها بدقة، وكأنهم رأوها رأي العين.

قلت: الحدس العلمي هو الذي دلهم على ذلك..

قال: بل هو الرجم بالغيب، والهرب من الحقيقة.. فإن كان هذا الجهاز الميت محتاجا لعقل يصممه ويبدع في تفاصيله، فكيف بالحياة التي هي أكثر تعقيدا؟

راح يمسك بقطعة من قطع الأجهزة كانت أمامه، ثم يقول[1]: انظر إلى هذه الدائرة المتكاملة البسيطة.. إنها تتكوّن من ثلاثة ترانزيستورات فقط، علما بأنّ الترانزيستور ما هو إلا وصلتين من أشباه الموصلات، كل وصلة منها مجرد سيلكون مشوب بفلز آخر.. وهذه الدائرة تصنع متكاملة، حيث تطبع مباشرة من السيلكون والشوائب والمواد العازلة، لتخرج في صورة دائرة.

حدق في وجهي، ثم قال: أليس احتمال تكوّن هذه الدائرة في الطبيعة صدفةً، أسهل وأبسط بمراحل من تكوّن الخلية الحيّة بالصدفة؟

قلت: كيف تقول ذلك؟.. هذا مستحيل من الناحية العلمية.

قال: إننا في النهاية لا نتحدث سوى عن بعض الرمل.. فالسيلكون هو المادة الأساسية في الرمل.. وهو يملأ أرجاء الكرة الأرضية.. وملايين السنين كافية وأكثر من كافية لتفعل به المعجزات، تبعا لنظرية الصدفة الخلاقة.. فهل يا ترى تمّ العثور في طبقات الأرض المختلفة على شرائح تحتوي على هذه الدائرة؟

قلت: ذلك غير ممكن.. ما بك يا رجل؟

راح يستأنف حديثه من غير أن يلتفت لكلامي: إن كان تكون الأشياء المعقدة بالصدفة أمرا واردا، فمن المنطقي أن نتوقّع

---

[1] () استفدنا المادة العلمية الواردة هنا من: كتاب [خرافة دارون: حينما تتحول الصدفة إلى علم]، م. محمد حمدي غانم.

العثـور على دوائـر أخـرى.. وربّمـا تكـون بعض هـذه الـدوائر قـد اتصلت بالصدفة، فكّونت دائرة تجمع خانتين جمعـا حسـابيا بنظـام العد الثنائي.. وباتحاد اثنين منها تكوّنت دائرة تقـوم بجمـع خـانتين ثنائيتين مع الأخذ في الاعتبار باقي جمع خانتين سابقتين.. وبصدف بسيطة أخرى نشأت دوائر الطرح والضرب والقسمة!

صحت فيه ليسمعني: إن ما تقوله هرقطة في ميزان العلم.

راح يكمـل حديثـه من غـير أن يلتفت لي: وعلى مسـار آخـر، كانت مجموعات من القطع قد اتحدت مع بعضها بالصدفة لتكـوين أوّل قلاّب.. وبتواليــف منــه ظهــرت بالصــدفة مســجلات القيم.. وبتجمع هذه الأشـياء معـا ظهـرت وحـدة الحسـاب والمنطـق إلى الوجود بالصدفة.. وهكذا أخذت الطبيعة عبر ملايين السنين تكــوّن أول مشغل دقيق في الوجود.. وهكذا اسـتمرت سلاسـل الصـدف السعيدة بلا كلل ولا ملل عبر عشرات الملايين من السـنين لصـنع باقي أجزاء الحاسب الآلي!

لست أدري كيف شعرت بنشوة عنـد حديثـه، فـرحت أدع لـه الفرصة ليتحدث براحته، راح يقـول، وهـو سـارح في خيالـه: ليس هذا فقط، فقد حدث بالصدفة أن وصـل سـلك هـذا الحاسـب إلى بركة حمضية تولّدت فيها الكهرباء، فبدأ عمله.. ومع بعض الصدف الصغيرة، راحت المعلومات تُخزن عشوائيا في ذاكرته، فتكوّن فيه أوّل نظام، لم يلبث أن تطوّر بالصدفة إلى أوّل وينـدوز، ثمّ تـوالت إصدارات هذا الويندوز، وظهرت تطبيقات المكتب وبـرامج عـرض الصــــور والأصــــوات والأفلام، ثم ظهــــرت تطبيقــــات الرســــوم المجسمة، وبـدأت تصـنع بالصـدفة نمـاذج أفلام ثلاثيـة البعـد فيهـا نباتات وحيوانات وبشر.

ثمّ تطوّرت لغات البرمجة على ذلك الكمبيوتر، وبدأت تتحوّل بالصدفة إلى لغات ذكاء صناعيّ!

وعلى مسار آخر، كانت تتطـوّر آلات ومحركـات، فاسـتخدمها برنامج الذكاء الصناعي ليصنع الإنسان الآلي، الـذي اسـتغل ذكـاءه وبراعته الكيميائيـة لتخليـق أوّل خليـة حيّـة معمليـة، وصـنع نمـاذج

النبات والحيوان والإنسان التي أنتجتها برامج الرسـوم المجسـمة، ليجعل من الكرة الأرضية مكانا أجمل!

وفي مسار آخر، كـان واحـد من الأنـاس الآلـيين يفكّـر أنّـه لا يمكن أن يكون قد جاء إلى الوجود بالصدفة، فاخترع فكرة الصانع الأوّل، وعلّمها لبعض الكهان، قبـل أن تحـلّ كارثـة جيولوجيـة على الأرض تقضـي على الحواسـب والآلات فلم تبـقَ إلا بعض البشـر والكائنات الحية!

التفت إلي، وقال: هل سمعت ما ذكرت.. هيا أسرع بكتابتـه.. ولا تنس أن تكتب على هذه النظرية العلمية اسمي..

قلت: ولكن النظرية العلمية تحتاج إلى إثبات؟

قال: لا تقلـق.. فكـلّ مـا على العلمـاء من الآن فصـاعدا هـو البحث عن بقايا الجهاز الأول التي انقرضـت في طبقـات الصـخور الأولى.. وربما يأتي في المستقبل عالم عبقريّ، ويكتشف أنّ كتلة من الرمال مشوبة بالفسفور قد تصلح كبداية لأشـباه الموصـلات، وتوضع في متاحف التاريخ الطبيعي، وتمنح الاسم العلمي سليكينو نانديتو!

ثمّ يفكّر آخر في تلفيق دليـل من أجـل الشـهرة، فيلفـق أوّل بدائيـة، وتعـرف في المراجـع باسـم [نانـدينو كمبـورس].. وهكـذا تتوالى الاكتشافات العلمية العبقرية التي تؤكد نظريـتي، مهمـا علا صراخ أعداء العلم والحقيقة!

التفت إلي، وقال: طبعا إن واجهنـا بعض السـذج، فسـنجيبهم بكل بساطة: مهلا.. تروّوا في أحكامكم.. من يزدري النتيجـة الـتي وصلت إليهـا هـذه النظريـة، فعليـه أن يعـود إلى البدايـة: هـل من المسـتحيل تكـوّن أي شـيء بالصـدفة؟.. تـذكروا أنـه مهمـا كـان الاحتمال ضئيلا، فلدينا ملايين السنين لحدوث الصـدفة.. إنـه نفس الكلام السـاذج الـذي تقولـون إنـه علم، وإنـه أصـل المخلوقـات الحية؟!.. فلماذا ترفضون هذا وتصدقون ذاك؟!

لم أدر ما أجيبه به، فقال: هذا الـذي ذكرتـه لـك ليس كلامي،

إنه كلام العلماء الكبار الذين تقرون لهم بالعلمية.. لقد قال السير [فْرِد هويل] في إحدى مقابلاته التي نُشرت في مجلة الطبيعة في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1981: (إنّ ظهور خليّة حيّة للوجود عن طريق الصدفة، يشبه ظهور طائرة بوينج 747 عن طريق الصدفة، نتيجة هبوب عاصفة على محلات لأدوات الخردة!)

***

بعد أن مررت على هؤلاء الأعضاء جميعا، وغيرهم ممن لم أذكر لكم، جلست مع نفسي، واسترجعت كل ما سمعته، ورحت أتأمله بعيدا عن كل ألوان الهوى، وما هي إلا لحظات حتى رحت أمزق الشيك الذي قدم لي.. ثم أقول مخاطبا ربي من غير أن أعرفه: يا رب كل شيء.. يا من أنشأ الحياة وأوجدها.. أعتذر إليك، لأني كنت أريد أن أصبح معولا يهدم الحقائق.. فأبت حقائقك إلا أن تنتصر.. يا رب كل شيء ومليكه.. يا من أبدع كل ما في الكون والحياة.. ودبر كل ما فيهما.. ها أنذا بين يديك قد مزقت من أجلك كل الأموال التي وهبت لي.. فهب لي من فضلك العظيم ما يخلصني من الورطة التي وقعت فيها.

قلت ذلك، ثم ذهبت إلى مدير المركز، وأنا أحمل الشيك الممزق، ثم أعرضه عليه، وأنا أقول: ها هو الشيك الذي سلمته لي.. لم أصرف منه شيئا.. وأنا أعتذر إليك.. وأقدم في نفس الوقت استقالتي من العمل في مركزكم.

قال لي، وهو مندهش لما يرى: لكنك ستعرض نفسك للسجن.

قلت: السجن أهون علي من أن أشوه حقائق الوجود.. وأصبح شيطانا يحارب ربه.

قلت ذلك، ثم أردت أن أنصرف.. لكنه استوقفني، ثم راح يكتب شيئا.. وهو يقول: بورك فيك.. لقد نجحت في الاختبار.. وهذا الشيك من عندي.. وليس من المركز.. وفيه سداد ديونك جميعا.. بالإضافة إلى أموال أخرى يمكنك أن تستفيد منها في بناء مركز أبحاث أكثر تطورا.. خذه واعتبره جواب الله لك.. فلا يضيع

أحد سأل الله، ومد يده إليه.

التطور.. والعلم

بعد أن انتهى الأول من حديثه، قال الثاني، وهو يلتفت لي: أرجو أن تكون قد سجلت كل ما ذكره زميلي وصديقي بكل دقة.. فهناك من يصطاد في الماء العكر، ويتصيد حصى الأخطاء ليقضي بها على جبال الحقائق.

قلت: لا تخف.. فلقلمي من الورع ما يمنعه من الزيادة والنقصان.. لكن مع ذلك ارحموني، وارحموا مستواي العلم، فأنا أفهم من كلامكم جمله، ولا أحيط بتفاصيله.

قال: ونحن لا نطلب منك التفاصيل.. بل نطلب منك فقط أن تفهم منه ما يفهم منه سائر الناس.. فلكل علم أهله..

قلت: كلام صديقكم في الحقيقة مع كونه يدخل بنا في بعض متاهات العلم الضيقة إلا أنه مملوء بالجمال.. فقد أشعرتني كلماته بمحبة الله وتعظيمه.. وأخرجتني من كثير من ظلمات التعتيم والوهم التي كنت أتصور بها حقيقة الحياة.. فقد كنت أراها ممتلئة بالبساطة، ولم أكن أعلم أبدا أنها بذلك التعقيد. وقد كنت فوق ذلك أتصور أن لأولئك الماديين بعض الحجة فيما يقولون.. لكني اكتشفت أنهم أبعد الناس عن العلم وحججه، وأنهم لا يختلفون في تلاعبهم بالعلم عن تلاعب سدنة الأديان المزيفة.

قال: صدقت في هذا.. وما دمت قد اقتنعت به.. فهلم لتسجل عني كل ما أقوله.. وبالدقة التي سجلت بها حديث صاحبي.. فهو قد حدثكم عن رحلته من الصدفة إلى الخلق.. وأنا سأحدثكم عن اكتشافي للخدع التي يمارسها التطوريون، والخرافات التي ينشرونها.

قلت: ما تعني بذلك؟

قال: أنت تدعوني بهذا للبدء من حديثي من آخره، لا من أوله.

قلت: لا بأس.. فأحيانا لا يفهم أول الشيء إلا بعد فهم آخره.

قال: أنت تعلم حسبما حدثك صديقي الأول أن هناك نظريتان في تفسير بداية الخلق.. النظرية التي تقول بالعشوائية والصدفة.. والنظرية التي تقول بالخلق والغائية.

قلت: أجل.. علمت هذا.. وقد ذكر من الأدلة الكثير ما يؤيد وجهة النظر الثانية، والتي تدل عليها كل حقائق الوجود.

قال: فهكذا الأمر فيما نراه من مظاهر الحياة في الكون وتنوعها، فقد اضطر القائلون بالصدفة إلى حيلة التطور، حتى يتهربوا من نظرية الخلق المقصود..

قلت: هذه نظريتهم.. فما نظرية المؤمنين؟

قال: المؤمنون يؤمنون بنظرية الخلق الجديد.

قلت: ما تعني بها؟

قال: أعني بها تلك الحقيقة العظيمة التي نص عليها قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق: 15]، فهي النظرية العلمية البديلة لنظرية التطور القديمة أو الحديثة، والتي وجهت لها إشكالات كثيرة تجعل من المستحيل أن تتحقق بالعلمية المطلقة أو بالعلمية النسبية.

ذلك أن نظرية الخلق الجديد لا تلغي وجود تقارب بين المخلوقات.. وإنما تعني أن الله تعالى باعتباره خلاقا، لا يطور الخلق السابق ليتحول إلى خلق جديد، وإنما يخلقه ابتداء، كما صور ذلك بدقة عند ذكره لخلق آدم عليه السلام، والذي ورد في النصوص القرآنية والنبوية أنه خلق من طين، ومن حمأ مسنون..

وكما صوره بدقة عند ذكره لناقة صالح عليه السلام، والتي أخرجها من الصخر آية من آيات الله.. كما قال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: 73]

قلت: صدقت في هذا.. فقد كان لهذه الناقة المخلوقة خلقا جديدا من الصفات والمميزات ما لم يكن لسائر النوق، فقد كانت تعطيهم لبنا كثيرا، كما أنها تستقي كثيرا، قال تعالى: قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ [الشعراء: 155]

قال: وهكذا فإن من مقتضيات الإيمان بالبعث الإيمان بالخلق الجديد، فالإنسان عند بعثه لن يتطور من كائن آخر، وإنما سيخلق من جديد من تراب الأرض، وبخصائص جديدة تخالف الخصائص التي ولد بها في هذه النشأة.

ولهذا رد الله تعالى على الذين يفرضون عليه ماذا يفعل، وكيف يفعل، بقوله: أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ [ق: 15]، ومعناها ـ كما يذكر المفسرون ـ: (أعجزنا عن الخلق الأول حتى نعجز عن الخلق الجديد؟ أي لم نعجز عن الخلق الأول وهو إبداؤه فلا نعجز عن الخلق الجديد وهو إعادته)

والمراد بالخلق الجديد (تبديل نشأتهم الدنيا من نشأة أخرى ذات نظام آخر وراء النظام الطبيعي الحاكم في الدنيا فإن في النشأة الأخرى وهي الخلق الجديد بقاء من غير فناء وحياة من غير موت)

قلت: بورك فيك.. وقد ذكرني حديثك هذا بما ورد في القرآن الكريم من القدرات العظيمة التي آتاها الله للمسيح عيسى عليه السلام، ومنها إحياء الموتى، وإبراء الأكمة والأبرص.. والتي وصلت إلى حد القدرة على الخلق بإذن الله.. والتي وردت في مواضع من القرآن الكريم، وبصيغ متعددة، منها قوله تعالى على لسان المسيح معبرا عن فضل الله عليه: وَرَسُولًا إلى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ [آل عمران: 49]

ومنها منة الله عليه بالقدرة على ذلك، قال تعالى: وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي [المائدة: 110]

وهذه الآيات فيها رد شديد على أولئك الذين يحيلون على

الله أن يخلق أي أمة من الأمم ابتداء، ويتصورون أنه يفتقر إلى أن يطور خلقا سابقا، ليحصل منه خلق جديد، وكأنه عامل في مصنع، أو مخترع في مخبر، وليس قادرا على كل شيء.. يخلق ما يشاء.. متى يشاء.. كيف يشاء.

ولذلك هم يصادمون النصوص الصريحة التي تنص على أن آدم عليه السلام خلق من تراب، ومن طين، ليحولوه إلى كائن متطور على كائن سابق، وأن تلك التسوية التي ذكرها القرآن الكريم ليست سوى ألفاظا عبثية اعتباطية لا دلالة حقيقية لها.

والمشكلة أن هؤلاء في تكلفاتهم يربطون ذلك بالقرآن الكريم، فيستدلون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: 59]، ويلبسون على أنفسهم وعلى الناس، بأن الله شبه المسيح بآدم غافلين عن أن المشبه به لا يساوي المشبه في كل الوجوه.. وغافلين عن أن الله تعالى ما ذكر ذلك إلا ليبين أن له الإرادة المطلقة، ولذلك ـ كما خلق آدم عليه السلام ـ من غير أبوين، فهو قادر على خلق المسيح من غير والد.

قال: صدقت.. ولو أن هؤلاء تخلوا عن كبريائهم، وراحوا يحترمون لغة القرآن الكريم، ويتدبروا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 28، 29] والذي ورد في مواضع متعددة من القرآن الكريم.. لما وقعوا فيما وقعوا فيه.. ولما فضلوا أي فرضية مهما كانت على هذه الحقائق المقدسة.

قلت: بورك فيك وفي إيمانك.. ولو أن هؤلاء نظروا فيما يخترعونه من مخترعات يزهون بها، لكان ذلك وحده كفيلا بتسليمهم لخالقهم، واعترافهم بقدرته المطلقة على الخلق ابتداء من غير حاجة لأي وسائط.

قال: صدقت.. فهل كان الجيل الثاني من جهاز الكمبيوتر صناعة جديدة، أم أن المخترعين راحوا إلى نفس الجهاز القديم

ينقصون منه ويضيفون، حتى تحول إلى جيل جديد.. لاشك أن الواقع لم يدل على هذا.. بل إن كل جيل من الأجيال يقتضي أن يصنع صناعة خاصة تتناسب معه، مهما كان القرب بينه وبين الأجيال السابقة.

قلت: بورك فيك.. وقد ذكرني موقفك الإيماني هذا بأولئك السلبيين الذين يقرؤون قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: 51]، ويقرؤون معها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: 36] ثم يظلون مصممين في الدفاع عن هذه الفرضية التي لم تستوف حقها من الأدلة..

مع أنه لا علاقة لها بكفر ولا إيمان.. فالله تعالى قادر أن يخلق كل أمة من الأمة خلقا سويا منفصلا من دون أن يحتاج إلى هذه الفواصل التطورية، التي تنبئ عن القصور أكثر من إنبائها عن العلم الشامل.. كما أنه قادر على أن يجعل بعضها يرتبط ببعض.. فكل ذلك في قدرة الله تعالى.

قال: الإشكال ليس في ذلك فقط.. وإنما في أمرين آخرين سأوضحهما من خلال سردي لقصتي.. أما أولهما فهو أن هذه النظرية في حال ثبوتها أو عدم ثبوتها لا علاقة لها بأي مجال من المجالات العلمية الواقعية، فسواء قلنا: إن الزرافة تطورت عن حيوان سابق، أو خلقت خلقا جديدا.. فإن ذلك لن يغير من الزرافة، ولا من فوائدها أو مضارها شيئا.. وبذلك فإن البحث في هذا نوع من الترف العقلي مثله مثل البحث في أيهما السابق البيضة أم الدجاجة.

والثاني: أن هذا فيه الكثير من التكلف.. فالله تعالى ما أشهدنا خلق كونه، ولا شيء منه، والاستشهاد بالحاضر على الغائب قياس فاسد.. مع أنه لم يثبت في المخابر أي دليل على التطور.. كل ما فيه بضاعة كلامية مزجاة خالية من كل دليل.. لا يهدف أصحابها إلا إلى تفسير كيفية نشوء الحياة، ومحاولة عزل الله عن ذلك النشوء، ابتداء أو استمرارا.

***

بعد توضيحه للفرق بين التطـور والتنـوع، أو التطـور والخلـق الجديد، اعتدل في جلسـته، وحمـد اللـه وصـلى على نبيـه ﷺ.. ثم قال: ما عساي أقول لكم.. ومن أين يا ترى سأبدأ قصتي؟

ثم سكت قليلا، وقـال: ربمـا أحسـن بدايـة لحـديثي هي تلـك المحاضرة التي سـمعتها في بعض المـؤتمرات، والخاصـة بأبحـاث التطور.. فقـد نـزلت علي حينهـا أول أنـوار الهدايـة الـتي جعلتـني أراجع كل معارفي ومواقفي، وأضـع نفسـي في السـكة الصـحيحة التي يجتمع فيها العلم مع الإيمان.

لقد كنت قبلها مجرد إمعة مقلد، أحفظ ما يقال لي، ثم أردده كالببغاء دون أن أن يمر على مراكـز التحليـل والـوعي في عقلي، لكنني بعد سماع تلك المحاضرة، وما حصل فيها من تعقيبات رحت أفكر جيدا في كل معارفي، وأصححها وفق ما تقتضيه الحقيقــة، لا وفق ما يقتضيه الهوى.

لقد كانت المحاضرة بعنوان [تطور الحيتان من أسـلاف برية] [1]، والتي راح صاحبها يمارس كل صنوف الحيلة ليقنعنا بأن بعض الثدييات تطورت قبل 60 مليـون سـنة إلى حيتــان، حيث غـامرت بعض الثدييــات، ونـزلت إلى المـــاء بحثـا عن الطعــام، فبـدأت تختفي مع الوقت الأرجل الخلفية، وتحـولت الأرجـل الأماميــة إلى زعـانف، وتغير شكل الأنف، واختفى الشعر وتحول إلى جلد.

وبــدل أن يحــدثنا صــاحب المحاضــرة عن التجــارب العمليـة المثبتة لهذا راح يقص علينا حكايات من سـماهم كبـار أحبـار العلم الذين أرقهم البحث عن سر وجود الحيتان في البحـر.. وكـأن اللـه الــذي خلــق هــذا الكــون العظيم يعجــز أن يجعــل في البحــر من الكائنات من يشابهه في البر.

1() استفدنا المادة العلميـة الـواردة هنـا من مقـال مطـول بعنـوان: تطـور الحيتـان من أسلاف برية، وهو من موقع: أنا أصدق العلم.. وفيه المصـادر، والتفاصـيل الكثـيرة المرتبطـة بالموضوع..

فذكر لنا تلك النقاشات العلمية حول أصل الحيتان في فترة ما قبل النظرية الداروينية، والتي كانت تدور حول أصل الحيتان، وعلاقته بالثدييات البريّة.. وذكر لنا من ذلك ما كتبه [جون راي] عام 1693 من أنّ الحيتان حيوانات ثديية معتمداً في ذلك على التشابه بين الحيتان والثدييات البريّة.

ثم ذكر لنا نظرية داروين المرتبطة بهذا، وهي أن الحيتان تطورت من الدببة، مقدماً فرضية عن إمكانية أن تكون الضغوط الاصطفائية ساهمت في تطور الدببة إلى حيتان..

ولم ينس أن يذكر لنا أن داروين اضطر تحت وطأة السخرية التي تعرض لها لسحب فرضية الدببة السابحة هذه من النسخ اللاحقة من كتابه [أصل الأنواع]

ثم ذكر لنا اقتراح [فلاور] عام 1883 والذي يذكر بأن الحيتان تمتلك صفات أولية وأثرية غير وظيفية تتميز بها الثدييات البرّية، وذكر لنا بحماسة أن (هذا ما أكدَّ أن اتجاه تطور السلف كان من نوع بريّ إلى نوع بحري وعلى أسس علم التّشكل (المورفولوجيا) ربط [فلاور] بين الحيتان وذوات الحوافر)

ثم ذكر لنا أنه في بدايات القرن العشرين اقترح كل من [ايبرهارد فراس] و[تشارلز اندروز] أن السريدونتات، وهي حيوانات مفترسات من آكلة اللحم البدائية، وهي منقرضة حالياً هي أسلاف الحيتان.

ثم ذكر لنا أنه في وقتٍ لاحق، افترض [ويليام ديلر ماثيو]، وهو من متحف التاريخ الطبيعي الأميركي أن الحيتان أصلها حيوانات ملتهمة الحشرات.

ثم ذكر لنا أن [إيفرهارد يوهانس سليبر] حاول أن يمزج بين الفكرتين، فافترض أن الحيتان هي سليلة ما دعاه [بارنس] بالـ [creodonts ـ cum ـ insectivores]، وهو حيوان مفترض يجمع بين صفات الحيوانات المفترسة والحيوانات آكلة الحشرات.. مع العلم لم يُكتشف حيوان هكذا حتى الآن.

ثم ذكر لنا أن [فان فالن] ربط عـام 1966 و[سـزالاي] عـام 1969 بين الحيتـان الأولى والـ [mesonychid condylarths]، وهي آكلات لحوم بدائية من ذوات الحوافر منقرضة حالياً وحجمها تقريباً بحجم الذئب، اعتماداً على صفات الأسنان.

ثم راح يرجح لنا هذا الاحتمال الأخير بتخرصات كثيرة صدعت رؤوسـنا، وملأت القاعـة شـغبا.. فبعـد انتهـاء محاضـرته، خـرجت التعقيبات الكثـيرة الـتي تـرد عليـه، وبعضـها كـان ينتصـر للدببـة.. وبعضها لتلك الحيوانات الافتراضية.. وبعضها لذوات الحفريات.

لسـت أدري حينهـا كيـف تـذكرت مـا يطلـق عليـه [الجـدل البيزنطي]، لعلكم تعرفونه.. إنـه ذلـك التعبـير المسـتعمل للدلالـة على المناقشات التى لاتؤدى إلى شـئ فى النهايـة.. لأنـه لا يمكن لأحد من الناس أن يرحل إلى أحقاب التاريخ ليرى حقيقة ما جرى.

ولم يكن هذا موقفي لوحدي، بل كان موقـف رئيس الجلسـة الذي لم يستطع إدارتها ولا التحكم في القاعة بعد الشـغب الكثـير الناتج عن انتصار كل فريق لوجهة نظره.. حينها اضطر لأن يضرب بمطرقته ضربا عنيفا على مكتبه، وهـو يقـول: اسـمعوا مـني هـذه القصة أولا.. ثم عودوا إلى ما كنتم عليه.

أطرق الجميع ساكتين، فقال: حـدثني جـدي أن أهـل بيزنطـة كانوا محاصرين بجيش، وطال الحصار، وبدل أن يبحثوا في مخـرج لأزمتهم راحـوا يبحـون في أيهمـا الأسـبق البيضـة أم الدجاجـة.. وانهمكوا فى النقاش والجـدل حـول هـذه القضـية، وطـال خلافهم حولهـا.. ثم مـا لبث الخلاف أن تحـول إلى معركـة.. وحين دخـل أعداؤهم عليهم المدينة وجدهم أرضا رخوة لتحقيق جميـع مآربـة.. لأن ذلك الجدل البيزنطى شغلهم عن كل شيء.

بعد أن انتهى رئيس الجلسـة من حديثـه، قـال: والآن يمكنكم أن تعـودوا للجـدل التطـوري الـدارويني الـذي لا يقـل عن الجـدل البيزنطي.. ولا تنسوا أن عقولكم ومعاملكم الـتي تشـغلونها بمثـل هـذه القصـص الـتي لا معـنى لهـا محتاجـة لأن تبحث فيمـا يرتبـط بواقعنا العملي.. فالبشرية بحاجة لأن تعـالج الكثـير من الأمـراض،

والبيئة بحاجة لأن تستعيد عافيتها بفعل السموم التي أفرزتها هـذه الحضارة، ولذلك إن كان لكم فراغ من وقت فـاملأوه بـالبحث في هذه الأمور، قبـل أن تـدمر عليكم الأرض، ويحصـل لكم مـا حصـل للديناصورات.

بعـد أن انتهى رئيس الجلسـة من حديثـه هـذا، سـاد صـمت طويل القاعة، قطعه رئيس الجلسة بقولـه: اسـمحوا لي مـا دمت رئيسا لهذه الجلسة، واحتراما لهذا السكون الذي عاد للقاعـة بعـد القصة التي سردتها أن أسألكم سؤالا وجيها أرجو أن تجيبوني عنه بكل علمية ومصداقية.

أشاروا إليه أن يسـأل، فقـال: أرى أننـا قبـل أن نتسـاءل عن أصـل الحيتـان.. وهـل هي الدببـة، أم آكلات الحشـرات، أم ذوات الحوافر، أم تلك الحيوانات الافتراضية.. أن نتسـاءل أولا عن مـدى علمية نظرية التطور في حد ذاتهـا.. وهـل هي ضـرورة علميـة، أم أن هناك خيارات علمية أخرى غيرها؟

وأرجو من الذين يودون الإجابة على هذا السؤال الخطـير أن يتركوا اللغة المنغلقة في الحوار، بل يتعاملوا مع المسـألة بعلميـة مجردة، وبعيدا عن التشخيص.. لأنا هنـا نـاقش هـذه النظريـة من ناحية علميتها، ولا يهمنا من قال بذلك أو لم يقل..

قام أحد الحاضـرين، وقـال: لم أقم هنـا لأجيب على السـؤال الكبير الذي سأله حضرة رئيس الجلسة، وإنمـا أردت ــ وباعتبـاري أستاذا في المنهجية العلمية ـ أن أذكر لكم بأننا نحتاج للإجابة على ذلك السؤال أن نحتكم للمعايير العلمية التي يعتمـدها الخـبراء في هذا المجال.

وبما أنني عضو مؤسس لمجلس البحـوث الوطـني بالولايـات المتحــدة الأمريكيــة، فسـأعرض على حضــراتكم التقريــر الــذي نشرناه بخصوص هذه المعايير.. والذي قصدنا منه المحافظة على سلامة واستقامة تدريس العلوم.. فالمنهج العلمي يتميز عن غـيره من مناهج وهيئات المعرفة باستخدام المعـايير التجريبيـة، والحجج المنطقية، ومبدأ الشك.

ويجب أن تلبي التفسيرات العلمية بعض المعـايير المحـددة.. منها مثلا أن تكـون متسـقة مـع الأدلـة التجريبيـة والرصـدية حـول الطبيعة.. ويجب أن تكون لهـا القـدرة على التنبـؤ بدقـة بخصـوص الأنظمة التي يتم دراستها.. ومنها أن تكون بعيـدة عن التفسـيرات المبنيـــة على الأســـاطير، والآراء الشخصـــية، والقيم الدينيـــة والإلهامات الذاتية، والمعتقدات الخرافيـة.. فكـل هـذه الأمـور قـد تكون مفيدة شخصيا أو اجتماعيا، ولكنها ليست تفسيرات علمية.

ثم راح يفصل لنا معايير النظرية العلميـة السـتة، ويطلب من الحضور أن يطبقوها على نظرية التطور.

التطور.. والبيانات الرصدية:

بعد أن انتهى من حديثه قام بعض العلمـاء، وقـال: بخصـوص المعيـار الأول.. وهـو البيانـات الرصـدية، فـإني أحب أن أصـرح لحضراتكم بأن ما يذكره التطوريـون من أن التطـور عمليـة قابلـة للملاحظـة غـير صـحيح.. ذلـك أنهم يتعمـدون الخلـط بين معنـيين كلاهمـا يطلقـان عليهمـا لقب [التطـور]، أحـدهما مقبـول وعلمي، وآخرهمـا مرفـوض وخـال من العلميـة.. ثم يحـاولون الاسـتدلال بالأول على صحة الثاني.

قال بعض الحضور: كيف ذلك.. هلا وضحت لنا أكثر.

قــال[1]: أنتم تعلمــون أن نظريــة التطــور مــرت بمراحــل متعددة.. فمنها القديمـة.. ومنهـا الحديثـة.. أو التركيبيـة الحديثـة.. وهي امتـداد لنظريـة داروين القديمـة، والـتي افترضـت أن التنـوع الحيوي يعود إلى أصل واحد..

ولما كـانت هـذه النظريـة لا تهتم بآليـة التطـور، فقـد جـاءت الدارونيـة الحديثـة لتقـدم شـرحًا لآليـة التطـور اسـتنادًا على علم وراثـة العشـائر مـع إبقـاء أسـس الدارونيـة الكلاسـيكية كالانتقـاء الطبيعي والجنسي وغيرهما.

وبناء على ذلك، فقد ظهر تعريـف آخـر للتطـور، وهـو مقـدار

1() انظر في هذا مقالا رائعا بعنوان [تطور نظرية التطور]، إسماعيل عرفة.

التغير في تكرار المورث في العشيرة، مع إبقاء التعريف الأول.. ومن هنا صار عندنا مفهومان منفصلان للتطور: التطور الدقيق، والتطور الكبير.

أما التطور الكبير، وهو المقصود بالأصالة، فيعني التغيّر في الصفات المورفولوجية والجينية مما يتسبب في الانتقال من نوع إلى نوع آخر.. بخلاف التطور الدقيق أو الصغير، والذي يتم التغير فيه على مستوى النوع الواحد نفسه، كتطوير كائن حي لمقاومته نحو جسم غريب، أو تغيير لون لجلد، أو تغيير في حجم عضو معين من الجسم، أو نحو ذلك.

وهذا مما لا إشكال فيه، ذلك أن هجرة الأوروبيين مثلا إلى أستراليا واختلاطهم بالشعب الأسترالي الأصلي، أدت إلى اختلاط العرقين، وقد أثر ذلك على أولادهم، بحيث أصبحت أشكالهم تمزج بين الأصلين.. وهم يعبرون عن هذا بالتطور البيولوجي للأستراليين.. ومن أمثلته أيضا ظهور فيروس الأنفلونزا كل مرة بصورة جديدة، بحيث لا تؤثر فيه اللقاحات السابقة.

ولهذا كان لوجود تعريفين للتطور أثر كبير في إحداث الخلاف بين أنصار نظرية التطور ومعارضيها، إذ حين يقدم البعض أدلة صحيحة على التطور كظهور فيروس الأنفلونزا الجديد، يمتعض الآخرون، ويأخذون بنقد جوانب أخرى للنظرية تفترض الأصل المشترك للإنسان أو كل الأحياء.

وقد عبر عن هذا الخلط [مايكل بيهي] بقوله: (الدارونية الحديثة فسرت التطور الدقيق بشكل رائع، لكن عند الحديث عن التطور الكبير فعلى التطوريون أن يصمتوا)

وهذه المقولة هي واقع الحال في معظم الخلافات التي نراها، فالمؤمن ينتقد التطور الكبير فيرد عليه الملحد بأدلة على التطور الدقيق، ولذلك لا يصلون لأي نتيجة.

ولهذا ذكر [نيكولاس كومنينلس]، الأستاذ بجامعة ميزوري ـ كنساس، في كتابه [Darwin's Demise]، أنه من الأخطاء الشائعة في الاستدلال العلمي استخدام التكيُّفات الملحوظة في التطور

الصغير لافتراض صحة التطور الكبير، والانتقـال من نـوع إلى نـوع آخر.

وكمثال على ذلك التحايل والخـداع قـام أحـد أشـهر المواقـع المؤيدة للتطور (Talk origins) بإيراد أكثر من عشرين حالة ادّعى فيها الموقع رصد الانتواع بالفعل (أي الانتقـال من نـوع إلى نـوع)، لكن قام الجيولوجي الأمريكي كيسي لَسكين بفحصها جميعًا، فتبيّن لـه أن هذه الادّعـاءات غـير صـحيحة على الإطلاق، وأنـه في الحقيقـة ليس هناك حالة واحدة من الحالات المذكورة حـدث فيهـا التطـور الكبير الذي يتسبب في ظهور نوع جديد، بل كانت جميع التغيّـرات على مستوى النوع الواحد فحسب.

وفي تجربة ملفتة، قام البـاحث التطـوري بجامعـة ميتشـيجن الأمريكية، ريتشارد لينسكي، برصـد علامـات التطـور في البكتريـا لمدة 20 سنة بتعقب 40،000 جيلًا من البكتيريا، وفي النهاية أقـرّ أنه لم يكن هناك تغيّر جين واحد مفيد أو بنّاء طوال هذه المدّة.

وقد علّق أسـتاذ علم الجـراثيم بجامعـة بريسـتول البريطانيـة [آلان كلينتون] على ذلك متسائلًا: (ولكن أين هو الدليل التجريبي؟ لا يوجد ادّعاءٌ في الأدبيات العلمية أن نوعًا من الكائنات الحيـة قـد تطور إلى آخر. البكتريا، وهي أبسط صور الحياة المستقلة، تُعتـبر مثاليـة لهـذه الدراسـة، فهي تنتج أجيـالًا كـل 20 إلى 30 دقيقـة وتمثـل مجـاميع كـل 18 سـاعة. ولكن طـوال 150 عامًـا من علم الجراثيم، لا يوجد دليـلٌ واحـد أن نوعًـا من البكتيريـا قـد تغـير إلى آخر)

قال بعض الحضور: بناء على هـذا، أيهمـا يخلـو من العلميـة.. هل التطور الدقيق أم التطور الكبير؟

قال: بلا شك.. التطور الكبير هو الذي يخلو من العلمية، وهـو الذي يقصـد عنـد الإطلاق.. ولـذلك نـرى دوائـر المعـارف العلميـة تعرف نظرية التطور بأنها (النظرية التي تفترض أن كـل الكائنـات قد نشأت من أصل واحد، والذي نشأ بدوره من مادة غير عضوية)

بـل إننـا إذا سـألنا أي عـامي أو مثقـف عن معـنى [نظريـة

التطور]، فإنه حتما سيجيب بأنها (النظرية التي تفـترض أن أصـلنا من القرود)

وبنـاء على هـذا، فـإن عـرض أمثلـة، مثـل تطـور الفراشـات الداكنة والفاتحة لا يعتبر دليلا علي التطور.. ذلك أنهـا لا تـدخل في إطار التطور الكبير.

ولهـذا نجـد التطـوريين عـاجزين عن تقـديم أي معلومـة عن كيفيـة تطـور الامبيـا إلى الإنسـان عن طريـق اكتسـاب معلومـات وراثيــة جديــدة على مــدار الحقب الجيولوجيــة القديمــة الــتي لم يشهدها أحد.

بل إن التطوريين أنفسهم يعترفون بذلك، وقد عـبر عن ذلـك أحدهم بقوله: (تثبت التجارب أن عمليـة الانتقـاء الطـبيعي تحـدث بالفعل، ولكنها لا تثبت حدوث تطور الكائنات، مهمـا تبـاينت أعـداد الأنــواع المختلفــة من الفراشــات في الشــكل واللــون تظــل كــل الفراشات من البدايه للنهايه Biston betularia)

وقــال آخــر: (لم تظهــر آليــات التطــور المزعومــة [الانتقــاء الطـبيعي والطفـرات العشـوائية] أي قـدرة علي زيـادة المحتـوي الجيني لأي كائن حي، كما أنه لم ير أحد عملية تطور من قبل)

ولأجــل هــذا نــرى المشــاهير من التطــوريين أمثــال [دوكــنز] يراوغـون عنـدما يجـبرون علي الـدفاع عن مـوقفهم الإيمـاني من التطـــور، ففي إحـــدى منـــاظرات دوكـــنز على إحـــدى القنـــوات التلفزيونيــة على يــد أحــد القــائلين بنظريــة الخلــق، قــال دوكــنز: (التطور بالفعل تتم ملاحظتة،كل ما في الأمر أنه لم يتم ملاحظتـه أثناء حدوثه)

ثم راح يراوغ للاستدلال على ذلك بقوله: (إن رفض التصديق بشئ لم تره بعينيك هو أمر مناف للعقل، فكر في الأمر، أنـا لم أر نــابليون بعيــني من قبــل، ولكن هــل هــذا يعــني أن نــابليون غــير موجود؟)

وهذا الرد يـدل على أن دوكـنز والتطـوريين يعتمـدون لإثبـات

نظريـه التطـور، وبشـكل أساسـي على الأدلـة التاريخيـة لا الأدلـة العلمية التجريبيـة، وهم بـذلك يقعـون فيمـا يتهمـون بـه المؤمـنين بالأديان والغيبيات.

وهكذا فإن نظرية التطـور سـقطت في الاختبـار الأول الـذي وضـعه مجلس البحـوث الوطـني [NSES]، والـذي ينص على أن (أي نظرية علمية لابد أن تعتمد على الأدلة التجريبية والرصدية).. وقـد فشلت نظرية التطور في أول اختبار لمصـداقيتها كنظريـة علميـة بتخلفها عن هذا المعيار.

التطور.. والتنبؤات الدقيقة:

بعد أن انتهى من حديثه، قـام آخـر، وقـال: بعـد أن ذكـر لكم زميلي وصديقي تخلف نظرية التطور عن تطبيق المعيار الأول من المعـايير العلميـة، فسـأذكر لكم أنـا تخلفهـا عن تطـبيق المعيـار الثاني، وهو [التنبؤات الدقيقة]

وهذا التخلف ابتدأ من واضـع النظريـة نفسـها، فقـد اعـتراف داروين بأن هناك تحـديات خطـيرة تقـف عقبـة في طريـق إثبـات نظريته.

ومن الأمثلة على ذلك قوله: (لماذا لا نجد الأشـكال الانتقاليـة مطمـورة بشـكل كبـير في كـل الطبقـات الجيولوجيـة، لا تظهـر الجيولوجيا أبدا أي شئ عن مثل تلك السلاسل العضوية المتدرجـة بدقة، وهذا أخطر اعتراض يمكن أن يوجه ضد صحة نظريتي)

وقد كان داروين يطمع في أن تثبت الاكتشـافات اللاحقـة في السـجل الاحفـوري نظريتـة، وبنـاء على ذلـك فـإن التنبـؤ الـدقيق لنظرية التطور هو اكتشاف كميات كبيرة من الأشكال الانتقالية.

لكن صار المستقبل الذي كان يحلم به داروين بحد ذاتـه عبئـا على الداروينية وكما يقول جونثان ولـيز: (إن الاكتشـافات العلميـة الجديدة جاءت لتقضي على هذا الأمل تماماً، وربما أنكم لم تقرأوا عن هـــذا في الكتب الدراســية، إلا أن الحقيقـــة هي أن شـــجرة التطور الخاصة بداروين أصبحت بالفعل في وضع المنهار)

وبعد مرور 100 عام على تلك النبوءة الداروينية خـرج علينـا [سـتيفين جـاي جولـد] ليقـول: (إن النـدرة الشـديدة للأشـكال الانتقاليـة في السـجل الأحفـوري لا تـزال السـر التجـاري لعلم الأحافير)

كما اعترفت مجلة [National Geographic] مؤخرا بقولها: (مضـيء ولكن متقطع، يبدو السجل الأحفوري كفيلم للتطور فقد منـه 999 من اصل 1000 صورة)

وهكذا يعترف التطوريون أن 99.9 بالمائة من الدليل مفقود، ومع ذلك يحـاولون دائمـا خـداعنا بنمـاذج مزيفـة لحلقـات انتقاليـة ليبرروا بها نظريتهم.

وبناء على تلك المخادعات التي يمارسونها، فقـد خـرج علينـا بعضـهم، وهـو [سـتيفن جولـد] في عـام 1972م بآليـة جديـدة للانتخاب الطبيعي سمّاها بــ [التـوازن المتقطـع]، ليعطي تفسـيرًا تطوريًا للحفريات الجديدة المكتشفة، فـاقترح أن الكائنـات الحيـة تمر بفترات اسـتقرار لا تظهـر فيهـا أنـواع جديـدة، تعقبهـا فـترات تحول عنيف، مما يتسبب في ظهور أنـواع جديـدة مختلفـة بشـكل مفاجئ.

ليس ذلـك فحسـب، وإنمـا طـرح جولـد كـذلك أن السـلف المشترك المفترض في نظريـة التطـور ليس سـلفًا واحـدًا، وإنمـا عدة أسلاف في الحقيقة.

لكن تلك الطروحات جميعا لا تتوافق وأصل نظريـة التطـور.. فقد أورد داروين في كتابه [أصل الأنواع] أن الطبيعة كلٌّ مسـتمر، لا انقطاع فيها ولا فجوات، ولا قفزات.

وهي النظـرة المتفقـة مـع [البـاراديم]، أو التصـوّر الـذهني الحتمي العلمي السـائد حينئـذٍ، الـذي آمن فيـه العلمـاء بعموميـة قوانين الطبيعة وثبوتها واطّرادها، بلا تخلف ولا مصادفة.

لكن سواء تغيّـر هـذا البـارادايم أم بقي، إلا أن هـذه الفكـرة، وهي تقطّع التطوّر، رفضها داروين تحديدًا بشكل قاطع، لأن القول

بأن التغيّرات ـ كما يذكر داروين ـ (تحدث بشكل متـواتر ومسـتمر هو قول يحتوي في الحقيقة على معجزة)

وبناء على هذا يمكننا أن نتساءل عن قيمـة اسـتبعاد معجـزة الخلق الإلهي إذا تم استبدالها بمعجزة التطوّر المتقطع.

ثـارت بعض الضـجة في القاعـة، أوقفهـا رئيس الجلسـة، ثم طلب من العالم أن يتحدث، قائلا لـه: نرجـو أن تلـتزم بالموضـوع، فأنت تتحدث عن مدى تطبيق نظرية التطور للمعيـار الثـاني، وهـو [التنبؤات الدقيقة]

قـال العـالم: أجـل.. فهـذا التحـول المفـاجئ من تنبؤ داروين بوجود سلسلة عضوية دقيقة التدرج إلى فرضية جولـد هـو بمثابـة اعتراف عام بعدم قدرة التطور علي تقديم تنبؤات دقيقـة، وهكـذا وبقليل من المرواغـة أصـبح غيـاب الـدليل أكـبر دليـل على صـحة النظرية.

لم تكن تلك النبوءة الوحيدة التي فشلت النظرية في إثباتهـا، ولكن بشكل مماثل فشلت كـل التكهنـات الأخـري مثـل [الاعضـاء الضامرة] إذ كان التطوريون يظنون أن تلـك الاعضـاء وال [دى إن إيه] هي بقايا أسلافنا التي تناقلتهـا عـبر الحقب الجيولوجيـة حـتى فقدت وظيفتها، وكانت تعتبر من الأدلة الدامغة على صحة نظريـة التطور.

لقـد عـبر بعض العلمـاء عن فشـل نبـوءة نظريـة التطـور المرتبطة بهـذا، فقـال: (إن في الفشـل في التعـرف على آثـار الـ [دى إن إيه] غير المشفر للبروتين سـوف يخلـد كـأكبر غلطـة في تاريخ الأحياء الجزيئية)

ومثـل ذلـك أيضـا فشـل نبـوءات داروين في اعتبـاره أن الاكتشافات الحديثة ستقودنا إلى اكتشاف الأصـل المشـترك لكـل الكائنـات الحيـة على الأرض.. حيث أنـه لم يكشـف لنـا السـجل الأحفـوري عن أي حيـاة قبـل العصـر الكـامبري، وهـو الحقبـة الجيولوجيـه الـتي ظهـرت فيهـا أول أشـكال الحيـاة على الأرض وظهرت بشكل معقد، ويبلغ عمـر تلـك الحقبـة 600 مليـون سـنه

تقريبا، وبذلك لم يتم إيجاد الأصل البدائي المشترك للكائنات الحية.

لقد علق [دوكنز] على ذلك الموقف الحرج قائلا: (على سبيل المثال، تعتبر طبقات الصخور الكامبرية (التي يبلغ عمرها حوالي 600 مليون سنة) أقدم الطبقات التي وجدنا فيها معظم مجموعات اللافقاريات الأساسية.. ولقد عثرنا على العديد منها في شكل متقدم من التطور في أول مرة ظهرت فيها.. ويبدو الأمر وكأنها زُرعت لتوها هناك دون أن تمر بأي تاريخ تطوري.. وغني عن القول أن مظهر عملية الزرع المفاجئ هذا قد أسعد المؤمنين بالخلق)

وبناء على هذا كله، وبالعودة إلى [NSES]، فإن العلم الحقيقي يجب أن يقدم توقعات وتنبؤات دقيقة، ولكننا نجد نظرية التطور يتم اثبات فشلها بشكل مستمر نتيجة تنبؤاتها الخاطئة.

ولذلك، فإن النتيجة التي أخرج بها هي أنه (إذا كان 100 عام من البحث الدقيق لم يؤيد أكبر تنبؤ لنظرية التطور، فإن نظرية التطور غير علمية)

التطور.. والمنطقية العلمية:

بعد أن انتهى من حديثه، قام آخر، وقال: بعد أن ذكر لكم زميلي وصديقي تخلف نظرية التطور عن تطبيق المعيار الثاني من المعايير العلمية، فسأذكر لكم أنا تخلفها عن تطبيق المعيار الثالث، وهو [العقلانية المنطقية]

وحتى يتضح لكم هذا جيدا، تخيلوا معي أنكم أبصرتم إنسانا آليا يسير على قدمين، وهو يحمل بكفيه طردا ملصقا عليه عنوان دقيق.. ثم يذهب إلى ذلك العنوان بالضبط، ويسلم له الطرد.

ألستم عندما ترون هذا تسبحون بحمد من صنعه وصممه وأبدعه، وتعتبرون من جادل في ذلك، وتصور أنه مجرد آلات تجمعت بطريقة عشوائية عبر الزمن الطويل مجرد خرافة، وأنه قول لا يستند للعقلانية، ولا المنطقية؟

سكتوا جميعا، فقال: هذا هو الواقع الذي نقع فيه نحن أنصار نظرية التطور.. ففي الوقت الذي نعتبر فيه التقانة وما توصلت إليه من إنجازات عبقرية أنجزها العقل الإنساني نعتبر في نفس الوقت التجمع الحيوي الذي يتشكل منه الإنسان مجرد تشكل عشوائي انطلق من الصدفة والطفرة، وليس من مبدع حكيم مصمم.

ثارت ضجة في القاعة، فقال العالم: لا بأس.. لن أذكر الإيمان.. ولا الخالق.. وسأعود إلى ما كنت فيه.. فقد كنت أود أن أذكر لكم بأن اكتشافات علم التقانة الحيوية قد دفع بمبدأ [التجميع الذاتي] إلى اعتباره مجرد سذاجة فكرية.

سأضرب لكم مثالا يقرب لكم هذا.. أنتم تعرفون ذلك البروتين المسمى [kinesin]، والذي يعتبر نموذجا مصغر لرجل البريد، وهو يوجد بشكل كبير في كل خلية حية ليؤدي دوره المتمثل في نقل حزم البروتين مستخدما طرقا سريعة ذاتية التجميع تسمي [micro tubule]، وهو يتحرك على قدمين بشكل يشبة حركه الإنسان تماما، وبطريقة ما تعرف الخلايا أيا من الاجزاء الخلوية يجب تصنيعها، ويتم ذلك في مصانع صغيرة توجد في الخلايا تسمي [Ribosome]، ثم يتم بعد ذلك تغليفها في عضيه خلويه تسمي [Golgi apparatus]، وبطريقة ما ترسل هذه الأجهزة إشارات للبروتين الناقل [Kinesin] لكي يحمل تلك الشحنه التي تم تغليفها، وينقلها إلى مكانها المناسب.

إن هذا يشبه تماما ذلك الإنسان الآلي الذي تحدثنا عنه.. بل إنه أكثر تعقيدا منه، وهو من الصغر بحيث لا نستطيع أن نقارن بين مدى الإبداع بينهما.. فلذلك كان من العقلانية والمنطقية أن نضع أحكاما واحدة للجميع، فلا نميز بين ما نصنعه وبين ما نجده جاهزا.. فكما احتاج ما نصنعه إلى عقل مبدع، فكذلك يحتاج ما وجدناه جاهزا إلى صانع أكثر إبداعا وعلما وخبرة.

قامت ضجة أخرى في القاعة.. فقال العالم: لا بأس.. لن أتعرض في حديثي للإيمان.. أنا أدعوكم فقط إلى تطبيق شفرة

أوكام[1] على الدعاوى المرتبطة بنظرية التطور، مثلما تطبقونها على كل الدعاوى..

ألستم تعتبرونها أحد أهم المبادئ المنطقيّة التي تشمل تطبيقاتها طيفا واسعا من المجالات المتباينة من علم المنطق، ونظرية المعرفة، والاقتصاد، وحتى الفلك والفيزياء وربما الرّياضيات؟

ألستم جميعا تطبقونها، وبتلقائية، ومن حيث لا تشعرون في كل المجالات.. ففي الاقتصاد تعتبرون هذه الشيفرة من أهم المبادئ الاقتصادية.. وفي الرياضيات تفضلون أقل البراهين تعقيدا عند تساوي تلك البراهين بالنتيجة ودرجة عموميتها.. وفي الفيزياء والفلك تفضلون أقل التفاسير تعقيدا لظاهرة طبيعية ما عند وجود عدة تفاسير محتملة.. وبفضل هذا المبدأ استطعتم التفريق بين الفيزياء والميتافيزياء.. وبين الكيمياء والخيمياء[2].

فهلموا طبقوا هذه الشيفرة على نظرية التطور.. ولتكن لكم مكاييل واحدة، فلا يصح للعالم أن تكون له مكاييل مزدوجة.

شرب قليلا من الماء، ثم قال: ما أذكره لكم ليس كلامي فقط.. بل هو كلام جماهير كبيرة من العلماء الذين نحاول التستر على تصريحاتهم..

منهم [جوناثان ويلز] عالم الأحياء الأمريكي الذي سافر على متن سفينة، وظل يراقب مناقير البط، مثله مثل السيد داروين تماما.. وقد تحدث في كتابه الذي سجل فيه ملاحظاته عما ذكرته

---

[1]() هذه الشفرة أو المبدأ منسوب للفيلسوف الإنكليزي [ويليام أوكام] هو أول من صاغ هذا المبدأ عام 1285 حيث استنتج في أبحاثه المتعلقة بهذا المبدأ أن (التعددية لا ينبغي أن تفرض دون ضرورة، أي أن الأولوية للأبسط وللأقل تكلفة، والأقل تشعبا بطبيعة الحال)، وقد عبر عن ذلك بقوله: (من العبث القيام بعدد أكبر من الخطوات لإنجاز شيء ما، بينما يمكننا إنجازه بعدد خطوات أقل)

[2]() الخيمياء: هي علم ينظر في المادة التي يتم بها تكوين الذّهب والفضة بالصّناعة، ويشرح العمل الذي يوصِل إلى ذلك، وتلجأ الخيمياء إلى الرّؤية الوجدانية في تعليل الظّواهر، وكثيراً ما لجأ الخيميائيّون إلى تفسير الظّواهر الطّبيعية غير المعروفة لديهم على أنّها ظواهر خارقة، وترتبط بالسّحر.

لكم، فقال: (من النادر للغاية أن يتم إطلاع المجتمع كله بما يقوم به العلماء المتخصصون من تفسيرات علمية تتعلق بالإبهام والغموض العميقين بخصوص أصل الإنسان، وبديلا عن ذلك نتلقى مجرد خبر عن آخر نظرية لهذا الشخص أو ذاك، ولا ينقلون لنا الحقيقة التي لم يستطيعوا هم أيضا فهمها بخصوص هذا الموضوع، فيتم الترويج للنظرية وتزيبها بشكل دقيق وبالاستعانة ببعض الرسوم والصور المتخيلة لإنسان الكهف أو لجد الإنسان بوضع كثير من الماكياج عليها، والواضح أن أحدا من قبل لم ينسج خيالا واسعا إلى هذا الحد بخصوص جزئية بسيطة إلى هذا القدر في أى فرع من فروع العلم المختلفة)

إن [جوناثان ويلز] عالم الأحياء المتخصص ينص بكل صراحة على أن الداروينية لا تعدوا أن تكون خيالا علميا، لا حظ له من العقلانية، ولا المنطقية.

وقبله صرح العالم [ريتشاد ليكي] وهو أحد علماء [الباليوأنثروبولوجيا]، وهو العلم الذي يبحث في أصول الإنسان القديم، فقد قال: (لو أنكم جئتم برجل علم ذكي ماهر من فرع مختلف من فروع العلم، وأطلعتموه على ما لدينا من دلائل غير كافية فإنه سيقول لكم وبكل تأكيد: انسوا هذا الموضوع، فليس لديكم دعامة أو سند كاف للاستمرار فيه.. فالدلائل لدينا غير كافية إطلاقا)

وقال: (لقد أصبحت الفكرة التي تقول بأن تاريخ تطور الكائنات الحياة عبارة عن مسألة أو قضية استكشافية مجرد خرافة.. فلو كان بهذا الشكل ووجدنا حفريات كثيرة لكائنات شبيهة بالإنسان لكان من الضروري أن تتحول حكاية التطور إلى شكل أكثر وضوحا غير أن الحقيقة هي أنه عندما كان يحدث شيء كان يحدث شيء آخر على النقيض تماما من الأول)

وهكذا صرح [هنري جي] المحرر العلمي في مجلة الطبيعة بقوله: (إن عملية أخذ مجموعة من الحفريات والقول بأنها تعكس وجود سلسلة قرابة هي في الواقع ليست فرضية علمية يمكن إخضاعها للاختبار، وكل ما في الأمر أنها مجرد حكاية أو حدوته من

أحاجي منتصف الليل المسلية التي قـد تكـون موجهـة أو مرشـدة للإنسان في كثير من الأحيان إلا أنها ومع ذلك لا تستند لأي أساس علمي)

وهكذا صرح [ميلفورد ولبـوف] و[آلان ثـورن]، فقـد ذكـرا أن (الإنسان منتصب القامـة ليس إلا تصـنيفا خياليـا لا وجـود لـه، وأن الحفريات التي أدمجت في هذا التصـنيف هي عبـارة عن الإنسـان العاقل من أعراق مختلفة)

بل إن الكثير من العلماء الآن في بلادنا ينادون قـائلين: (نحن في حاجــة ماســة وعاجلــة إلى عــدم الــدفع بــالعلم إلى دائــرة الخرافة.. فما الذي يستفيده العلم من معرفة درجات القرابـة بين الحيوانــات المختلفــة.. إن العلمــاء كفــوا عن أن يكونــوا علمــاء أنساب!!)

لقــد عــبر [جــريج كــيربي] عن الإفلاس الــذي وقــع فيــه التطوريون قائلا: (لو أنكم قضـيتم حيـاتكم كلهـا في جمـع العظـام والقطع الصغيرة من الجمجمة والذقن، فـإنكم ستشـعرون برغبـة ملحة في أن تبـالغوا في أهميـة هـذا القطـع الصـغيرة الـتي قمتم بجمعها)

سكت قليلا، ثم قال: إن كل الـدلائل العلميـة الآن تقـف ضـد نظرية التطـور.. وبفضـل هـذه الـدلائل والقـرائن تعرضـت نظريـة التطور للسقوط في الكثير من المناطق التي كانت تتبناها..

ففي الولايات المتحدة الأمريكيـة اعتبـارا من النصـف الثـانى من التسعينات، اتخذت عدد من الولايات القـرار بضـرورة تـدريس القرائن التي تشير إلى عدم صلوحية تـدريس نظريـة التطـور في مدارسها.. وجميع أعضاء هذه الحركـة من رجـال العلم الـذين لهم رصيد مهني في أكبر جامعات الولايات المتحدة الأمريكية.

حـتى إن البروفيسـور كيـنيون، وقـد كـان واحـدا من أشـهر المــدافعين عن نظريــة التطــور بأطروحتــه الــتي قــدمها في السبعينات فيما يتعلق بأصل الحياة والتطور الكيميائي، تحـول هـو أيضـا إلى واحــد من ممثلي الحركـة المضـادة لنظريــة التطــور،

وتحـدث عن أن أصـل الحيـاة لا يمكن أن يفسـر بـالتطور وإنمـا بالخلق.

التطور.. والانفتاح للنقد:

بعد أن انتهى من حديثه، قـام آخـر، وقـال: بعـد أن ذكـر لكم زميلي وصديقي تخلف نظرية التطـور عن تطـبيق المعيـار الثـالث من المعايير العلمية، فسأذكر لكم أنـا تخلفهـا عن تطـبيق المعيـار الرابع، وهو [الانفتاح للنقد]

ثم رفع كتابا بيده، وقـال: هـذا الكتـاب واحـد من عشـرات أو مئـات النمـاذج الـتي تـدل على الانغلاق الفكـري الـذي يعانيـه الدراينيون.

لاشـك أنكم تعرفونـه إنـه كتـاب [التطـور: نظريـة في أزمـة] الذي أصدره [مايكل دنتـون] عـام 1985، والـذي أثـار الكثـير من الجدل، بل من العنـف والمواجهـة من طـرف التطـوريين، لسـبب بسيط، وهو أنه أقر فيه بالحقيقـة، وصـرح فيـه بمـا جبن غـيره أن يصرح به، لقـد ذكـر فيـه أن نظريـة التطـور بالاصـطفاء الطـبيعي نظرية في أزمة علمية حقيقية.

ولهذا وُصف من قبل العديد من البيولوجيين بأنه نقض لأركان نظرية التطور وهدمها بأسس علمية.. وبسبب هذا تعـرض الكتـاب ومؤلفه إلى حملة كبيرة من التشـويهات، لا لكونـه غـير علمي، ولا غـير منسـجم مـع المنطـق.. ولكن لكونـه نـاقض الخـط العـام المرسوم مسبقا، والقائل بقبـول نظريـة التطـور حـتى وإن كـانت تناقض في كثير من نقاطها الحقائق العلمية الواضحة.

سـكت قليلا، ثم قـال: إن هـؤلاء المنغلقين من التطـوريين يستخدمون نفس الأسلوب الذي حصل في الاتحاد السوفييتي إبان عهد ستالين.. ففي تلك الفـترة، اعتـبرت الشـيوعية، الأيديولوجيـة الرسمية للاتحاد السوفييتي فلسفة (المادية الجدلية) هي الأساس لكل العلوم.. ولذلك أمر ستالين بأن تتمشى كل البحـوث العلميـة مع المادية الجدلية.

ومع ذلك، تم رفع هذا الالتزام عند انهيار الاتحـاد السـوفييتي، وعادت الكتب إلى كونها نصوصـا علميـة فنيـة عاديـة تحتـوي على نفس المعلومـات.. بـل إن التخلي عن سـخافات مثـل الماديـة الجدلية لم يتسبب في تخلف العلم، بل أزال عن كاهلـه الضـغوط والالتزامات المفروضة عليه.

وهكذا نرى في الوقت الحاضر أنـه لا يوجـد سـبب يـدعو إلى ربط العلم بنظرية التطور، فالعلم يقوم على الملاحظة والتجريب، بينما تعـبر نظريـة التطـور، من ناحيـة أخـرى، عن فرضـية متصـلة بماض لا يمكن إخضاعه للملاحظة.

سكت قليلا، ثم قال: اسمعوني أيها العلمـاء لأقـول لكم بكـل صراحة: إن ما يقع فيه دعـاة نظريـة التطـور من انغلاق وتشـدد لا يختف عن ذلك العصر الذي كـان هنـاك فيـه إجمـاع علي سـطحية الأرض.. وقد اتهم حينها بالزندقه والتكفير كـل من خـالفهم، واتبـع الـدليل.. وهـذا هـو واقعنـا الحـالي مـع أصـحاب نظريـة التطـور، والمؤسسات العالمية الكبرى التي تدعمها.

ولهذا نراهم يـتركون الاحتجـاج العلمي المبـني على الأسـس المنطقية التجريبية، ويلجؤون إلى أساليب لا علاقة لهـا بـالعلم من أمثـال ادعـائهم أن النظريـة مقبولـة بشـكل واسـع في المجتمـع العلمي.

وكأن صحة أي نظرية تعتمد على الأغلبية المفترضة لأتباعهـا، لا على ما يدل عليها من أدلة.. ولهذا يمارسـون نوعـا من الضـغط النفسي والدعاية الخالية من اللغة العلمية.

لقد أقر الدكتور [أدرا دينكـل]، وهـو برفيسـور في الفلسـفة، ومساند لنظرية التطور، بالطبيعة الخاطئة لهـذا الأسـلوب، فقـال: (هـل الحقيقـة الـتي يـؤمن بهـا العديـد من الأنـاس البـارزين أو المنظمـات أو الهيئـات يثبت صـحة نظريـة التطـور؟.. هـل يمكن اثبـات النظريـة بقـرار المحكمـة؟.. هـل الحقيقـة الـتي يـؤمن بهـا الشخصيات أصحاب السلطة يجعلها صحيحة؟)

ثم راح يجيب على هذه التساؤلات بقولـه: (أريـد أن أسـترجع

حقيقة تاريخية.. ألم يقف جاليلو ضد الشخصيات الهامة والمحامين، وخصوصًا العلماء في ذاك الوقت، وتكلم عن الحقيقة لوحده، وبدون أي دعم من أي شخص؟.. ألم تكشف محاكم الإستقصاء حالات أخرى مشابهة؟)

وفي الأخير ختم كلمته بقوله مخاطبا أولئك التطوريين المنغلقين: (إن كسب دعم الدوائر البارزة والمؤثرة في صنع القرار لا يصنع الحقيقة، وليس له علاقة بالحقيقة العلمية)

سكت قليلا، ثم قال: وأحب أن أضيف إلى ما ذكره الدكتور [أدرا دينكل] أننا إذا تأملنا الواقع العلمي جيدا، وبنظرة حيادية، فإننا نجد نظرية التطور غير مقبولة من المجمتع العلمي كله، كما يشيع أنصار نظرية التطور.. بل إنه خلال العشرين سنة ماضية، نرى أعدادا محترمة من العلماء ترفض الداروينية بشكل متصاعد.

لقد ترك معظمهم عقيدتهم الدوغماتية في الداروينية بعد رؤية تصميم لا عيب فيه في الكون وفي الكائنات الحية.

والأهم من ذلك كله أن الذين تخلوا عن النظرية هم أعضاء من جامعات مشهورة، ومن جميع أنحاء العالم، خاصة في الولايات المتحدة، فهم خبراء وأكاديميون في مناصب علمية مثل البيولوجيا والبيوكيماء والميكروبيولوجي وعلم التشريح وعلم الدراسات القديمة وغيرها من الحقول العلمية.. فلذلك، فإنه الخطأ الكبير القول بأن الأغلبية من المجتمع العلمي تؤمن بالداروينية.

سكت قليلا، ثم قال: لا بأس.. حتى لو فرضنا أن هناك إجماعا على قبول هذه النظرية، فهل الاحتكام إلى الإجماع من الناحية العلمية احتكام صحيح؟.. وهل الإجماع العلمي معصوم من الخطأ؟

إن التاريخ أكبر شاهد على أن الإجماع العلمي أخطأ في مواقف كثيرة.. فأنتم تعرفون ما حدث لجاليلو عندما خالف نموذج أرسطو العلمي للكون، والمجمع عليه من العلماء في ذاك الوقت.. وكانت الكنيسة تساند هذا النموذج.

نفس الحالة تنطبق على نظرية التطور، فهي النموذج الحالي المستخدم في الأحياء والمجمع عليه في وقتنا هذا، والذي يسانده اللوبي الإلحادي.. فالإحصائيات وجدت أن 93بالمائة من العلماء الأعضاء في (أكاديمية الولايات المحدة الوطنية للعلم) هم ملاحدة.. وهذه النتائج تشير أن تغير النموذج المستقبلي لنظرية التطور سيكون بطيئًا بالنسبة للنظريات المنافسة بعد معرفة عقيدة الكثير من العلماء.

ليست قضية جاليلو وحدها الحالة الفريدة المتضررة من الإجماع العلمي.. ففي عام 1847، اكتشفَ [إجناز سيميلويز] أن تطهيرِ الأيدي خفّضَ حادثة الحُمَّى الولادية بشكل كبيرٍ في عيادات الولادة.. والتي كانت السبب الوحيد والأكثر شيوعاً في وفيات الأمهات في القرونِ الثامنة عَشرة والتاسعة عشرة..

لكن الإجماع العلمي لَم يَقبل حينها دليل [سيميلويز] التجريبي.. ورفض نتائجَه التي وصل إليها.. بل نظر إليها باحتقارِ، بحجة أنه لَمْ يوافق الرأي المؤَسَّس في تلك الفترة.. وقد قيل عنه حينها: إنه لا قاعدةَ علميةَ لادّعاءاتِه.. وقيل إنه لم يأت بشيء جديد.

وهذا ما حصل أيضا عام 1843، حين نَشرَ [أوليفير ويندل هولمز] مقالةً عن قابلية عدوى الحُمَّى الولاديةِ لكن وجهاتَ نظره هوجمتْ من المؤسسة العلمية بحجة مخالفتها للإجماع.

بل إنه وفي عام 1795 نَشرَ الدّكتور [ألكساندر جوردن] ورقة عن الطبيعةِ المعديةِ للحُمَّى الولاديةِ وأهميةِ سلوكيات النظافةِ الصحيحة لكي تمنع من انتشار المرض.. لكن ورقته قوبلت أيضا بالمعارضة القوية.

تصوروا لو أن ما يطلق عليه [الإجماع العلمي] تواضع، وسمع لتلك الأبحاث وناقشها، وجربها، واستفاد منها.. كم يا ترى من أرواح ستنقذ؟

ولكم أيضا أن تتساءلوا كم من الأرواح تسبب فيها ذلك الإجماع العلمي الذي يرفع الآن شعارا لتمرير هذه النظرية؟

لقد عبر عن هذا المعنى [مايكل كريتشتون] حين ذكر أن الإجماع يمكن استخدامه في مجالات الدين أو السياسة، ولكن لا مكان له في العلم، ذلك أنه يعتمد فقط على الأدلة المكتشفة من التجارب العلمية، ولا يعتمد على أعداد العلماء..

لقد عبر عن ذلك بقوله: (دعنا نكن واضحين: الأسلوب العلمي ليس له أي علاقة بالإجماع، الإجماع هو عمل السياسة.. العلم في الوجه المقابل، يحتاج إلى محققين يصادف أنهم على صواب، وهذا يعني أن لديه معلومات قابلة للإثبات بالمراجع في العالم الواقعي.. أما الإجماع العلمي فليس له علاقة، فالذي له علاقة هي النتائج القابلة للإنتاج.. أعظم العلماء في التاريخ كانوا عظماء بالفعل لأنهم كسروا الإجماع.. لا يوجد شيء اسمه إجماع علمي.. إذا كان هناك إجماع فهو ليس علما.. وإذا كان هناك علم فهو ليس إجماعا.. نقطة على السطر)

وعبر عن ذلك في موقف آخر بقوله: (الإجماع يستخدم عندما لا يكون العلم صلبًا بما فيه الكفاية.. لا أحد يقول إن إجماع العلماء يتفق على أنّ بعد الشمس عنا هو 93 مليون ميل.. لم يحدث أبدًا أن تكلم أحد بهذه الطريقة)

وقال: (أريد أن أتوقف هنا لمهلة وأتكلم عن فكرة الإجماع، والفكرة التي انتشرت بكثرة وهي الإجماع العلمي.. أنا اعتبر الإجماع العلمي تطورا خبيثا يجب إيقافه بدون رحمة.. فتاريخيًا، ادعاء الإجماع كان مأوى الأوغاد.. إنها طريقة لتجنب المناظرة بإدعاء أن القضية صارت محلولة.. كلما سمعت عن إجماع العلماء في الموافقة على شيء ما أو آخر، فابحث عن محفظتك، لأنه يتم شراؤك..أو تفقد مخك، لأنه يتم غسيله)

سكت قليلا، ثم قال: لقد عبر جاليلو عن موقفه من قضية الإجماع العلمي، فقال: (في الأسئلة العلمية، سلطة الآلاف لا تستحق التفكير المتواضع لشخص واحد)، هذا هو القانون الصحيح الذي يحتكم إليه في العلم، لا تفكير القطيع الذي يتصور أنه كلما كبر العدد كانت الحقيقة.

وما ذكره جاليليو هو نفسه ما أشار إليه الفيزيـائي [جيوفـاني أميليـون] حين تحـدث عن المسـاءلات الـتي تعرضـت لهـا نظريـة النسبية لآينشتاين، وهي أعز نظريـة على قلـوب الفيزيـائيين على حد وصفه.. وذلك حين اكتشفت جسـيمات الـنيوترينو والـتي كـان يظن أنها تجري بسرعة تفـوق سـرعة الضـوء.. ولكن رغم أنـه تم إثبات خطأ ذلك، حيث أنه تبين أن التنيوترينو لا يجري بسرعة أكبر من سرعة الضوء، إلا أنه مجرد تعريض النظرية النسبية للمساءلة رغم أهميتها ومدى تمسك الفيزيائيين جميعا بهـا يحـد أمـرا صـحيا وإيجابيا بحد ذاته..

لقد عبر عن ذلك بقوله: (فمن يدري؟ لعل الاكتشاف العظيم القادم يكون على بعد خطـوة صـغيرة منـا ونحن لا نـدري.. فربمـا تبين خطأ النظرية النسبية وظهور نظرية أهم منها وأدق!)

ثم راح الكاتب يتندر على الحال مع نظرية التطور، ويذكر أنه (على عكس ما يحصل عند الفيزيائيين من اسـتعداد تـام لتعـريض أهم نظريـاتهم للمسـاءلة، فـإن التطـوريين لا يبـدون أي اسـتعداد لفعل الشيء نفسه مع نظـريتهم. بـل على العكس، فإنـك سـتجد دوما مقـالات وكتابـات تصـر وتلح بعنـاد ومكـابرة على أن نظريـة التطور هي حقيقة تامة ولا تشوبها شائبة!)

التطور.. والمعلومات الدقيقة:

بعد أن انتهى من حديثه، قـام آخـر، وقـال: بعـد أن ذكـر لكم زميلي وصديقي تخلف نظريـة التطـور عن تطـبيق المعيـار الرابـع من المعايير العلمية، فسأذكر لكم أنـا تخلفهـا عن تطـبيق المعيـار الخامس، وهو [المعلومات الدقيقة]، فلا يمكن أن نثق في نظريــة تتلاعب بالمعلومات، أو تزورها، أو تفسرها على خلافا ما تدل عليه النتائج العلمية المنطقية..

ويكفي لأي نظرية تفعل هذا أو بعضه أن تتهم في مصداقيتها وموضـوعيتها وصـفتها العلميـة.. بـل يمكن أن تطـرح أصـلا مثلمـا يطرح ذلك الكاتب الذي اكتشفت لصوصيته العلميـة، أو راح يـزور الحقائق، أو راح ينسبها لنفسه.

لن يصعب علي أن أجد أمثلة على ذلك.. لكني لن أذكرها لكم جميعا، فوقتكم أنفس من أن أضيعه في أمثال هذه التفاصيل.

ولهذا سأكتفي بأن أريكم بعض الصور التي تلاعب بها أصحاب هذه النظرية، وخدعوا بها جماهير عريضة، لفترة طويلة من الزمن، بل إن بعضها قررها في مدارسه وجامعاته، باعتبارها حقائق نهائية مع أنها لم تكن سوى أكاذيب وخدع.

أخرج لهم صورة لقرد شبيه بالإنسان، أو إنسان شبيه بقرد، ثم قال: لاشك أن هذه الصورة مرت بكم كثيرا، ولاشك أنكم رأيتموها في يوم من الأيام في تلك السلسلة التي وضعها الدارينيون للرحلة التي تحول فيها القردة إلى بشر.

إنها ما يسمونه [إنسان بلتداون].. أو ما يطلق عليها الآن بـ [خدعة بلتداون][1]، ففي عام 1912، ادعى فريق بحثي بقيادة عالم حفريات بريطاني هاوٍ يُدعى [تشارلز داوسون] اكتشاف حفرية.. وقد كان الأمر حينهاً عجيبا ومثيرا.. ذلك أن عظام فك تلك الحفرية التي تم عرضها تشبه عظام فك القرد، بينما الجمجمة كانت تمتلك صفات جمجمة الإنسان.

وقد اهتمت الهيئات الكثيرة بذلك الاكتشاف الخادع، وتم إطلاق اسم [إنسان بلتداون] على تلك الحفرية، والتي عُرضت في أهم متاحف العالم لأكثر من 40 عامًا متتالية على أنها دليل قاطع على صحة نظرية التطور.

وكان صداها هائلًا على المستوى الأكاديمي، حتى أن ما يقرب من 500 أطروحة للدكتوراه تمت كتابتها عن هذا الأمر لمدة 40 عامًا، بل كانت توصف بكونها رمزًا لانتصار نظرية التطور المزعومة، وُضعت للعرض والمشاهدة في المتحف البريطاني، والذي يعتبر واحدًا من أشهر المؤسسات في العالم.

وقد تم فحصها ودراستها في تلك الفترة الطويلة من قبل أشهر العلماء من جميع أنحاء العالم، بل حتى من قبل أعداد لا

1() انظر: مقالا بعنوان: خدعة إنسان بلتداون، هارون يحي.

تُحصى من الزائرين.

وفي الأخير، وبعد كل ذلك الانتصار الكاذب الذي لبس لباس العلم اكتشف أن الأمر كله لا يعدو أن يكون مجرد خدعة.

ففي عام 1949، استطاع [كينيث أوكلي] من قسم الحفريات في المتحف البريطاني أن يطور طريقة جديدة لتحديد أعمار الحفريات.. وبدأ باستخدام هذه التقنية التي أُطلق عليها اختبار الفلوريد على الحفريات الموجودة داخل المتحف.

وما إن راح يطبقها على جمجمة [إنسان بلتداون] حتى ذهل للمفاجأة، فقد اكتشف أن عظام الفك خالية من مادة الفلوريد، بينما احتوت الجمجمة على نسبة صغيرة منه.. وهذا يعني أن عظام الفك لا يتجاوز عمرها بضع سنوات، والجمجمة لا يتجاوز عمرها بضع المئات من السنين على أقصى تقدير.

ومع تكثيف التحقيقات، اكتشف أن تلك الحفرية التي تم تصويرها على أنها أفضل دليل تم التوصل إليه لإثبات نظرية التطور كانت في الحقيقة محض كذب.. فعظام الفك تنتمي إلى إنسان الغاب المتوفى حديثًا.. والجمجمة تنتمي إلى إنسان متوفٍّ منذ فترة قاربت 500 عام..

ومن خلال الفحص عن قرب عرف أن الأسنان تم إرفاقها بعظام الفك في وقتٍ لاحق، وتم استخدام أداة صلبة لكشطها.. ثم تم غمرها في سائل ثنائي كرومات البوتاسيوم، وذلك لإعطائها مظهرًا قديمًا.

وقد أثبتت التحاليل المفصلة التي أجراها [جوزيف وينر] بما لا يدع مجالًا للشك أن هذه الحفرية كانت مجرد خدعة.

وكان البروفيسور [لو جروس كلارك] أستاذ التشريح بجامعة أوكسفورد واحدًا من هؤلاء العلماء الذين كشفوا هذا الغش والاحتيال.. وفي نهاية التحقيقات التي قام بها، قال: (بالفعل فإنه يبدو جليًا افتعال هذه الخدوش، ويبدو أنه من الجيد طرح السؤال الأهم، وهو: كيف أن هذه الخدوش لم يتم ملاحظتها من قبل؟..

إنهم لم يبحثـوا عن هـذا الأمر من قبل.. لم يقم أي شـخص في السابق ممن فحصوا عظام فك بلتداون بوضع فكرة وجـود تزييف محتمل نُصب عينيه، إنه تلفيق متعمد)

أما [كلارك هاول] أستاذ الأنثروبولوجيا، فقد قـال معلقـا على هذه الخدعـة الخطـيرة: (اكتُشـفت بلتـداون عـام 1953 ولم تكن سوى عظام فك لقرد تم إدخالها على جمجمة إنسان، فهي خدعـة قد تم وضعها عن عمد، فهم لم يقروا بشـكل واضـح عمـا إذا كـان هذا الفك ينتمي لقرد أو إذا كانت الجمجمـة تنتمي لإنسـان، وبـدلًا من ذلك فقد أعلنوا أن كل جزء من الجزئين السـابقين هـو شـيء في المنتصف ما بين القرد والإنسان.. وقد أرجعوا تاريخه لحـوالي 500 ألـف عـام مضـت، وأطلقـوا عليـه اسـم [الإنسـان الفجـرى الدوسوني أو إنسـان داون]، وكُتب مـا يقـرب من 500 كتـاب عن هذا الأمر خدع هذا الاكتشاف علماء الحفريات لمدة 45 عامًا)

سكت قليلا، ثم قال: هذا مجرد مثال.. والأمثلـة كثـيرة جـدا.. بل إننا في كل يوم نسمع كذبـة جديـدة وخدعـة جديـدة، ويصـدقها الكثـير، لا لكونهـا علميـة، ولكن لكونهـا تصـب في ذلـك التفكـير الرغبوي المـزاجي الـذي جعلنـا ننتصـر لهـذه النظريـة بالصـدق أو بالكذب.

سأضرب لكم مثالا آخر.. إنه عن خدعة أخرى اسمها [إنسـان نبراسكا].. وتبدأ قصة هذه الخدعة عام 1922، وهو الـوقت الـذي كانت الجهود المكثفة تبذل فيه بهدف الوصول لبرهان على نظرية التطور.

حينها كان الجميع مهووسـون بالوصـل إلى ذلـك الإثبـات.. أو بالوصول إلى الحلقة المفقودة التي تصل الإنسان بالقرد أو بغـيره من الحيوانات..

حينها أعلن [هنري فيرفيلد أوزبورن] رئيس قسـم الحفريـات بالمتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي عن اكتشـافه حفريـة لضـرس يعـود تاريخـه إلى الحقبـة البليوسـينية بـالقرب من وادي الأفـاعي غرب نبراسكا.

وقد حدث توافق بشكل تام بناءً على ضـرس واحد فقط بأنه ينتمي إلى ما يســـمى بالرجل القـــرد.. ثم دارت العديـــد من النقاشات العلمية العميقة حول هـذا الـدليل المزعـوم، والـذي لم يكن في الحقيقة أكثر من مجرد خيال.

لقد أُطلق على هـذه الحفريـة ـ والـتي سـببت جـدلًا واسـعًا ـ اسم [إنسـان نبراسـكا].. بـل سـرعان مـا تم إعطـاء اسـم علمي عليها، وهو [هسـبيروبايثيكوس هارولـدكوكي].. وسـرعان مـا لقي مكتشفها الكثير من الدعم والاهتمام.

انظـروا أيهـا السـادة الفضـلاء.. لقـد تم إجـراء العديـد من الرسومات لإعادة بناء جمجمة وجسد إنسان نبراسكا اعتمادًا على ضـرس واحـد فقـط.. بـل ذهبـوا إلى مـا هـو أبعـد من ذلـك، حيث نُشرت العديد من الرسومات الإيضاحية لإنسان نبراسكا مع أولاده وزوجته في بيئتهم الطبيعية التخيلية.

بل بدأ التطوريون مرة أخرى بحشد جميـع الوسـائل المتاحـة لهم من أجل هذا السيناريو الوهمي..

ومع أن بعض العقلاء في ذلك الحين أقر بأن الأدلـة المتعلقـة بخصوص [إنسان نبراسكا] غير ملائمة تمامًا، وأن الدليل المتـاح لا يبرهن على أي شيء، وأن على هؤلاء الانتظار مزيدًا من الـوقت.. إلا أن التطوريين، ولحرصهم على نظـريتهم، وخـوفهم من فقـدان هذا الدليل الكاذب راحـوا يشـنون حملـة مضـادة تضـمنت الدعاية التطورية المعتـادة ضـد من يخـالفهم، باعتبـارهم غـير علمـاء ولا متخصصين ولا متطورين عقليا.

لكن بعد كل ذلك بفترة من الخـداع والـوهم اكتشـف أن هـذا الضرس لا ينتمي لا للبشر ولا للقردة، وإنما لفصـيلة منقرضـة من الخنازير البرية.

امتلأت القاعة بضحك كثير، قطعه العالم بقولـه: هنـاك مثـال ثالث سأورده لكم، وأختم به، وسـأحاول أن أختصـر الحـديث عنـه مراعاة للوقت المتاح لي..

إنه لا يتعلق بالإنسان، ولا بالقردة، وإنما بطائر مكذوب موهوم حاول التطوريون أن يحولوه إلى كائن حقيقي، مثلما حاولت الأساطير القديمة أن تحول من التنين أو عروس البحر كائنات موجودة مع أنها كائنات لا توجد إلا في خيال أصحابها.

والأساس الذي جعلهم يفكرون بهذه الطريقة هو بحثهم عن سلف للطيور الحديثة، وبناء على ذلك فقط، لا على المعطيات العلمية ذكروا أن هذا الطائر الموهوم [الأركيوبتريكس] هو السلف المزعوم للطيور الحديثة، وأنه وجد قبل 150 مليون سنة تقريبا.

وهم يزعمون من غير أي معطيات علمية أن بعض الديناصورات الصغيرة مثل الفيلوسيرابتور أو الدروماصور هي التي تطورت من خلال تحور أيديها إلى أجنحة ثم بدأت في الطيران.

وعلى هذا افترضوا أن الأركيوبتركس شكل انتقالي تفرع عن أسلافه الديناصورات، وأنه يحمل صفات خليطة بين الزواحف والطيور.

وبناء على هذا راحوا يبحثون في الحفريات إلى أن وجدوا بعض العظام التي تصوروا أنها عظام لذلك الطائر، وهي متراوحة بين بين عظمة أو اثنين أو مجموعة، ولم يكن من ضمنها عظمة القص، وهي عظمة أسفل صدر الطيور وتثبت فيها العضلات المرنة للجناحين، وعلى هذا افترضوا أنه لا يملك عظمة قص مثل الطيور رغم أن لديه جناحين.

وقد استنتجوا من هذا أن هذا الطائر هو الحلقة المفقودة بين الديناصورات والطيور، وأنه أصل الطيور، وأن منشأه كل قبل 150 مليون عام.

ثم راحوا يسجلون كل هذه المعلومات المبنية على الأوهام المجردة في الكثير من الكتب المدرسية والجامعية، ويعتبرونه من الحقائق المطلقة.. بل من الأدلة التي تدعم نظرية التطور.

لكن.. وبالضبط في 23 يونيو عـام 2000 م نشـرت صـحيفة (النيويورك تايمز) خبرا علميا صادما بعنوان [اكتشاف حفرية تهـدد نظريــة تطــور الطيــور]، ثم تم نشــر الخــبر في مجلات علميــة شهيرة..

والمفاجـأة الكـبرى الـتي وردت فيـه، والـتي تقـوض نظريـة التطـــور من أساســـها هي أن الحفرية الجديـــدة المكتشـــفة للأركيوبـتريكس من الشـرق الأوسط كـان عمرها يعـود إلى 220 مليون سـنة..وليس 150 مليـون سـنة.. والمفاجـأة الأكـبر هي أن هـذا الطـائر كـان مغطى بـالريش مثل الطيـور تماما.. وكـان لديه عظمة قص مثل الطيور تماما.. وكذلك لديه عِراق ريش مجوف.

وكل ذلك يدحض المزاعم التطورية السابقة جملة وتفصـيلا.. ويكفي من تلك المفاجآت أن يكون زمن وجوده كطـير يسـبق مـا زعمه التطوريون بـ 75 مليون سنة كاملة.

لكن المفاجأة الأكبر من ذلـك كلـه، ورغم الخـبر القاصـم عن حفرية الشرق الأوسط التي حسـمت الخلاف، لكن التطـوريين لم يسلموا بالحقيقة العلمية، بل راحوا يجادلون فيها ويشاغبون.

ومن أمثلة ذلك الشـغب مـا ورد في مجلـة نيتشـر التطوريـة الشهيرة.. والتي نقلت التشكيك من الطيران نفسه إلى التشـكيك في الطيران لمسافات بعيدة كنوع من الخداع والحيلة.

فقد ورد فيهـا هـذا النص: (تحتفظ العينة السـابعة المكتشـفة حديثا من الأركيوبتركس بجزء من قص مســتطيل لطالما دار شك حول وجوده، ولكنه لم يوثَق قط من قبل، ويشـهد ذلـك على قـوة عضـلات الطـيران في هـذا الطـائر، ولكن قدرتـه على الطـيران لمسافات طويلة ما زالت موضع تساؤل)

هـل رأيتم كيـف أن التطـور ليس حقـائق علميـة، وإنمـا هـو توجهـات عقديـة أيديولوجيـة يتم ترقيعهـا والالتفـاف على أسـباب انهيارها بشتى الصور، فبعـدما طعنـوا في طـيران الأركيوبـتريكس بالمرة صـاروا يطعنـون في كونـه لا يسـتطيع الطـيران لمسـافات بعيدة رغم اعترافهم بقوة عضلاته للطيران لوجـود عظمـة القص،

ورغم اعترافهم أيضا بالتكوين غير المتماثل لريش الأركيوبـتركس، والذي لا يمكن تمييزه عن نظـيره في الطيـور الحديثـة الموجـودة اليوم، وهو ما يشـير إلى أن ذلـك الطـير كـان بمقـدوره الطـيران على أكمل وجه مثل أي طائر، أو كما قال عـالم الحفريـات البـارز كـارل أو. دانـبر: (لا ريب في أن يُصـنف الأركيوبـتركس تحت فئة الطيور بسبب ريشه)

بالإضافة إلى هذا اكتشف أن الأركيوبـتريكس كـان من ذوات الدم الحار، وقـد عرفـوا ذلـك من خلال ريشـه الـذي يحافـظ على دفء الجسم، وذلـك بعكس الزواحـف والديناصـورات ذوات الـدم البارد.. وهـذا مـا يـدعونا إلى التسـاؤل عن إمكانيـة حمـل كائنـات وسيطة بين الزواحف والطيـور خصـائص انتقاليـة بين ذوات الـدم البارد وذوات الدم الحار.

قـد يـذكر البعض أنـه وجـدت مخـالب في طـرف الجنـاحين، ووجدت أسنان لهذا الطائر.. وجواب هذا بسيط جدا.

فأما بالنسبة للمخالب، فهناك أنواع من الطيـور الحيـة اليـوم تملك مخالب في أطراف جناحيها، مثـل طـائر الطَّوْرَق والهـوآتزن واللذين لهما مخالب تمكنهما من التمسك بالأغصـان، وهمـا طيـور باعتراف الجميع.

وأما بالنسبة للأسنان، فإن أسنان الأركيوبـتريكس أو الطيـور المنقرضـة لا تطـابق أسـنان الزواحـف ولا الديناصـورات.. ثم إن وجـود الأسـنان ليس سـمة خاصة بـالزواحف فقط، فنحن نعـرف اليـوم زواحف ليس لـديها أسـنان.. فهل بـذلك تم اسـتبعادها من تصنيف الزواحف؟

فالسلحفاة (وهي من الزواحـف) ليس لهـا أسـنان ولكن لهـا فم شبه منقاري قوي قـد تصـل قـوة ضـغطه إلى 80 كيلـو جـرام يطحن به الطعام.. فهل نستثني السـلحفاة من الزواحـف لأنهـا بلا أسنان؟.. أم تراهم يجعلونها من الطيور لأنه لها شبه منقار؟

بناء على هذا كله، فإن الحقائق العلمية تشير بكـل تأكيـد إلى أنـه لا الأركيوبـتركس ولا الأنـواع الأخـرى من الطيـور القديمـة

المشابهة له كانوا أشكالا انتقالية.. بـل لا تشـير الحفريـات إلى أن أنواع الطيور المختلفة تطورت من بعضها البعض.

بـل على العكس من ذلـك تمامـا، يثبت سـجل الحفريـات أن طيور اليـوم الحديثـة وبعض الطيـور القديمـة مثـل الأركيوبـتركس عاشت في الواقع مع بعضها البعض في نفس الوقت.

صـحيح أن بعض أنـواع هـذه الطيـور، مثـل الأركيوبـتركس والكونفيوشسورنيس قـد انقـرض، لكن الحقيقـة المتمثلـة في أن بعض الأنواع التي كانت موجودة فيما مضى قـد تمكنت من البقـاء حتى يومنا هذا لا تدعم في حد ذاتها نظرية التطور.

التطور.. وعدم التحيز:

بعد أن انتهى من حديثه، قـام آخـر، وقـال: بعـد أن ذكـر لكم زميلي وصديقي تخلف نظرية التطور عن تطبيق المعيار الخـامس من المعايير العلمية، فسأذكر لكم أنـا تخلفهـا عن تطـبيق المعيـار السادس، وهو [عدم التحيز]، فلا يمكن أن نثـق في نظريـة تتحـيز لوجهة نظرها تحيزا مطلقا، يجعلهـا تلغي غيرهـا من غـير أي أدلـة علمية.

ولا نحتاج إلى الأدلـة المثبتـة لهـذا، فهـو واضـح في سـلوكهم ومــواقفهم من مخــالفيهم من أنصــار نظريــة الخلــق، والــذين يعتبرونهم علماء مزيفين نتيجة انحيازهم لأفكارهم الدينيـة، إلا أننـا نستطيع أن تستنتج أن التطوريين علماء مزيفون بطريقة مماثلة.

ذلك أنه على التطوري حتى يكون محايدا، ولايتبني أي أفكــار مسبقة في تناوله لأي قضية، يحتاج عند مناقشته لأصل الحيــاة أن يتقبل وجهه النظر التي تذكر أن الحياة يمكن أن تكون قـد نشـأت بآليات طبيعية تماما.. وفي نفس الوقت يتقبـل الـرأي القائـل بـأن هنـاك عقلا مـدركا واعيـا وراء نشـأة الحيـاة.. ثم بعـد ذلـك يقـوم بأجراء التحقيقات ليري الفرضية الأصلح والأكثر توافقـا مـع الأدلـة المتاحة.

لكن هذا للأسف لم يفعله التطوريـون، ذلـك أن أغلبهم إن لم

يكن جميعهم ملحـــدون.. ذلـــك أنهم في حـــال إيمـــانهم بإلـــه، لا يحتاجون إلى كل تلك التكلفات التي لا مبرر لها حتى يؤيـدوا مثـل هذه النظرية..

لقد اعترف التطوري [ريتشارد ليونتين] بهذا، فقـال: (ليسـت الأسـاليب والمنـاهج العلميـة هي الـتي تـدفعنا لقبـول التفسـيرات الماديــه للعــالم المشــاهد، ولكن على العكس التزامنــا المســبق بالتفســيرات الماديــة هــو الــذي يفــرض علينــا أن نخلــق نظامــا للتحقيقـــات، ومجموعـــة من المفـــاهيم ينتج عنهـــا تفســـيرات ماديــة،مهمــا كــانت محــيرة للمبتــدئين، علاوة على ذلــك، الماديــة مطلقة لأننا لا يمكننا السماح بتقبل فكره الله)

وهكذا اعترف [الدوس هكسلي] بأن العدمية.. أي عدم وجود اله.. هو محور رؤيتة الكونية، فقال: (كان لدي حافز يدفعني لإنكار وجود أي معـنى للكـون، لـذلك افترضـت أنـه ليس للكـون معـنى، وكان الأمر سهلا أن أجد أدلة مقنعة لـذلك الافـتراض، الفيلسـوف الذي يـؤمن بأنـه لا معـنى في للحيـاة ليس فقـط مهتمـا بمشـكلة ميتافيزيقيه بحتة، ولكن أيضا مهتم بإثبات أنه لا يوجد ســبب مقنــع يمنعه عن القيام بمــا يشــتهي، ويمنــع أصــدقائه من الاســتيلاء على السلطة السياسية والحكم بما يخـدم مصـالحهم، بالنسـبة لي لقـد كانت الفلسفه العدمية أداه تحرر جنسي وسياسي)

هـذا التصـريح من الـدوس هكسـلي يـدلنا على أن الفلسـفه الهيومانية الإنسانية التي لا تحكمها أي حدود أخلاقية ليس لديها أي مشـكلة في الاسـتيلاء على السـلطة السياسـية من أجـل الـترويج لآرائها الإلحادية.

ولــذلك لا نعجب إذا رأينــا مثــل هــذا التصــريح منشــورا في المنشورات الهيومانيه، والذي يقول صاحبه فيـه: (لـدي اقتنـاع أن معركه مستقبل البشرية يجب أن تشن في فصول المدارس على أيـدي المعلمين، والـذين يعتـبرون مبشـرين بإيمـان جديـد، سـوف تصبح الحجرة الدراسية ساحة للصراع بين الجديد والقـديم: الجثـة المتعفنة للمسيحية، والإيمان الجديد بالهيومانية)

وعندما ننظر إلى المسألة من هذه الزاوية نجد أن التطوريين ذوو توجه أيديولوجي لا يختلف عن الدين نفسه، ذلك أن الدين ليس سوى مجموعة المعتقدات حول سبب وطبيعة وهدف الكون.. أو هو مجموعة خاصة من المعتقدات الأساسية والممارسات يتفق عليها مجموعة من الناس بشكل عام.. والهيومانيه بهذا المعنى دين يروج له في المدارس.. ومن الأسلحة التي يستخدمونها لذلك نظرية التطور.

لقد صرح بعضهم بهذا، فقال: (إن الايمان بالداروينيه الحديثة يجعل من الناس ملحدين، فمن الممكن للشخص أن يكون لديه معتقد ديني يتلائم مع الداروينية فقط اذا كان هذا المعتقد الديني هو الالحاد)

***

بعد أن استمعت إلى هذه التعقيبات وغيرها، والتي اكتشفت من خلالها خلو نظرية التطور من العلمية والمصداقية والعقلانية.. وكونها لا تعدو أن تكون وسيلة من وسائل الترويج للدعايات المادية..

حينها.. استطعت أن أتخطى أكبر عقبة كانت تحول بيني وبين الإيمان.. فقد رحت بعدها أشك في كل المعارف التي تأسست عليها المادية سواء كانت تلك التي ارتبطت بالعلوم الكونية المحضة، أو تلك التي ارتبطت بالعلوم الإنسانية والاجتماعية وغيرها.

وبعد ذلك الشك المنهجي الذي حصل لي استطعت أن أفرق بين العلم صاحب المنتجات العملية المحضة، والذي استفادت منه البشرية كثيرا.. وبين العلم الذي وجه توجيها خاطئا لخدمة المادية والعنصرية وكل القيم الظلامية.

وقد وجدت أن كل العلماء الذين خدموا البشرية في جانب العلم الأول.. العلم النافع.. كانوا ممتلئين إيمانا وروحانية وقيما أخلاقية.. بخلاف غيرهم الذين راحوا يركبون العلم ليمرروا به مشاريع الإلحاد والعنصرية والقيم الشيطانية.

وقد دعاني ذلك إلى اللحاق بركب العلمـاء الأوائـل.. والسـير على منهاجهم.. لا في العلم وحده، وإنما في الإيمان أيضا.

وقد رزقني الله منذ فترة طويلة صحبة [معلم الإيمان] الــذي راح يجيب عن كل تساؤلاتي وإشكالاتي، والتي جعلتــني أبحث عن الإيمان الحقيقي، والدين الحقيقي الذي يعرف بالله الحقيقي..

ولم يطل بي الأمر حتى وجدت الإسلام.. فآمنت بالله ورسله وكتبـه.. لكـني كتمت ذلـك إلى اليـوم الموعـود الـذي التقيت فيـه بأصدقائي.

بعد أن انتهى الثاني من حديثه، قال الثـالث، وهـو يلتفت لي: لقد جاء الآن دوري لتكتب شهادتي، وكمـا أمليهـا عليـك بالضـبط.. فلا يصح لكاتب أن يكتب إلا الحقيقـة كمـا قـال تعـالى: ﴿وَلَا يَـأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ [البقرة: 282]

قلت: لا تخــف.. فقلمي لا يكتب إلا مــا يســمع، وليس لديــه القدرة لأن يضيف شيئا، فهو أعجز من أن يفعل ذلك.

قال: كما حدثك صاحبي عن تخلف تلك النظريات التي أرادت أن تفسر نشأة الحياة وتنوعها عن العلم والعقل والمنطق.. فــإني سأحدثك عن تخلفهـا كـذلك عن التصـور الصـحيح لـذلك التصـميم البـديع للكـون.. فقـد راحت تـرمي قمـة الإبـداع والإتقـان والدقـة بالعشوائية والصدفة والعبث.

وسر ذلك كله هي أنها لم ترحــل بقلبهـا ولا عقلهـا إلى آفـاق قوله تعالى، وهو يعدد صـفات كمالـه وآثارهـا: ﴿تَبَـارَكَ الَّذِي بِيَـدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَـقَ الْمَـوْتَ وَالْحَيَـاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2) الَّذِي خَلَـقَ سَـبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَـرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَـرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْـكَ الْبَصَـرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4)﴾ [الملك: 1 ـ 4]

ولم يرحلـوا إلى قولـه تعـالى، وهـو يصـف صـنعته المحكمـة الدقيقة: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُـلَّ شَـيْءٍ إِنَّهُ خَبِـيرٌ بِمَـا تَفْعَلُـونَ﴾ [النمل: 88]

قلت: وكيف رحلت أنت إلى هذه الآيات الكريمة؟

قال: قصة ذلك طويلة، فقد بدأت كما يبدأ سائر من ولــد في تلك البلاد بنظرية التطور التي رضعناها مـع حليب أمهاتنـا، فصـرنا نراها بديهة من البديهيات، ومسلمة من المسلمات القطعيـة الـتي لا يصح أن يجادَل فيها.

لكن الله تعالى بكرمه العظيم نقلني بعد مرحلة من حياتي من كوني من القائلين بنظرية التطور والمدافعين عنها إلى أصحاب نظرية جديدة وضعها بعض أصدقائي سماها نظرية [التصميم الذكي].. ثم نقلني بفضله من تلك النظرية إلى نظرية الخلق البديع.. والصنع المتقن.. والتي أتقلب الآن في رحابها، وأتذوق حلاوة شرابها.

قلت: ما تقصد بذلك.. وهل هناك نظرية بهذا الاسم؟

قال: أجل.. فهناك نظرية موجودة في الواقع العلمي يحاول التطوريون أن يتستروا عليها، ولا يظهروها، ولذلك يجعلونها مع المؤمنين في محل واحد، مع أنهما ليس كذلك..

قلت: عجبا.. هل يمكن ألا يكون القائلون بهذه النظرية من المؤمنين؟

قال: القائلون بهذه النظرية يذكرون الحقائق العلمية، كما هي موجودة في الواقع، ويحاولون ألا يربطوها بالجانب الغيبي والميتافزيقي، حتى لا يقعوا فيما وقعت فيه سائر العلوم المادية التي ارتبطت بالإلحاد.

قلت: ولكن ذلك عجيب.

قال: ليس عجيبا.. فدور العالم أن يصف لك الواقع بدقة.. ثم يترك لعقلك بعد ذلك أن يحكم بالنتيجة التي تفرزها تلك الحقائق.

قلت: فما الحقائق التي يصفها هؤلاء التصميميون؟

قال[1]: لقد بدأت حركة التصميم الذكي أوائل التسعينات من القرن العشرين، وقد نشأت كنظرية علمية في مقابل نظرية التطور، لتقدم فروضا علمية لتفسير نشوء الأنواع الحية في ضوء المكتشفات العلمية التي لم تكن متاحة في عهد داروين ولا فريق الدراونة الجُدد الذين وضعوا النظرية التركيبية الحديثة، وتتعارض فرضياتها تماماً مع فرضيات التطور.

1() المادة العلمية الواردة هنا مقتبسة من مواقع متعددة منها بعض الموسوعات ودوائر المعارف الالكترونية.

وهي لذلك نظرية علمية لتفسير التنوع البيولوجي، وليست نظرية دينية مرادفة لنظرية الخلق كما يُشيع عنها التطوريون؛ لذلك نراها تضع فرضيات متناسقة، تتعلق باقتراحات محددة، كما أنها تشكل إضافة علمية وتهذيباً للنظريات السابقة عليها في المجال نفسه، ولها قيمة تفسيرية وقيمة تنبُّؤية، وفرضياتها قابلة للاختبار، وقابلة للتخطئة، وقابلة للتعديل والتصحيح في ضوء نتائج التجارب، فهي مفتوحة أمام الفحص التجريبي.. وهي بذلك تتوفر على كل شروط البحث العلمي، بخلاف نظرية التطور.

قلت: فهلا حدثتني كيف اهتديت إلى هذه النظرية التي كانت السلم الذي رقيت به إلى الإيمان.

قال: أجل.. فكل حديثي الذي أمرت أن أبثه لك يتعلق بها.

قلت: فكلي آذان صاغية.. فهلم بحديثك.

قال: أنا لا تهمني آذانك بقدر ما يهمني قلمك.. فإياك أن تشرد عنه.. وإياك أن ينفلت منك، فيكتب ما لم أمله.

قلت: لك ذلك.

العشوائية.. والتعقيد المتخصص:

اعتدل في جلسته، وحمد الله وصلى على نبيه ﷺ.. ثم قال: لا أزال أذكر ذلك اليوم الذي التقيت فيه صديقي [ألبرت وليام ديمبسكي]، وهو عالم رياضيات وفيلسوف، وقد كان مهتما منذ فترة طويلة بنظرية التطور..

عندما دخلت إليه، قال لي: هل علمت بآخر كتاب ألفته؟

قلت: لا.. ولا بأول كتاب.. فلم أكن أعلم أنك تشتغل بتأليف الكتب.

قال: وكيف تزعم أنك صديقي، وأنت لا تقرأ كتبي.. والتي أثارت من الجدل، ما سمع به خواص الناس وعوامهم.

قلت: اعذرني.. فقد شغلتني المخابر، والفئران البيضاء،

والمواد الكيميائية عن كل شيء حتى عن نفسي.. فقـط أنـا أعلم أنــك عضــو مرمــوق في مركــز العلم والثقافــة التــابع لمعهــد ديســكفري.. وأنــك في الفــترة من 1999 إلى 2005، كنت في هيئـة التـدريس في جامعـة بـايلور.. وأنـك تحمـل سـبعة درجـات جامعيـة بمـا فيهـا دكتـوراه في الفلسـفة من جامعـة إلينـويز في شيكاغو ودكتوراه في الرياضيات من جامعة شيكاغو.

قال: معارفك عني محدودة وسـطحية جـدا.. وهي لا تسـاوي شيئا أمـام تلـك النتـائج العظيمـة الـتي وصـلت إليهـا.. والـتي بهـا استطعت تحطيم نظرية التطور.

كـدت أغمى علي حين قـال هـذه الكلمـة، وقلت: أتـدري مـا تقـول.. وهـل يمكن لأحـد في الـدنيا أن يـزعم أنـه يحطم هـذه النظرية التي وقف في صفها جحافل العلماء في كل عصر؟

قال: لا ينبغي أن تغرك الكثرة، ولا الجيوش المجيشة.. ابحث عن الحقيقة بعيدا عن الرجال.. وكن مجتهدا لا مقلدا.

قلت: صدقت.. فما سميت نظريتك؟

أخرج لي كتابا من خزانة كانت أمامـه، كـان عنوانـه [تصـميم الحياة]، وقال: هذا الكتـاب يؤصـل لهـذه النظريـة، ويـبرهن عليهـا بالأدلة الكثيرة.. وقـد كتبتـه مـع صـديقي [جونـاثون ويلـز].. وهـذه النسخة التي تراها هي الطبعة الثالثة من الكتاب.

وقد اعتبره الكثير من الباحثين من أحدث وأقوى ما كتب في الانتقاد العلمي لنظرية التطـور التـدريجي العشـوائي.. بـل وضـعه بعضهم مع كتاب [نظرية التطور: نظرية مأزومة] في محل واحد.. فكلاهما ساهم في تهديم هذه النظرية الممتلئة بالثغرات والأخطاء والخدع.

لقد قال الدكتور [مايكـل بيهي]، أسـتاذ الكيميـاء الحيويـة في جامعة ليهاي متحدثا عنـه: (عنـدما يعـد المؤرخـون المفكـرون في المستقبل الكتب التي أطاحت نظرية داروين، فـإن كتـاب تصـميم الحياة يكون على رأسها)

وقال الدكتور [دين ح. كينيان]، وهـو أسـتاذ في علم الأحيـاء، جامعة ولايـة [سـان فرانسيسـكو]: (أود بحمـاس أن أعتمـد كتـاب تصميم الحياة كمقرر دراسي مطلـوب في الـدورات التدريبيـة في نظرية التطـور وأصـل الحيـاة، وفي حلقـات الدراسـات العليـا في نظرية المعلومات والبيولوجيا الجزيئية، واستخدامها كمرجع مكمّل في فصول علم الأحياء التمهيدية)

وقال الدكتور [ويليم س. هـاريس]، أسـتاذ بـاحث، كليـة طب سانفورد، جامعة داكوتا الجنوبية: (يعطي جميـع الأطـراف المعنيـة في النقاش حول الأصول البيولوجية: الأدلة الدامغة العلميـة الـتي يحتاجونها لتقـييم الحالـة الحقيقيـة لنظريـة داروين.. بـل أكـثر من ذلك بكثير: فهو يشجع بعناية الموقف من التحقيـق المفتـوح الـذي تحتاجه العلـوم ليس فقـط لـتزدهر، ولكن أيضـاً لتجتنب أن تصـبح ألعوبة في أيدي أصحاب المصالح الخاصة!)

وقـال [مايكـل ريـوز]، وهـو أسـتاذ الفلسـفة، جامعـة ولايـة فلوريدا ـ مع العلم أنـه دارويـني ملحـد ــ: (أنـا أختلـف بشـدة مـع الموقف الذي اتخذه وليم ديمبسكي، ولكنـني أعـترف أنـه يجـادل بقوة، وأن أولئك منا الذين لا يقبلون استنتاجاته يجب علينا أن نقرأ كتابه ونشكل آرائنا الخاصة والحجج المضـادة، فـإن هـذا الرجـل لا ينبغي أن يُتجاهل على أية حال)

قلت: بورك لك في كل هذه الشهادات.. لقـد جعلتـني أفتخـر بأن يكون لي صديق مثلك.. ولكن ذلك لا يكفي لأقتنع بطروحاتـك، فأنت تعلم أني مجادل لجـوج.. لا أقبـل إلا مـا يقبلـه عقلي.. لا مـا يملى عليه.

قال: وهـذا مـا يعجبـني فيـك.. وهـو مـا رغبـني في صـداقتك أوقات دراستنا.. هل تذكر تلك الأيام الـتي كـانت تملى علينـا فيهـا نظرية التطور باعتبارها حقيقة علمية.

قلت: أجل أذكرها.. وأنا إلى الآن لا أزال أقتنع بها.

قال: أنت تقتنع بها، لأنـك لم تجـد غيرهـا.. هم لم يـذكروا لنـا غيرها.

قلت: فهل هناك غيرها؟

قال: أجل.. وستكتشفه أنت بنفسك.

قلت: كيف ذلك؟

قال: أجبني.. عندما ترى في شيء من الأشياء تعقيداً متخصصاً ألا ترى احتياجه ضرورة إلى مسبب ذكي، ومصمم يعرف ما يفعل؟

قلت: لم أفهم ما الذي تريده من التعقيد المتخصص؟

قال: سأضرب لك مثالا يقرب لك ذلك.. عندما نرى أحد أحرف الأبجدية لوحده، فإننا نذكر أنه متخصص دون كونه تعقيداً.. لكننا عندما نرى جملة طويلة من الأحرف العشوائية، فإننا حينها نصفها بكونها تعقيدا.. ولكن ليس متخصصاً.. لكن عندما نرى قصيدة لشكسبير حينها نقول: إنها تعقيد متخصص.

قلت: يمكنك أن تصطلح على ما ذكرت من المعاني بما ذكرت من المصطلحات.. لكن ما علاقة ذلك بنظريتك؟

قال: عندما ندقق النظر في تفاصيل الكائنات الحية نجدها جميعا في غاية التعقيد والتخصص للدرجة التي لايمكن فيها اعتبارها وجدت هكذا صدفة.. وقد وجدت ببعض العمليات الرياضية المعقدة أن أي شيء احتمال حدوثه في الطبيعة أقل من 1 من 10150 يعتبر من هذا النوع.. ويعتبر في نفس الوقت من الأمور التي يستحيل في حقها أن تكون صدفة.

قلت: فما علاقة هذا بنظرية التطور.. وكيف يتسبب في هدمها؟

قال: لأن كل شيء في الحياة، بل في الكون من هذا النوع.. فالتعقيدات المتخصصة دليل لايقبل الشك على وجود مصمم ذكي قد تحكم بإنشاء هذه التعقيدات، وهذا ماينقض نظرية التطور التي تعتبر أن الكائنات قد تكونت بمحض الصدفة.

قلت: فهلا ضربت لي أمثلة على ذلك.

قال: الأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى.. ومنها مثلا تصميم النظام الميكانيكي للمخلوقات.. فهو تصميم في غاية التعقيد والتخصص لدرجة لا يمكن تصورها، ذلك أنه غالباً ما يكون تصميم الأنظمة المتحركة أكثر تحدياً للمصممين من الأنظمة البنيوية الثابتة.

قلت: كيف ذلك؟

قال: كمثال على ذلك نرى المشاكل التي تظهر في المثقب اليدوي أكبر بكثير من تلك التي يمكن أن تنتج عن الإبريق، ذلك لأن الأولى تعمل على أساس ميكانيكي، بينما يقوم الثاني على مبدأ الشكل الفيزيائي، والتصاميم العملية تميل لأن تكون أكثر تعقيداً.

قلت: لم كان الأمر كذلك؟

قال: لأن كل عنصر من عناصر التصميم يؤدي هدفاً معيناً.. وغياب أو تعطّل أيٍّ من هذه العناصر يؤدي إلى عجز النظام عن العمل في عنصر واحد يجعل النظام عديم الفائدة.

قلت: ألأجل هذا نرى نهاية الكثير من هذه التصاميم مملوءة بالعيوب والأخطاء؟

قال: أجل.. لكن ذلك لا يصدق إلا على الأنظمة التي يصممها الإنسان، حيث نرى فيها أخطاء أكبر بكثير مما يمكن تصديقه، لأن معظم هذه التصاميم أنجزت عن طريق التجربة والخطأ، على الرغم من أن بعض الأعطال يمكن تجنبها في الطور البدائي الذي يسبق إدخال المنتج إلى الأسواق، إلا أنه يبقى من المستحيل تلافي جميع الأخطاء.. ومع ذلك لم يزعم أحد من الناس أن أي تصميم صممه الإنسان وجد هكذا صدفة.

قلت: والتصميمات الطبيعية؟

قال: عندما ننظر إلى جميع الأنظمة الميكانيكية في الطبيعة نراها ترقى إلى درجة الكمال.. فجميع المخلوقات مصممة بإتقان محكم لا يمكن تصور مدى دقته.

قلت: فهلا ضربت لي مثالا على ذلك.

قال: من الأمثلة الواضحة على ذلك جمجمـة نقـار الخشـب.. فهي مصـممة بإتقـان بـديع لا يمكن تصـور مـدى دقتـه وتعقيـده وغائيته.

قلت: كيف ذلك؟

قــال: أنت تعلم أن نقــار الخشــب يتغــذى على الحشــرات واليرقات التي تختفي في جذوع الأشجار، ويستخرجها عن طريــق النقر.. حيث يستطيع أن ينقر مـا بين تسـع إلى عشـر نقـرات في الثانية الواحدة، ويزداد هذا العدد ليصـل إلى مـا بين 15 ـ 20 عنـد الأنواع الأصغر حجماً، ومنها نقار الخشب الأخضـر.. وتصـل سـرعة عمله إلى 100 كم/سا.. أما الـزمن الفاصـل بين النقـرة والأخـرى فهو أقل من 1/1000 من الثانية.

قلت: أعلم هذا لكن ما علاقته بتصميم جمجتمه.

قـال: إن الصـدمة الـتي تنتج عن هـذه الطرقـات المتتاليـة لا تختلف عن تلك التي يسببها ضرب الرأس في حائـط إسـمنتي، إلا أن التصميم المعجِز لدماغ نقار الخشـب يجنبـه التعـرض لأي نـوع من الإصابة.

قلت: فهل جمجمة نقار الخشب تتميز عن سـائر الطيـور في هذه الناحية؟

قــال: أجــل.. فعظــام الجمجمــة تتصــل عنــد معظم الطيــور ببعضـها، ويعمـل المنقـار مـع حركـة الفـك السـفلي إلا أن منقـار وجمجمــة طــائر نقــار الخشــب منفصــلان عن بعضــهما بأنســجة إسفنجية تمتص الصدمات الناتجة عن عمليـة النقـر.. بـل إن هـذه المادة المرنة تؤدي عملها بشكل أفضـل من مـاص الصـدمات في السيارات.. وجـودة هـذه المـادة تـأتي من قـدرتها على امتصـاص الصــدمات المتتاليــة بفواصــل قصــيرة جــداً واســتعادتها لحالتهــا الطبيعيــة على الفــور، وهي تفــوق بجودتهــا المــواد الــتي أفرزتهــا التكنولوجيا الحديثة بأشواط.

حيث أن هـذه العمليـة تكتمـل حـتى في حـالات أداء الطـائر عشـر طرقـات في الثانيـة، وفصـل المنقـار عن الجمجمـة بهـذه الطريقة الخارقة تسمح للحجرة التي تحمل دماغ الطـائر بالحركـة بعيداً عن المنقار العلوي أثناء عملية النقر، وهكذا تكـون وتتشـكل آلية ثانية في امتصاص الصدمات.

قلت: وعيت هذا.. فهلا ذكرت لي مثالا آخر يزيدني يقينا.

قال: الأمثلـة أكـثر من أن تحصـى.. ومنهـا التصـميم المثـالي للقفز العالي لدى البرغوث.. لاشك أنه يدعو إلى الانبهار.

قلت: لم أسمع بذلك من قبل.. فهلا شرحت لي.

قال: لـك الحـق في ذلـك.. فقـد شـغلونا في نظريـة التطـور بالبحث عن الحفريات والعظام عن البحث عن هذه الدقة العجيبـة والتصميم المتقن الذي تمتلئ به كل جوانب الحياة.

قلت: صـدقت في ذلـك.. فأنـا أحيانـا عنـدما أدرس نظريـة التطور أشـعر أنـني لا أزال أعيش في عصـر الديناصـورات.. فهلم حدثني عن البرغوث وقفزه العالي.

قـال: لقـد وجـد البـاحثون المتـابعون لحركـات الـبرغوث أنـه يحقـق قفـزة تصـل إلى 100 ضـعف ارتفاعـه عن الأرض، أي مـا يساوي 200 متراً من القفز العالي الذي يقوم به الإنسـان.. علاوة على ذلك يمكنه أن يستمر في القفز دون توقف لمدة 78 ساعة.. وهو بشكل عام لا يسقط على ساقيه بعـد القفـزة الخامسـة، بـل يهبط إما على رأسه أو على ظهره، ومع ذلك لا يصاب بالدوار، ولا يلحق به أي أذى..

قلت: إن ما تذكره عجيب.. لأول مرة في حياتي أسمع بهذا.

قال: أجل.. فعالم الحيوانات مملوء بالعجائب..

قلت: لكن مـا التصـميم العجيب الـذي وفـر لـه كـل هـذه القدرات العجيبة؟

قال: لقد حاول العلماء أن يبحثوا عن ذلك ويفسروه، فوجدوا

أن الهيكـل العظمي لهـذه الحشـرة لا يتوضـع داخـل جسـمها.. ووجدوا أن هذا الهيكل يتـألف من طبقـة صـلبة من مـركب يطلـق عليـه اسـم [السـكليروتين] الـذي يغلـف كامـل الجسـم ويتصـل بـالكيتين.. ووجـدوا أن هـذا الهيكـل الخـارجي يتكـون من شـرائح مسـلحة كثـيرة جـداً ومحـدودة الحركـة، ولكنهـا تمتص الصـدمات وتبطل الصدمة الناتجة عن القفز.

وفوق ذلك كلـه وجـدوا أنـه لا يوجـد في جسـم الـبرغوث أي أوعية دموية، بل يسبح جسمه الداخلي بسائل دموي صافي يبطن الأعضاء الداخلية ويحفظها من ضغط القفزات المفاجئ.

قلت: لكن كيف تتم تنقية الدم ما دام جسمه بهذا التصميم؟

قـال: لقـد وجـدوا أن ذلـك يتم من خلال الثقـوب الهوائيـة المنتشرة في أنحاء الجسـم، وهـذا يغـني عن الحاجـة إلى مضـخة ضخمة تقوم بضخ الأكسجين بشكل متواصل، فقد صمم قلب هذه الحشرة على شكل أنبوب، معدل نبضاته بطيء بحيث لاتؤثر عليـه القفزات السريعة على الإطلاق.

زيادة على ذلك كله، فقد اكتشفوا أن عضـلات سـاقه ليسـت بالقوة التي تتطلبها القفزات الـتي تقـوم بأدائهـا، إلا أن هـذا الأداء المدهش يقوم بـه الـبرغوث بمسـاعدة نـوع من النظـام النابضـي الذي أُضيف إلى سيقانه.. وهذا النظام يعمل بفضل البروتين الذي يطلق عليه (resilin) إذ يخزن البرغوث الطاقة الميكانيكية.

والخاصـية البـارزة لهـذه المـادة هي قـدرتها على تحريـر 97 بالمائة من الطاقة المختزنة بـداخلها عنـد التمـدد، بينمـا لا تتعـدى النسبة التي تغطيها المـواد المرنـة الموجـودة في الأسـواق اليـوم إلى 85 بالمائة كحد أقصى.

***

شوقتني أحاديث صاحبي كثيرا، فرحت ألح عليه أن يــذكر لي مثالا آخر، فقال: من الأمثلة على ذلـك سوسـة البلـوط والتصـميم العجيب المرتبط بآلية الثقب.

قلت: هلا شرحت لي ذلك.

قال: أنت تعلم أن سوسة البلوط تعيش على ثمرة شجرة البلوط،وتعلم أيضا أن هذه الحشرة تحمل خرطوماً طويلاً في رأسها أطول من جسمها، وفي نهاية هذا الخرطوم يوجد منشار صغير حاد يشبه الأسنان.. وفي أحيان أخرى تحمل الحشرة هذا الخرطوم بشكل أفقي مستقيم مع جسمها، حتى لا تتعثر أثناء سيرها.

قلت: أجل.. أعلم ذلك.. لكن ما العجيب في ذلك، وما علاقته بالتصميم؟

قال: ستعلم ذلك، وسترى مدى تعقيد التصميم المرتبط به.. فعندما تقع هذه الحشرة على ثمرة البلوط توجه خرطومها باتجاهها لتصبح أشبه بآلة الثقب، ثم تضع أسنانها الشبيهة بالمنشار الموجودة في أعلى الخرطوم على الثمرة، ثم تبدأ بنقل رأسها من جانب إلى آخر، مما يعني إعمال المنشار الذي يحمله خرطومها المتحرك مع رأسها، وقد صمم رأس هذه الحشرة بما يتوافق تماماً مع هذه الآلية، فهو يتمتع بمستوى مدهش من المرونة.

وعندما نبحث عن نظام أي جهاز تعمل به الحشرة نجده نتيجة لتخطيط محكم.. سواء كان ذلك خرطوما ثاقبا، أو أسنانا قاطعة، أو رأسا مرنا يساعد في عملية الثقب، وكل هذا لا يمكن تفسيره عل ضوء المصادفة أو (الاصطفاء الطبيعي).

ذلك أن هذه الحشرة لو لم تستخدم الخرطوم في عملية الثقب، فلن يكون أكثر من عبء ثقيل وعضو لا فائدة منه، مما يؤكد عدمية افتراض التطور (مرحلة إثر مرحلة)

***

بعد أن انتهى من حديثه عن سوسة البلوط والتصميم البديع المرتبط بها، رحت ألح عليه أن يحدثني عن كائن آخر، وما ارتبط به من تصميم معقد، فقال: من الأمثلة على ذلك [السوط

البكتيري]، حيث تستخدم بعض أنواع البكتيريا ما يشبه السوط، ويطلَق عليه هذا الوصف بسبب كونه يساعدها على الحركة في المحيط السائل.. وهو يتصل بغشاء الخلية، ويسمح للبكتريا بالحركة حسب الاتجاه الذي ترغب به بسرعة محددة.

وقد عرف العلماء هذا السوط منذ زمن، إلا أن بنيته الحقيقية لم يكشف عنها النقاب إلا قبل فترة قصيرة، وقد كانت مفاجأة كبيرة للمكتشفين.. ذلك أنهم اكتشفوا أن هذا السوط يتحرك من خلال (محرك عضوي) في غاية التعقيد، وليس عن طريق آلية اهتزازية بسيطة كما كان شائعاً، حيث تقوم بنية المحرك الدافع على مبدأ المحرك الكهربائي، فهناك جزآن رئيسان له: (الثابت) و(الدوار)

والبنية الداخلية للمحرك معقدة جداً، حيث يشترك ما يقارب من 240 بروتينا مختلفا في بناء السوط، ويتوضع كل منها في مكانه المناسب بكل عناية.

ويعتقد العلماء أن هذه البروتينات هي التي تحمل إشارات تشغيل المحرك وتوقيفه، وتشكل نقاط اتصال تسهل الحركة بمقاييس ذرية، كما تفعِّل بروتينات أخرى مهمتها وصل السوط بغشاء الخلية، وهذه الخصائص التي يمتاز بها عمل هذا النظام تدل على الطبيعة المعقدة له.

وهذا السوط البكتيري بتركيبته المعقدة ـ من وجهة نظري ـ يكفي وحده أن يكون دليلاً كافياً على بطلان نظرية التطور.. فلو حصل وتعطل أو فُقد جزء صغير من هذا النظام لعجز عن القيام بمهمته، وأصبح دون أدنى فائدة للبكتريا.. حيث يجب أن يكون عمل السوط متقناً منذ اللحظة التي خلق فيها.. وهذه الحقيقة تلغي المزاعم التطورية التي تعتمد مبدأ (التطور خطوة خطوة)

بالإضافة إلى هذا فإن هذا السوط يدلنا على أن أشكال الحياة البدائية تحمل تصميماً على جانب من التعقيد.. وكلما تعمق الإنسان في دقائق هذا العالم، كلما اكتشف أن ما كان يظنه علماء الأحياء في القرن التاسع عشر، بما فيهم داروين، أحياءَ أو

عضيات بسيطة، هي في الواقع معقدة تماماً كغيرها.

***

كـان الـوقت فسـيحا، والجـو جميلا، فطلبت من صـاحبي أن يـذكر لي مثـالا آخـر، فـذكر لي التصـميم البديعـة للمضـخة عنـد الزرافـة، فسـألته عنهـا، فقـال: تعتـبر الزرافـة بطولهـا الفـارع (5 أمتار) واحدة من أكبر الحيوانات على وجه الأرض وأطولهـا، إلا أن هذا الحجم الكبير والطول الفارع يتطلبان نظاماً دورانياً فريداً لكي يقضي هذا المخلوق حياة سـليمة.. ذلـك أنـه يجب أن يصـل الـدم إلى الدماغ الذي يتوضع فوق القلب بمترين، وهذا يتطلب بنية غير عادية للقلب، لذلك كان قلب الزرافـة قويـاً بمـا يكفي لضـخ الـدم تحت ضغط 350 ملم زئبقي.

وهـذا النظـام القـوي، والـذي من الممكن أن يقتـل الإنسـان العـادي، يتواجـد ضـمن غرفـة خاصـة تغلفـه شـبكة من الأوعيـة الشعرية مهمتها التخفيف من الإصابات المميتة.

ومن جهة أخـرى، يوجـد نظـامٌ في المنطقـة الواقعـة مـا بين الرأس والقلب يتكون من الأوعيـة الصـاعدة والنازلـة، حيث تقـوم السوائل المتدفقة في الأوعية بالاتجاه المعـاكس بموازنـة نفسـها، مما يحمي الحيوان من ارتفعات خطيرة في ضغط الـدم الـتي قـد تسبب نزفاً داخلياً.

ويتطلب القسـم الـذي يقـع تحت القلب، وخاصـة السـاقان والقدمان، عناية خاصة، وقد تحقق ذلك بكون السماكة المضـاعفة للجلـد في هـذه المنـاطق تحمي الزرافـة من الأعـراض الجانبيـة لضغط الدم العالي، كما توجد صمامات في الأوعية الدمويـة تنظم الضغط.

والخطر الأكبر الذي تتعرض لـه الزرافـة، هـو الانحنـاءة الـتي تقـوم بهـا عنـد حاجتهـا لشـرب المـاء، وفي هـذه اللحظـة يرتفـع الضغط المرتفع أصلاً بما يكفي ليسبب نزفاً داخلياً، إلا أن الزرافـة لا تعاني من ذلك، فقد تم الاحتياط لهذا النوع من الخطر، إذ يقـوم سائل خاص، وهو السـائل المخي الشـوكي الـذي يوجـد أيضـاً في

الدماغ والعمود الفقاري، بتوليد ضغط معاكس ليمنع حدوث تمـزق الأوعية الشعرية.

كما يدعم هذا التوازن صمامات تعمـل باتجـاه واحـد، وتنغلـق عنـدما يخفض الحيـوان رأسـه.. حيث تقلـل هـذه الصـمامات من تـدفق الـدم، لتتمكن الزرافـة من خفض رأسـها والنهـل من المـاء بأمان.. ولمزيد من الحـرص على تفـادي أخطـار ارتفـاع الضـغط، تتمـيز هـذه الصـمامات بغلافهـا الثخين، والـذي يتـألف من عـدة طبقات.

***

بعد أن حدثني عن هذا المثـال طلبت منـه أن يـذكر لي مثـالا آخـر، فـذكر لي التصـميم العجيب المرتبـط بآليـات التنفس عنـد الـدلفين.. ثم شـرح لي ذلـك بقولـه: يتنفس كـل من الـدلفين والحوت عن طريق الرئتين تماماً كما تفعل بـاقي الثـدييات، وهـذا يعني أنه من الصعب عليهـا أن تتنفس في المـاء مثـل الأسـماك.. وهذا هو السبب وراء زيارتها المتكررة للسطح، حيث تعمل الفتحة الموجودة قي أعلى الرأس على إدخال الهواء.

وقد صمم هذا العضو بطريقة تؤمن له إغلاقاً آمناً عند الغوص في الماء، حيث تغلق الفتحة آليا بغطاء يمنع تسرب الماء، وعندما يعود الدلفين إلى السطح يفتح الغطاء آليا أيضاً.

قلت: فهمت هذا عند اليقظة.. لكن كيـف ينـام دون التعـرض لخطر الغرق؟

قال: وهذا أيضا من التصـميم البـديع.. حيث يوجـد في جسـم الدلفين نظام خاص يحميه من الهلاك عندما ينام في المـاء.. وهـو يتمثل في استخدامه عند النوم نصفي الدماغ بشـكل متنـاوب كـل 15 دقيقة، فبينما ينـام النصـف الأول يبقى النصـف الثـاني متجهـاً إلى السطح للتنفس.

قلت: هذا عجيب لم أعلم أن هناك من ينام بهذا الشكل.

قـال: بالإضـافة إلى ذلـك، فـإن خطم الـدلفين الموجـود في

منقاره يعينه على السباحة، ذلك أنه يستخدم طاقة أقل في اختراق الماء، ويسبح بسرعات عالية.. ولهذا نرى السفن الحديثة قد استفادت من هذه الطريقة لزيادة سرعتها.

***

طلبت منه مثالا آخر عن دقة التصميم، فذكر لي التصميم البديع والمعقد للتكاثر عند الضفادع، فسألته عنه، فقال: تحمل الضفادع صفات تساعدها على البقاء في مختلف البيئات. لذلك يمكنها أن تعيش في أي مكان على الأرض ما عدا القارة القطبية.. حيث تتواجد الضفادع مثلاً في الصحارى والغابات والسهول وجبال الهيمالايا والآنديز والارتفاعات التي قد تصل إلى 5000 متراً، إلا أن المناطق المدارية هي أكثر المناطق ازدحاماً بالضفادع، ففي الغابات المطيرة تزدحم الضفادع حيث يمكنك أن تجد 40 نوعاً منها في كل مترين مربعين.

قلت: فما التصميم المعقد المرتبط بتكاثرها؟

قال: هناك طريقة تكاثر عجيبة ينتهجها نوع من الضفادع يطلق عليه [ريو باتراخوس سيلوس]، حيث تبتلع هذه الضفادع بيوضها بعد الإخصاب، ولكن ليس لتأكلها، بل لتحميها، حيث تفقس البيوض في المعدة، وتبقى هناك لمدة ستة أسابيع بعد الفقس.

قلت: ولكن كيف تبقى هناك دون أن تُهضم؟

قال: وهذا هو التصميم البديع المرتبط بذلك.. حيث نرى الأنثى تتوقف في البداية عن تناول الطعام لمدة ستة أسابيع، أي: إن معدتها تبقى مخصصة طول هذه الفترة للشراغيف فقط.

قلت: ولكن هناك خطر آخر يتهددها: إنه حمض الهيدروكلوريك والببسين، وهاتان المادتان كافيتان لقتل الصغار؟

قال: وهذا لا يحدث، لأن الأمور محسوبة وضمن معايير خاصة.. فالسوائل الموجودة في معدة الأم تتم محايدتها عن طريق مادة أخرى تشبه الهرمون تفرزها كبسولات البيوض من جهة والشراغيف من جهة أخرى.. وهكذا ينمو الصغار بصحة جيدة

على الرغم من أنها تسبح في بركة حمضية.

قلت: ولكن كيف تتغذى الشراغيف في معدة فارغة؟

قال: هذه أيضاً ترتبـط بـذلك التصـميم البـديع.. فـبيوض هـذه الأنواع أكبر من غيرها بشكل ملحوظ؛ لأنها تحتوي على صفار غني بالبروتين، يكفي لتغذية الصغار لمدة ستة أسابيع.

قلت: ولكن مع ذلـك تعـرض مشـاكل جديـدة وكثـيرة عنـدما يحين وقت الولادة؟

قال: أجل.. ولذلك وضعت التصميمات البديعة لتحقيق ذلـك.. حيث يتمـدد المـري خلال الوضـع تمامـاً كمـا يتمـدد الـرحم عنـد الثدييات، وعندما تخرج الصغار يعود كـل من المـري والمعـدة إلى الحالة الطبيعية وتبدأ الأنثى بتناول طعامها.

لم أملك إلا أن أقول من حيث لا أشعر: إن هذا عجيب جـدا.. إن هـذا وحـده كـاف لينسـف نظـام التكـاثر لـدى هـذا النـوع من الضفادع لنظرية التطور من أساسها.

قال: أجل.. فهو نظام معقد ومترابط، وكـل خطـوة من هـذه العملية مرتبة بعناية لتضمن حياة هـذا الشـرغوف.. حيث يجب أن تبتلع الأم البيوض أولاً وأن تتوقـف عن تنـاول الطعـام لمـدة سـتة أسابيع، بينما يتحتم على الـبيوض أن تفـرز مـادة هرمونيـة لتعـدّل الوسط الحامضـي للمعـدة.. أمـا الـبروتين الإضـافي الـذي يقدمـه صفار البيضة فهو ضرورة أخرى.. وكذلك لا يمكن أن يتوسع مـري الأنثى عن طريق المصادفة لتضع صغارها.

انظر جيدا.. فأي خلل مهمـا كـان صـغيراً في هـذه السلسـلة من الأحداث كفيـل بـإهلاك الصـغير، واسـتمرار هـذا الخلـل يعـني انقراض النوع.. لهـذا لا يمكن أن تكـون نظريـة (الخطـوة خطـوة) ممكنة التطبيق على هذا النوع من الضفادع.

العشوائية.. والإبداع المقصود:

بعد أن سمعت الكثـير من الأمثلـة الـتي أوردهـا لي صـديقي

[ألبرت وليام ديمبسكي] تلاشت الكثير من الإشكالات الـتي كـانت تطوقني، وتحول بيـني وبين التفكـير السـليم.. بـل كـانت تجعلـني أعيش عالما من الخيال والوهم الكاذب المملوء بالدجل.

لكني، وبسبب تلك المضايقات التي يتعرض لها كل من ينكــر نظرية التطور راح ما ذكره ذلك الصديق العزيز الذي تحدى واقعه بكـل قـوة، يتلاشـى شـيئا فشـيئا إلى أن كـدت أعـود إلى وضـعي الأول، لولا أن تداركني الله بفضـله، فـالتقيت فجـأة من أعـاد إلي وعيي وحطم كل الأسطورة الـتي بناهـا داروين وتلاميـذه وسـدنته في عقلي.

لقد كان اسم ذلك الرجل الذي أتيح لي أن أسـتفيد منـه كـل تلك الفوائد هو [مايكل دنتون]، وهو عـالم متخصـص في الكيميـاء الحيوية، وكان في بدايته كما ذكر لي، يؤمن بنظرية التطــور بحكم إلحـــاده، إلى أن بـــدأ يكتشف بنفسه، ومع التقـــدم الـــرهيب في البيولوجيا الجزيئية، عشـــرات الثغـــرات القاتلة الـــتي أزالت عن التطــور الهالة العلمية الــتي ينسـجها أتباعه حوله ليمــرروه على الناس بغير تفكير ولا مناقشة.

وقد ذكـر لي أنـه حينهـا قـام بتـأليف كتابـه الشـهير [التطـور نظرية في أزمـة] عـام 1985م، وقـد كـان من أوائل الكتب الـتي قلبت نظرية التطور في العصر الحديث رأسا على عقب.

بالإضـافة إلى ذلـك، فقـد كـانت لـه مشـاركات عديـدة في وثائقيات علمية عن الدقة المتناهية، وعلامات التصميم الـذكي في الحياة والأرض والكون وصولا إلى الإنسان.

عنــدما التقيت بــه، وتحــدثت معــه عن بعض المعــاني الــتي يذكرها التطوريون تغير وجهه تغيرا شـديدا، ثم راح يقـول لي: إلى متى تظل هذه النظريات التي ولدت وهي تحتضر تتشبث بالحياة.. وإلى مـتى تظـل تتنفس بـأجهزة اصـطناعية.. هيـا اقطعـوا عنهـا الأجهزة.. فقد ماتت منذ زمن طويل.

قلت: هل تقصد أنك من تلك المدرسة التي تقـول بالتصـميم الذكي، والتي أبدعها وابتدعها صديقي [ألبرت وليام ديمبسكي]؟

قـال: هـو لم يبـدعها ولم يبتـدعها.. بـل هي قائمـة في كـل العصور.. فكل الفلاسفة والعلماء والعباقرة يشهدون بدقـة الكـون والحياة ولا يجـادلون في ذلـك إلا هـؤلاء التطوريـون الـذين راحـوا يصورون الحيـاة، وكأنهـا تنفيـذ من غـير تصـميم، ومنتـوج من غـير تخطيط، وهذا مما يحيله العقل بالبداهة.

لسـت أدري كيـف حننت إلى حـديث صـديقي [ألـبرت وليـام ديمبسكي]، فـرحت أسـتفزه ليحـدثني مثلمـا حـدثني، فقـال: أنت تعلم أن أهم مرحلة في أي إنجاز نراه أو نعيشه هـو الفكـرة الـتي أبدعته وانطلق منها.. أو هي ما يمكن أن يطلق عليه [التصميم]

فالمصمم[1] يقوم بتصـميم النمـاذج، ورسـمها على الـورق.. والعـادة في هـذه التصـاميم أن تنطلـق من مشـاهدات ومعـارف سـابقة، فلا يمكن لأي مصـمم بشـري أن يصـمم شـيئاً لم يـره أو يعرفه في حياته، فهو يستمد إيحاءات مشروعه من الطبيعة حوله، فكل ما فيها هو تصميم قائم بحد بذاته.

ولذلك فإن التصميم يمر بمراحل كثيرة.. فالمصمم يقرر أولاً مادة التصميم والغايـة منـه.. ثم يحـدد المسـتخدم المحتمـل لهـذا التصـميم وحاجـات هـذا المسـتخدم.. وانطلاقـا من ذلـك يحـدد مقاييس التصميم..

ولهذا فإن المصممين في العادة أقل الناس استخداماً للمواد أثنـاء العمـل، ذلـك أن الحاجـة الأولى خلال كـل تلـك العمليـة هي اختراع الأفكار الـذكي،ة أو التفاصـيل الثانويـة، إلى جـانب العمـل الجاد.. فلا يحتاج المصمم في البداية لأكثر من ورقة بيضـاء وقلم، وأثناء تشكيله للتصميم يقوم بمراجعة الأمثلة السابقة للنموذج.

وعندما نزور المصممين في مخابرهم نجدهم يضـعون مئـات من الخيارات المختلفة، والـتي قـد يسـتغرق العمـل فيهـا شـهوراً كثيرة.. ثم بعد ذلك تتم مراجعة هـذه الأفكـار، ويتم انتقـاء أكثرهـا فائدة وجمالاً ليتم إنتاجه.. ثم تُدرس تفاصيل الإنتاج المناسبة لهـذا العمل.

---

[1] انظر: التصميم في الطبيعة: هارون يحيى، ترجمة : أورخان محمد علي.

وبعد وضع نموذج صغير معياري للمنتج، والذي يترجم الأفكـار ذات البعـدين إلى أفكـار ثلاثيـة الأبعـاد.. وبعـد إجـراء المزيـد من التحسـينات يتم تـركيب نمـوذج بـالحجم الحقيقي للمنتج.. وقـد تستغرق هذه العمليات سنوات من العمل.. وخلال هذه المـدة تتم تجربة النموذج عدة مرات لإثبات جودته بالنسبة للمستخدم.

ولهذا فإنه من البديهي عندما يدخل تصميم جديد إلى السوق أن يتم تقييم مظهره أولاً من قبل المستهلك من شكله، ولونه، ثم يتم تقييم فعاليته وأدائه.

وبنـاء على هـذا كلـه فـإن أهم مرحلـة في أي منتج نـراه، وأخطرها، هي مرحلة التصميم، ولهـذا، فـإن المالـك الوحيـد لكـل التصاميم هو الذي يحكم سيطرته على كل الأمور.

قلت: وعيت كل ما ذكرته.. ولكني لم أع مقصودك منه.

قـال: مقصـودي واضـح.. وهـو أن الإبـداع الحقيقي ليس في الإنجـاز، ولا في إخـراج التصـميم من عـالم الافـتراض إلى عـالم الواقع، وإنما في الفكرة نفسـها.. فـإذا كنـا نحن البشـر لا نرضـى لأحد أن ينسب لنفسه مـا نخترعـه من تصـاميم لا تعـدو أن تكـون تقليـدا لمـا في الطبيعـة من تصـاميم دقيقـة.. فكيـف نسـم تلـك التصاميم الدقيقـة الـتي تمتلئ بهـا الطبيعـة بكونهـا خـرجت هكـذا للوجود، وبعشوائية، ومن غير تصميم سابق، ولا فكرة سابقة.

قلت: صدقت في هذا.. فالجهد الكبير الذي قام بـه شكسـبير لكتابة مسرحياته أكـبر بكثـير من الجهـد الـذي تقـوم بـه المطبعـة لطباعتها وإخراجهـا.. ولـو أخـرجت منهـا ملايين النسـخ.. فـالعبرة بالإنتاج لا بالصناعة والتكرار.

قال: بورك فيك.. ولهذا فإن عمليـة الخَلْـق من العـدم، ودون وجود نموذج سابق للمخلوق أمر عظيم جـدا.. ويسـتحيل أن يـأتي هكذا صدفة من غير تـدبير عاقـل ممتلئ بالـذكاء والعلم والحكمـة والخبرة وكل صنوف القدرة..

واعتبارا من هذا، فـإن قـدرة الإنسـان نفسـها على التصـميم

دليل آخر على وجود قدرة خارقة وعقل جبار قام بتصميم الإنسان وإعطائه كل تلك القدرات.

قلت: صـدقت في هـذا.. فنحن نفخـر بتلـك الروبوتـات الـتي أصبحت تعيننا في الكثير من شؤون حياتنا، مـع أنهـا خاليـة من أي إبداع حقيقي، فهي لا تعطينا إلا ما نعطيها.

قال: أجـل.. وزيـادة على ذلـك فـإن كـل مـا نـراه من أشـياء نعتقد أنها جاءت كنتيجة عن التصميم البشري ليست سـوى تقليـد لأمثلة موجودة في الطبيعة، ومنذ ملايين السنين.

أصابني شوق لتلك الأمثلة التي أوردها صديقي [ألبرت وليـام ديمبسكي]، فقلت لـه: هلا ضـربت لي أمثلـة تؤكـد لي بهـا ذلـك.. وتجعل قلبي مطمئنا لما تقول.

قـال: الأمثلـة على ذلـك أكـثر من أن تحصـى.. وسـأذكر لـك بعضها على سبيل المثال لا على سـبيل الحصـر.. فمن المسـتحيل حصر مثل هذا.

فكر قليلا، ثم قال: هل تتصور أن كل تلك الاختراعات الذكيـة جدا، والمرتبطة بالإنسان الآلي، والتي نتيه بهـا، ونتعـاظم، ليسـت سوى تقليد للحشرات.

قلت: للحشرات؟

قال: أجل.. فقد أظهـر الإنسـان الآلي الـذي قـام بنـاؤه على مبدأ أرجل الحشـرات توازنـاً أفضـل.. ذلـك أنـه عنـدما تم تـركيب وسائد شافطة على أقدام الإنسان الآلي أصبح بإمكانه السير على الجدران مثل الذبابة تماماً.

وحسب أقوال البروفسور [جوهانسن سـميث]، فـإن محركـاً أصغر من مليمتر واحد يمكن أن يحرك إنسـانا آليـاً بحجم النملـة.. وهذا الإنسان الآلي يتم تصنيعه لاستخدامه كجيش صـغير أعضـاؤه بحجم النملـة، ليخـترق صـفوف الأعـداء دون أن يُؤْبَـه لـه، ويقـوم بتعطيـل الـرادارات والمحركـات النفاثـة، وتعطيـل معلومـات الحواسيب للاعداء.

وقـد بـادرت بعض الشـركات اليابانيـة العملاقـة إلى تنظيم شـراكة للعمـل في هـذا الموضـوع، وأثمـرت هـذه الشـراكة عن إنسان آلي صغير جداً يزن حـوالي 0،42 غـرام ويسـير بسـرعة 4 أمتار في الدقيقة.

قلت: هذا عجيب جدا.

قـال: والفضـل فيـه قبـل أن يعـود للإنسـان المصـمم يعـود للتصـميم نفسـه.. فالتصـميم البـديع للحشـرات هـو الـذي أوحى للمخترعين بأن ينسجوا على منوالها.

قلت: صدقت في هذا.. فهلا ضربت لي مثالا آخر.

قال: من الأمثلة على ذلك أن بعض المصممين راحوا يبحثون في سر كون الحشرات أكثر المخلوقات وجـوداً على الأرض، وعن سر مقاومة جسمها لمختلف الظروف المحيطـة.. وقـد وجـدوا أن أحد عوامل المقاومة التي تتمتع بها هو مادة الكيـتين الـتي يتـألف منها هيكلها العظمي.

و[الكيـتين] مـادة رقيقـة وخفيفـة جـداً، فلا تجـد الحشـرات صـعوبة في الاحتفـاظ بهـا، وعلى الـرغم من أنهـا تغلـف جسـمها بشكل كامل، إلا أنها قوية بما يكفي لتعمل عمل الهيكل العظمي.

ومع قـوة الكيـتين تتمتـع هـذه المـادة بالمرونـة، ويمكنهـا أن تتحرك عن طريـق العضـلات الـتي تتصـل بهـا من داخـل الجسـم، وهذا لا يضمن الحركة السريعة للحشرات فحسب، بل يخفـف من حدة الصـدمات الخارجيـة، بالإضـافة إلى أن هـذه المـادة المانعـة لتسرب الماء الحشرة تساعدها على الاحتفاظ بسوائل جسمها.

ولهذا نـرى الحشـرات لاتتـأثر بـالحرارة أو الإشـعاع، كمـا أن ألوانها في معظم الأحيان تلائم المحيط تمامـاً، وفي بعض الأحيـان تصدر إنذارات من خلال الألوان الزاهية التي تظهرها.

وانطلاقا من كل ذلك راحوا يبحثون عن كيفية الاسـتفادة من هـذه المـادة في جـوانب الحيـاة المختلفـة، وخاصـة في صـناعة الطـائرات والسـفن.. لكن الحلم لم يتحقـق بعـد.. ولا زالت

الحشرات أكثر تطورا من السفن والطائرات.

قلت: وعيت هذا.. فهلا ضربت لي مثالا آخر.

قـال: من الأمثلـة على ذلـك الشـكل المثـالي لخلايـا الـدم الحمـراء.. فهي المسـؤولة عن نقـل الأكسـجين في الـدم.. وهـذه العملية تتم بواسطة مـادة خضـاب الـدم الـتي تخزنهـا خلايـا الـدم الحمراء، وكلما كان سـطح هـذه الخليـة واسـعاً كلمـا كـانت كميـة الأكسجين التي تحملها أكبر.

وبما أنه يتحتم على هذه الخلايا أن تمر عبر الأوعية الشعرية، فإن حجمها يجب أن يكون في حده الأدنى، أي أن يكـون سـطحها كبيراً وحجمها صغيراً.

ولهذا، فإن الخلايا الحمراء صممت وفق هـذه المعـايير، حيث نراها ذات بنيـة مسـطحة، ودائريـة، ومضـغوطة من كلا الجـانبين، وتشبه حلقة الجبنة السويسرية المضغوطة من كلا الجانبين.. وهذا هو الشكل الذي يضمن أكبر سطح ممكن مع أصغر حجم.

ومع هذا الشكل يمكن أن تحمل كل خلية حمراء 300 جزيء من الهيموغلوبين، إضافة إلى ذلك، فإن الخلايـا الحمـراء يمكن أن تمر داخل أصغر الأوعية الشعرية وأضيق المسامات بسبب مرونـة بنيتها.

قلت: وعيت هذا.. فهلا ضربت لي مثالا آخر.

قال: من الأمثلة على ذلك العيـون اللونيـة لسـمكة البـالون.. والـذي يعيش في الميـاه البحريـة الدافئـة في الجنـوب الشـرقي لآسيا.. فعندما تسقط كميات زائدة من الضوء عليها، تعمل عيـــون هذه السمكة عمل النظـارات الشمسـية المعالجـة كيميائيـاً، حيث تحمل عيـون هـذه السـمكة الـتي يبلـغ طولهـا 2،5 سـم خصـائص مشابهة لخصائص العدسات التي تتغـير الكثافـة اللونيـة فيهـا تبعـاً لشدة الضوء.

فعندما تواجه العين ضـوءاً زائـداً تبـدأ الخلايـا اللونيـة، والـتي توجد حول الطبقة الشفافة (القرنيـة) بتحريـر صـباغ أسـود يغطي

العين، ويعمل عمل المرشح في التقليل من كثافة الضوء، مما يؤهل السمكة للرؤية بوضوح أكبر.. ويختفي هذا الصباغ في المياه المظلمة، وتتلقى العين أكبر كمية ممكنة من الضوء.

فمن الواضح أن هذا النظام هو نتاج تصميم مبدع.. فهذه الخلايا تقوم بإفراز هذا الصباغ بتحكم منظّم لا يمكن اعتباره وليد المصادفة.

العشوائية.. والتصميم الذكي:

بعد أن سمعت الكثير من الأمثلة التي أوردها لي [مايكل دنتون] مما ذكرته لكم، وغيرها.. اقتنعت قناعة تامة باستحالة العشوائية، ولهذا فإني بعد خروجي من عنده مباشرة قررت الانتماء لمعهد ديسكفري على حسب ما أرشدني مايكل..

فقد قال لي قبل وداعه: أرى أن كل المعاهد التي ترى نظرية التطور صارت لا تختلف عن معاهد السحر والخرافة والدجل.. فالتمس لك معاهد غيرها، لتفيد وتستفيد، وتخدم البشرية، وتخدم قبلها الحقيقة، وتتحرر بها.

قلت: وأنى لي أن أجد ذلك.

فقال لي: اذهب إلى معهد ديسكفري، فإنك ستجد به قوما من العلماء، لا همّ لهم إلا البحث في حقائق الكون، ومدى دقتها وإحكام تصميمها، وسترى عندهم الكون بصورته الجميلة الممتلئة بالدقة والتناسق والعظمة.. ولا عليك بعدها أن تؤمن أو لا تؤمن، فتلك مسألة شخصية.

قلت: فما يشترطون لدخولي لهذا المعهد؟

قال: لا يشترطون إلا صدقك وبحثك، وتخليك عن خرافات التطور، وتقديس رجالها.. فالحقيقة هي المقدسة، لا الأشخاص..

قلت: والمال؟

قال: هذا المعهد منظمة غير ربحية، فهو لا يريد منك إلا أن تساهم معه في نشر أفكار التصميم الذكي، ويعطيك من الحقائق

والمناهج ما تمارس به هذه الدعوة.

ذهبت كما طلب مني، وأمام باب المعهد التقيت بـ [جوناثون ويلز]، وقد أخبرني أنه عضو في مركز العلم والثقافة التابع لمعهد ديسكفري، وهو يحمل شهادتي دكتوراه واحدة في البيولوجيا الخلوية والجزيئية من جامعة كاليفورنيا، وأخرى في الدراسات الدينية من جامعة يال.

والأهم من ذلك كله أنه أخرج لي كتابا من محفظته، ثم كتب لي فيه إهداء، وقال: تقبل مني هذا الكتاب، فهو من تأليفي.. إنه كتاب [أيقونات التطور: لم يكون معظم ما ندرسه عن التطور خاطئاً]

فرحت بالكتاب كثيرا، وأخرجت من جيبي الكثير من المال لأعطيه لصاحبه، فقال: لو كنت أؤمن بنظرية التطور، والقيم المرتبطة بها لقبلت المال منك.. ولكني، ولكوني أرى من جمال الكون ما لا يراه التطوريون، فقد كانت فرحتك بالكتاب أعظم هدية أهديتها لي، أو أعظم ثمن أسديته.

بينما كنا كذلك إذ أسرع رجل إلينا، ثم أخذ يصافح ويلز بحرارة، دون أن يلتفت لي، وهو يقول: مرحبا بأهم قائد لفيالق حرب نظرية الدجل والخرافة نظرية التطور.. ومرحبا بصديق الإنسانية والحقيقة الذي دعا لإصلاح تعليم التطور عبر تصحيح أخطاء الكتب المدرسية، وعبر التأكيد على أن الدليل المؤيد والمعارض للدراونية يجب أن يدرس..

تخليت عن بعض كبريائي، ورحت أسأل الرجل قائلا: مرحبا بك.. هلا عرفتني على هذا الرجل، فإنه قد أهداني كتابه من دون أن يعرفني بنفسه.

قال: ألا تعرف هذا.. إنه خادم كبير من خدم الإنسانية.. إنه من دعاة التصميم الذكي الذين راحوا يفسرون نشأة الأنواع الحية تفسيرا علميا بعيدا عن كل أنواع الأيديولوجيا والتفكير الغرضي.

إنه ذلك الرجل الذي تبنى توجهاً مناهضاً للدور العشوائي

اللاغائي الذي تعطيه نظرية التطور للطبيعة، باعتبارها أداة فاعلة في الخلق..

ولذلك تراه في كل محفل يناهض دعاوى التطوريين عن وجود عيوب في تصميم الأنواع الحية؛ لكونها تطورت بعضها من بعض، فنشأت العيوب نتيجة السمكرة وإعادة التخليق، وهو لذلك لا يعترف بوجود أعضاء أثرية بلا وظيفة، أو أعضاء غيّرت وظيفتها عبر المشوار التطوري.

بل هو على النقيض من ذلك، يرى ــ كما يرى جميع دعاة نظرية التصميم الذكي ــ في الأنظمة الحيوية تعقيدات وظيفية متخصصة، وتعقيدات غير قابلة للاختزال، ومن ثم تعجز الرؤية التطورية التدرجية التراكمية عن تفسيرها.

قلت: فهي نظرية دينية إذن؟

قال: لا.. هي ليست نظرية دينية.. بل هي تحصر دورها في وصف حقيقة الحياة كما هي، وتزيل عنها الرؤية التطورية الخرافية.. وترى كل نوع من الأنواع عالما قائما بذاته، لم يتطور من غيره، ولم ينشأ عنه.. وهي لذلك تفسر خلق الأنواع الحية بكونها تمت من قِبل مصمم ذكي، ولا تسمي اسم ذلك المصمم ليجتمع فيها جميع الأديان المؤمنة بوجود مصمم ذكي بغض النظر عن اسمه وصفاته وحقيقته، وهذا ما يفرقها عن النظريات الدينية.

قلت: ولم لا تتبنى رؤية دينية معينة؟.. ولم لا تعتبر الله خالقا، وتحدده على أنه ذلك المصمم الذكي؟

قال: هي لا تفعل ذلك لسببين.. أولهما أن ذلك سيبعدها عن أداء دورها الرسالي المرتبط بمواجهة أيقونات التطور وكهنته.. والثاني هو أن تحديد المصمم بدقة وعلمية أمر يخرج عن قدرة العلم.. ولذلك ترى هذه النظرية أن الخلق الخاص لكل نوع حي يتناسب كفرضية تفسيرية مع التصميم الذكي، بينما التطور التدريجي للأنواع الحية بعضها من بعض لا يتواءم مع التصميم.

قلت: فهل يقتصر دورها على هذا؟

قال: لا.. إن دورها يتعدى تقديم تفسير لنشوء الأنواع الحية، وهي الحدود التي تتناولها نظرية التطور؛ بل إنها تضيف إلى ذلك تفسيراً لنشأة الكون ككل، يُستدل عليه من خلال التوافق الدقيق للكون.

قلت: لا شك أن أصحاب هذه النظرية يتعرضون لمضايقات من طرف التطوريين، فأنا أعرفهم جيدا.. أعرف كبرياءهم وغرورهم واعتقادهم أنهم على الحق المجرد، وأن غيرهم خرافيون وضالون.

قال: صدقت في ذلك.. فمنذ بدأت حركة التصميم الذكي، والتطوريون يشيعون عن أصحابها أنهم خَلْقَوِيُّون، مع أن المنضمين إلى هذه الحركة والمؤسسات التابعة لها ليسوا كذلك جميعا.. فبعضهم دينيون مع اختلاف دياناتهم.. وبعضهم لا أدريون.. بل إن بعضهم ملاحدة.

قلت: فهلا ذكرت لي بعض أقطاب هذه النظرية..

قال: هم كثير.. ويتزايدون كل يوم.. وأظن أنك ستصير في يوم من الأيام أحدهم..

قلت: إذا قررت ذلك.. فهل يمكن أن أجد أصدقاء من العلماء المحترمين؟

قال: أجل.. ستجد الكثير منهم.. ومن كثير من التخصصات العلمية.. ستجد منهم البروفيسور [دين كينيون]، وهو من أوائل المؤسسين لهذه الحركة، وأحد المشاركين في وضع نموذج شهير لتفسير نشأة البروتين في بدء الخلق من خلال الأُلفة الكيميائية للأحماض الأمينية، بعد أن تراجع عن نموذجه واعترف بعدم وجود قيمة تفسيرية له.

وستجد منهم البروفيسور [أنتوني فلو]، الذي قضى عمره في الإلحاد، ثم عاد عنه وصنّف كتاب [هناك إله] الذي أعلن فيه تراجعه عن إلحاده، وانضم إلى حركة التصميم الذكي..

وستجد منهم الدكتور البيولوجي [هنري جي] المُحرر بمجلة

نيتشر التطورية الشهيرة، وذلك في كتابه [البحث في أعماق الزمن]، والذي علق على الاستشهاد ببضعة عظام لا تملأ صندوقا صغير على تطور الإنسان أو غيره ـ مع كونه من التطوريين ـ: (إن أخذ سلالة من الأحافير وادعاء أنها تمثل خطأً تكاثرياً لا يعتبر فرضية علمية قابلة للاختبار، وإنما هو تأكيد على قصة تحمل نفس قيمة القصص التي تروى قبل النوم ـ ربما مفيدة.. ولكن ليست علمية)

وستجد [جيري فودور]، وهو بروفيسور الفلسفة وعلم الإدراك بجامعة ولاية نيوجيرسي، والذي كتبت كتابه في التشكيك في حقيقة وجود خرافة الانتخاب الطبيعي مع كونه كان حينها ملحدا، وذلك في كتابه [لماذا لا تملك الخنازير أجنحة؟]، والذي تم نشره في معرض الكتاب بلندن عام 2007م.. وقد شارك مع [ماسيمو بياتيللي بالماريني] في إصدار كتاب بعنوان [الأمر الذي أخطأ فيه داروين] عام 2011م، وقد قالا في مقدمته: (هذا ليس كتاباً عن الله، ولا عن التصميم الذكي، ولا عن الخلق.. ليس أياً من أحدنا متورطٌ في شيءٍ من ذلك.. لقد رأينا أنه من المستحسن أن نوضح هذا منذ البداية، لأن رأينا الأساسي فيما سيأتي يقضي بأن هناك خطأ ما، وربما خطأ لدرجة قاتلة في نظرية الانتخاب الطبيعي)

التفت إلي، وقال: هل سمعت ما قالا.. إن هذا يعني أن أكبر الانتقادات الموجهة لخرافات التطور وآلياته الخيالية وغير العلمية هي من أشخاص ملحدين أو لا أدريين أو لادينيين، إضافة إلى كونهم كانوا تطوريين من قبل أن يرجعوا لصوابهم وعقلهم.

قلت: وعيت هذا.. ولكني سمعت أن هناك جهات كثيرة معادية لكم، ومنها جهات رسمية في الولايات المتحدة الأميركية وأوروبا.. فقد صرّحت الأكاديمية الوطنية للعلوم بالولايات المتحدة بأن التصميم الذكي ليس علماً؛ لكونه يفترض أصلاً خارقاً للطبيعة في نشأة الحياة، واتهمت النظرية بأنها لا تقترح أية فرضيات خاصة بها، ولا يمكن إخضاعها للتجربة، كما أنه لا يمكن التنبؤ منها بشيء!

قـال: لا شـك أن هـذه التصـريحات شـكّلت درجـة عاليـة من التحـــيز لنظريـــة التطـــور، والتجنّي في المقابـــل على نظريـــة التصميم.. فنظرية التصميم لها فرضياتها القابلة للاختبار؛ وأهمهـا: التعقيـد المتخصـص، والتعقيـد غـير القابـل للاخـتزال في الأنظمـة الكونيـة والحيويـة.. كمـا أن النظريـة تحقـق أهـداف العلم الثلاثـة (التفسير ـ التنبؤ ـ الضبط)

وهي لذلك تقدم تفسيراً متسقاً غير متعاكس للضبط الـدقيق في الكون، وللدقة التي خُلِقت بها أجسام الأنواع الحيـة، وللقـدرة على التكيف الموجودة في المناطق التنظيمية من جيناتها.

بل إنه يمكن من خلالها التنبؤ بالكثير في ضوء فرضياتها مثـل توسع أو انكماش الكون، ووصول كـائن مـا للشـيخوخة أو الإصـابة بمرض.

وفوق ذلك كله، فنظرية التصميم لا تعتـبر الأنـواع متسلسـلة من بعضها، حتى تُطالب بالتنبؤ بظهور نوع جديـد، فهـذه فرضـيات التطور، وليست فرضياتها، فما بالنا ونظرية التطور ذاتها تعجز عن هذا التنبؤ.

سكت قليلا، ثم قال: من أدلة كون كل ما ذكر أعـداء نظريـة التصميم الذكي مجرد حاقدين ومنحازين وغير علميين هو عجـزهم عن تخطئة ما ذكرته حركتنا، وأيدته بالأدلة العلميـة.. فالتعقيـد في الكون وفي الأنظمة الحيوية غير قابـل للاخـتزال، وفي التعقيـدات المتخصصة.. كلها فرضيات ليست فقط قابلة للدحض؛ بل ولم يتم دحضها، وثبتت صحتها، فبالتجريب على الكثير من الأنظمة الحيوية ثبت أن غياب جزء واحد فقط عن أي نظام حيـوي يجعلـه يتوقـف تماماً عن أداء وظيفته.

ذلك أنه لا يمكن تبسيط أي نظام حيوي مهما صغر، ولا يمكن إعطاء تفصيلات تدعم أن أي نظام حيوي هـو نظـام مبـني بشـكل تراكمي قابل للاختزال كما يـزعم التطوريـون.. هـذه هي الحقيقـة التي تدعمها الكيمياء الحيوية، وهذا هو صلب التصميم الذكي.

سـكت قليلا، ثم قـال: في المقابـل.. انظـر إلى الرؤيـة

التطورية كيف تعجز في الغالب عن إعطاء تفسير مفصّل لتكوّن أي نظام حيوي مما تفترض تكوُّنه بشكل تراكمي، كما أن تفسيراتها المبسطة غير المفصّلة ومن ثم غير العلمية؛ تتناقض في أحيان كثيرة.

ونظراً لهذا النقد الذي كثيراً ما وُجِّه للتفسيرات التطورية، فقد لجأوا في العقدين الأخيرين إلى محاولة إعطاء تفصيلات أكثر للخطوات التراكمية التي تُكوِّن بعض الأنظمة الحيوية وفق تصوراتهم.. وهي توقعات تنقصها التفصيلات المنطقية كما هو متطلب في النقد العلمي.

أما بالنسبة للنظام الكوني، فيكفي تغيير قيمة أحد الثوابت الكونية نظرياً لتثبت لنا المعادلات الرياضية كيف سينهار الكون بأكمله.. وهذا يعني صمود فرضيات التصميم الذكي أمام الفحص.. فإن كانت هناك نظرية لا يمكن اختبار فرضياتها، وليست لها أي قيمة تفسيرية، وتحيل إلى المجهول؛ فهي التطور وليس التصميم الذكي.

العشوائية.. والتعقيدات غير القابلة للاختزال:

قال ذلك، ثم انصرف كلاهما.. فدخلت إلى المعهد، وكان أول ما قابلني مدرج كبير اجتمع فيه الكثير من الأساتذة والطلبة.. وقد وقف على المنصة متحدثا رجل أعرفه جيدا كان اسمه [مايكل بيهي]، وهو عالم متخصص في الكيمياء الحيوية، وأستاذ الكيمياء الحيوية بجامعة ليهاي في بنسلفانيا بأمريكا.

وقد كنت أعرف أيضا أنه من العلماء الذين ساورتهم الشكوك الكثيرة حول نظرية التطور مع كونه لم يكن مؤمنا، لكن نتيجة تخصصه العلمي الدقيق، ونتيجة للاكتشافات العلمية الأخيرة، وخصوصا عندما قرأ كتاب [التطور نظرية في أزمة] لمايكل دانتون، ووجد أن كل النقاط التي ذكرها بالفعل أصابت التطور الصدفي والعشوائي في مقاتله.

وبناء على ذلك قام بتأليف كتابه الشهير [صندوق داروين

الأسود] عام 1996م، وهو يعتبر من أشهر من أسسوا ووضعوا قواعد نظرية (التصميم الذكي) في شكلها الأكاديمي الأخير، وخصوصا نقطة (التعقيد غير القابل للاختزال) ودلالته على استحالة التطور التدريجي العشوائي عبر الزمن، وعلى دلالتها على الغائية لظهور الأعضاء المعقدة مرة واحدة من جهة مُصمم ما (هو لا يذكر إله أو خالق بعينه)

عندما دخلت المدرج المكتظ، سمعت مايكل، وهو يخاطب الحضور قائلا: قبل أن أشرح لكم فكرتي حول الأنظمة المعقدة غير القابلة للاختزال، سأضرب لكم مثالاً من خارج البيولوجيا يقرب لكم ذلك.. إنه مصيدة الفئران؛ فهي ـ كما ترونها ــ مؤلفة من عدة أجزاء.. مؤلفة من قطعة خشبية، ومن نابض، ومن ملقط معدني، ومن قطعة جبن.. وعندما نزيل أي جزءٍ منها، فإن باقي الأجزاء لا قيمة لها على الإطلاق، فلن تعمل المصيدة إلا بوجود كامل أجزائها مجتمعةً مع بعضها في أماكنها.. ومثل ذلك القوس الحجري، فإننا إذا قمنا بإزالة أيّ حجرٍ منه فسينهار تماماً.. وبذلك فإن القوس والمصيدة أنظمة غير قابلة للاختزال.

وهذا هو الحال مع الكائنات الحية.. فالأنظمة المعقدة لا يمكن أن تعمل عند إزالة أحد أجزائها، ولذا لا يمكن لهذه الأنظمة أن تكون قد تشكلت بالتطور التدريجي، بل إنها لا بد أن تكون قد وجِدَت كما هي بشكلٍ فوريّ لا على مراحل، والكائن الحي مثالٌ على هذه الأنظمة.

***

قال ذلك، ثم التفت لبعض الحضور، وقال: أما بخصوص سؤالك أنت.. فالجواب عليه بسيط جدا، ذلك أن نظرية التطور تخبرنا أن الكائنات الحية معقدة التركيب الموجودة اليوم قد تطورت عن كائناتٍ أخرى أقل تعقيداً، وبما أن تعقيد الكائنات الحية يزداد عن طريق إضافة أجزاء أو وظائف أخرى إليها عن طريق الطفرات مثلاً؛ فبناءً عليه يمكن أن يقال: كما أن الكائنات تطورت بإضافة أجزاء ووظائف جديدة، فإنه نظرياً يجب أن نتمكن من العودة خطوةً إلى الوراء في المسار التطوري بأن نزيل الجزء

المضـاف، ويجب على الكـائن الحي عنـدها أن يبقى قـادراً على القيام بمهامه الحيوية.

فـإذا كـانت الرئتـان قـد ظهرتـا مثلاً عنـدما خـرجت السـمكة الرئويـة من المـاء، يجب أن يكـون صـحيحاً أننـا إذا أزلنـا رئـتي السـمكة ستصـبح أقـل تعقيـداً لكن قـادرةً على الحيـاة والقيـام بالوظائف الحيوية كما كانت قبل ظهورهما! وبما أن هذا لا يحدث، فإن هذا يؤدي بالضرورة إلى أن نظرية التطور ليست صحيحة.

***

التفت إلى آخر، وقال: بخصوص سؤالك أنت، فإنـه إذا كـانت نظريـة التطـور مبنيـة على تصـور أن هـذه الوظـائف المعقـدة الموجودة فى الكائنـات الحيـة جـاءت بشـكل تـدريجى عـبر بلايين السـنين، وأنـه تم انتخـاب كـل شـيء صـالح أثنـاء هـذه الفـترة فـتراكمت هـذه الصـلاحيات حـتى وصـلت إلى هـذا التعقيـد الـذى نشاهده، والذى يقـوم بكـل هـذه الوظـائف الحيويـة فى الكائنـات الحية فلاشك أن هذا التصـور ينهـار إذا وجـدنا فى الكائنـات الحيـة وظائف غير قابلة للاختزال.

وهذا ما أقـر بـه داروين نفسـه فى كتابـه أصـل الأنـواع حيث قال: (إذا كان من الممكن إثبات وجود أي عضو معقد لا يـرجح أن يكـون قـد تكـون عن طريـق تحـولات عديـدة ومتواليـة وطفيفـة، فسوف تنهار نظريتي انهيارا كاملا)

ومعنى أن هذا العضو معقد تعقيد غـير قابـل للاخـتزال أى أن الوظيفة التى يقوم بها لا وجود لها قبل أن تجتمع كل الأجزاء التى يتكون منها هذا الشيء.. وأنه لو فقد ولو جزء واحد من المكونـات لتلاشت الوظيفة بالكلية.

ومثل ذلك الأجهزة الحديثة المعقدة التى لـو قطعت منهـا أي سلك، أو أخرجت منها جزءا صغيرا، فإنها تفسد بالكليـة.. ذلـك أن هذه الأجهزة لا يمكن تصور تكونها بشـكل تـدريجى، نتيجـة تـراكم الصلاحيات والمنافع الـتى يمكن تحصـيلها من أشـكال منهـا أوليـة التركيب.

انظروا إلى المصعد الكهربائى، فوظيفته حمل الناس من الأدوار العلوية إلى السفلية أو العكس، وهذه الوظيفة لا يمكن تحقيقها قبل أن تجتمع كل أجزاء المصعد من أسلاك وأحبال ومحركات والصندوق الكبير الذى يدخله الناس، ويكون كل شيء من هذه الأشياء فى موضعه بالضبط، وموصلا بمصدر الطاقة.. وكل هذا يجب أن يحدث أولا قبل أن يتحرك المصعد سنتيمترا واحدا.

أما لو أحضرت ربع المكونات الأساسية للمصعد أو نصفها مثلا، فلن تتمكن من استخدام المصعد لطابقين أو ثلاثة حتى تكمل باقى الأجزاء الناقصة، ولذلك فهذا تعقيدا غير قابل للاختزال، ولا يمكن تكونه بشكل عشوائى بدون علم ولا حكمة ولا غاية.

فى حين أن العضو أو الشيء المعقد تعقيدا يمكن اختزاله لا يحتاج إلى مصمم، ويمكن أن يتكون بالصدفة وتراكم صلاحيات أجزائه، لأن كل جزء من أجزائه يحمل نفس الوظيفة التى يحملها هذا التعقيد المختزل في النهاية لكن بمقدرا أقل، وإلا لما وجد الانتخاب الطبيعى سببا لانتخاب تلك الأجزاء والتدريج يفيد فقط فى زيادة مقدرا الوظيفة.

وبالمقارنة مع مثال المصعد الكهربائى نجد الدرج قابلا للاختزال، ذلك أنه إذا كان عندك درجة واحدة فقد حققت منفعة لأنها سترفعك بمقدار ارتفاع هذه الدرجة من درجات الدرج، ولو أحضرت ربع عدد درجات الدرج المطلوب لمبنى مكون من عشرة طوابق لانتفعت بها ولاستطعت الصعود والهبوط عليها إلى طابقين أو ثلاثة.. بخلاف المصعد الذى لا يمكن الإنتفاع به بأى نفع إلا بعد اكتمال كل أجزائه.

وبذلك، فإن طريقة الدرج هى التى تتبناها الداروينية فى تحصيل المنافع بشكل تدريجى بسيط لتحقيق الوظائف المطلوبة، وهي تنهار إذا لم تستطع تعميم هذا الأسلوب على كل الوظائف الموجودة فى الكائنات الحية.

***

التفت إلى آخر، وقال: بخصـوص سـؤالك أنت، فالحقيقـة أن الأمثلـة عن الوظـائف الحيويـة المتصـفة بهـذا الوصـف لا يمكن حصـرها.. ومن أمثلتهـا السـوط البكتـيرى، وتخـثر الـدم، وتشـفير الحمض النووي، وتنظيم الجهاز المناعى، وغير ذلك كثير.

التفت إلى آخـــر، وقـــال[1]: بخصـــوص مـــا ذكـــرت عن التطوريين، وأنهم اخترعوا فكرة التكيف المسبق، حيث ذكـروا أن كل هذه الأعضاء المعقدة تعقيدا غير قابل للاختزال صـحيح.. وأنـه لم يكن لأجزائهـا أى قـدر من الوظيفـة الـتى سـيؤديها العضـو في النهاية بعد اكتمال كل أجزائه، لكن كـان لهـا وظـائف أخـرى زالت وتطورت واندمجت فى الوظيفة النهائية التى نعرفها للعضو.. فإن هذا زيادة على عدم القدرة على إثباته مضحك جدا.

ذلـك أننـا لـو طبقنـا هـذه الفكـرة على المصـعد الكهربـائى، فسينتج لنا مسرحية هزلية لا مكـان لهـا سـوى في أفلام الرسـوم المتحركـة.. لأننـا حينهـا سـنطلق لخيالنـا العنـان ونفـترض أن كـل أجزاء المصعد تجمعت فى هذا المكان، وتركبت التركيب الصـحيح بـدون قصـد تـركيب مصـعد كهربـائى، وإنمـا كـان هنـاك أغـراض مختلفة تماما.

دعونـا نطبـق مـا قالـه الـداروينيون على هـذا المثـال.. مثـال المصعد.. فنفـترض أن تكـون الحبـال الصـلبة المتدليـة من سـطح المبـنى حـتى أسـفله ــ مثلا ــ قـد أحضـرها لص ليسـرق احـدى الشقق.. وأنه أحضر بكرات قوية تدور حولهـا تلـك الأحبـال لـيرفع عليها خزينة كبيرة سيسرقها من دخل الشقة.. ولنفـترض أن هـذه الخزينة كانت تشبه غرفة صغيرة تسع بداخلها شخصين أو ثلاثة.

ولنفترض أنه كان بـالمبنى المجـاور شـخص قـام من حيث لا يشعر بشراء محرك مصعد كهربائى، ثم تسلل ليلا للمبنى المجاور ووضعه فى المكـان المجـوف وسـط المبـنى الـذى تتحـرك خلالـه المصاعد.. ولحسن الحظ كان هناك شخص وضع فى هـذا المكـان

1() انظر: مقالا بعنوان: ما هو التعقيد الغير قابل للإختزال؟، د. أحمد إبراهيم.

محـولات كهربائيـة، وتوصـيلات لإضـاءة المبـنى، وإقامـة حفلـة سيحضرها كل سكان المبنى، وأثناء اخـراج اللص للخزينـة تعـثرت قدمـه، فسـقطت الخزينـة على المحـرك، واختلطت الأسـلاك، وشغلت المحولات، وشدت الحبا،ل وتكون مصعد كهربائى بدائى.

ثم مـا لبث سـكان المبـنى عنـدما رأوا ذلـك، حـتى راحـوا يطورون ذلك المصعد الذي اكتمـل بنـاؤه من غـير قصـد.. ليصـبح وسيلة للصعود والهبوط، بالرغم من أنه تعقيد غير قابل للاختزال.

ضحك بصوت عال، وقال: هذه ليست نكتة، ولا خيالا مجـردا، وإنما هذا هو المنطق الذي واجهت به الداروينية فكرة التعقيد غير القابل للاختزال.

ولهـذا، فـإن من لا يـري بأسـا فى قصـة اللص والمصـعد الكهربائى هذه يمكنه أن يكـون داروينيـا بجـدارة.. ومن كـان يـرى هذه الطريقة التى عارضوا بها التعقيد غير القابل للاختزال طريقة سـفيهة لا يمكن أن يتبناهـا أو يصـدقها عاقـل فهـو متهم من قبـل الداروينيين بأنه غـير عقلانى، ويـؤمن بخرافـات وأسـاطير الأولين، بل ينبغى تجريم هذه الطريقة فى التفكير، وتقـديم [مايكـل بيهى] وزملائه للمحاكمة كمـا حـدث فى محاكمـة دوفـر الشـهيرة والـتى حكم فيهـا القاضـى بمنـع تـدريس نظريـة التصـميم الـذكى، وفى المقابـل يـرى الـداروينيون أن التكيـف المسـبق (قصـة اللص والمصعد الكهربائى) طريقة علميـة رصـينة يمكن أن نعتمـدها فى تفسير كل تعقيد غير قابل للاختزال، فهذه هى العقليـة الدراوينيـة السخيفة عندما تتعامل مع الأزمات التى تفضحها.

***

التفت إلى آخـر، وقـال[1]: بخصـوص مـا ذكـرت من التطـور الهائل لعلم الكيماء الحيويـة منـذ أواسـط القـرن الماضـي وحـتى اليوم صحيح.. ولكن ذلـك كلـه يصـب في خدمـة نظريـة التصـميم الذكي، وخصوصا في خدمة التعقيدات غير القابلة للاختزال.

1() انظـر: تطـور الكيميـاء الحيويـة يهـدم نظريـة دارون، مقالـة نشـرت في العـدد 89 (نيسان 2015) من مجلة التقدم العلمي الكويتية.

ذلك أن أنه أدى إلى تغير جذري في معرفة العلم والطب بما يجري في جسم الإنسان، وبالذات في مقومات الحياة، فقد تبين للعلماء وبوضوح قاطع لا لبس فيه، أن حياة أي كائن حي، قائمة على عدد يصعب حصره من الآلات والأجهزة التي تعمل بشكل متكامل ومتزامن.. ولو توقف أي منها عن العمل لكان لها تأثيرات قد تكون مميتة على حياة الكائن الحي.

وهذه الآلات ليست مصنوعة من معادن وأخشاب وغيرها من المواد التي نعرفها، ولكنها مصنوعة من جزيئات كيميائية، تقوم بكل ما يخطر وما لا يخطر على البال من أعمال، وتتحكم بكل ما يجري في الكائن الحي من مهام.

فهي تحمل المواد، وتنقلها، ثم تفرغ حمولتها في المكان المناسب، وتنسخ الخلايا وتعطيها شكلها ولونها، وتنقل صفات الكائن الحي لذريته وتدافع عنه ضد الأعداء، وتولد التيار الكهربائي وتنقله وترسله إلى الأماكن المطلوبة وتقطعه عندما تنتهي مهمته، ولو عددنا كل ذلك بتفصيل لما انتهينا.

باختصار أقول لك، ولكم جميعا: إن الجزيئات الكيميائية هي آلات تتحكم تماما بكل ما يجري في خلايا الكائن الحي من أعمال.

وقد كان هذا التغير في المعرفة أحد المعاول الكبرى التي ساهمت مع غيرها في هدم نظرية التطور، ذلك أنه من المعروف أن نظرية داروين تقوم على أسس ثلاثة.. أولها أن الكائنات لها أصل مشترك.. والثاني أن الاختلاف والتنوع والتعقيد الذي نراه في الكائنات هو نتيجة طفرات عشوائية كانت تحدث للكائنات على مر الملايين من السنين، وأن تراكم هذه الطفرات كان يؤدي إلى تغيرات في الكائنات الحية.. وثالثا الاصطفاء الطبيعي، الذي ينتقي من الكائنات ما تؤدي طفراته المتراكمة إلى تحسن في نوعه، فيبقى ويتكاثر وينقل صفاته المحسنة الجديدة إلى ذريته، في حين ينقرض الكائن الأضعف أو ذو الصفات الأدنى.

لكن اكتشاف العمليات البيولوجية المتسلسلة والمعقدة، والتي لا تكاد تحصى، والموجودة في الخلايا الحية، كان أحد أهم

عوامل انهيار مبدأ تراكم الطفرات، وبالتالي انهيار النظرية من أساسها.

***

قام رجل من الحضور، وقال: هلا وضحت لنا ذلك.

قال: أنتم تعلمون أن تصنيع أي آلة معقدة مثل السيارة أو غيرها يحتاج إلى مصانع متقدمة، تحتوي على خطوط إنتاج، تعمل بدقة شديدة، وبخطوات متعاقبة..

حيث تدخل المواد أولها على شكل معادن ولدائن وقماشاً وجلداً وأسلاكا، وتخرج آخرها سيارة متكاملة جاهزة للعمل.

وأهم ما يلاحظه من يتأمل خط الإنتاج هو أنه يتألف من مراحل أو محطات متعددة متوالية، وأن كل محطة يتم فيها عمل ما يعتمد على ما تم في المحطة السابقة، ويعتمد عليه العمل الذي يتم في المحطة اللاحقة.. وبتعبير آخر كل مرحلة هي نتيجة لما قبلها وتوطئة لما بعدها، فالمواد التي تصنع منها السيارة موزعة على المحطات، كل مادة في المحطة المناسبة، وكل مادة ذات مواصفات دقيقة محددة معروفة مسبقاً.

فمثلاً في المراحل الأولى للتصنيع نرى على خط الإنتاج هيكل السيارة المعدني مجرداً، وفي مرحلة لاحقة يتم معالجته فنرى عليه ثقوبا وفتحات وتفاصيل مجهزة للمراحل اللاحقة، وهناك فتحات للأضواء، وثقوبا لكل سلك أو أنبوب سيعبر من المحرك إلى مقصورة الركاب، وأماكن مخصصة محفورة بدقة شديدة لكل صمام أو زر أو غير ذلك.. وهكذا كلما مشت السيارة على خط الإنتاج كلما أخذت أجزاؤها بالتكامل، حتى يتم التصنيع.

ومن البديهي أن هذا لا يتم إلا إذا كان هناك تصميم لكل أجزاء السيارة، من أكبر قطعة في هيكلها إلى أصغر دارة كهربائية في محركها.. ومن البديهي أيضا أن هذا التصميم قد تم تجهيزه مسبقا وبدقة شديدة وبشكل كامل قبل إنشاء خط الإنتاج.. ومن البدهي أن مدير فريق التصميم يعلم تماما كيف ستخرج السيارة

في نهاية خط الإنتاج قبل أن يبدأ الإنتاج، ولو حصـل خلـل أو خطـأ في خـط الإنتـاج، لمـا اكتمـل التصـنيع، فخـط الإنتـاج يكـون عـادة مبرمجـاً بحيث لا يتحـرك إلى أيـة مرحلـة قبـل أن تنتهي المرحلـة السابقة لها، ولو فرضنا جدلاً أنـه تحـرك وتجـاوز إحـدى المراحـل، فستخرج السيارة غير مكتملة أو فيها خلل يمنع من استخدامها.

سكت قليلا، ثم قال: إن خطـوط الإنتـاج الصـناعية هي مثـال تقريبي لنوع من العمليات المتسلسلة المعقدة، التي نطلق عليهـا (تعقيد غير قابل للاختزال)، أي لا يعمل إلا إذا كان مكتملا من أوله إلى آخـره ولا يمكن أن نحـذف منـه أي مرحلـة من مراحلـه، لأن حذف مرحلة واحدة يعطله تماما، ويعادل حذفه كله.

بناء على هذا المثال، فإن جسم الكائن الحي يحتوي على مـا لا يكاد يحصى من خطوط الإنتاج الـتي تعمـل على مـدار السـاعة، أبطالها هي الجزيئات الكيميائية، ومنتجاتها أكثر تعقيـدا وإتقانـا من أكثر السيارات تقدما، وتزيد عليها أن منتجات الكائنـات الحيـة هي جزء من منظومة لا محـدودة من الآلات الـتي تعمـل معـا بتفاعـل وتناغم مدهشين لتحافظ على حياة الكائن الحي، بينما السيارة آلة مفردة مستقلة.

قام رجل من الحضور، وقال: هلا ضربت لنا مثالا على ذلك.

قال ما يكل: لك ذلك.. وسأضرب لكم مثالا عن عمليـة تخـثر الـدم، فكلنـا يعـرف أن الـدم الـذي يـنزف من أي جـرح يصـيب الإنسـان، مـا يلبث أن يتخـثر فيسـد الجـرح، ولكن الـذي لا يعلمـه الكثيرون أن هذا التخثر يتم عبر سلسلة معقدة من العمليـات، أي عبر خط إنتاج محكم دقيق مشابه لخط الإنتاج الصـناعي من حيث المبدأ، إذ يمر بمراحل متوالية متسلسـلة تـؤدي كـل منهـا إلى مـا بعدها حتى يتم الإنتاج على أكمل وجه، وبشكل دقيـق محكم، ولـو حصل أي خلل في تسلسل هذه العمليات فـإن ذلـك سـيؤدي إلى هلاك الكـائن الحي، إمـا بسـبب الـنزيف حـتى المـوت، أو بسـبب تشكل تخثرات كبيرة تسد مجرى الدم، ولـذلك يمكن اعتبـار ذلـك تطبيقا لما ذكرناه من تعريف (التعقيد غير القابل للاختزال)

قام آخر، وقال: هلا شرحت لنا ذلك أكثر.

قال مايكل: لك ذلك.. فانطلاق هذه السلسلة يبدأ بتمزق نسيج الوعاء الدموي، وختامها يتم بالتئام الجرح.. وتكون المركبات والبروتينات والإنزيمات المشاركة فيها كامنة في الدم تنتظر الإشارة ليبدأ مسلسل تحفيزها.. وهذه الإشارة تنطلق من جدار الوعاء الدموي، الذي تحوي طبقته الداخلية على مادة تسمى [العامل النسيجي]، وهو مركب يوجد في طبقة رقيقة جدا تبطن الجدار الداخلي للوعاء الدموي، فإذا ما تمزق جدار الوعاء، ينطلق العامل النسيجي، معلناً حالة الطوارئ، ومؤذناً ببداية عملية التخثر، فهو الذي يُحفز بداية العملية التي تنتهي بتشكل الثرومبين، الذي يحفر الفايبربنوجين ليتشكل الفايبرين.

وما بين إطلاق العامل النسيجي، وصولاً إلى تشكيل الفايبرين، هناك سلسلة معقدة متسلسلة من العمليات، ولا يهمكم هنا أسماء المركبات، فهي مثل أسماء فريق كرة القدم، لا يهم من يمرر الكرة من أول الهجمة لآخرها، ولكن المهم أن يتحقق الهدف وتسكن الكرة الشباك.

وبناء على هذا، فإن الطبيعة التسلسلية المحكمة لهذه العملية، لا تختلف عن خط إنتاج السيارة، حيث ينطبق عليها وصف (التعقيد غير القابل للاختزال)، فلو حذفنا منها أية مرحلة من مراحلها، لما تمت العملية برمتها، ولما تخثر الدم، ذلك أن كل مرحلة منها تعتمد تماماً على التي قبلها، ولا بد لتتم كل مرحلة من وجود المركب الذي يقوم بها، ولكن بشكل كامن، ومن وجود المركب الذي يحفزه أيضاً، وأن يتم التحفيز في الوقت المناسب تماماً.

فكيف تطورت هذه العملية عبر الطفرات المتراكمة؟.. وكيف اتفق أن توجد كل هذه المركبات في صيغها الكامنة، وأن تتفعل الأنزيمات أو المحفزات اللازمة لعملها في القت المناسب والمكان المناسب.. علما أن هناك أكثر من خمسين مركبا وبروتينا وأنزيماً يشاركون في عملة تخثر الدم؟

سكت قليلا، ثم قال: إن من يزعم أن عملية تخثر الدم وأمثالها نشأت نتيجة تراكم الطفرات العشوائية، لا يختلف عمن يزعم أن جماعة مروا بكومة ضخمة من الخردة والمواد المختلفة، فعبثوا بها.. وأقول: عبثوا.. لأن الداروينيين يقولون إنه لا يوجد تصميم مسبق، بل هي طفرات عشوائية.. وصفوا وركبوا بعضاً منها ثم مضوا، وإذا الذي حصلوا عليه هو الجزء الأول من خط إنتاج سيارة.

ثم جاء من بعدهم جماعة أخرى، فعبثوا بكمية أخرى من المواد وصفوها إلى جانب سابقتها، ثم مضوا، وإذا بنا نحصل على الجزء الثاني من خط التصنيع.

ثم تتابعت الجماعات، كل جماعة تعبث فتحصل على مرحلة جديدة، وبعد أزمان ودهور من تتابع الجماعات، حصلنا على خط كامل لإنتاج السيارات، يعمل بدقة وإتقان وينتج سيارات كاملة قابلة للاستخدام، علماً أن كل الجماعات التي مرت، لم يكن لديها تصميم مسبق لما سيكون عليه هذا الخط عندما ينتهي بشكل كامل، ولم تكن تعلم ماذا ستفعل الجماعة التي بعدها.

إن كان هذا الكلام يمكن تصديقه، فيمكن إذن أن نصدق أن عملية تخثر الدم وأمثالها نشأت بواسطة التطور الداروني.

سكت قليلا، ثم قال: دعونا نسأل: هل كانت عملية تخثر الدم موجودة مع أول كائن حي نتج عن التطور وله دورة دموية؟ إن كان الجواب لا، بل قد تطورت تدريجياً، فهذا محال، لأن هذا الكائن لن يستمر في الحياة وسينقرض قبل أن يتطور، حيث إن دمه سينزف حتى الموت عند أول جرح أو خدش، وإن كان الجواب نعم، لقد كانت آلية تخثر الدم موجودة عند أول كائن ذي دورة دموية، فسنقول: إن هذا لو حصل يدحض تماماً نظرية التطور، حيث إن الوصول إلى مثل هذا النظام المعقد، بشكل مباشر وبهذه الدقة، لا يمكن أن يحدث بطفرة واحدة، بل يحتاج حسب نظرية داروين نفسها إلى عدد ضخم من الطفرات العشوائية المتراكمة عبر زمن سحيق من الدهور، أو يحتاج إلى أن يكون وراءه مصمم خبير.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نسألهم جدلاً: وهل كان هذا النظام لو فرضنا جدلاً أنه نشأ بطفرة واحدة يحتوي أيضا على طريقة لإيقاف التخثر في الوقت المناسب والمكان المناسب والسرعة المناسبة؟.. فإن قالوا لا، قلنا لهم: هذا محال لأن ذلك سيجعل هذا الكائن ينقرض، لأن دمه سيتجلط كله عند أول جرح، وإن قالوا: نعم، فسنقول لهم، عجبا لهذه الطفرة الخارقة، التي ينتج عنها دفعة واحدة نظام كامل متكامل معقد دقيق محسوب، وفي الوقت نفسه ينتج عنها نظام معاكس له لا يقل عنه دقة ولا تعقيدا ولا حساباً ولا إتقانا.

سكت قليلا، ثم قال: لم يتمكن الدراوينيون حتى الآن من إثبات أن عملية تخثر الدم.. ومثلها ما لا يكاد يحصى من العمليات الأخرى المشابهة في خلايا الكائنات.. ناتجة عن آليات التطور، وكل ما يقولونه هو تلك العبارة التي لا يملون من تردادها دون دليل أو إثبات: إن تراكم الطفرات الجينية على مر عصور طويلة كفيل بأن ينتج عنه تطور أي نظام معقد معروف.

صعد إلى المنصة، وراح يصيح بصوت عال: نحن يا سادة في عصر العلم، عصر التجربة والبرهان والدليل، فعليكم أن تثبتوا لنا بالدليل والبرهان والتجربة العلمية الموثقة، كيف تطور نظام تخثر الدم، وأن تثبتوا لنا أن أسلافنا لم يكن لديهم هذا النظام، أو كان لديهم نظام بدائي ثم تطور حتى وصل إلى ما وصل إليه، وسنتبنى نظريتكم إن أثبتم ذلك بالدليل العلمي القاطع.

لاشك أنهم سينغضون إليك رؤوسهم ويقولون: هل تريدن أن تقولوا إن هذا النظام من صنع وتصميم قوة خارقة عليا؟ أنتم تريدون جرنا للإيمان بالله.. وهذا ليس من العلم.

وهنا سنقول لهم: دعكم من هذه الطريقة المعروفة في التهرب من الجواب، لا تقفزوا خطوة للأمام قبل أن ننتهي من الخطوة السابقة، فإن أثبتم أن هذا النظام تطور حسب نظرية دارون، سنؤمن معكم بها، وإلا فدعونا نشطب هذه النظرية من قاموس العلوم ونبحث معا عن جواب مقنع، وما أوضحه وما أسهل الوصول إليه إن تجرد الباحث عن هوى نفسه واتبع المنهج

العلمي الصحيح المبني على التجربة والبرهان والدليل القاطع.

***

التفت إلى آخـر، وقـال[1]: لنعـد لمـا طرحتـه أنت.. أجـل.. فالنفس الاول للطفل تعقيد هام جدا لاستكمال الحيـاة غـير قابـل للاختزال.. وقد ثبت ذلك بالأدلة العلمية الكثيرة.

ففي عام 1967 قام الطبيب [كريستيان برنـارد] بإنجـاز أول عملية زرع للقلب، وفي ذلك الوقت كـانت إزالـة قلب شـخص مـا تؤدي إلى موته.. وقد ذهل الناس حينئذ عند سماعهم بالخبر.. ذلك أنه لم يتم فقط إزالـة قلب الرجـل، وإنمـا تم وضـع قلب آخـر في مكانه.

وبعد سنوات من جهود التصميم والاختبارات وصلت البشـرية إلى اختراع معقـد يتكـون من جهـاز القلب والتنفس الاصـطناعي، والذي يقـوم بتـدوير الـدم، ويعمـل كرئـتين للمرضـى، ويـوفر لهم الأوكسجين.

وقد حصل أنـه كـان في نفس المستشـفى، وفي نفس ذلـك الزمان أم قد وضعت وليدها للتو، وحصلت له نفس عملية التحول للنجـاة بواسـطة [جهـاز رئـتين] أفضـل بكثـير.. ولكن لم يقم أي مراسـل بتغطيـة هـذا الحـدث.. على الـرغم من أن الحـدث الأول يعتبر خطوة عظيمة في هندسة البشـر إلان أن الحـدث الثـاني لم يتم شـرحه بواسـطة أي عمليـة طبيعيـة.. لأن الـولادة أمـر شـائع، لـذلك فمن السـهل أن نغفـل عن حقيقـة كـون الطفـل ينمـو في محيط كلي من المياه لمدة تسعة أشهر.

إنه عالم من المستحيل تماما لأي شخص أن يعيش فيـه على الفور بعد أول نفس له.. ويتم إنجاز هـذه الخطـوة من خلال كـون الطفل يمتلك، وداخل الرحم فقط، أوعية دمويـة بـتركيب وتـرتيب يختلف عما عليه في البالغين.

---

[1]() انظـر مقـالا بعنـوان: النفس الأول للطفـل: تعقيـد هـام جـدا غـير قابـل للاخـتزال لاستكمال الحياة.

حيث نلاحظ أن الدم الغني بالأوكسجين عند البالغين ينتقل بعيدا عن القلب من خلال الشرايين تحت ضغط دم عال، ويعود إلى القلب عن طريق الاوردة تحت ضغط واطئ.. ولهذا فإن القلب والرئتين تتعاونان مع بعضهما بشكل اعتمادي لتحقيق غرض إيصال الأوكسجين لكل أنحاء الجسم.

أما ترتيب الدورة الدموية في الجنين، وبالنسبة للطفل في الرحم، فإن كل شئ يتعلق بالوظائف الحيوية الخاصة بالقلب والدورة الدموية معكوس تماما، ويرجع ذلك لسبب مهم، وهو أن الرئتين وإن كانتا مكتملتين من الناحية الوظيفية إلا أنهما لا تزالان غير فاعلتين في عملية تبادل الأوكسجين.. وعليه فمن أجل ان يستمر الجنين في الحياة المؤقتة داخل الرحم ينبغي توفر ثلاثة تغييرات تركيبية رئيسية في نظام الدورة الدموية..

أولها، هو أن تتوفر لديه رئة بديلة، وهى المهمة الصعبة التي يستحيل على مهندسي الإحياء الطبية توفيرها، لكنها وفرت للجنين في صورة المشيمة، وهي العضو المميز الذي يوجد لفترة بسيطة، ولكنه يلعب دورا مهما في عدد لا يحصى من الوظائف الحيوية خصوصا في كونه رئة وكلية للجنين.

وثانيها، هي أنه يجب تجاوز الدورة المؤدية إلى الرئتين، لذلك يجب على الأوعية الدموية أن تتغير لتحقيق هذا الالتفاف المؤقت.

وثالثها، هو أن على الأوعية الدموية ألا تقتصر وظيفتها فقط على ربط المشيمة بالطفل، وانما أيضا داخل الجنين من نقطة اتصالها به إلى الأوعية الطبيعية التي تؤدي من وإلى القلب.. ويؤدي الحبل السرّي وظيفة تحقيق الاتصال بين المشيمة والجنين، حيث يحتوي على وريد واحد عريض القطر وشريانين اثنين أصغر من الوريد، وتمتد داخل الجنين على شكل الوريد السرّي، والشرايين السرّية.

هناك تفاصيل كثيرة مرتبطة بهذا، لا يمكن ذكرها هنا، وهي معقدة تعقيدا شديدا، وخلاصتها هي أن كل تلك الأجهزة تؤدي وظيفة واحدة، وهي مراعاة ذلك العالم المحيط بالجنين، والذي

سيتغير جذريا، ولذلك، فـإن تلـك الـتراكيب المؤقتـة تمتلـك آليـات حاسمة تؤمن الانتقال الآمن إلى خارج الرحم.

سكت قليلا، ثم قـال: لقـد كتب داروين يقـول: (إذا مـا أمكن إثبات أن أحد أعضاء الجسم المعقدة قد تشكل من دون تعـديلات طفيفة متعددة ومتعاقبة فإن نظريتي ستكسر بصورة مطلقة)

وعندما نطبـق هـذه المقولـة على تلـك الـتراكيب والوظـائف التي تتم إعادة ترتيبها عند الولادة وفي خلال أقـل من دقيقـة بعـد الولادة، نلاحـظ أن كـل مولـود يولـد ومعـه شـهادة بانهيـار نظريـة التطور.

***

التفت إلى آخر، وقال: بخصوص سؤالك أنت.. أقـول لـك من البداية: إن نظرية التطور لا تستطيع الإجابة عن ذلك بأي حال من الأحـــوال.. فجـــودة الإدراك الممتـــازة في العين والأذن لايمكن تصــورها.. وهي من التعقيـدات غــير القابلــة للاخــتزال.. ولــذلك يستحيل أن نصفها بالتطور

ذلك أن أشعة الضوء القادمة من أي جسـم تسـقط أولا على شبكية العين.. ثُمّ يتم تحويـل هـذه الأشـعة إلى إشـارات كهربائيـة لتنتقل إلى نقطة صغيرة في الجزء الخلفي من المخ والتي تعـرف باسم [مركز البصر].. وهناك يتم إدراك هذه الإشـارات الكهربائيـة كصورة بعد أن تتم سلسلة من العمليات.

والصــورة الــتي تتكــون في العين واضــحة جــدًا لدرجــة أن تكنولوجيا القرن العشرين لم تسـتطع الوصـول إلى هـذه الدّقـة.. حتى شاشة التليفزيون الأكثر تطورًا، والتي أنتجها أفضل مُنتج في العالم لا يمكن أن تقدّم صورة بمثل هذا الوضوح.

بالإضافة إلى أن هذه الصورة التي نراها صورة ثلاثية الأبعـاد، ملونة، وواضحة إلى أقصـى درجـة.. وقـد حـاول آلاف المهندسـين لأكـثر من 100 سـنة أن يصـلوا لهـذا الوضـوح وهـذه الدّقـة فلم يستطيعوا..

لقد حاول عشرات آلاف المهندسين لسنوات عديدة أن يصنعوا تلفزيونا يعرض صورة ثلاثية الأبعاد، وذات جودة مشابهة لرؤية العين.. وبالرغم من تمكّنهم من صُنع تلفزيون يعرض صورة ثلاثية الأبعاد، إلا إنه لا يمكن مشاهدته دون ارتداء نظّارات مخصصة، بالإضافة إلى كونها صورة ثلاثية الأبعاد مصطنعة.. ولم تصل هذه الصورة بعد إلى درجة من الوضوح كالتي ترى بها العين.

وبالرغم من هذا كله يزعم التطوريون أن آلية إنتاج صورة واضحة مميزة كهذه قد نشأت عن طريق الصدفة.. مع أنه لو أخبرك أحد أن التلفزيون الذي في غرفتك قد يكون نتيجة الصدفة، وأن ذراته تجمّعت مع بعضها وكوّنت جهازًا يُنتِج صورًا.. سوف ترميه بالكذب والجنون والخرافة.

فإذا كان الجهاز الذي يُنتِج صورًا أقل جودةً من صور العين لا يمكن أن يكون قد نشأ عن طريق الصدفة، فمن المؤكّد أن العين لم تنشأ عن طريق الصدفة..

سكت قليلا، ثم قال: والأمر نفسه ينطبق على الأُذُن.. حيث تلتقط الأذُن الخارجية الأصوات عن طريق صيوان الأذن، وترسلها إلى الأذُن الوُسطى.. والتي تنقل الاهتزازات الصوتية مُضخّمة.. ثم ترسل الأذن الداخلية هذه الاهتزازات إلى المخ عن طريق ترجمتها إلى إشارات كهربائية.. تمامًا كما يحدث في العين، يحدث السمع في مركز السمع داخل المخ.

والوضع بالنسبة للسمع مشابه للبصر، فالمخ معزول عن الصوت مثلما هو معزول عن الضوء، إذ أنه لا يصله أي صوت مهما بلغت الضوضاء بالخارج.. وعلى الرغم من ذلك، فإن أشدَّ الأصوات يتم إدراكها داخل المخ.. فداخل المخ الصامت تمامًا، يمكننا الاستماع إلى كل شيء.. مع أنه لو أتينا بجهاز دقيق لقياس شدّة الصوت، وقمنا بقياسه داخل المخ، فإننا ستجد الصمت التام يسود هناك.

وهكذا كما هو الحال مع التصوير، بذل الإنسان جهودا جبارة

لعشرات السنوات في محاولة إنتاج صوت مطابق لما تسمعه الأذن، فأنتج مُسجِّلات الصوت والأنظمة الصوتية عالية الدِّقة وأنظمة استشعار الصوت.. وبالرغم من وجود كل هذه التكنولوجيا ووجود آلاف المهندسين والخبراء الذين عملوا على ذلك، لم يتمكنوا من الحصول على صوت له نفس دِقّة ووضوح الصوت الذي تدركه الأذن حتى في أعلى الأنظمة الصوتية جودة، والتي هي من إنتاج أكبر شركات صناعة الموسيقى، فإنك تسمع صفير قبل بدء الموسيقى.. بخلاف الصوت الذي تدركه الأذن البشرية، فإنه لا يصاحبه صوت صفير أو صوت الهواء المحيط كما يحدث عند سماع صوت مُسجّل.

***

بقيت بعدها مدة طويلة أتردد على [معهد ديسكفري] لأبحاث [التصميم الذكي]، وقد حضّرت معهم للكثير من المؤتمرات العلمية، وساهمت معهم بالكثير من الأبحاث.

لكني مع ذلك كله، ومع احترامي الشديد للجهود التي بذلها ذلك المعهد في مواجهة نظرية التطور.. إلا أن همتي كانت تطمح لأكثر من ذلك.. فقد كانت همتي تهفو إلى التعرف على الحقيقة..

فلذلك لم أكتف بالتعجب من تلك التصميمات البديعة، ولا الانبهار بها، ولا الرد بها على التطوريين، وإنما رحت أبحث عن المبدع الذي أبدعها، والصانع الذي صنعها.

وعندما رأى الله صدقي وإخلاصي وتجردي من نفسي وكبريائي، رزقني من فضله من دلني على الطريق، وكان أولهم [معلم الإيمان] الذي كان مرشد عقلي الأول.. وبناء على توجيهاته سرت في الأرض لا أدع صاحب دين إلا وأسأله عن دينه، ولا صاحب مذهب إلا وأسأله عن الأسس التي يقوم عليها مذهبه.

وقد ظللت على ذلك دهرا من عمري إلى أن هداني الله لولي من أوليائه وجدته في بلدة من بلاد الإسلام.. والتي كنت أنفر منها بسبب ما أسمعه وأراه من مشاهد العنف والتطرف، لكن ذلك الولي، أخبرني بحقيقة الأمر.. وأن كل ما أراه ليس

سـوى وسـيلة من وسـائل الشـيطان لصـرف البشـر عن الـدين الصـحيح.. ولـذلك أهـداني نسـخة من القـرآن الكـريم.. فـرحت أقرؤها، وأعيش معانيها.. وما هي إلا فـترة قصـيرة حـتى وجـدتني مسلما مؤمنا .. أمـارس كـل مـا يمارسـه المسـلمون من صـنوف العبادة والتوجه إلى الله.

وقـــد كنت أنـــوي أن أعلن إســـلامي على الملأ.. لكن معلم الإيمـــان نهـــاني عن ذلـــك.. وطلب مـــني أن أبقى على كتمـــاني لإيمـاني، لأؤدي من الوظـائف مـا لا أسـتطع أن أؤديـه لـو أعلنت إيماني.

وقد ظللت على ذلك إلى ذلك اليـوم الـذي اجتمعت فيـه مـع أصدقائي.. مما ستعرفه في آخر قصتنا.

الصراع.. والسلام

بعد أن انتهى الثالث من حديثه، قال الرابـع، وهـو يلتفت لي: أظن أن الدور قـد وصـل لي.. فليأخـذ قلمـك قسـطا من الراحـة، ليبدأ بتسجيل قصتي التي لا تقل جمالا عما قصه عليك أصدقائي.

قلت: لا عليـك.. فجمـال حـديثكم يجعلـني أعيش عـوالم من الأنس والسلام النفسـي، تجعلـني أعيش راحـة وطمأنينـة إيمانيـة عميقة تزيل عني كل عياء، وترفع عني كل تعب.

قال: ما دمت قلت ذلك.. فسأحدثك عن الصراع والسلم..

قلت: وما علاقة الصراع والسلم بالحياة..

قال: علاقتها كبيرة جدا.. فاللـه تعـالى خلـق الحيـاة، وجعلهـا وسيلة للتواصـل والتعـارف والتعـايش بين الكائنـات جميعـا.. لكن نظرية التطور راحت تفسر العلاقة بين الأحيـاء بالصـراع من أجـل البقاء..

وقد امتد ذلك المفهوم ليشـمل الإنسـان نفسـه، حيث راحت بعض الشعوب التي تبنت هـذه النظريـة تـزعم لنفسـها أنهـا أكـثر تطورا في سلم البشـرية، وقـد جعلهـا ذلـك الاعتقـاد تمـارس كـل ألـوان العنصـرية والطغيـان والنازيـة والاسـتعمار.. حـتى تتحقـق بالبقاء، لتصورها أن بقاءها رهين بإبادة غيرها.

قلت: ألهذه الدرجة بلغت إجرامية هذه النظرية؟

قال: أجل.. فقد كـانت سـلما لكـل ألـوان الاسـتعمار والظلم والاستبداد، لأن داروين ومن معـه من التطـوريين وفـروا للإنسـان كل العقائد والتصورات التي تجعله ينظر للإنسان باعتباره بهيمة لا تختلف عن البهائم التي يركبها ويأكل لحمها.

وقد كان ذلك هو السبب في هداية الله لي.. فقد عـادت إلي فطرتي التي نكستها تلك النظرية، وعـادت معهـا الرحمـة والإيثـار والتضحية وكل المعاني الإنسانية التي قمعتهـا نظريـة التطـور في

أجيالها المختلفة.

قلت: فهلا حدثتني عن رحلتك إلى ذلك.

قال: أجل.. لك ذلك.. فما جئت إلا لذلك.

الصراع.. والعلاقة بين الكائنات:

اعتدل صاحبنا الرابع في جلسته، وحمد الله وصلى على نبيه ﷺ.. ثم قال: لا أزال أتذكر ذلك اليوم جيدا، يوم كنت فيه أقرب إلى الكلاب والأسود والحيات مني للإنسان.. لقد كنت حينها ممتلئا بالقسوة.. لا لأن فطرتي كانت كذلك، ولكن لأن العقائد والأفكار التي كنت أؤمن بها كانت تدعوني إلى ذلك.

فنظرية التطور ليست مجرد تكهنات ترتبط بتفسير نشأة الحياة وتطورها، وإنما هي رؤية كاملة للحياة، تنتج عنها الكثير من المواقف والسلوكات العملية الغارقة في المادية.

أتذكر جيدا أنه جاءني في ذلك اليوم صديق لي كان لا يقل عني قسوة وغلظة، كان اسمه [توماس]، وكان يفخر دائما بكونه سميا لذلك المجرم [توماس روبرت مالتوس][1] صاحب نظريّة مالتوس في علم السكان، والتي نشرها سنة 1798 تحت عنوان [مقال عن مبدأ العام للسكان كما يؤثر في تقدم المجتمع في المستقبل]، والتي ذكر فيها أن (قوة السكان في التكاثر أعظم من قوة الأرض في إنتاج الغذاء)، ذلك أن البشر يتزايدون كل خمسة وعشرين عاما بحسب متتالية هندسية، في الوقت الذي يتزايد فيه الإنتاج الغذائي وفق متتالية حسابية فقط.

وبناء على ذلك قال: (ولما كان الإنسان لا يستطيع الحياة دون غذاء، فإن هاتين القوتين غير المتساويتين في النمو، لا بد لهما من موانع تدفع بهما إلى التكافؤ، وبما يعني تقليل نسبة التزايد السكاني، لتتعادل مع نسبة الإنتاج الغذائي)

وانطلاقا من هذا كانت دعوته إلى عدم الزواج بسبب الفقر

1() انظر: توماس روبرت مالتوس من نظرية السكان إلى لعنة الإبادة، علي سفر،نُشر في 2015/05/09، العدد: 9912، ص(15)

أو غـيره من الأسـباب، واسـتخدام وسـائل منـع الحمـل.. وقتـل المواليد الجدد بسبب الأمراض، والمجاعات، والحروب.

وبناء على هذا أيضـا نصـح الحكومـات بنصـائح كثـيرة ممتلئـة بالإجرام، منها عدم زيـادة أجـور العمـال، لأن هـذا إن حصـل فإنـه سيدفعهم إلى الزواج المبكّر أو إنجاب عدد أكبر من الأطفال، كمـا أوصى بعدم الإنفاق على العاطلين عن العمـل لأن هـذا سـيحولهم إلى كسالى.. وغيرها من التعليمات الممتلئة بالإجرام.

وقد كانت آثار مالتوس وأفكاره هي المحـرك لكـل تصـرفات صديقي هذا ومواقفه، فقد كـان يفـرح لكـل زلـزال أو طـاعون أو حـرب تقضـي على المستضـعفين، لأنـه كـان يتصـور أنهم يـأكلون خبزه، ويشربون ماءه، ويضيقون عليه الأرض التي وسعها الله.

في ذلك اليوم، جاءني، وهو يقول، والغضب بـاد على وجهـه: هـل رأيت كيـف تناسـى النـاس مـالتوس، وراحـوا يشـيدون فقـط بدارون.. وهم يعلمون أنه لولا مالتوس ما كـان دارون.. فقـد كـان مصدر أفكار داروين نظرية توماس مالتوس؟

قلت: كيف ذلك.. هذه دعوى لا يمكنك إثباتها؟

قال: بل من السـهل إثباتهـا.. ففي القـرن التاسـع عشـر، أي في القرن الذي عاش فيه دارون، قُبلت أفكار مالتوس على نطاق واسـع، فقـد سـاند المفكّـرون الأرسـتقراطيّون الأوربّيّـون أفكـاره القاسية.

وفي النصف الافتتـاحيّ للقـرن التّاسـع عشـر اجتمـع أعضـاء الطّبقات الحاكمة في أوروبّا لمناقشة مشكلة السّـكّان المكتشـفة حديثًا، ولابتكـار طـرق تنفيـذ التّفـويض المالتوسـي، لزيـادة معـدّل الوفيات للفقراء.

وقد كان من التوصيات التي خرجوا بها أنـه (بـدلاً من توصـية إزالة الفقر، ينبغي أن نشجّع العادات المتناقضـة.. في بلادنـا علينـا عمل الطرق الضيقة، وحشد أكثر الناس في البيوت، وبطريقة مــا يُعاد وباء الطّاعون. وينبغي على الدولة أن نبني قرانا قرب الــبرك

الرّاكـدة، ونشـجع بشـدة المسـتوطنات في كـلّ المسـتنقعات والأوضاع الضّارّة)

وكنتيجـة لهـذه السّياسـة القاسـية، تحـول الصـراع من أجـل البقـاء إلى سياسـات تمارسـها الحكومـات حـتى تخفـف الزّيـادة السّريعة في السكّان..

ومن تلك السياسات ما يسـمى بسياسـة [اضـطهاد الفقـر].. وهـو ليس اضـطهادا للفقـر، وحربـا لـه، وإنمـا اضـطهاد للفقـراء ومحاربة لهم.. وقد نُفذ فعلياً في القرن التاسع عشر في بريطانيا، فأنشـئ النظـام الصـناعيّ الّـذي جعـل أطفـال الثّمانيـة والتاسـعة يعملـون 16 سـاعة في اليـوم، وفي منـاجم الفحم، والآلاف منهم ماتوا في ظّروف قاسية.

وبسـبب نظريّـة مـالتوس، أدّى [الصّـراع من أجـل البقـاء] بالملايين من البريطانيّين لأن يعيشوا حياة مليئة بالمعاناة.. وهو ما خفف المعاناة عنها بعد ذلك، وجعلها تعيش مرحلة أكثر تطورا من المرحلة التي كانت فيها.

قلت: فكيف تأثر داروين بهذه الأفكار؟

قال: لقد تأثّر داروين بهذه الأفكار تـأثرا شـديدا، بـل إنـه راح يعمم هذا الصراع على كلّ الطبيعـة، واقـترح أن الأصـلح والأقـوى ظهر منتصراً من حرب الوجود هذه.

وقد أعلن في إحدى مقدماته الأساسية عنـد تطـوير نظريّتـه: أن تطـور الكائنـات الحيّـة يعتمـد على الصـراعِ من أجـل البقـاء، والأقــوى ينتصــر في الصّــراع، والأضــعف يُحْكَم عليــه بالهزيمــة والاندثار.. ووفقاً لذلك، كان هنـاك صـراع قـاس، ونـزاع أبـديّ في الطّبيعة من أجل البقاء.. ودائمًا القوي ينتصر على الضّعيف، حـتى يتم التطور.

ولذلك نلاحظ أن العنوان الفرعيّ الذي أعطـاه لكتابـه [أصـل الأنواع] يلخّص تلـك الرّؤيـة وهـو [أصـل الأنـواع بواسـطة التّكيّـف الطّبيعيّ، أو المحافظـة على السـلالات المفضـلة في الصّـراع من

أجل الحياة]

بالإضافة إلى ذلك، اعتبر داروين المعركة من أجل البقاء منطبقة على السلالات البشريّة.. وطبقًا لهذا الادعاء، كانت [السلالات المفضلة] هي المنتصرةً في الصّراع.

والسلالات المفضلة، من وجهة نظر داروين طبعا، هم الأوربّيّون البيض.. أما السلالات الإفريقيّة أو الآسيويّة فقد تخلّفت في الصّراع.. بل ذهب إلى مدى أبعد، حين اعتبر أن هذه السلالات ستفقد قريبًا أثناء عملية الصّراع من أجل البقاء، وبالتالي سيختفون.

قلت: وهل ترى أن هذه كاف في الدلالة على فضل مالتوس على دارون؟

قال: أجل.. بل فضله على البشريه جميعا.. فلولا تلك النظرية لما تمكن البشر من التحضر والتطور الذي نراه.

***

بينما نحن كذلك إذ دخل علينا صديق لنا كان سميا لـ [ربرت سبنسر[1]].. صاحب شعار [البقاء للأصلح]، وهو يقول: لا مالتوس.. ولا داروين من قدما تلك الخدمة للبشرية.. بل إن الذي قدمها هو سميي [ربرت سبنسر]، فهو الذي حولها من مجرد نظرية علمية إلى نظرية أيديولوجية كانت لها آثارها الكبرى بعد ذلك في تنقية العنصر البشري من كثير من الشوائب الضارة.

قلت: صدقت.. فـ [ربرت سبنسر] صاحب تلك المقولة، وهو صاحب نظرية [الدارونية الاجتماعية]

قال ربرت: أجل.. فلاشك أنكم تعلمون أن نظرية التطور الطبيعية تنص على أن هناك صراعًا بين أنواع الحيوان والنبات للاستمرار في الوجود.. فإذا تغيرت البيئة والظروف، فإنه لا

1() ربرت سبنسر (1820ـ 1903): فيلسوف بريطاني، مؤلف كتاب [الرجل ضد الدولة]، وهو أحد أكبر المفكرين الإنجليز تأثيرا في نهاية القرن التاسع عشر، وهو الأب الثاني لعلم الاجتماع بعد أوجست كونت الفرنسي، اشتهر بنظريته عن التطور الاجتماعي.

يستمر في الحياة إلا تلك الأنواع القوية القادرة على التأقلم مع البيئة الجديدة، أما الأخرى فتندثر وتنقرض في العملية التي سماها أصدقاؤنا التطوريون [الانتقاء أو الانتخاب الطبيعي]

لكن سمي روبرت لم يتوقف بهذه الرؤية عند حدها الطبيعي، بل راح يطبقها على الإنسان والمجتمعات، ولذلك أطلق على فلسفته لقب [الداروينية الاجتماعية]، وهي فلسفة تدعو إلى ممارسة كل الوسائل التي تزيل المستضعفين من الوجود حتى لا يبقى في العالم إلا الأقوياء.. فالبقاء لهم وحدهم.. ولذلك لهم أن ينتهبوا ثروات الفقراء المستضعفين.. ولهم أن يبيدوهم.. حتى لا يبقى في الأرض إلا الأصلح والأقوى.. وهو بالتأكيد ليس سوى (الإنسان الأبيض)، والأوروبي على وجه التحديد.

قال مالتوس: صدقت.. وقد كان هذا المعيار الذي ذكره سميك وسميي وأيدهما فيه دارون، بل حوله إلى قضية علمية بيولوجية، هو الذي فتح المجال للرأسمالية.. والتي تعني عدم تدخل الدولة في الأعمال والسوق التجارية نهائيًا، بل تترك الباب مفتوحًا للمنافسة، ومن يستطع التنافس يبقَى في الحلبة، ومن لا يجاري الأقوياء عليه مغادرة حلبة الصراع، فلا مكان للضعفاء! وليس الضعفاء إلا أولئك الذين لا يملكون من رأس المال ما يمكنهم من منافسة المليارديرات والمليونيرات.

قال ربرت: وقد كان هذا المعيار أيضا هو الذي دعا إلى التخلص من دولة الرفاه.. وهي الدولة التي تقدم التعليم والتأمين الصحي ومعاشات التقاعد والمساعدة في تأمين السكن وغيرها مجانا للمستضعفين.. لأن ذلك سيترك لهم الفرصة البقاء مع استضعافهم.. وهذا مناف للقوانين التي وضعناها.

قال مالتوس: وكان هذا المعيار أيضا هو الذي دعا الأقوياء إلى استعمار المستضعفين.. فتلك الشعوب لا تستحق الحياة.. لأن الحياة لا تكون إلا للأقوى.

قال سبنسر: لم يتوقف تأثير تلك الأفكار التي طرحها سمي على المجال الاقتصادي.. بل راح مع أصحابه من الفلاسفة

والمفكرين والسياسيين ورجال الأعمال يستعملون كل الوسائل لإبادة المستضعفين.

قال مالتوس: أجل.. فقد كانوا يعتقدون بتوريث الصفات.. أي أن الوراثة هي التي تلعب دورًا مهمًا في تحديد طبيعة الإنسان، والسمات الفردية له كالذكاء والهوية الشخصية.. وكانوا يعتقدون أن الجينات الوراثية تستطيع تفسير خصائص الشخصية البشرية وحل المشكلات الإنسانية سواء كانت اجتماعية أو سياسية.. ولهذا كانوا يكذبون كل مقولة تذكر أن البيئة هي التي تؤثر في سلوك الإنسان وسماته الشخصية[1].

قال سبنسر: وبناء على هذه الاعتقادات راحوا يدعون إلى ممارسة كل الوسائل حتى لا يبقى على الأرض إلا العناصر الصالحة القوية، والتي تجعل الإنسان أكثر تطورا ورقيا.

قال مالتوس: ولأجل تحقيق هذا قام الكثير من الباحثين في المجالات المختلفة بالتمييز بين العناصر الإنسانية الصالحة القوية، وبين العناصر التي لم تصل بعد إلى المرتبة الإنسانية.. وقد وصلوا إلى الكثير من النتائج.. وكان من بينها ما ذكره بعضهم، فقال: (إن للبالغين السود جماجم طويلة، وبشرة داكنة، وفكان بارزان بقوة إلى الامام، فى حين أن لدى البالغين البيض ولأطفال السود جماجم قصيرة، وبشرة فاتحة، وفكان صغيران، ومن ذلك فإن العرق الأبيض هو الأكثر رقيا وتطورا بإعتباره الأكثر احتفاظا بسمات الحدث)

وقال [هافلوك إيليس]: (قلما يكون أطفال العديد من الأعراق الإفريقية أقل ذكاءا من الطفل الأوروبي، ولكن فى الوقت الذي يكبر فيه الإفريقي يصبح غبيا وبليدا، ويحتفظ الأوروبي بالكثير من حيويته الطفولية)

قال سبنسر[2]: وقد ميَّز [إرنست رينان] بين الآريين

1() ذكر ذلك بتفصيل السير فرانسيس غالتون في كتابه (العبقري الوراثي) عام 1869. وهو عالم بريطاني وأحد أقرباء تشارلز دارون..

2() هذه النصوص مقتبسة من [موسوعة اليهودية].

والساميين على أساس لغوي، ثم انتقـل من الحـديث عن اللغـات السامية إلى الحديث عن الروح السامية والعبقرية السامية مقابل الروح الآريـة والعبقريـة الآريـة الـتي هي أيضـاً الـروح الهيلينيـة أو النابعة منها.

قال ربرت: ثم سـادت الفكـرة العضـوية الخاصـة بالفولـك أو الشعب العضوي، ومفادها أن لكل أمة عبقريتها الخاصة بها، ولكل فرد في هذه الأمة سمات أزلية يحملها عن طريق الوراثة، وانتهى الأمر إلى الحديث عن تفوُّق الآريين على (الساميين)، هذا العنصـر الآسيوي المغروس في وسـط أوربـا، كمـا دار الحـديث عن خطـر الروح السامية على المجتمعات الآرية.. مما دفع إلى استعمال كل الوسائل لمحاربتهم.

وكان هذا النوع من العداء يستند إلى نظريـات ذات ديباجـات ومسـوغات علميـة عن الأعـراق عامـة، وعن السـمات السـلبية الافتراضية (الاقتصادية والثقافية) الثابتة والحتميـة للشـعوب الـتي يراد تصنيفها عرقيا.

قال مالتوس: لقد تم بموجب هذه الأفكار تبرير إبادة الملايين في أفريقيـا واسـتعبادهم في آسـيا على أسـاس أن هـذا جـزء من عبء الرجل الأبيض ومهمته الحضارية.

قال ربرت: بمناسبة الحديث عن الرجل الأبيض.. فقـد قسـم الكونت جوبينو البشر إلى أعراق: أبيض (آري)، وأصـفر، وأسـود.. وذهب إلى أن الجنس الآري الأبيض هـو مؤسـس الحضـارة، وأن السمات المتفوقة لهذا العرْق لايمكن الحفاظ عليها إلا عن طريـق النقـاء العنصـري.. وأكـد أن التيوتونـيين هم أرقى العناصـر الآريـة لأنهم وحدهم الذين احتفظوا بنقائهم.

قـال مـالتوس: وبنـاء على هـذه الأبحـاث، وعنـد الحاجـة لاستئصال اليهود من أوروبا، أو طردهم لأي مكان آخر في العـالم، راح علماؤنـا يلتمسـون كـل الـذرائع العلميـة، وأولهـا الأبحـاث المرتبطـة بـالأعراق.. فقـد كـانت [الأبحـاث العلميـة] هي وسـيلتنا لتحقيق كل ما نرغب فيه.

***

بقي أصدقائي مالتوس وروبرت وسبنسر يتحدثون بمثل تلك الأحاديث، ثم راق لهم أن يشاهدوا فيلما من الأفلام الوثائقية عن مشاهد من الطبيعة، تظهر فيها الغزلان وغيرها، وهي تقع ضحايا للأسود والنمور.. وكان أصحابي يشاهدون تلك المشاهد، وهم ممتلئون فرحا.. بل كانوا يصيحون في تلك السباع بأن تسرع لنتهش أنيابها في الغزلان، مثلما يفعل مشجعو كرة القدم تماما في التعامل مع الفرق التي يشجعونها.

في ذلك الحين، شعرت بضيق نفسي كبير من تلك القسوة.. ففطرتي كانت ترفضها رفضا شديدا، ولولا تلك التعاليم القاسية التي تلقيتها من سدنة الفلسفة المادية، لما وقعت ضحيتها.

بعد أن خرجت رأيت مشهدا لامرأة، وهي تسرع إلى ابنها، وتنقذه من سيارة كانت مسرعة كادت تدهسه، وقد تمكنت الأم من الإبقاء على ابنها، لكنها لم تتمكن من الإبقاء على نفسها، فقد دهستها السيارة، ولم نسمع منها إلا كلمات قليلة قبل وفاتها، وهي: (ابني.. ابني..)

مع مشاهد تلك الصورة الممتلئة بالإيثار والتضحية، والتي لم تفارق ذاكرتي ولا خيالي لحظة واحدة، بدأت تتبدد نظرية التطور في ذهني وعقلي إلى أن تلاشت كليا، وقد أرسل لي ربي الرحيم الودود مع أول دمعة سالت من عيني من راح يعيد لي إنسانيتي، ويطهرني من تلك الوحشية التي حولتني إليها تلك النظريات الغارقة في المادية.

في تلك اللحظات جاءني رجل ممتلئا رحمة، ومسح الدمعة من عيني، وقال: لا تحزن على هذه المرأة، فستلقى ربا رحيما يعوضها عن كل الألم الذي لحق بها، ويجزيها عن هذه التضحية التي قدمتها جزاءا عظيما لا يمكن تصوره.

قلت: ولكنها ماتت.

قال: لم يمت إلا جسدها.. وهو مظهر من مظاهرها، وليس

حقيقتها.

قلت: ما تعني؟

قال: إن الله الرحيم الودود الذي وهبها هذا الجسد قادر على أن يخلق لها جسدا أقوى وأجمل..

قلت: أنت رجل دين.

قال: ورجل علم.

قلت: ولكن العلم لا يقول هذا.

قال: والعلم لا ينكره.

قلت: بل ينكره.

قال: وما أدلة إنكاره له.

قلت: لأنه غيب لم نره.. ولم يأتنا أحد من ذلك العالم ليخبرنا بما رأى.. فلم نر ميتا عاد للحياة.

قال: ولكنكم تؤمنون بغيب كثير.. وتتحدثون عن أشياء كثيرة لم تروها.. وتفاصيل كثيرة لم تشهدوها.

قلت: ما تقصد؟

قال: أنا عالم حياة.. ولدي كتب فيها.. وقد رأيت أصحابي من العلماء يتحدثون عن ملايين السنين الماضية، ويفصلون في أحداثها من غير أي دليل ولا بينة.. بل إنهم لا يكتفون بذلك.. بل يذهبون إلى حد تفسير الحياة.. وكونها لا تعدو أن تكون صراعا من أجل البقاء.

قلت: هي كذلك.. وقد أثبته كبار علماء الحياة.

قال: فكيف ضحت هذه المرأة بنفسها من أجل ابنها؟

قلت: لأنه ابنها.

قال: لا.. بل ضحت لكونها تملك قيما ومعاني سامية لا حظ

لها من المادية.. ولا يمكن لأي مادي في الدنيا أن يبصرها.

لم أجد ما أقول له، ولو أن حديثه كان متناسبا جدا مع حقيقتي التي غمرها جهلي، وفطرتي التي أفسدتها بيئتي.

قلت: لقد ذكرت لي أنك عالم أحياء.

قال: أجل.

قلت: ولكن هل يمكن لعالم أحياء أن لا يكون مؤمنا بنظرية التطور؟

قال: إن شئت الدليل، فها أنا أمامك.. عالم أحياء.. ولدي كتب كثيرة فيها.. بل لدي إنجازات علمية معترف بها، ولكني مع ذلك لا أؤمن بنظرية التطور.. بل أرى أنها حجاب دون الوصول إلى الحقيقة.. فأنا أعتبر نفسي عالما يحاول أن يستفيد من إمكانات الحياة ليطورها، لا عالم أنساب.

قلت: فلم لم تؤمن بنظرية التطور؟

قال: أسباب ذلك كثيرة.. تبدأ من كونها ليست نظرية علمية، بل هي دجل يلبس لباس العلم.. وتنتهي بكونها فلسفة تشجع على العنف والاعتداء، فالذي يؤمن بها يجتهد لأن يكون قويا كي يصعد على أشلاء الضعفاء.

لقد قال بعض أصدقائي معبرا عن هذا في بعض كتبه: (ومما هو جدير بالذكر في هذا المجال الآثار التي أدت إليها نظرية داروين، وبخاصة في مجال الفلسفة والسياسة والعلاقات البشرية.. فقد ترتبت على نظرية الانتحاب الطبيعي ما يمكن أن يُسمى [فلسفة الاعتداء] أو [فلسفة العنف والاغتصاب] وتجاوبًا واطمئنانًا إلى هذه الفلسفة التي ساعد الفيلسوف الألماني نيتشه على رواجها فدخل العالم في غمار حروب عامة منها حرب السبعين عامًا والحربين العالميتين الأولى والثانية، فقد أثارت النزاعات العدائية والحروب وأطلقت الشعارات بسيادة جنس على آخر)

وقال [أيريل كيرنز]: (لقد استخدمت نظرية التطوُّر لتبرير فكرة سيادة جنس على غيره من الأجناس، وذلك لأن هذه الفكرة تتلائم مع مفهوم داروين عن [البقاء للأصلح،] بل واستخدمت لتبرير عدم الاعتراف بوجود أساس مُطلق للأخلاق.. بل تم أيضًا استخدام نظرية التطوُّر لتمجيد الحرب باعتبارها ممارسة شرعية لمبدأ البقاء للأصلح)

وقال آخر: (وإذا أعتبرنا المفهوم الشيوعي للنزاع الجدلي الذي قتل نحو 120 مليون شخص طوال القرن العشرين (إله القتل) يمكننا حينئذ أن نفهم بشكل أفضل حجم الكارثة التي ألحقتها الداروينية بكوكبنا)

سكت قليلا، ثم قال: هل تعلم بمن تأثر أدولف هتلر في نزعته الدموية؟

لم أدر ما أقول له، فقال: لقد تأثر بفكرة الصراع من أجل البقاء بين الأجناس، واستوحى منها أفكاره في كتابه [كفاحي]، وقال عن [الصراع بين الأجناس]: (سوف يصل التاريخ إلى أوجه في إمبراطورية ألفية جديدة تتسم بعظمة لا مثيل لها، وتستند إلى تسلسل جديد للأجناس تقرره الطبيعة ذاتها)

وقال: (الجنس الأعلى يُخضِع لنفسه الجنس الأدنى.. وهو حق نراه في الطبيعة ويمكن اعتباره الحق الأوحد القابل للإدراك)

وقد عبر عن هذا المعنى بعض الكتاب[1]، فقال: (وانتقلت فكرة التطوُّر لتصبح منهجًا للبعض، وجاء هتلر يومًا فأعلن عن فكرته النازية في استيلاد سلالات بشرية قوية، وإعدام السلالات الضعيفة، واتخذت الفاشية الافتراض المتعلق بالانتقال الطبيعي والبقاء للأصلح مبررًا للقضاء على بعض الأجناس البشرية، وأتخذها تجار الحروب مبررًا لهم لأن الحروب تقضي على العناصر الضعيفة وتستبقي العناصر القوية)

بل إنه عندما سيطرت الدّارونيّة على الثّقافة الأوربّيّة، بدأت

1() الأصل الأيديولوجيّ الحقيقيّ للإرهاب: الدّارونيّة والمادّيّة، هارون يحيى، تعريب: مبارك بقنه.

آثـار [الصّـراع من أجـل البقـاء] في الظّهـور.. حيث بـدأت الـدّول الأوربّيّة الاستعماريّة في تصوير الـدّول الـتي اسـتعمروها كــ [دول نامية ارتقائيّة]، واعتمدوا على الدّاروينيّة لتبرير ذلك.

وكـان الأثـر السّياسـيّ الأكـثر دمويّـة للدّاروينيّـة هـو نشـوب الحـرب العالميّـة الأولى في عـام 1914 م.. وقـد ذكـر الأسـتاذ المـؤرخ البريطـانيّ المعـروف [جيمس] في كتابـه [أوروبّـا منـذ 1870]، أن أحـد العوامـل الـتي هيـأت الأرضـية للحـرب العالميّـة الأولى كان إيمان الحكّام الأوربّيّين في ذاك الوقت بالدّاروينيّة.

ومن الأمثلة الـتي ضـربها لـذلك أن رئيس أركـان [أوسـترو ـ هنجريا]، كتب في مذكّراته ما بعد الحرب: (إن الدّيانات الإنسـانية، والتّعـاليم الأخلاقيّـة، والمـذاهب الفلسـفيّة قـد تـؤدي أحيانًـا إلى إضعاف صراع بقاء البشريّة في شكلها القاسي، لكنهم لن ينجحـوا في إزالته كمحرك محفز للعالم، إنه يتوافق مع هذا المبدأ العظيم، أن كارثة الحرب العالميّة حدثت كنتيجة للقوى المحفـزة في حيـاة الدول والشّعوب، كالعاصفة الرعديّة التي يجب أن تفـرغ شـحناتها بذاتها)

بهذا الأسـاس الأيـديولوجيّ، أرى أنـه ليس من الصـعوبة فهم سبب تشجيعنا للإمبراطوريّة [النمساوية المجرية] لتعلن الحرب.

كانت مثل هذه الأفكار في ذاك الوقت ليست محصـورة على القوّات المسلّحة.. ففي عام 1914م كتب [كورت ريزلـر] يقـول: (العداوة الأبديّة المطلقة ملازمـة أساسًـا للعلاقـات بين الشـعوب، والعداء الذي نلاحظـه في كـلّ مكـان ليس نتيجـة لفسـاد الطبيعـة الإنسانية ولكنّه جوهر العالم ومنبع الحياة نفسه)

ومثل ذلـك عمـل جـنرال الحـرب العالميّـة الأولى [بيرنـاردي فون فريدريش]، علاقةً متشابهةً بين الحرب وقـوانين الحـرب في الطّبيعة، إذ أعلن أنّ الحرب حاجة بيولوجيّـة، وإنّهـا بمثـل ضـرورة صراع عناصر الطبيعة، وبما أن قراراته تستند على طبيعة الأشياء، فإنه فقط يعطي قرارًا بيولوجيًّا.

التفت إلي، وقال: ها أنت ترى أن الحرب العالميّـة الأولى لم

تندلع إلا بسبب كون المفكّرين الأوربّيّين، والجنرالات والمسؤولين الذين شاهدوا الحرب، وإراقة الدّماء، والمعاناة اعتبروا ذلـك نوعـا من التطور، واعتقـدوا أنهم لم يغـيروا [قـانون الطبيعـة]، فالأصـل الأيديولوجيّ الذي جرّ كـلّ ذلـك الجيـل إلى الـدّمار لم يكن سـوى مفاهيم داروين للصّراع من أجل الحياة والسلالات المفضلة.

وهكذا كانت نظرية التطور هي السبب في قتل ثمانية ملايين قـــتيلاً، ومئـــات من المـــدن المـــدمّرة، وملايين من الجـــرحى، والمقعـــدين، والمشـــردين، والعــاطلين.. الـــذين خلفتهم الحـــرب العالميّة الأولى.

وهكـذا كـانت نظريـة التطـور هي السّـبب الرئيسـي للحـرب العالميّة الثّانية، والـتي انـدلعت بعـد 21 سـنة، وخلفت 55 مليونـاً قتيلاً.

وهكذا كانت نظريـة التطـور هي السّـبب في [قـانون الغابـة] الذي شكلته النّازيّة وجميعا النزعات العنصـريّة، ذلـك أنهـا شـكّلت القاعدة الإيديولوجيّة التي ستطوّر وتغرّق العـالم في مسـتنقع من الدّم خلال قرن العشرين.

فـالنفوذ الـدّاروينيّ القـويّ يمكن أن يُـرَى في الأيـديولوجيّين النّازيّين.. فعندما يدرس أحدٌ هذه النّظريّة، يصـادف مفـاهيم مثـل: التّكيّف الطّبيعيّ، واختار التّزاوج، والصّراع بين السلالات من أجــل البقاء..

وهكذا نرى هتلر عندما سـمى كتابـه [كفـاحي]، والـذي يتكلّم عن الصّراع خصوصًا بين السلالات، كان ملهمًا بالصراع الـدّاروينيّ من أجل البقاء، ومبدأ أن النّصر للأصلح، وقد قال معبرا عن ذلــك: (في الألفيّــة الجديــدة سـيبلغ التــاريخ الــذروة في روعــة فريــدة للإمبراطوريّة، وذلك على أساس سلسلة عرقية جديدة)

وأعلن في اجتمــــاع حــــزب نريمبــــيرج ســــنة 1933م، أن (موضوعات الجنس الأعلى بنفسه جنس أقلّ.. الحقّ مـا نـراه في الطّبيعة هو الحقّ الوحيد الذي يمكن أن يتصور)

لقد وصف المؤرّخ [هيكمان] تأثير الدّاروينيّة على هتلر، فقال: (كان هتلر مؤمنا للغاية بالتطور وداعياً إليه.. وبغض النظر عن عمق، وتعقيدات هوسه، فإنّه من المؤكد أن كتابه وضع بوضوح عدداً من الأفكار الارتقائيّة، خصوصًا تلك التي تؤكد الصّراع، والبقاء للأصلح والإبادة للأضعف وذلك لإنتاج مجتمع أفضل)

قلت: ما دمت قد ربطت جرائم النازية بنظرية التطور، فستربطها أيضا بجرائم الشّيوعيّة.

قال: كلامك صحيح.. فقد كان الشّيوعيّون من أشرس المدافعين عن نظريّة داروين، بل إن العلاقة بين الدّاروينيّة والشّيوعيّة تعود إلى كلا مؤسّسي هذين المذهبين ماركس وإنجيلز، مؤسّسي الشيوعيّة، فكلاهما قد قرآ [أصل الأنواع] لداروين بمجرد أن ظهر، وأُذْهِلَا بموقف المادّيّة الجدليّة.

والشّيوعيّون الرّوس الذين ساروا على خطوات ماركس وإنجيلز، مثل بليخانوف، ولنين، وتروتسكي وستالين، اتّفقوا جميعاً مع نظريّة داروين للتّطوّر.. فبليخانوف الذي يُعْتَبَر مؤسّسا للشّيوعيّة الرّوسيّة، اعتبر الماركسيّة كالدّاروينيّة في تطبيقاتها في علم الاجتماع، وقال تروتسكي: (اكتشاف داروين هو أعلى انتصار بالكامل للمنطق الجدليّ في مجال المادّة العضويّة)

وهكذا نرى أن للتعليم الدّاروينيّ الدور الأكبر في تكوين الكوادر الشّيوعيّية، فستالين كان متديّنًا في شبابه، لكنّه أصبح ملحدًا بسبب كتب داروين.. وماو الذي أنشأ الحكم الشّيوعيّ في الصّين، وقتل الملايين من النّاس صرّح علانية أن الاشتراكيّة الصينيّة تُنْشَأ على داروين ونظريّة التطوّر.

وقد ذكر المؤرّخ [جيمس ريف] من جامعة هارفارد الأدلة الكثيرة عن أثر الدّاروينيّة على ماو والشّيوعيّة الصّينيّة في كتابه [الصّين وتشارلز داروين]

الصراع.. والتوازن المحكم:

بعد أن سمعت تلك الأحاديث، حنّ عقلي لأن يعرف حقيقة ما يحدث في الكون والحياة بالضبط، وهل أساسه الصراع كما يقـول أصحابنا الداروينيون، أم أساسه السلام، وأن هناك إلهـا واحـدا هـو الذي يدير الكون بحكمته وعلمه ورحمته كما يقول أصحاب الأديان المختلفة.

وبعـد أن علم اللـه مـني ذلـك الصـدق سـار بي من حيث لا أشعر إلى منتدى من المنتديات المشـهورة، والـذي كـان مخصصـا لمناقشة القضايا العلمية، وقـد شـاء اللـه أن تكـون المناقشـة في ذلك اليوم حول نظرية التطور.. وشاء اللـه أيضـا أن يكـون معظم الحاضرات من النساء.

لم يقدر الله لي أن أحضر الجلسة من أولها، ولذلك سـأحكي لكم ما حضرته منها فقط..

عندما دخلت سمعت ضـجة ولغطـا، وكـان الكـل يتحـدث في نفس الوقت إلى أن اضطر رئيس الجلسة لأن يرفـع صـوته فيهم، ويقول: دعونا من كل هذا اللغط، فهذا منتدى للمناقشات العلميـة الهادئـة، وليس للصـراع.. ومن أراد الصـراع، فليـذهب إلى الغابـة حـتى يعيش في ظـل قـانون الغـاب.. أمـا في هـذا المحـل، فنحن بشر، ولابد أن نتحاكم إلى قوانين الحضارة البشرية.

قال ذلـك، ثم أشـار إلى الواقـف في المنصـة، قـائلا: يمكنـك الآن أن تكمـل حـديثك.. وتحـدث بحريـة.. فمن قاطعـك من دون استئذان سأطرده من القاعة.

قال الرجل: بورك فيك.. وبناء على طلبـك سـأكمل حـديثي.. وأريـد أن أوجهـه لأولئـك المحترمـات اللاتي دافعن بشراسـة عن نظرية التطور، وتصورن أني أناقض العلم والمنهج العلمي، وأنــني أقحم الدين في مجال لا علاقة له به.

أخـرج بعض الكتب من محفظتـه، وقـال: لقـد كنت أعلم أني سأتلقى انتقادات شديدة منهن.. ولذلك أحضرت لهن مـا قـد يعيـد لهن وعيهن.

فتح الكتاب الأول على بعض صفحاته، وقال: لقد أحببت أن أذكر لهن مواقف كبار علماء نظرية التطور من المرأة، وكونها أدنى درجة من الرجل في سلم التطور.. وبعد ذلك يمكنهن أن يقررن هل يبقين على الإيمان بهذه النظرية بحجة علميتها، وفي هذه الحالة لابد أن يسلمن بالنتيجة العملية التي تتطلبها هذه الفكرة.. وإما أن يقبلن بما يقوله الدين، وهو أن المرأة شقيقة الرجل، وهي منه، وهو منها، وأنه لا تفاوت بينها إلا في بعض التخصصات الوظيفية التي تقتضيها الحياة.

فتح الكتاب، وراح يقرأ منه قائلا: هذا ما يقوله داروين نبي نظرية التطور، بل إلهها الذي تسبحون بحمده.. لقد قال: (المرأة أدنى في المرتبة من الرجل وسلالتها تأتي في درجة أدنى بكثير من الرجل)

وقال: (المرأة لا تصلح إلا لمهام المنزل وإضفاء البهجة على البيت.. فالمرأة في البيت: أفضل من الكلب للأسباب السابقة)

فتح كتابا آخر، وقال: ومثله قال المادي التطوري [فوجوت] أستاذ تاريخ الطبيعة بجامعة جنيف في كتابه هذا: (لقد أصاب داروين في استنتاجاته بخصوص المرأة.. وعلينا صراحة أن نعترف بالأمر.. فالمرأة أقرب طبيعيا للحيوان: أكثر من قربها للرجل)

وقال: (المرأة بوضوح: إعاقة تطورية حدثت للرجل.. وكلما زاد التقدم الحضاري كلما زادت الفجوة بين المرأة والرجل.. وبالنظر إلى تطور المرأة فالمرأة تطور غير ناضج)

فتح كتابا آخر، ثم قال: بل إن الداروينية [إيلين مورجان]، تقول في هذا الكتاب: (استخدم داروين تأصيلات علمية في تأكيد أن المرأة في رتبة أقل من الرجل بيولوجيا بكثير.. وأعطى إحساسا للرجل بأنه سيد على المرأة: من منظور دارويني مجرد)

فتح كتابا آخر، ثم قال: وهكذا يقول العالم التطوري الشهير [جول ديوانت] في كتابه هذا: (كان داروين يؤمن إيمانا عميقا بأن مرتبة المرأة: أقل بكثير من مرتبة الرجل ! خاصة عند الحديث عن الصراع من أجل البقاء.. وكان يضع البُله والمُعاقين

والمتخلفين والمـرأة: في خانـة واحـدة ! وكـان يـرى أن حجم مخ المرأة وكمية العضـلات بهـا بالقيـاس بتلـك الـتي لـدى الرجـل: لا تسمح لها أن تدخل في صراع من أجل البقاء مـع الرجـل !!.. بـل يرى فيها نوعا من القصور البيولوجي الذي لا يمكن تداركه)

فتح كتابا آخر، ثم قال: وهكذا يقول العالم التطـوري الشـهير [جوسـتاف ليبـون]: (إن حجم المخ الخـاص بـالمرأة: يكـاد يطـابق ذلـك الخـاص بـالغوريلا.. المـرأة تـأتي في المرحلـة السـفلى من مراحل تطور الإنسان)، وقال: (المرأة أقرب بيولوجيا للهمج: أكثر منهـا للإنسـان الحـديث المتحضـر.. لكننـا نسـتطيع أن نسـتوعب المرأة كاستثناء رائع لحيوان مُشوه: أتى بنتيجة على سلم التطور)

فتح كتابا آخر، ثم قال: وهكذا يقول جيري بيرجامن (إن تاريخ الداروينية: هو تاريخ ازدراء للمرأة: باعتبارها أدنى من الرجل)

التفت الرجل لرئيس الجلسة، وقال: هذه هي الكتب أمـامي، وسأسلمها لك لمن يريد أن يتأكد مما أقـول.. وأكتفي بهـذا.. ومن شاء منكن أن ينتقدني بعد هذا فلها الحـق في ذلـك بشـرط واحـد هو أن تعتقد بأنني أفضل منها وأكثر تطـورا.. حـتى لا أتهمهـا بأنهـا تسوّق لعقيدة لا تؤمن بها.

***

قال ذلك، ثم جلس، فقام آخر، وقـال: بعـد أن أدلى صـديقي بحديثه حول التوازن المحكم في الكون والحياة، والـذي يـدل على التكامل والتعـاون والتكافـل لا على الصـراع من أجـل البقـاء كمـا يذكر ذلك التطوريون.. أحب أن ألفت نظر أولئك الـذين لا يزالـون يتشبثون بنظرية داروين على الرغم من أن كل شيء ينقضها، من أبسط الأشياء إلى أعقدها.

أريد أن ألفت نظـرهم إلى تأمـل الحيـاة من حـولهم، وبـدون أجهزة رصد.. بل بأعينهم المجردة فقط.. فسيرون[1] عـددا هـائلا من الأنواع الحية يقترب تعداده من تسعة ملايين نـوع مختلـف من نباتات، وحيويانات ثديية، وزواحف، وحشرات، وبـدائيات ميكروبيـة

1() انظر: مقالا بعنوان: الكوكب الحي: توازن محكم أم صراع من أجل البقاء؟.

دقيقة.. وغيرها كثير.

وسيرون هذه الأنواع تشكل فيما بينها شبكة متوازنة بالغة الإحكام والدقة تسمى [سلسلة الغذاء]، حيث يحصل كل نوع فيها على غذائه الذي يكفيه، وفي نفس الوقت يوفّر هو نفسه غذاءا كافيا لأنواع أخرى.

سيرون النبات يستغل مواد الارض ويصنع غذاءه بوساطة طاقة الشمس.. ثم تتغذى الحشرات وآكلات العشب من غزلان وطيور عليه دون أن يفنى النبات من الكوكب الحي.

وسيرون آكلات اللحوم تتغذي على آكلات العشب ولا تفني فرائسها أبدا، لأن فناءها يعني موتها هي الأخرى بالمجاعة.

وسيرون في قمة السلسة الغذائية من آكلات اللحوم يقتله ميكروب صغير جدا وبسيط جدا، ليموت ويتغذي عليه ميكروب آخر ليحلله مرة أخرى إلى مواد أولية هي ذاتها مكونات الأرض التي يعاود النبات استهلاكها مرة أخرى.

انظروا جيدا إلى هذه السلسلة المغلقة.. فإنها ليست بالبساطة التي نتوقعها.. والواقع الرصدي لها شديد التداخل والتعقيد، فالنوع الواحد يتغذى على مصادر متنوعة من الغذاء الحي، وفى نفس الوقت يمثل هو ذاته وجبة غذاء لأنواع مختلفة من الكائنات.

والأكثر إثارة للدهشة هو أن هذا النظام المحكم يمثل طبقات متراكبة من التعقيد، وتتحكم فيه عوامل كثيرة صعبة الحصر، ويعجز أى ذكاء معروف عن السيطره عليها لخلق هذا التوازن فى العالم الحي دون أن ينهار.

فلكل نوع من الأنواع الحية نظام غذائي خاص به، ونظام تكاثر مختلف وعدد محدد من النسل والذرية يختلف هو الاخر عن باقى الأنواع، ومتوسط أعمار مختلفة أيضا.

كل هذه العوامل تؤثر على مدى إنتشار النوع.. فعلى سبيل المثال، لو زاد معدل نسل نوع معين دون أن يحد مفترس آخر من

إنتشاره، فإنه سيؤدي حتما الي كارثة بيئية، حيث سيجهز هذا النوع على مصدر غذائه، ويؤدي إلى فنائه، وقد يتحول إلى مصادر أخرى للغذاء إن توافرت التي تمثل بدورها غذاءا لأنواع أخرى، أو يفنى تماما بأثر المجاعة.. وفي كلا الحالتين فإن الخلل الناتج شديد التراكب، وبالغ الضرر تماما، كما نضرب قطعة الدومينو فى لعبة السقوط المتسلسل.

سكت قليلا، ثم قال: سأضرب لكم مثالا بسيطا يصور حجم المشكلة.. فلو أننا أعطينا الفرصة لزوج واحد من الذباب المنزلي ليتكاثر دون أن يموت أحد أفراد ذريته لمدة عام، فإنه يمكنه أن ينتج فعليا كمّا من الذباب يعادل حجم كوكب الأرض كاملا.. ولو نجح بيض أنثى سمك البكلاة الذي يبلغ تسعة ملايين بيضة في البقاء وإكمال دورة حياته دون أن يحده مفترس، لتحول البحر فى سنوات قليلة إلى طبقات متراصة من سمك البكلاة تكفي لازحة ماء البحر كله إلى اليابسة وإغراق الكوكب.

حتى البشر أنفسهم رغم أن معدل زيادتهم الطبيعية أبطأ من معدلات الزيادة الطبيعية عند بقية الحيوانات باستثناء الفيلة، وبنسبة تضاعف لعدد السكان كل 25 عاما بناء على معدل النسل، ولو أن معدل الزيادة استمر على هذا النحو خلال القرنين القادمين لارتفع عدد سكان العالم الي خمسمائة الف ميلون نسمة، غير أننا فى حقيقة الأمر نجد أن تعداد الأنواع يتسم بالثبات بوجه عام.

انطلاقا من هذا كله، فإن قانون السلسلة الغذائية بالغ الأحكام بدرجة يستحيل بها أن يصور كأنه نتاج عفوي، ذلك أن أي خلل فيه قد يعنى فناء السلسلة وانهيارها كليا.

سكت قليلا، ثم قال: هل يمكن أن تتصوروا إمكانية امتلاك الكائنات الحية وعيا وإدراكا يمكنها من فهم مفردات النظام الذي يمثلون جزءا ضئيلا جدا من أجزائه..وهل يملك مبدأ سباق التسلح والصراع من أجل البقاء إدراكا لاحتواء وصنع هذا النظام؟

الحقيقة التي تبدو بديهة عقلية هي أن هذا النظام لابد أن

نتاجا لتحكم خارجي قدير، خلق فيه كل نوع بقدر قدر فى عمره،قدر في دورة حياته، وقدر في عدد نسله، وقدر في مصادر غذائه من الأنواع الأخرى، أو كونه خلق أصلا ليكون غذاءا لأنواع أخرى.

إن ما نراه فى الحياة ـ سيداتي سادتي ـ ليس مبدأ الصراع من أجل البقاء، كما ينص التطوريون.. بل هو مبدأ التوازن المحكم الذي يقول به الخلقيون.. فالنظام المعقد يستحيل أن يقوم على العشوائية والصدفة ومثل تلك القوانين.

قامت بعض الحاضرات، وقالت: لا بأس.. فلنسلم بذلك.. ألا ترى أن الخالق بذلك يكون شريرا.. ذلك أنه جعل بعض الكائنات ضحايا لكائنات أخرى؟

قال الرجل: شكرا على هذا السؤال.. فهو سؤال جيد.. ويجب أن نبحث عن الجواب عنه.. وقبل الجواب أريد أن أسألك عن هذه القاعة التي نجلس فيها، هل هي مخصصة لنا وحدنا، أم أن أجيالا من الناس تتعاقب عليها؟

قالت: بل هذه الخاصة مخصصة لكل المثقفين، ومن الأجيال المختلفة.. وقد عقدت فيها كما تعلم الكثير من النشاطات العلمية والثقافية.

قال: بورك فيك.. فلو أننا بقينا فيها، ولم نخرج منها، هل يمكن لغيرنا أن يستفيد منها؟

قالت: لا.. لا يمكن ذلك.

قال: فكذلك الأمر بالنسبة لهذه الحياة الدنيا، فهي لا تختلف عن هذه القاعة كثيرا.. فالكائنات تفد إليها على دفعات كثيرة، ثم لا تلبث أن تغادرها لتأتي غيرها.

قالت: ولكن لم وجدت أصلا، ما دامت ستعذب بالمغادرة.. أم أنها وجدت لتتألم؟

قال: وهل ستتألمين أنت حينما تغادرين هذه القاعة؟

قـالت: لا.. فلـدي قاعـات أخـرى يمكنـني أن أذهب إليهـا.. وأهمها بيتي الذي لا تساويه أي قاعة في الدنيا.

قال: عندنا معشر الخلقيين الذين نؤمن بأن الحيـاة لا تقتصـر على هذا الكوكب، وعلى هذه الفترة القصيرة، نرى أننا نحن وكـل شيء بعد خروجنا من هذه الدنيا سنذهب إلى حياة أخرى.. ويحقق لنا فيها من السعادة ما نحلم به، أو ما لم تطق حياتنا الدنيا توفيره لنا.

قالت: أنتم تقولون هذا بالنسبة للإنسان.. فكيف بالحيوان؟

قال: الذي يستطع أن يسـعد الإنسـان لن يتخلـف عن إسـعاد الحيوان، وكل شـيء.. وقـد قـال ربي في كلماتـه المقدسـة يـذكر عوالم الحياة، وأنها أمم لا تختلف عنا، وأنها تحشر مثلنا: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَـالُكُمْ مَـا فَرَّطْنَـا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 38]

وقـد ذكـر ربي تنـوع الكائنـات الدالـة على قدرتـه المطلقـة، فقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِـي عَلَى بَطْنِـهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَـعٍ يَخْلُـقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور: 45]

الصراع.. والتضحية والإيثار:

بقي الرجل يحدث الحاضـرين عن نظريـة الخلـق، ويـرد على نظرية التطور وإشكالاتها المختلفة إلى أن كادت الشمس تغــرب، حينها رفعت الجلسة، ورفع معها آخـر نفَس كـان يعيش في عقلي لتلـك النظريـة العنيفـة.. ولم أكن وحـدي في ذلـك، فالقاعـة كلهـا أخذت تتبرأ منها، وترد عليها، وتكشف ثغراتها التي لا حدود لها.

بعد أن استمتع عقلي وقلبي وروحي بتلـك المعـاني السـامية خــرجت إلى حديقــة قريبــة من حــدائق الحيــوان الموجــودة في مـدينتي، والـتي كـانت غنيـة بأصـناف كثـير من الحيوانـات، تبـدأ بالحشرات، وتنتهي بالسباع الضارية.

وأمـام قفص خـاص بالنحـل وقفت أتفـرج عليـه، رأيت رجلا

يحدق في النحلات بإعجاب شديدة، وكأن له بهن علاقة، فقلت له: ما لذي شدك في هذه الحشرات حتى صرت تنظر إليها بهذا الشكل؟

قال: لا تخف.. فأنا لا أؤمن بالتطور.. ولذلك لا علاقة نسبية لي بها، ولا بغيرها.. وإنما أنظر إليها احتراما وتقديرا لسلوكها الرفيع الذي نفتقده نحن البشر.

قلت: كيف ذلك.

قال: عالمها عجيب جدا، وهو يستحق الاحترام والتقدير من كل الجهات.. لكن الذي شدني في هذه اللحظة إليها هو إيثارها وتضحيتها بنفسها من أجل الجماعة التي تنتمي إليها.. انظر مثلا إلى عاملات النحل [1]، فهي تقوم بلسع أي حيوان يدخل إلى خليتها، مع علمها يقيناً أنها ستموت.. فإبرتها اللاسعة تبقى مغروزة في الجسم الذي تلسعه، ونظراً لارتباط هذه الإبرة الوثيق بالأعضاء الداخلية، تسحب معها هذه الأعضاء خارجاً، متسببة في موت النحلة.

قلت: هل تقصد أن النحلة العاملة تضحي بحياتها من أجل سلامة باقي أفراد الخلية؟

قال: أجل.. وذلك وحده يكفي لإبطال أكذوبة [الصراع من أجل البقاء] التي ينادي بها أصحابنا الداروينيون.

قلت: أصحابك الداروينيون.. ما تعني؟

قال: أنا عالم أحياء.. وقد قضيت فترة طويلة من عمري أؤمن بنظرية التطور، وأنادي بها.. ولم أكن أؤمن بها كنظرية لتفسير الحياة الحيوانية فقط.. بل كنت أنظر إليها كنظرية لتفسير السلوك الإنساني والاجتماعي وكل شيء.. وكانت أخلاقي من السوء، وطباعي من القباحة ما جعل الكل ينفر مني.. لكني بعد أن تأملت سلوك هذه النحلات، ورحت أقتدي بهن، اعتدل طبعي.. وما كان له أن يعتدل لولا تخليه عن تلك النظريات الهدامة التي

1() استفدنا المادة العلمية هنا من كتاب: التضحية عند الكائنات الحية، هارون يحي.

لم يكن لها من هدف إلا تدمير الإنسان والمجتمع.

قلت: أهكذا.. وبكل بساطة وبسبب نحلات تترك نظرية علمية سال مداد كثير لأجل إثباتها.

قال: المداد الكثير في أحيان كثيرة ليس سوى سم كثير.. فلو كانت هذه النظرية علمية حقيقة لما احتاجت إلى كل ذلك المداد، ولا كل ذلك الدعم.. فالحقيقة الجميلة الهادئة لا تحتاج إلى الضجيج لتثبت نفسها..

ذكرني قوله هذا بقول [ريتشارد دوكنز]: (نظرية داروين تحتاج كل فترة قصيرة للذود عنها)، فقال لي: صدق خاطرك.. فدوكيز عبر عن مدى ضعف هذه النظرية، ولولا ذلك لما احتاجت كل مرة للدفاع عنها، ولما اختلف فيها العلماء أنفسهم.

تعجبت من قوله هذا، وكيف قرأ ما ورد على بالي، فقلت: عجبا.. كيف عرفت ما ذكرته في نفسي؟

قال: عندما تخليت عن تلك الرؤية المادية للكون والحياة والإنسان، أعطاني الله من فضائل الحياة وطاقاتها ما لم يكن يخطر على بالي.. فالحياة أعظم من أن تختصر فيما نراه من أشياء.. إنها معان سامية، وقيم رفيعة، وأخلاق عالية.. وهذه هي معاني القوة الحقيقية التي غفلت عنها نظرية أصحابنا.

شعرب برغبة كبيرة في أن أستفيد المزيد من علمه وتجربته، فقلت: وماذا فعلت بعد أن تبت من نظرية التطور، أو تخلصت منها؟

قال: لقد رحت أتابع سلوك الحيوانات.. فوجدت العجب العجاب.. فكل حيوان يصيح بملء فيه بكذب نظرية التطور، وكل المقدمات التي بنيت عليها، وكل النتائج التي نتجت عنها.

قلت: فهلا ضربت لي مثالا على ذلك.

قال: من الأمثلة على ذلك أن ذكر البطريق وأنثاه يقومان بحراسة عشهما حتى الموت.. فالذكر يسهر على رعاية الفرخ بين

ساقيه طيلة أربعة أشهر متصلة، ولا يستطيع طيلة هذه الفـترة أن يتنـاول شـيئاً من الغـذاء.. أمّـا الأنـثى، فتـذهب إلى البحـر لتجلب الغذاء، وهي تجمعه في بلعومهـا، وتـأتي بـه إلى فرخهـا.. وكلاهمـا يبدي تفانيا كبيرا من أجل فرخهما.. ولولا الرحمة التي أودعها اللـه في قلوبهما ما كان لهما أن يسلكا هذا السلوك الذي يتنافى تمامـا مع أكذوبة الصراع من أجل البقاء.

قلت: لك الحق في ذلك.. فهلا ضربت لي مثالا آخر.

قـال: أجـل.. لـك ذلـك.. فلا يسـرني شـيء مثلمـا يسـرني الحديث عن ذلك..

ثم سرح بذهنه قليلا، ثم قال: لاشك أنك تعـرف أن التمسـاح من الحيوانـات المتوحشـة، وربمـا يعتـبره التطوريـون من أحسـن الأمثلـة عن نظـريتهم في الصـراع.. لكنـا إن تأملنـا الرعايـة الـتي يوليها لأبنائه، نمتلئ حيرة وعجبا.. فعندما تخرج التماسيح الصغيرة بعد فقس البيض تقوم الأم بجمعهـا في فمهـا حـتى تصـل بهـا إلى المـاء، ثم تعكـف على رعايتهـا وحملهـا حـتى تكـبر ويشـتد عودهـا وتصـبح قـادرة على مواجهـة المصـاعب بنفسـها، وعنـدما تشـعر التماسيح الصغيرة بأي خطر تلوذ بالفرار ملتجئة إلى فم أمّها، وهو الملجأ الأمين بالنسبة إليها.

التفت إلي، وقال: إن هذا السلوك يثير الاسـتغراب والعجب.. خاصة إذا علمنا أن التماسيح حيوانات متوحشة، والمنتظر منها أن تأكل أبناءها وتلتهمهم لا أن ترعاهم وتحميهم.

قلت: أجل.. ما ذكرته صحيح.. فهلا ضربت لي مثالا آخر.

قال: أجل.. هناك بعض الأمهات من الحيوانات تـترك القطيـع الذي تعيش فيه لترضع أولادها، وتظل ترضعه حتى يشبع، معرّضـة حياتهـا لخطـر جسـيم.. مـع أنـه من المعلـوم أن الحيوانـات تهتم بأولادها الذين ولدوا حديثا، أو الذين خرجوا من البيض لمدة طويلة تصل إلى أيام أو أشهر أو حتى بضع سنين، فتوفر هـذه الحيوانـات لصغارها الغذاء والمسكن والدفء، وتقوم بالدفاع عنهم من خطـر الأعداء المفترسين.

قلت: أجل.. فهلا ضربت لي مثالا آخر.

قال: لقد رأيت من خلال بحوث كثيرة أن أغلب أنواع الطيـور يقـوم بتغذيـة صـغاره من 4 ـ 20 مـرة في السـاعة خلال اليـوم الواحد.. أمّا إناث اللبائن فأمرها مختلـف إذ يحتم عليهـا أن تتغـذى جيدا عندما ترضـع صـغارها حـتى تـوفر لهم اللبن الكـافي، وطيلـة هذه الفترة يزداد الرضيع وزنا بينما تفقد الأم الكثير من وزنها.

قلت: لقد وعيت كل ما ذكرت.. ولكن ألا ترى أن ذلـك قـد لا يتنافى مع نظرية التطور.. فالأم تمـارس هـذا النـوع مـع أولادهـا.. وأولادها يشكلون امتدادا لنوعها.

ابتســم، وقــال: هــذا من الخــدع الــتي يمارســها أصــحابنا التطوريون، وهو يتنافى مع تصوراتهم المادية ذلـك أن أمثـال هـذه القيم الرفيعة لا يمكن تفسيرها ماديا.

قلت: ماذا تعني؟

قـال: من الطـبيعي والمتوقـع من الناحيـة الماديـة البحتـة أن تهمل الحيوانات غير العاقلة صغارها، وتتركها وشأنها لأنهــا لا تفهم معـنى الأمومـة أو العطـف، ولكنهـا على العكس من ذلـك تتحمـل مسؤولية رعايتها والدفاع عنها بشكل عجيب.

قلت: ربما يكون ذلك مخزنا في بعض جيناتهـا، فهي تتصـرف على أساسها.

قال: قد أسلم لـك جـدلا بمـا ذكـرت.. بـل قـد خطـر لي في البداية ما ذكرت.. لكني بعد متـابعتي لسـلوك الحيوانـات رأيت أن رحمتها تلك ليست قاصرة على أولادها.. بـل إن عطفهـا ورحمتهـا قد تبديها إزاء الحيوانات الأخرى، أو الأفـراد الآخـرين الـذين تعيش معهم في المجموعات نفسها.. ويمكن ملاحظة ذلـك عنـدما تشـح مصادر الغذاء، فالمتوقع في مثل هذه الحالات العصيبة أن ينطلــق القوي منها ليبيد الضعيف، ويستحوذ على ما يوجد لديه من الغذاء، غير أن الذي يحدث هو عكس ما يتوقعه دعاة التطور.

قلت: كيف ذلك.. إن هذا لعجيب.. أول مرة أسمع بهذا.

قال: من الأمثلة على ذلك.. والتي ذكرها دعاة نظرية التطور أنفسهم أن النمل يبدأ بتناول ما ادخره عندما تشح مصادر الغـذاء، بينما تبدأ الطيور بالهجرة بشكل جماعي إلى مكان آخـر.. وعنـدما يكون عدد كبير من القنادس في نهر، تتوجه القنـادس الشـابة إلى الشمال، والكبيرة في السن إلى جنوب الأنهار.

قلت: لقد ذكرني قولك هذا بقول زميل لي هو [جون مـاينيرد سميت]، وهو من التطوريين المشهورين.. فقد سمعته مرة يوجـه سؤالا لأقرانه في يتعلق بهذا النـوع من السـلوك لـدى الحيوانـات، ويقـول لهم: (إذا كـان الانتخـاب الطـبيعي يعـني اختيـار الصـفات الصـالحة للكـائن الحي، والـتي تضـمن لـه بقـاءه وتكـاثره، فكيـف يمكن لنا أن نفسر صفة التضحية لدى بعض الحيوانات؟)

قـال: أجـل.. فالـذي يتـابع سـلوك الحيوانـات بدقـة لا يجـد منافسة أو مزاحمة بين الحيوانـات من أجـل الغـذاء، بـل بـالعكس يمكن مشاهدة نماذج عديدة لتعاونهـا وتضـحياتها حـتى في أقسـى الظروف.. فهي تعمل في أحيـان كثـيرة على التخفيـف من وطـأة الظروف وقسوتها.

سـكت قليلا، ثم قـال: بالإضـافة إلى ذلـك كلـه.. فـإن هنـاك مسـألة يجب أخـذها بعين الاعتبـار، وهي أنـه لا يوجـد بين هـذه الكائنات من يملك القدرة على التفكير لكي يتخذ هـذه القـرارات، وينشئ هذا النظام.. فكيف يمكن تفسير تجمع هذه الحيوانات في مجموعات، وتعيين هدف واحد مشترك، وعملهـا مجتمعـة لتحقيـق هذا الهدف المشترك؟

قلت: لكن ما السـبب الـذي جعـل العلمـاء القـائلون بنظريـة التطور يغفلون عن مثل هذه المشاهد؟

قـال: لقـد ذكـر بعض أصـدقائي، وهـو [جمـال يلـدرم] ذلـك، فقال: (إن الأسباب الـتي جعلت داروين وغـيره من رجـالات العلم في عصره يصورون الطبيعة على أنهـا تمثـل مسـرحا للحـرب بين الأحياء، يمكن إجمالها في أن رجال العلم في القرن التاسع عشـر كانوا يقبعـون في مختـبراتهم، أو أمـاكن عملهم لمـدة طويلـة، ولا

يدرسـون الطبيعـة ميـدانيا، ولهـذا ذهب خيـالهم ببسـاطة إلى الاستسلام لفكرة كون الكائنات الحية في حالة حرب صامتة فيمـا بينها)

أما [بتركروبوتكين]، وهو من المؤمنين بنظرية التطـور، فقـد ذكر الخطأ الذي وقع فيه داروين ومؤيدوه قائلا: (داروين ومؤيـدوه عرّفوا الطبيعة على أنها مكان تخوض فيـه الكائنـات الحيـة حروبـا مستمرة فيما بينها.. ويصور هاكسلي عالم الحيوان باعتبـاره حلبـة مصارعة تقوم فيه الحيوانات بصراع مرير فيما بينها، وتكون الغلبة من بينهـا للـذكي والسـريع، وهـو الـذي يسـتطيع العيش ليبـدأ في اليوم التالي صراعا جديدا.. وهكذاويتبين لنا منـذ الوهلـة الأولى أن وجهة نظر هكسلي بشأن الطبيعة ليست علمية)

وهذه الشهادات وغيرها كثـير يـدل على عـدم اسـتناد نظريـة التطور إلى ملاحظات علمية، ذلك أنـه يغلب على دعاتهـا الـتزمت الفكري من خلال تحليل بعض الظـواهر الموجـودة وفقـا لهـواهم، مع أن الحقيقـة هي أن الحـرب الـتي يـدعي داروين انتشـارها في أرجاء الطبيعة ليست سوى خطـأ كبـير، حيث لا نجـد الأحيـاء الـتي تكافح من أجل البقاء فقط، بل نجد أيضا كائنات حيـة تبـذل تعاونـا ملحوظا نحو الكائنات الحية الأخرى.. والأعجب من هذا أنها تؤثرها أحيانا على نفسها.. ولهذا نرى دعـاة التطـور عـاجزين عن تفسـير ظواهر الإيثار.

قلت: صدقت في كل ذلك، وقد ذكرني حـديثك هـذا بمـا ورد في مقـال صـادر في إحـدى المجلات العلميـة، فقـد جـاء فيـه: (المشكلة تكمن في السبب الذي من أجله تتعاون الكائنات الحية، وبالنسبة إلى نظرية داروين فهي تقول: إنـه ينبغي على كـل كـائن حي أن يكافح من أجل البقـاء والتكـاثر.. ومعاونـة بـاقي الكائنـات الحية يقلل من فـرص نجـاح ذلـك الكـائن الحي في البقـاء، وعلى هذا الأساس ينبغي أن يُـزال هـذا النمـط السـلوكي عـبر التطـور، ولكن الملاحـظ أن الإيثـار لا يـزال موجـودا في سـلوك الكائنـات الحية)

***

بعد أن منّ الله علي بكل أولئك الرسل الذين أرسلهم لي، ليبينوا لي من أسرار الحياة ماكنت غافلا عنه، رحت أجلس مع عقلي المجرد عن كل هوى لأبحث عن الحقيقة التي تختفي وراء ما نراه من أشياء.. والتي حُجبت عنها سابقا بسبب تلك الخرافات والأوهام المادية.

وقد طلب مني عقلي حينها أن أبحث عن ربي.. فالحقيقة عنده وحده.. والكمال عنده وحده.. وكل شيء عنده وحده.

وحينها شمرت عن ساعد الجد.. ورحت أقرأ الكتب الكثيرة للأديان المختلفة.. ورحت أجوب الأرض، وأبحث فيها، لا عن هياكل عظمية، لا تسمن ولا تغني من جوع.. وإنما عن الحقيقة التي استعمل الشيطان وأدواته كل الوسائل لطمسها.

وبعد أن علم الله صدقي أرسل لي بفضله معلم الإيمان.. ليدلني على الطريق.. ويدلني على الغاية الكبرى التي تفنى في سبيلها كل الغايات.

وقد شعرت حينها، ولأول مرة في حياتي بالسلام العظيم.. لا في نفسي فقط، وإنما في الكون جميعا.. ومن تلك اللحظات بدأت رحلتي إلى الحقيقة الجميلة الممتلئة بالسلام وكل ألوان الكمال.

وفي أول خطوة من رحلتي إليها امتلأت بالرحمة والعواطف الجياشة.. فقد أدركت أننا جميعا نحن البشر بل كل شيء ليس سوى نفحة من نفحات الرحمة الإلهية، وقبضة من قبضات الجود الإلهي الذي عمّ كل الكائنات.

التكيف.. والعناية

بعد أن انتهى الرابع من حديثه، قال الخامس، وهو يلتفت لي: وأخيرا وصل الدور لي.. فهيئ نفسك لتسجيل كل ما أورده عليك من قصتي، فهي لا تقل جمالا عما قصه عليك أصحابي.

قلت: كل أحاديثكم جميلة، وكلها تفوح بعطر الإيمان.. فهلم بحديثك.. فما أجمل أحاديث الإيمان.

قال: ما دام أصحابي قد حدثوك عن الصدفة والخلق.. والتطور والعلم.. والعشوائية والتصميم.. والصراع والسلم.. فلن أكرر ما ذكروا، وإن كنت مررت بكثير مما ذكروا، وإنما سيقتصر حديثي على التكيف والعناية.. ذلك أن حكايتي معهما هي مفتاح هدايتي إلى الله، وسبب تخلصي من كل الخرافات التطورية التي كنت أتعلق بها.

قلت: فما تعني بالتكيف والعناية.. وما الفرق بينهما؟

قال: التكيف يكون من ذات الشيء.. والعناية من خارجه.

قلت: لم أفهم ما تعني؟

قال: أرأيت إن وجدت طفلا رضيعا لا حول له ولا قوة.. ولكن مع ذلك تراه، وقد وضع له من أصناف الأطعمة التي يحتاجها بما يتناسب مع عمره، والبيئة التي يعيش فيها، حتى لا تؤثر فيه بجراثيمها وفيروستها، وحرها وبردها.. ما عساك تقول عن مصدر تلك الرعاية الخاصة التي حصلت له.. هل بسبب وجود حاضن رحيم فعل له ذلك؟.. أم أن الرضيع بحد ذاته حاول أن يتكيف مع الواقع، فيحصل له كل ذلك؟

قلت: لاشك أن الاحتمال الثاني جنون.. فمن أين للرضيع القوة والعقل الذي يوفر به لنفسه كل تلك الحاجات.. لاشك أن جهة رحيمة قد وفرت له ذلك.

قال: فهذا هو الفرق بين التكيف والعناية.

قلت: فمن هو المجنون الذي يقول بالتكيف، ولا يرى العناية؟

قال: التطوريون يقولون بالتكيف، ويهملون العناية، ويتصورون أن الكائن الحي وحده من يحدد حاجاته، ويوفرها، أو يتكيف مع الواقع، وينقلب جوهره إليه.

قلت: لكن كيف استطاعوا أن يقنعوا أتباعهم بذلك.. إن هذا محض جنون.. لعل هذا من أقوال أصحاب الداروينية القديمة.. تلك التي عفا عليها الزمن.

قال[1]: لا .. لن أحدثك عن الداروينية القديمة.. فأطروحاتها لم تعد تنطلي على أحد.. وإنما سأحدثك عن الدارونية الجديدة، فهي النظرية السائدة للتطور اليوم، فهي ترى أن الحياة قد تطورت من خلال آليتين طبيعيتين هما: الانتقاء الطبيعي والطفرة.. ويعتبرون كلا الآليتين متكاملتين.. أي تكمل إحداهما الأخرى.

قلت: ما تعني بذلك؟

قال: هم يذكرون أن أصل التنقلات الحاصلة بالتطور تعود إلى طفرات عشوائية تحدث في التركيب الجيني للكائنات الحية.. ويذكرون في نفس الوقت أن انتقاء السمات الناتجة عن الطفرات يحدث عن طريق آلية الانتقاء الطبيعي.. وبهاتين الآليتين يتم تطور الكائنات الحية كما يتصورون.

قلت: فهلا شرحت لي أكثر ما يقصدون.. وما علاقته بالتكيف والعناية؟

قال: ستفهم ذلك من خلال قصتي.. فلا تعجل.

التكيف.. والانتقاء الطبيعي:

اعتدل صاحبنا الخامس في جلسته، وحمد الله، وصلى على نبيه ﷺ.. ثم قال: لا يخفى عليكم أني في بداية أمري كنت من

---

[1] () استفدنا المادة العلمية الواردة في هذا الفصل من كتاب [خدعة التطور]، هارون يحي.

القائلين بنظرية التطور، شأني في ذلك شأن كل تلك الأجيال التي لم تدرس غيرها، ولم تعرف من النظريات سواها.. فقد كانت تدرس لنا مثلما تدرس التربية الدينية في المدارس المحافظة أو التابعة للكنيسة.

ولهذا كنت لا أتصور أن ينقض العلم في يوم من الأيام تلك المفاهيم التي تصورناها حقائق مطلقة، لا يمكن نقدها، مع أنها كانت مملوءة بالثغرات التي يسهل على أي عاقل أن يكتشفها.

وتبدأ قصة اصطدامي بهذه النظرية، وتخلخل يقيني المرتبط بها إلى ذلك اليوم الذي كنت جالسا فيه في عربة قطار مسافرا إلى مدينة تبعد كثيرا عن مدينتي.. وهناك رأيت عالما شابا من علماء الحياة يحدث شيخا كبيرا يبدو أنه بعض أقاربه عن نظرية التطور، ويحاول أن يقنعه بها.. وكان مما لا أزال أذكره جيدا قوله له: ما دمت لم تقتنع بكل ما ذكرت لك من أدلة، فسأورد لك الآن دليلا آخر، ربما يكون أقوى الأدلة، ولا يمكن لعاقل أن ينكره.

قال الشيخ: أنا في الاستماع.. وأرجو ألا يكون مثل الأدلة السابقة التي لا يمكن لمن يحترم عقله أن ينكرها.

قال الشاب: هذا دليل مختلف تماما.. وهو يثبت نظرية التطور بقوة لا مثيل لها.. وهو يثبت أن للبيئة والظروف تأثيرها الكبير في حصول الانتقاء الطبيعي.

سكت قليلا، ثم قال: يذكر المؤرخون أنه وفي بداية الثورة الصناعية بإنكلترا كان لون لحاء الأشجار حول منطقة مانشستر فاتحاً إلى حد كبير.. ولهذا كان من السهل على الطيور التي تتغذى على الفراشات ملاحظة الفراشات ذات اللون الغامق التي تحط على تلك الأشجار، وهذا ما جعل الفراشات عرضة للانقراض، فلم يبق لها سوى فرصة قليلة للبقاء.

لكنهم اكتشفوا أنه بعد مرور خمسين سنة تحول لون لحاء الأشجار إلى اللون الغامق نتيجة التلوث.. واكتشفوا أيضا أن الفراشات فاتحة اللون صارت أكثر أنواع الفراشات عرضة للصيد.. وقد أدى ذلك إلى تناقص عدد الفراشات فاتحة اللون،

بينما ازداد عدد الفراشات غامقة اللـون، لأنـه لم يكن من الممكن ملاحظة الأخيرة بسهولة.

سكت الشاب، فقال الشيخ: أكمل القصة.. ما الذي حصل؟

قال الشاب: انتهت القصة.. وموضع الشاهد فيها واضح جـدا، ذلك أن هذا أكبر دليل على أن الفراشات فاتحة اللون قد تطوّرت إلى فراشات غامقة اللـون.. وهـذا وحـده كـاف في إثبـات نظريـة التطـور.. بـل هـو دليـل على أن نظريـة التطـور حسـية تجريبيـة، والحس والتجربة أكبر أنواع الأدلة.

قال الشيخ: فهل كانت الفراشات غامقة اللـون موجـودة في جماعة الفراشات قبل الثورة الصناعية، أم لا؟

قال الشاب: كانت موجودة.. ولكن تغـيرت أعـدادها بالنسـبة لأنواع الفراشات الموجودة في الجماعة.

قال الشيخ: لست أدري مـا أقـول لـك.. وهـل أتهم عقلي أم عقلك؟.. ذلك أن ما ذكرته لا يمكن استخدامه كدليل بأي حـال من الأحوال على ما تذهب إليه.. ذلك أن ما وصفته بالانتقـاء الطـبيعي لم ينتج عنه أي نوع جديد لم يكن موجوداً من قبـل.. ولم تكتسـب الفراشات على حسب ما ذكرت أي خاصية أو عضو جديد قـد ينتج عنه ظهور نوع جديد.. فلم تتحـول الفراشـة إلى طـائر أو أي نـوع آخر من الأحياء..

قال الشاب: ولكن ألا ترى أن تحول اللـون كـاف في الدلالـة على ذلك؟

قال الشيخ: ولكنك ذكرت لي بـأن ذلـك اللـون كـان موجـودا سابقا..

قال الشاب: ولكنه كان موجودا بأعداد أقل.

قال الشيخ: لا يهم ذلك.. فكونه موجودا كاف وحده في هـدم كل ما ذكرت.. لأنك تريد أن تبرهن لي على انتقال الحيوانـات من حال إلى حال.. ولم تثبت لي ذلك بأي دليل.

لم يجد الشاب إلا أن يغضب ويتأفف، ويقول بنبرة حادة غير مراع لحرمة الشيخ: لا أظن أنني أستطيع أن أقنعك.. فعقلك يابس وجاف، وأنت لا يمكنك أن تفهم أبدا.

قال الشيخ: لا بأس يا بني.. قد يكون عقلي كما وصفت.. لكن أجبني عن سؤال واحد.. فبه وحده يمكن أن تقنعني.

سكت الشاب، فقال الشيخ: هل كل علماء الحياة يقولون بنظرية التطور.. أم أن هناك خلافا بينهم في ذلك؟

كان السؤال مصيدة خطيرة للشاب، ولذلك راح يحتال عليها بقوله: حتى لو كان الأمر كذلك.. فالمنكرون لنظرية التطور مجانين حتى لو كانوا علماء حياة.

قال الشيخ: فعلماء الحياة المنكرون لنظرية التطور بحسبك يشبهونني في يبس عقلي وجفافه؟

قال الشاب: أجل.. فكل من ينكر نظرية التطور هو كذلك.

قال الشيخ: أرى يا بني أنك لا تتمسك بهذه النظرية لكونها حقيقة علمية.. وإنما لتحقق بها غاية لك.. فأخبرني ما هي، وكن صادقا معي.

قال الشاب: أي غاية تقصد؟

قال الشيخ: أنت تريد أن تلغي الله، وعنايته بخلقه، ولذلك رحت تحاول تفسير كل شيء بطريقة تجعل الكون والحياة غير محتاجة إليه.

قال الشاب: فلنفرض أني فعلت ذلك.

قال الشيخ: هذا هو الجنون الذي هو أخطر من يبس العقل وجفافه، لأن الحقائق لا يمكن أن ننكرها بالهوى والرغبة.. فالحق يبقى حقا حتى لو اجتمعت الدنيا كلها على إنكاره.

***

كان هذا الحديث بين الشيخ والشاب بداية حصول أول نخر في قناعتي بنظرية التطور، وربما يكون السبب في ذلك هو ذلك الهدوء والأدب والحوار الطيب الذي أبداه الشيخ، مقارنة بما أبداه الشاب من تهور وصلف وعنجهية.. وقد كان ذلك سببا نفسيا كافيا لي في إعادة النظر في كل قناعاتي حول تلك النظرية المجنونة.

لكن ذلك السبب لم يكن الوحيد، بل كان بجانبه سبب علمي وعقلي راح يلح على ذهني كل حين، ويدعوني إلى مراجعة قناعاتي..

ذلك أني وجدت بعد أن فتح لعقلي مجال التأمل ــ بسبب كلمات الشيخ ـ أن الانتقاء الطبيعي الذي يقول به الداروينيون لا يملك القدرة على إضافة عضو جديد إلى كائن حي أو إزالته منه، أو تغيير نوع كائن حي إلى نوع آخر على عكس الصورة التي يذكرها دعاة نظرية التطور.. فلم يتمكن أعظم دليل تم تقديمه منذ زمن داروين إلى يومنا هذا من المضي أبعد من دليل الاصطباغ الصناعي لفراشات الثورة الصناعية في إنكلترا، وهو دليل غير كاف بتاتا، بل هو نوع من المصادرة على المطلوب.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الانتقاء الطبيعي ــ بوصفه أحد العمليات الطبيعية ـ كان أمراً مألوفاً بالنسبة لعلماء الأحياء قبل دارون، وقد عرّفوه على أنه آلية تحافظ على ثبات الأنواع دون إفسادها.. لكن داروين لم يكتف بما ذكره علماء الحياة قبله، وإنما راح يذكر أن لهذه العملية قوة تطويرية، بل أقام نظريته بأكملها على أساس هذا الجزم.. بل إن الاسم الذي أطلقه على كتابه، وهو [أصل الأنواع بواسطة الانتقاء الطبيعي] يشير إلى هذا.

***

بينما كانت الخواطر تتجول في أنحاء ذهني بمثل تلك المعاني إذ دخل العربة التي كنت فيها مع الشيخ والشاب رجل يبدو عليه الوقار، وما إن رآه الشاب حتى أسرع إليه يصافحه بحرارة، ويقول: مرحبا بك أستاذي الكبير.. هذه فرصة عظيمة لأن أراك.

ثم ما لبث الحديث بينهما أن تحول إلى الحديث مع الشيخ، فقد قال الشيخ للأستاذ: لقد قطعنا الطريق كله مع قريبي هذا في الحديث عن نظرية التطور، وقد استعمل كل الوسائل لإقناعي لكن عقلي أبى علي.. وربما يكون لك من الأدلة ما يجعلني أقتنع.

ابتسم الأستاذ، وقال: وكيف أقنعك بشيء أنا نفسي لا أقتنع به.

ذهل الشاب لذلك، وقال: كيف تقول ذلك.. وأنت الذي درستنا هذه النظرية، وأقنعتنا بها.

فقال الأستاذ: أجل.. لقد فعلت ذلك باعتباري موظفا ملزما بتدريس المقرر كما طلب مني، وإلا فصلت عن عملي.. لكنني في قرارة نفسي لم أكن مقتنعا بها، بل أرى أنه من المستحيل على أي عاقل أن يقتنع بها.

قال الشاب: كيف ذلك؟

قال الأستاذ: لأنها تفتقر إلى الأدلة.. هي مجرد نظرية خيالية لا حظ لها من العلم.. فمنذ عصر داروين حتى اليوم، لم يقدم أدنى دليل على أن الانتقاء الطبيعي هو السبب في تطور الكائنات الحية.. بل إن [كولين باترسون]، وهو كبير علماء المتحجرات في متحف التاريخ الطبيعي بإنكلترا، ومع كونه من أشهر دعاة التطور، ذكر أن أحداً لم يلاحظ أبداً أن للانتقاء الطبيعي قوة تتسبب في التطور.. لقد قال معبرا عن ذلك: (لم ينتِجِ أي أحد نوعاً بواسطة آليات الانتقاء الطبيعي، بل لم يقترب أحد منه ويدور معظم الجدال الحالي في إطار الدارونية الجديدة حول هذه المسألة)

قال الشاب: لكن ألا ترى يا أستاذ أن [الانتقاء الطبيعي] يدل على أن الكائنات الحية الأكثر تكيفاً مع الظروف الطبيعية يمكنها أن تبقى وتتكاثر، بينما تختفي تلك غير القادرة على التكيف.. فقطيع الغزلان الذي تهدده الحيوانات البرية، لا يبقى منه إلا الغزلان التي تستطيع الركض أسرع من غيرها.. أما العاجزة، فستلتهمها الحيوانات المتوحشة.

قال الأستاذ: أجل.. ذلك صحيح.. ولكن مهما استمرت هذه العملية، فإنها لن تحوّل الغزلان إلى نوع آخر من الأحياء؛ فسيبقى الغزال غزالاً دائماً.. فالانتقاء الطبيعي لا يمكن بأي حال من الأحول أن يزيد المعلومات الوراثية للأنواع أو يحسنها، كما لا يمكنه أن يحول أحد الأنواع إلى نوع آخر.. فليس بمقدوره أن يحول نجمة البحر إلى سمكة، ولا السمكة إلى ضفدع، ولا الضفدع إلى تمساح، ولا التمساح إلى طائر.

قال الشاب: ما تقول يا أستاذ؟.. إن هذا خطير.

قال الأستاذ: لست أنا الذي أقوله فقط.. إن كبار المدافعين عن نظرية التطور ذكروا هذا.. وأذكر من بينهم [غولد]، وهو من كبار المدافعين عن فكرة التطور المتقطع، فقد أشار إلى هذا الطريق المسدود الذي يواجه الانتقاء الطبيعي، فقال: (يكمن جوهر الدارونية في عبارة واحدة: الانتقاء الطبيعي هو القوة الإبداعية للتغير القائم على التطور.. ولا أحد ينكر أن الانتقاء الطبيعي سيلعب دوراً سلبياً في التخلص من العناصر غير القادرة على التكيف، ولكن النظريات الدارونية تتطلب أيضاً خلق عناصر قادرة على التكيف)

قال الشيخ: شكرا يا أستاذ.. فهذه الكلمات التي قلتها تثلج الصدر، وتتوافق مع العقل والمنطق.. وإلا فكيف يمكن لأي عقل أن يقتنع بأن الانتقاء الطبيعي يمكنه أن يتسم بالوعي والقدرة على التصميم، ليقوم بكل تلك العمليات المعقدة.

قال الأستاذ: صدقت.. فالانتقاء الطبيعي لا يملك أي وعي لسبب بسيط، وهو أنه لا يملك أي علم أو إرادة يمكنها أن تقرر ما ينفع الكائنات الحية وما يضرها.. ولهذا لا يستطيع الانتقاء الطبيعي أن يفسر النظم البيولوجية والأعضاء الحية التي تتسم بقدر من التعقيد يتعذر تبسيطة.. فهذه النظم والأعضاء تتكون نتيجة تعاون عدد كبير من الأجزاء، وهي تصبح عديمة النفع إذا فُقد ولو عضو واحد منها أو صار معيبا.

سكت قليلا، ثم قال: من الأمثلة على ذلك أنه لا يمكن أن

تعمل عين الإنسان ما لم تكن موجودة بكل تفاصيلها.. ولذلك، فإنه من المفترض أن تكون الإرادة التي جمعت كل هذه الأجزاء معاً قادرة على أن تستقرئ المستقبل بشكل مسبق، وتستهدف مباشرة الميزة التي ستكتسب في المرحلة الأخيرة.. وبما أن آلية الانتقاء الطبيعي لا تمتلك وعياً أو إرادة، فلا يمكنها أن تفعل أي شيء من هذا القبيل.

قال الشاب: ولكن كيف لم ينتبه داروين مع عبقريته وعلمه الكثير إلى هذه النقطة المهمة، والتي تقوض نظريته كليا؟

قال الأستاذ: لقد انتبه لها، بل ذكرها، فقال: (إذا كان من الممكن إثبات وجود أي عضو معقد لا يُرجَّح أن يكون قد تكَّون عن طريق تحورات عديدة ومتوالية وطفيفة، فسوف تنهار نظريتي انهياراً كاملاً).. وهي شهادة صادقة منه بأن نظريته يمكنها أن تقوض من أساسها، لكن الذين استفادوا منها في نشر مذاهبهم وأيديولوجياتهم، راحوا ينافحون عنها بكل أصناف الحيل والخدع.

قال الشاب: ولكن ألا ترى أن للانتقاء الطبيعي دوره في استبعاد الأنواع المشوهة أو الضعيفة أو غير القادرة على التكيف؟

قال الأستاذ: أجل.. وهذا هو دوره المحدود الذي لا يتعداه.. ذلك أنه لا يمكن بالانتقاء الطبيعي أن ننتج أنواعاً جديدة، أو معلومات وراثية جديدة، أو أعضاء جديدة.. فليس بمقدوره أن يجعل أي شيء يتطور.. وقد قبل داروين هذه الحقيقة بقوله: (لا يستطيع الانتقاء الطبيعي أن يفعل شيئاً ما لم تُتح الفرصة لحدوث اختلافات مواتية)

ولهذا السبب اضطرت الداروينية الجديدة إلى الارتفاع بمستوى الطفرات بوصفها السبب في التغيرات المفيدة إلى مستوى الانتقاء الطبيعي.. ومع ذلك لا يمكن أن تكون الطفرات سوى سبب في التغيرات الضارة.

قال الشاب: شكرا أستاذي على هذه المعلومات القيمة، وأرى أنك قمت بالدورين جميعا، فأنت الذي أقنعتني سابقا بهذية

النظرية، ثم أنت الآن تقنعني بتركها.. فبأي شخصيك أثق؟

قال الأستاذ: ذلك ظاهر.. فلكل شخص مراحل فكرية يمر بها، وهو في العادة أكثر نضجا وقوة وإدراكا في مراحلة الأخير، ذلك أنه يكتشف فيها ما لم يكن قد اكتشفه في مراحله السابقة.. بالإضافة إلى ذلك، فأنت كنت تتعامل مع موظف في مؤسسة، وهو مكبل بقيودها وقوانينها خشية على رزقه.. أما الآن فأنت تتحدث مع متحرر يعرف ما يقول، ويؤمن بما يقول، ولا يخاف شيئا.

قال الشاب: فهلا أتممت حديثك لي.. حتى أتيقن بما تيقنت به.

قال الأستاذ: لك ذلك.. ولكن للأسف وصلت للمدينة التي أريد الذهاب إليها.. وذلك ما يمنعني من مواصلة الحديث.

قال الشاب: وأنا أيضا سأنزل معك هذه المدينة.. ولو لم يكن لي بغية فيها إلا التحقق من هذه النظرية التي جعلتني كالمجنون أحاول أن أقنع بها كل الناس، مع أنه لا جدوى لها في حياتي ولا في حياتهم.

***

ما إن قال ذلك حتى توقف القطار، ثم نزل الثلاثة، وبقيت وحدي.. لكن شاء الله أن يرسل لي شابين آخرين، لم يكن لهما من حديث إلا نظرية التطور.

قال أولهما، وهو يمسك كتابا مملوءا بصور الحيوانات: أود منك يا صديقي أن تشرح لي في هذا الطريق نظرية لامارك.. فلدينا امتحان فيها هذا الأسبوع.

قال الثاني: ألا تعرفها؟.. إنها بسيطة جدا.. ويمكنك ــ لكي تستوعبها ـ أن تشبهها ببعض الرسوم المتحركة التي تحبها.. فهي لا تختلف كثيرا عنها.

قال الأول: كيف ذلك؟

قال الثاني: هي نظرية تحاول أن تفسر التنوع الموجود في الكائنات الحية.. لا بكون كائن له كينونته الخاصة.. وإنما بافتراض أن هذه الكائنات تغيرت من حال إلى حال.

قال الأول: أعرف هذا.. ولكن كيف ذلك؟

قال الثاني: هو.. أي لامارك.. يرى أن عدم ثبات الأنواع على حالها يعود إلى الظروف المختلفة، كتأثير المناخ والغذاء وغيرها.. أي أن الكائنات نشأت عن أخرى، غير متشابهة لها عبر أزمان طويلة، كان التغيير فيها أو في بعض أعضائها وفقاً لظروف البيئة الخارجية، ثم انتقلت هذه التغييرات المكتسبة إلى الجيل التالي له بالوراثة.

قال الأول: ولكن كيف ذلك؟

قال الثاني: هو يرى أن ذلك تم بحسب قانونين هما قانون الاستعمال والإهمال.. وقانون توريث التغييرات المكتسبة.

قال الأول: فما قانون الاستعمال والإهمال؟

قال الثاني: هو القانون الذي تم بموجبه ـ على حسب ما يرى ـ تغير بعض أعضاء الكائن الحي، إما بالضمور، أو الزيادة، أو الضعف، أو القوة نتيجة لإهماله أو كثرة استعماله.

قال الأول: فهلا ضربت لي أمثلة عن هذا؟

قال الثاني: لقد تكفل لامارك نفسه بهذا، فقد ضرب مثالا على ذلك بنمو واستطالة رقبة الزرافة نتيجة لمحاولتها المستمرة للوصول إلى غذائها من أوراق الأشجار العالية بعد تعرية الفروع التي هي أدنى منها.. وضرب مثالا على ذلك بنمو سيقان الطيور التي تعيش في المستنقعات والبحيرات، واستطالة مناقرها ورقابها لاصطياد الأسماك منها.. وبالفقاريات التي تتغذى بدون مضغ، حتى تضمر أسنانها، وتصبح خفية في اللثتين مثلاً: الحوت، وآكل النمل.. وبالخلد، الذي يعيش في الظلام، فلذلك كانت له عينان صغيرتان جداً لا تكاد تنهضان بوظيفة.

ضحك الأول، وقال: حقا.. إن أمثلته تشبه بعض أفلام الرسوم المتحركة.. فحدثني عن القانون الثاني.

قال الثاني: هو قانون [توريث التغييرات المكتسبة].. ويقصد به أنه بعد ظهور المتغيرات الجديدة التي اكتسبها الأفراد، يتم توريثها للجيل الجديد.

قال الأول: ولكن كيف ذلك.. لقد درسنا في دروس العلوم أن بحوث العالم [جريجول مندل]، و[طوماس مورجان] أكدت بما لا مجال فيه للشك بعدم إمكانية توريث الأجيال التالية لتلك الصفات التي اكتسبها أسلافهم..

قال الثاني: أجل.. أعلم ذلك.. فختان أبناء المسلمين، وأبناء اليهود، لم تورث أية طائفة لنسلها هذه الخصائص.. وهكذا يقال بالنسبة لتلك الأطواق التي تمسكت بها نساء (بورما) لإطالة أعناقهن.. ويقال الشيء نفسه مع أحذية نساء الصين الصغيرة.. وأذكر كذلك أن أستاذا لنا ذكر لنا أن الباحث [وايزمان] قام بتجربة طويلة الأمد كان خلالها يقطع ذيل الفئران مباشرة بعد ولادتها، وبعد توالد هذه الأنواع لم يحصل على فئران بدون ذيل.

قال الأول: فالقانون الثاني إذن لا قيمة علمية له بحسب هذه النتائج؟

قال الثاني: والقانون الأول كذلك.. فنوع الزرافات التي ضرب بها لامارك المثل على صحة هذا القانون ما زال موجوداً، وما تزال إناثه تحمل رقاباً قصيرة فلماذا لم تمت إناث هذه الزرافات ذات الرقاب القصيرة وقت فناء الزرافات القصيرة الأعناق بسبب جوعها نتيجة لارتفاع مأكلها عن متناول أفواهها؟.

وهذا يقال أيضا في صغار الزرافات التي تبقى قصيرة الرقاب بعد مرحلة الفطام لمدة طويلة لا تتمكن من الوصول إلى تلك الفروع.. فلماذا لم تمت تلك الصغار؟

أما صغر أعين الخلد وضمور أسنان بعض الفقاريات، فذلك راجع إلى الصفات الوراثية الكامنة في الصبغيات.. فهذه صفات

تكون موجودة قبل الالتقاء مع الظروف الخارجية، وكمثال على ذلك: اختلاف سمك الجلد عند المولود في أخمص قدميه وليونته في الوجه مثلاً.

قال الأول: صدقت.. فلو كان قانون الإهمال والاستعمال يعمل لصالح الأنواع لما انقرضت بعض الحيوانات مثل الديناصور عندما تغيرت ظروفها.

قال الثاني: ولذلك دعوتك إلى أن تعتبرها مثل الرسوم المتحركة، فهي نظرية للتسلية لا للتعليم..

قال الأول: ولكن لم يتعبوننا بدراستها وحفظها؟

قال الثاني: لسبب بسيط وهي أن [داروين] انطلق منها ليدعونا إلى نظريته المملوءة هي الأخرى بأصناف الخرافة والدجل.

قال الأول: ألهذا أيضا يدرسوننا نظريات [جورج كوفييه]

قال الثاني: أجل.. فهو يرى أن ظهور الأصناف والأنواع يأتي عقب حدوث الكوارث التي كانت تبيد وتفني بعض أنواع الأحياء، لتظهر بدلاً منها أنواع جديدة.. وبتكرار الكوارث، يتكرر خلق الكائنات الحية في كل مرة.

ضحك الأول، وقال: كيف ذلك؟.. نحن في العادة نرى أن الكوارث لا يمكن أن تترك أحياء إلا بتدخل عوامل خارجية لا دخل للناجين فيها.. ولو افترضنا أن الكوارث تركت أحياء، فما هي القدرة الذاتية التي استطاع بها الناجون أن يقاوموا دون غيرهم ممن ماتوا؟

قال الثاني: صدقت.. فالدارس والمتمعن للكوارث التي حدثت في أنحاء العالم منذ آلاف السنين، وأبادت ملايين الأحياء لم يحصل بعدها أي نشوء أو ارتقاء.. ولو افترضنا أنها أسفرت عن نشوء وارتقاء بعض الأحياء، فإن أبحاث [مندل] وغيرها تدل على أنه يستحيل توريث هذه الخصائص المكتسبة للأجيال القادمة، لأن الخصائص التي تورث للأجيال عند نوع ما، سواء كان نباتاً أو

حيواناَ، هي فقط تلك التي تكون مسجلة في كروموزومـات أفـراد ذلك النوع.

قال الأول: لكن لم يدرسوننا هذه النظريات مع علمهم أنها لا تفيدنا شيئا؟

قال الثاني: لقد عبر عن ذلك العـالم الـدارويني [آرثـر كيث]، فقال: (نظرية التطور لم تثبت، ولن تثبت، والسـبب الوحيـد الـذي يجعلنا نأخذ بها هي أنها البديل الوحيد لنظرية الخلق المباشر)

قال الأول: إذن هم لا يقصدون بها إلا حرب الأديان؟

قال الثاني: أجل.. فهي قد نشأت أصلا في ذلك الوقت الـذي حاول فيها رجال العلم أن ينتقموا من رجـال الـدين.. ولـذلك كـان من وسائلهم لحربها هذه النظرية.

قال ذلك، ثم انصرف مع صاحبه، بعد أن توقف القطار..

***

بعد خروجهما جاء بدلهما رجل يمسك جريدة، وأخذ يقرأ فيهـا بتمعن شديد، ثم فجأة راح يصيح، وهو يشـير إلي: انظـر.. انظـر.. ها هي نظرية التطور تسقط أخيرا بعـد أن صـدعت رؤسـنا سـنين طويلة.

قلت: ما الذي حصل.. هل من خبر جديد؟

قـال: أجــل.. لقــد اكتشــف كــائن صــغير لا يتعــدّى طولــه الملّيمترين يحمل خصائص عجيبة[1]، تهدم كل الأركان التي بــنيت

[1] أشـير بـه إلى بطيء الخطـو أو بطيء المشـية، والـذي يعـرف بالتـارديغرادا، أو دب الماء أو خنزير الطحلب، ويتميز بأنه يستطيع العيش بدون ماء ولا هواء لمدة عشر سـنوات.. وأنه الحيوان الوحيد الذي يسـتطيع العيش في الفضـاء. ففي عـام 2007 أرسـل في تجربـة فضاء علمية لمحطة الفضـاء الدوليـة على متن المركبـة الروسـية الفضـائية (فوتـون- إم 3) وبقي على قيد الحياة طوال فترة التجربة التي استغرقت 12 يوماً، وبدأ يتحرك ووضـع بيضـاً ففقس بنجاح، بالرغم من الضغط المنخفض والاشعاع الشديد ودرجـات الحـرارة المنخفضـة والرياح الشمسية التي لا تهدأ والحرمان من الأوكسجين في فراغ الفضاء.. ويسـتطيع تحمـل درجة حرارة عالية تصل إلى 357 فهرنهايت.. ويستطيع تحمل برودة شديدة تصـل إلى 273 تحت الصـفر ويسـتطيع أن يتحمـل ضـغطاً يزيـد عن سـت أضـعاف ضـغط قـاع المحيـط.. ويستطيع تحمل إشعاعات غاما القاتلة.. ويستطيع أن يعيش لمدة 200 سنة.

عليها نظرية التطور..

قال ذلـك، ثم راح يقـرأ علي من جريدتـه: (اكتشـف العلمـاء كائنـا حيـا لا يتعـدى طولـه الملّيمـترين يتمتـع بخصـائص غايـة في الغرابة.. فهو يتحّمل التعرّض لدرجة حـرارة 273،ـ 9°ــ لمـدّة 20 ساعة.. يتحّمل درجة حرارة إلى حدّ 190°+.. ويعيش تحت ضغط مائي ستاتيكي 600 ميغاباسكال ستة مرّات درجة الضغط بأسحق المحيطـات مـع العلم أنّ 30 ميغاباسـكال كافيـة لسـحق الخلايـا وإحداث أضرار بالغشاء الخلوي والبروتونات وغيرها.

قلت: لكن كيف تسبب هذا الكائن في هدم نظرية التطور؟

قال: أنت تعلم أن التطـوريين يعتـبرون الطبيعـة قـادرة على تطوير أنظمة الكائنات بحيث تتلاءم مع الظروف في وسطها؟

قلت: أجل.. ذلك صحيح.. وهو من الأسس الـتي تقـوم عليهـا نظرية دارون.

قال: فهل يمكن أن تجمع الطبيعة في كائن واحد قــدرة على التأقلم في أوساط متناقضة كليا.. بل غير موجودة بالمرة؟.. لماذا يُدجّج حيوان بهذا الكمّ من المقدرة على تحمّـل ظـروف لاتتواجـد في الطبيعة.. وهل هذا الكائن قفـز فـوق نظريـة التطـوّر؟ أم هـو خُلق!

قلت: لقد ذكرني حديثك هذا بداروين الذي اعـترف أن هنـاك مشكلة كبرى في نظرية الانتخاب الطبيعي الـتي أصـلّها في كتابـه أصل الأنواع، فقد وجد أن الإنسان الإفريقي الضعيف يتكاثر ويزداد مع الوقت، وأن الإنسـان الأوربي الأقـوى يقـل مـع الـوقت، فقـام بوضع كتـاب [أصـل الإنسـان عن طريـق الانتقـاء الجنسـي]، وهنـا استبدل الانتقاء الجنسي بالانتخاب الطبيعي، ذلك أنه وجد أن الذي يسعى بدوافع جنسيه يبقى أكثر ممن يسعى بدوافع أخـرى، فصـار الدافع الجنسي أقوى دلالة على البقاء من دافع الطبيعة والقوة..

قال: أجـل.. أعلم.. ولسـت أدري مـاذا كـان يمكن أن يطـرح من بدائل ونظريات إذا علم بهذا الكائن العجيب.

قال ذلك، ثم وقف أمام النافذة، وراح يقول: لقد اعـترف [د. نيلس ايلدريدج]، وهو عالم حفريات من أنصار نظرية التطور، بـأن نظرية التطور نطرية مريضة تتعرض للأوجاع كل يوم، بل واعترف بـأن تخصصـه مجـرد خدعـة كـبرى، فادعـاءات التطـور الخاصـة بسلاسل الحصـان المعروضـة في نفس المتحـف الـذي يعمـل بـه تعتمد في الأساس على نسج من الخيال فحسب.

وقـد انتقـد بشـدة عـرض هـذه السلسـلة الزائفـة في الكتب الدراسـية والقبـول بهـا وكأنهـا حقيقـة علميـة مسـلَّم بهـا، فقـال: (أعترفُ أنهم زجوا بها في الكتب الدراسية بمقادير كبـيرة، وكأنهـا حقيقة علمية مؤكدة.. وأشهر نموذج على هذا هو عرضهم لمراحل تطور الحصان الـذي لا زلنـا نـراه في الطـابق العلـوي، والـذي تم اعداده منذ 50 عاماً.. وقد تجلي ذلك واضحا في الكثير من الكتب الدراسية، وكأنه حقيقة غير قابلـة للنقـاش، ويحزنـنى هـذا الوضـع كثيراً الآن، لأن الاشخاص الذين نسـجوا هـذا النـوع من الحكايـات، قد اعتقـدوا أن جـزءا من هـذه الحفريـات مصـدره طبيعـة زائفـة، وبصفة خاصة ما اعلنوه عنه بأنفسهم، فالحصان ذو الحافر الواحـد والاثـنين والثلاثـة ظهـروا معـا وفي نفس الـوقت لكن الـتزييف ضرورة عندما تنقصنا المعلومة الحفرية)

التفت إلي، ثم قال، وهو يبتسم: لقد ذكرني حديث [د. نيلس ايلدريـدج] بصـديق لي راح يرسـم السـيناريو التطـوري بشـكل ساخر.. فقـال لي، وهـو يخـاطبني: إن كلام التطـوريين يشـبه من يزعم بأنه ما دامت أُنوفنا جُعلت كي تحمل النظـارة، فلـذلك كـان لدينا نظارات..

وهكذا، فإن علماء الأحياء التطوريين يستخدمون هذا المنطق عندما يريدون الحديث عن أي بُنية ما، وعن الفائـدة في وجودهـا.. فهم يؤمنون بعصا التطور السحرية التي تسد احتياجـات الكائنـات الحية في الطبيعة..

فهم يقولون ـ مثلا ـ بـأن خرطـوم الفيـل يعطي الفيلـة مزيـة لالتقاط الأطعمة من على الأرض، ومن ثم فإن خرطوم الفيل قــد تطور من أجل أن يلتقـط الطعـام من على الأرض.. ويـذكرون أن

قامة الزرافة تجعلها تستطيع الوصول إلى الأغصان المرتفعة، ومن ثم فإن قامة الزرافة قد تطورت من أجل أن تمتد إلى الأوراق والأعشاب الكائنة بأماكن شاهقة ومرتفعة.. فهذا الإيمان أشبه ما يكون بالإيمان بالخرافات والاعتقاد فيها.

التكيف.. والطفرات الوراثية:

بعد أن سمعت كل هذه الأحاديث وغيرها، والتي شاء الله أن تجتمع جميعا في محل واحد، لتزيح قناعاتي بتلك النظرية التي كنت أتشبث بهذا من غير أن يكون فيها أي شيء يغري بها أو يدل عليها.. وبعد أن وصلت إلى البلدة التي كنت أنوي الذهاب إليها، سرت إلى المخبر الذي جئت من أجله، وهناك رأيت الضربة القاضية تنهال على تلك النظرية لتقضي عليها قضاء مبرما لا حياة لها من بعده.

عندما دخلت المخبر، وجدت عالما يقف بين يدي مجموعة تلاميذ، وهو يقول لهم: الآن بعد أن فهمتم هذا، بل رأيتم بأعينكم عبر هذا الشريط كيفية حدوثه، اسألوا ما بدا لكم.. لكن لا تخرجوا كعادتكم عن الموضوع.. فأنا باحث فيزيائي وطبيعي، ولست فيلسوفا ولا مفكرا.

قال أحد التلاميذ: لقد رأيت بعضهم يربط بين الطفرات الجينية والإشعاعات النووية.. فهل هذا صحيح؟

قال الأستاذ[1]: أجل.. هو صحيح بنسبة كبيرة.. فأغلب الطفرات الجينية تحدث بسبب الإشعاعات النووية، مثل أشعة غاما، أو أشعة ما فوق البنفسجية، أو الأشعة السنية، أو بسبب تدخل كيميائي، أو خطإ في ترتيب القواعد النيتروجينية في الحمض النووي أثناء إنقسام الخلية.

قال التلميذ: هلا وضحت لنا أكثر.

قال الأستاذ: أنتم تعرفون أن نظام الحمض النووي على صغره مخزون في حصن حصين داخل النواة.. ولا تؤثر عليه

1() انظر مقالا بعنوان: الطفرات ليست دليل علي التطور.

مختلف العوامل البيولوجية أو الجوية، لكن الإشعاع النووي يستطيع النفاذ إلى داخل هذا الحصن، ويحدث خللا في ترتيب الجينات بما يخالف الأوامر الصادرة من الخلية.. وحينها يقع الخطأ في نسخ المعلومات المُشَفَّرة في الحمض النووي، أو يقع خطأ في قراءة الشفرة الوراثية، سواء في مصنع البروتينات داخل الخلية، أو عند أي من أعضاء وأجهزة الجسم الخادمة لطلبات الخلايا، والمستقبلة للرسائل البروتينية المشفرة من قبل الخلايا.

قال التلميذ: فما نسبة حدوث الطفرات؟

قال الأستاذ: هي نسبة قليلة جدا.. فالطفرات نادرة الحدوث، فالتجارب التي أجراها [دي فريز] على نبات البازلاء، وجد فيها أن معدل التغيُّر 1 على 500، والتجارب التي أجراها [مورجان] على ذبابة الفاكهة وجد فيها أن معدل التغيُّر 1 على 100000.

قال التلميذ: ولكنك ذكرت عوامل كثيرة قد تتسبب في حدوث الطفرات.

قال الأستاذ: أجل.. ذكرت ذلك.. ولكنها تبقى عوامل نادرة جدا إذا ما قورنت بالسير العادي للنظام البيولوجي في الإنسان، إذ المُسَلَّم أن الإنسان يتعرض لقدر من الإشعاعات النووية الطبيعية، والتي يكون مصدرها غازي الرادوم وغاز الثورون المتواجدان في الغلاف الجوي، وفي التربة والأخشاب والصخور، خصوصا الرخام.

وفي الغالب فإن ما يتعرض له البشر من إشعاع طبيعي منبعث من هذه المصادر لا يتجاوز المعدل الطبيعي الذي يعتبر آمنا وهو 300 + ميليريم.. وهي نسبة لا تقوى على اختراق حصن الخلية والإضرار بنظامنا الجيني.

وقد ورد في دراسة أعدتها اللجنة الأمريكية للترتيبات النووية عن حقيقة التأثيرات البيلوجية للإشعاع أظهرت فيه أن 50 بالمائة من الإشعاعات التي يتعرض لها البشر هي من فعل البشر أنفسهم من خلال محطات الطاقة النووية، وأجهزة الكشف بالأشعة، والمعالجات النووية الطبية، وغيرها.. بينما تشكل

المصادر الطبيعية من الرادون والثورون 37 بالمائة فقط، ولا يشكل الإشعاع الوافد من الكون الخارجي سوى 2,5 بالمائة.. وهذه النسبة مساوية لما ينبعث من إشعاع من مركز الأرض.

قال تلميذ آخر: فهذه الدراسات تثبت إذن أن الكائنات الحية تتعرض لقدر من الإشعاعات المختلفة بشكل شبه دائم؟

قال الأستاذ: أجل.. لكن أغلبية الإشعاعات غير ضارة..

قال التلميذ: وهذا يعني أن بعضها قد يكون ضارا، ويؤثر على تركيبة الحمض النووي، وترتيب الأحماض الأمينية المركبة للبروتين.

قال الأستاذ: أجل.. ذلك صحيح.. وتلك العوارض السلبية تبقى متراكمة في النظام الجيني بالرغم من أنه يملك آلية معقدة جدا لإصلاح ما تفسده الطفرات الضارة.

قال التلميذ: فهل يؤثر تراكم هذه الطفرات في النظام الجيني على الأجيال القادمة؟

قال الأستاذ: أجل.. فللأسف تلك الطفرات تورث نقائص وعيوبا في الترتيبات الجينية، وهي تورث للأجيال القادمة.. مما يؤثر في مستقبلها.

قال التلميذ: فما تقول في دعوى التطوريين بأن الطفرات عامل إيجابي نشأ عنه تطور الكائنات الحية إلى ما نراه؟

قال الأستاذ: أنتم تريدون أن تقحموني فيما نهيتكم عنه.. فقد ذكرت لكم كل مرة بأنني باحث، ولست فيلسوفا.. لذلك أرجو أن تعفوني من أي سؤال قد يضعني في تلك المتاهات.

قال التلميذ: لا بأس أستاذنا.. نعلم ذلك.. ونعلم فوقه ما تعرضت له من متاعب بسبب أحاديثك في مثل هذه الأمور.. ولذلك سنعفيك من أي استنتاج قد يؤذيك.. لكنا مع ذلك لا نعفيك من أن تعطينا المعلومة الصحيحة.. ثم تدعنا نستنتج بعدها ما نشاء.

قال الأستاذ: لك ذلك.. فسل.. وسلوا ما بدا لكم.

قال التلميذ: هل يمكن اعتبار الطفـرات وسـائل لبنـاء تطـور جميل تقوم عليه الحياة؟

قـال الأسـتاذ: ذلـك مسـتحيل.. فـالطفرات عامـل تـدمير وانحراف جيـني في الكائنـات وليس عامـل تطـوير وارتقـاء.. ومـا يلحق الكائنات من ضرر وانحراف في شفرتها الوراثية خطير جـدا يهدد الكائنات في وجودها.. إذ من المعلـوم أن آثـار الطفـرات إن وقعت تتراكم في الجينات، وتـورث للأجيـال التاليـة.. ولـذلك فـإن مآل الكـائن الحي ـ حسـب هـذا الخيـار ـ هـو التقهقـر في سُـلَّم الترقي، وليس العكس.

قال التلميذ: هلا وضحت لنا أكثر.. فبعض أساتذتنا ذكر لنـا أن الحمض النووي، وما يقوم بـه من دور اسـتراتيجي في بنـاء وبقـاء الكائنات كان إغراء لا يقاوم للتطوريين.

قال الأستاذ: أجل.. ولكنهم غفلوا على حقيقة كبيرة، وهي أن الطفرات لا تضيف جينات جديدة، وإنمـا تعبث بـالتي هي موجـودة أصلا.. فمن المعلوم أن أنواع الكائنات الحية تختلف فيما بينهـا من حيث عددُ الجينات، وما يسمى بالخانات الجينية.

فعلى سـبيل المثـال لا الحصـر، فـإن عـدد القواعـد الجينيـة المزدوجة في كائن بسيط مثل الفأرة هـو 2600 مليـون، بينمـا لا يتعدى 100 مليـون في دودة الأرض.. وبالتـالي فـإن هـذه الـدودة تحتاج إلى 2500 مليون قاعدة جينية إضافية كي تصـل إلى طبقـة الفئران في سلم التطـور المفـترض.. فكيـف لهـا أن تحصـل على كل هذا العدد الهائل؟

قال التلميذ: هذا مستحيل.. وخاصة إذا أضـفنا إلى هـذا كـون الطفرات لا تضيف جينات جديدة كما ذكرت لنا.

قال الأسـتاذ: بالإضـافة إلى ذلـك كلـه، كيـف يمكن بواسـطة الطفرات العشوائية غير المنظمة، والتي تشق طريقها في مسـار مادي أعمى غير موجه .كما يصر الداروينيون الجدد ـ أن يبـني هـذا

النظام الجيني الذي حار في دقته وصرامته، وكماله العلماء..

قال التلميذ: أضف إلى ذلك ـ سيدي ـ أن الفأرة التي ضـربت لنـا مثـالا عنهـا ليست سـوى كـائن من بين آلاف الكائنات الثدييـة المعروفة.

قال الأستاذ: ولذلك.. فإن الاتجاه الذي تسـير فيـه الطفـرات هو عكس اتجاه نظرية التطور.. ذلك أنه من المسَلم أن الطفرات غالبيتها السـاحقة تكـون ضـارة أو محايـدة.. وأكـثر العلمـاء تفـاؤلا ذكــروا بــأن النســبة الضــارة والمــدمرة من الطفــرات بالنســبة للمحايدة أو النافعة هو 70 بالمائـة.. وهنـاك آخـرون زادوا النسـبة إلى ما يقرب من 99 بالمائـة.. أمـا عـالم الجينـات الشـهير [إكس ماجور] فقد ذكر بأن نسبة الطفرت الصحية لا تزيد عن واحــد في المليون.

وخير من كتب في هذا الموضوع هـو عـالم الجينـات المتمـيز [جون ستانفورد]، حيث وصل في أبحاثه العميقة إلى نتيجة مفادها أن النســل البشــري والحيــواني يتجــه نحــو الانحــدار، وليس نحــو الارتقــاء.. وذلــك بســبب مــا يــتراكم في الجينــوم البشــري من السـلبيات والنقـائص الـتي تــخَلفها الطفـرات المختلفـة، وتورثهـا الأجيال لبعضها البعض.

بل إنه في بعض كتبه قال: (تخيل وجود سجل يضم عشــرات الآلاف من صفحات التعليمات، بحيث تحدث تغييرات اعتباطية كل مرة يتم نسخ تلك التعليمات، مَن سيُبقي ثقته في تلك التعليمات؟ وكم من التغيـيرات سـيتطلب الأمــر قبـل أن يصـبح سـجل تلـك التعليمـات بـدون فائـدة؟ كم يتطلب من الـوقت كي يمسـي ذلـك السجل غير قـادر على إحـداث أيـة فعاليـة؟ إنهـا شـهادة في حـق طبيعة نظامنا الجيني الـذي أبقانـا أحيـاء على الـرغم من مسـتوى الاضمحلال الذي نتعرض له)

وقال الدكتور [ايـانتش]: (حـتى لـو أخـذنا بأضـعف مـدى في الطفرات، فإننا نتدهور بنسبة 1 إلى 5 بالمائة في كل جيل)

وقـال الـدكتور [كوندراشـوف]: (لا أحـد من علمـاء الجينـات

يشك في أن النسل البشري في انحدار)

بل إن الدكتور [كرو] عبر عن هذه الحقيقة بقوله: (إننا اليـوم أدنى رُقيا من إنسان الكهوف)

قال تلميذ آخر: لقد قرأنا ـ أستاذنا الكريم ــ عن بعض علمـاء الجينـات اعتبـاره أن احتمـال توقـع الارتقـاء، والتقـدم من خلال الطفرات يشبه باحتمال ازدياد فعالية محـرك السـيارة إذا أطلقت عليهـا النـار برصاصـة.. أو كمن يقـذف جهـاز التلفـاز التقليـدي بالحجـارة، ويتوقـع منـه أن يتحـول بسـبب ذلـك إلى تلفـاز بلازمـا مسطح.

ضـحكوا جميعـا.. ثم قـال الأسـتاذ: ولهـذا نـرى كبـار علمـاء الجينات يصرحون باستحالة اعتبـار الطفـرة وسـيلة للتطـور، فقـد قال [دايفيس وكينيون]: (لا يوجـد دليـل على أن الطفـرات تخلـق هياكل جديدة، وإنما دورها على وجه التحديد يظهر في تغيير ما هو موجود أصـلا).. وقـال: (إن الـزعم أن الطفـرات حـتى إلى جـانب الانتخاب الطـبيعي هي الأسـباب الجذريـة في وجـود 6 ملايين من أنـواع الكائنـات المختلفـة والمعقـدة بشـكل مـذهل هـو اسـتهزاء بـالمنطق، وإبطـال لقيمـة البرهـان، ورفض لأساسـيات علم فـرع الاحتمالات في الرياضيات)[1]

وقـــال [ســـورين لوفـــتراب] في كتابه [الداروينية تفنيد أسطورة]: (إن الطفرات الدقيقـة تحـدث بالفعـل، ولكن النظريـة التي تسند إليها التغيير الارتقائي إما أنها مفندة علمية أو أنهـا غـير قابلة للتفنيد العلمي، وبالتالي فهي من النظريات الماورائية.. هب أن لا أحـد ينفي أنـه من المؤسـف فعلا أن يصـبح فـرع كامـل من العلـوم مـدمنا على نظريـة باطلـة، ولكن هـذا مـا حـدث في علم الإحيـاء.. وأعتقـد أنـه سـيأتي اليـوم الـذي تصـنف فيـه أسـطورة الداروينية كأكبر خديعة في تاريخ العلوم، عندما يحـدث ذلـك كثـير سيستغربون ويقولون: كيف أمكن حدوث ذلك؟)

---

[1] () انظر كتاب: داروين كان مخطئا: دراسة في قانون الاحتمالات، الدكتور كـوهين، ص 81.

وقـال [مـايـر إيرنيست] في كتابه [الأنظمة وأصل الأنـواع]: (إنـه لمن دواعي السـذاجة أن يتخيـل أن هـذه الأنظمـة الدقيقـة التوازن، مثل الحواس(عين الفقاريات، أو ريش الطيـور) يمكن أن تتحسن عن طريق الطفرات الاعتباطية)[1]

وقال [بيير بول جراس] في كتابه [تطور الأنظمة الحية]: (ما هو جدوى طفراتهم الامتناهية إذا لم تنتج لنـا تطـورا ارتقائيـا؟ في المحصـلة فـإن الطفـرات في الباكتيريـا والفايروسـات هي محض تقلبات وراثية حول موقع وسـط، رجحـة ذات اليمين ورجحـة ذات اليسار ولكن بدون أثر تطوري نهائي)[2]

وقال [ستيفين جاي جولـد]: (لا يمكنـك الحصـول على أنـواع حيـة جديـدة (كائنـات نوعيـة) بواسـطة تطفـير الأنـواع. فـالطفرة ليست سببا للتغيير التطوري الارتقائي)

قال التلميذ: شكرا جزيلا أستاذنا الفاضل.. فقـد تـبين لنـا من خلال حـديثك العلمي هـذا أن الطفـرات الجينيـة لا يمكن أبـدا أن يعول عليهـا في الانتقـال من نـوع إلى نـوع آخـر، فهي قـد تحـدث بعض التغيـيرات في الكـائن الحي الواحـد.. وفي الغـالب الأغلب تكون هذه التغيـيرات ضـارة، بـل ومهلكـة بسـبب الفوضـى الـذي تحدثها في نظم الحمض النووي.

قال الأسـتاذ: أجـل.. فعمليـة انقـال نـوع إلى نـوع في اتجـاه ارتقـائي صـعودا من الأدنى إلى الأعلى تتطلب إضـافة سـيل من الجينات الجديدة، وكميـة هائلـة من المعلومـات الجينيـة الصـارمة والدقيقة بحيث لو كتبناها في سـجلات ورقيـة لاحتجنـا إلى البلايين من المجلدات في الكائن النـوعي الواحـد.. ومعلـوم مسـبقا ـ كما ذكـرت لكم ـــ أن الطفـرات لا تضـيف جينـات جديـدة، ذلـك أن الجينات هي بنك المعلومات، وبالتالي فهي لا تضيف معلومات من خارج نظام، فلا يوجد أي نسق ومسار بيلوجي ملاحـظ، بواسـطته يمكن إضافة المعلومات الجينية إلى الشفرة الوراثية للكائن الحي

1() الأنظمة وأصل الأنواع، ماير إيرنيست، ص 296.

2() تطور الأنظمة الحية، بيير بول جراس، ص 87:.

من خارج نظامه للحامض النووي.

قال التلميذ: هلا وضحت لنا هذا.

قال الأستاذ: لـو ألقينـا نظـرة خاطفـة على زعم الـداروينيين الجدد الذين يذهبون مع النظرية العتيقة المفترضة لكون الحيونات البرمائية أصلها أسماك، فكيف لبيض البرمائيات المـائع والسَّـلَوِي القشرة، والذي هو مُعَدٌّ للوضع والتفقيس في الماء، وإذا ما وضـع على الــبر جــف وتلاشــى، وبالتــالي تتعــرض البرمائيــات إلى الانقــراض.. فكيــف للطفــرات أن تحولــه من بيض مــائع رخَــوي القشرة إلى بيض قاسي القشـرة بحيث يتحمـل حـرارة الشـمس ويقاوم التبخر الداخلي؟

سكت قليلا، ثم قال: الأمر لا يتعلق بقشـرة الـبيض فحسـب، بل ذلك جانب واحد فقط من صفات فيسيلوجية رئيسية معقـدة لا بد من تجذيرها في نظـام الحمض النـووي، وكـل واحـدة من هـذه الصــفات الفيســلوجية تتطلب الملايين من الســنين بمقــاييس التطوريين كي تكون جاهزة.. فما بالك بسبع صـفات فيسـيولوجية معقــدة أخــرى، وإلا لن تتمكن البيضــة من التفقيس، ويتعــرض الحيوان البرمائي إلى الانقراض كنوع.

قال تلميذ آخـر: ولكنـا نـرى بعض أنصـار الداروينيـة الجديـدة يشـغعون القـول بـالطفرات بالانتخـاب الطـبيعي، زاعمين أن مـا تحدثه الطفرات من انحراف يتكفل به الانتخاب الطبيعي، ومفهوم البقاء للأقوى.

قال الأستاذ: هذا غير ممكن، ذلك أنه إذا كان لديك معلومات جينية مبعثرة غير منتظمة بسبب ما أصابها من طفـرات، فمن أين ستنتقي الطبيعة وتنتخب غير هذا الواقع الذي تسوده الفوضى في تـرتيب المعلومـات الجينيـة؟.. وإذا مـا أخـذت معلومـات مصـابة بفوضى الطفـرات فمـاذا بقي معـك غـير معلومـات مخربـة جينيـا وغير صالحة؟.. ففاقد الشيء لا يعطيه.

التكيف.. والقدرات التطورية:

بعد أن انتهى الأستاذ من حديثه مع الطلبة رحت أقترب منه، وأعرفه بنفسي، وأذكر له تخصصي، فأصابته دهشة، وقال لي: هل سمعت حديثي مع الطلبة.

قلت: أجل.. سمعته جميعا.

قال: أرجوك ألا تخبر أحدا بما سمعت.. فقد تعرضت لإساءات كثيرة بسبب مواقفي من نظرية التطور.. وقد هددت بالطرد من هذه المؤسسة لولا أنني قدمت تعهدا بألا أتحدث عما يسيء إليها.

قلت: ولكنك فعلت، وخالفت تعهدك.

قال: لست أدري.. كلما حاولت أن ألتزم بالتعهد أجدني أخالفه.. فمن الصعب أن ندرس شيئا لا نعتقده، أو نؤمن به.

قلت: فما الذي دعاك إلى هذا.. كان يمكنك أن تبحث عن عمل آخر.

قال: هذا هو تخصصي الذي أحببته، وعملت فيه جميع أبحاثي.. وكان الأجدر بمن يقف وراء هذه المؤسسات أن يتركوا الحرية للباحثين، لا أن يلزموهم بأي رؤية أيديولوجية.. إنهم يكررون بهذا ما فعله رجال الكنيسة أنفسهم عندما راحوا يحاصرون العلماء، ويطلبون منهم كتابة التعهدات.

قلت: فهل أنت وحدك في هذا؟

قال: نحن كثيرون جدا.. ويوشك أن يأتي اليوم الذي تنهار فيه هذه النظرية، وينهار معها كل ذلك البناء المادي الذي قام عليها.

قلت: فهلا ذكرت لي من العلماء من يقف معك في هذا.

قال: منهم [رانغانثان] الذي راح يسخر مما يذكره الداروينيون الجدد عند حديثهم عن الطفرات قائلا: (إن الطفرات صغيرة وعشوائية وضارة.. وهي تتسم بندرة حدوثها، وتتمثل أفضل الاحتمالات في كونها غير مؤثرة.. وتلمّح هذه السمات

الأربع إلى أن الطفرات لا يمكن أن تؤدي إلى أي تقدم على صعيد التطور.. ذلك أن حدوث تغير عشوائي في كـائن حي يتسـم بقـدر عال من التخصص، إما أن يكون غير مؤثر أو ضاراً)

ثم ضرب مثالا على ذلك بـالتغير العشـوائي في سـاعة اليـد، والذي (لا يمكن أن يحسـن أداء السـاعة، بـل أغلب الظن أن هـذا التغـير سيضـرّ بهـا أو لن يـؤثر فيهـا على أحسـن تقـدير).. ومثلـه (الزلزال الذي لا يطور المدينة، بل يجلب لها الدمار)

قلت: كلامه جيد ومنطقي.. فهل هناك غيره؟

قال: أجل.. فمنهم عالم التطور [وَرن ويفر]، فقـد علـق على التقرير الصادر عن لجنة التأثيرات الجينيـة للأشـعة الذريـة، والـتي شُـكلت لدراسـة الطفـرات الـتي يمكن أن تكـون قـد نتجت عن الأسـلحة النوويـة المسـتخدمة في الحـرب العالميـة الثانيـة قـائلاً: (سيتحير الكثـيرون من حقيقـة أن كـل الجينـات المعروفـة تقريبـاً التي أصابتها طفرة هي عبارة عن جينات ضـارة، فالنـاس يظنـون أن الطفرات تشكل جزءاً ضرورياً من عملية التطور، فكيف يمكن أن ينتج تأثير جيد (أي التطور إلى شكل أعلى من أشـكال الحيـاة) من طفرات كلها ضارة تقريبا؟)

قلت: دليله قوي جدا.. ومنطقي لا يمكن رفضه.

قال: ومثله قـال عـالم الوراثـة التطـوري [غـوردون تـايلور]: (من بين آلاف التجارب الراميـة إلى إنتـاج ذبـاب الفاكهـة الـتي تم إجراؤها في جميع أنحاء العالم لأكثر من خمسين سـنة، لم يلاحـظ أحدٌ أبداً ظهور نوع جديد متميز.. أو حتى إنزيم جديد)

قلت: لقد ذكر حجة قوية من الصعب دحضها.

قـال: ومثلـه قـال [مايكـل بيتمـان]: (لقـد قـام [مورغـان] و[غولدشـميدت] و[مـولر] وغـيرهم من علمـاء الوراثـة بتعـريض أجيال من ذباب الفاكهة لظـروف قاسـية من الحـرارة، والـبرودة، والإضـاءة، والظلام، والمعالجـة بـالمواد الكيماويـة والإشـعاع فنتج عن ذلك كله جميع أنواع الطفرات، ولكنها كانت كلها تقريباً تافهـة

أو مؤكدة الضرر.. هل هذا هو التطور الذي صنعه الإنسان؟ في الواقع لا، لأنه لا يوجد غير عدد قليل من الوحوش التي صنعها علماء الوراثة كان بإمكانه أن يصمد خارج القوارير الذي أنتج فيها.. وفي الواقع، إن هذه الطفرات إما أن يكون مصيرها الموت، أو العقم، أو العودة إلى طبيعتها الأصلية!)

قلت: هذه أمثلة قوية، كان يمكنها أن تكون كافية لدحض نظرية التطور.. لكن ما تقول في القدرات التطورية لبعض الكائنات في مواجهة المضادات الحيوية والمبيدات ونحوها؟

قال: لقد كتب بعض أصدقائي من علماء الحياة في مجلة المعرفة الأمريكية، وهي من المجلات الداعية للتطور يقول ـ جوابا على سؤالك هذا ـ: (كثير من البكتيريا كانت لديها معلومات وراثية للمقاومة قبل استخدام المضادات الحيوية التجارية.. ولا يعرف العلماء سبب وجود هذه المعلومات الوراثية، كما لا يعرفون لماذا تم الحفاظ عليها وإبقاؤها!)

قلت: كيف ذلك؟

قال: إن هناك غموضا كبيرا يكتنف معارفنا المرتبطة بالشفرات الوراثية، فهناك مناطق كاملة على الشريط الوراثي لم يقف العلماء على حقائقها بعد.. بل إن من العلماء من ذهب إلى أن الشفرات ليست خطية.. بل تحتوي على علاقات أعقد وأكثر تراكباً وخوارزميات ضغط وتشفير كأي كود برمجي متطور نعرفه.. ذلك لأن ثلاثة مليارات شفرة مثلاً كما في الإنسان: هو عدد صغير جداً مقارنةً بكل الوظائف المعقدة التي تتحكم في الجسد البشري.. وربما يفسر هذا سبب وجود بعض المناطق على الشريط الوراثي، والتي لا يعرف العلماء لها وظيفة حتى الآن.

قلت: أبهذا يمكن تفسير سر وجود البكتيريا المقاوِمة؟

قال: أجل.. ففي دراسة أُجريت عام 1986، تم العثور على جثث بعض البحّارة الذين أصابهم المرض وماتوا أثناء رحلة قطبية استكشافية عام 1845محفوظة في حالة تجمد، كما عُثر في أجسامهم على نوع من البكتيريا كان منتشراً في القرن التاسع

عشر.. وعندما أجريت على هذه البكتيريا فحوص معملية وُجِد أنها تحمل خواص مقاومة ضد كثير من المضادات الحيوية التي لم يتم إنتاجها إلا في القرن العشرين.

وقد قال عالِم الأحياء [فرانسيسكو أيالا]، وهو من دعاة التطور: (يبدو أن التنوعات الوراثية المطلوبة لاكتساب المناعة ضد أكثر أنواع المبيدات الحشرية، كانت موجودة لدى جميع الحشرات التي تعرضت للمركّبات الكيميائية التي صنعها الإنسان ضد الحشرات)

وقال العالِم [سكادينغ] في مقال له تحت عنوان [هل تشكل الأعضاء التي بلا وظيفة دليلاً على نظرية التطور؟]: (حيث إنه لا يمكن تحديد الأعضاء التي ليس لها وظيفة دون لبس، وحيث إن الطريقة التي يُبنى بها النقاش المستخدَم في هذا الموضوع ليست ذات قيمة علمياً، فأنا أخلص إلى أن الأعضاء الضامرة لا تشكل أي دليل لصالح نظرية التطور قطعاً)

وهو يشير بحديثه هذا إلى جانب مهم ينقض نظرية التطزر ويفضحها، وهو الأعضاء الزائدة بزعمهم، والتي ليس لها فائدة.. إذ ثبت مع الأيام ومع تطور العلم: أنها لها فوائد.

قلت: كيف ذلك؟.. هل ثبت هذا فعلا.. إن هذا لو حصل فلن يبقى لنظرية التطور أي إمكانية للصمود.

قال: لقد أصبح هذا من الحقائق الثابتة في الوقت الحالي.. فالزائدة الدودية التي اعتبرت سابقا من الأعضاء اللاوظيفية تعرف الآن بكونها (عضو لِمفاوي يحارب إصابات الجسم بالجراثيم)

وقد ورد في بعض المقالات العلمية: (تعد أعضاء وأنسجة الجسم الأخرى مثل غدة التيموس والكبد والطحال والزائدة الدودية ونخاع العظم ومجموعات الأنسجة اللمفاوية الصغيرة مثل اللوزتين في الحلق ورقع باير في الأمعاء الدقيقة جزءاً من الجهاز اللمفاوي.. فهذه الأعضاء تساعد الجسم على مقاومة العدوى)

وقال عالم الأحياء الشهير [إنـوس]: (للإنسـان زائـدة دوديـة، بينما هي لا توجد لدى أقربائه البعيـدين من فصـائل القـردة الـدنيا (الأقـدم تاريخيـاً).. ولكن الزائـدة الدوديـة تظهـر مـرة أخـرى بين ثـدييات من مـراتب أوطـأ، مثـل حيـوان الأبوسـوم.. فكيـف يمكن لمؤيدي نظرية التطور تفسير ذلك؟)

وقال أحد مشاهير دعـاة التطـور، وهـو [فرانـك سـالزبوري]: (إن عضواً معقد التركيب مثل العين قـد ظهـر أكـثر من مـرة: في الحبّـار والفقاريـات والمفصـليات على سـبيل المثـال.. إن من العسير التفكير في الكيفية التي ظهـر بهـا مثـل هـذا العضـو مـرة واحدة، فكيف بالتفكير في ظهوره كل هذا العدد من المرات، كمـا تقول النظريـة التركيبيـة الحديثـة؟.. إن التفكـير في هـذا يصـيبني بالدوار)

وقال الدكتور [مايكل دانتون]: (إن كل نوع من الأحيـاء يُعَـد ـ على المستوى الجزيئي ـ فريـداً ووحيـداً وغـير مرتبـط بوسـطاء.. ومن ثَم فقد عجزت الجزيئـات ــ شـأنها شـأن المتحجـرات ــ عن تقديم الوسطاء الذين يبحث عنهم علماء الأحياء من دعـاة التطـور منذ زمن طويل.. فعلى المستوى الجزيئي، لا يوجـد كـائن هـو جـد مشترك أعلى، أو كـائن بـدائي أو راقٍ مقارنـة بأقربائـه.. ولا يكـاد يوجد شك في أنه لو كان هذا الدليل الجزيئي متاحاً قبل قــرن من اليوم، فربما لم تكن فكرة التطـور العضـوي لتجـد أي قبـول على الإطلاق)

ويقول أحد مؤسسي الدارونية الحديثة، وهو [جـورج جـايلورد سيمبسون]: (لقد شوَّه هيغل المبـدأ النشـوئي الـذي تناولـه، فقـد ثبت اليوم علمياً بما لا يدع مجالاً للشك، أن الأجنة لا تمر بمراحــل ارتقاء الأجداد)، وهو يشير بذلك إلى فضـيحة رسـومات هيغـل عن الجنين البشري وظهور الخياشيم المزعومة لديه ومـروره بـأطوار الحيوانات.

قلت: لقد استوعبت كل ما ذكرت.. وأحسـبه كافيـا في نقض نظرية التطور من أساسها، لكني أريد أن أستفسـر منـك بالضـبط عمـا يحـدث في عـددٍ من البكتريـا لمقاومـة المضـادات الحيويـة،

ومثلها بعض الحشرات.

قال: عليك أن تعلم أولا أنه لا توجد بكتريا واحدة تحـولت إلى نوع آخر.. لا بالطفرات، ولا بغيرها.. وأما ما يحـدث بالضـبط، فهـو أن مناعـة البكتيريـا تحـدث بواسـطة آليـتين مختلفـتين، كلتيهمـا لا تشكلان دليلا على نظرية التطـور.. أولهمـا نقـل جينـات المقاومـة الموجودة فعليا في البكتيريا.. وثانيهما بناء مقاومة نتيجـة لفقـدان بيانات وراثية بسبب الطفرة.

قلت: فكيف يتم ذلك؟

قال: لقد وُهبت بعض الكائنات المجهرية جينـات تقـاوم هـذه المضـادات الحيويـة، ويمكن أن تتجسـد هـذه المقاومـة في حـل جزيء المضاد الحيـوي أو طـرده من الخليـة... وبإمكـان الكائنـات المالكة لهذه الجينات أن تنقلها إلى بكتيريا أخرى، وتجعلها مقاوِمة أيضا.. وعلى الرغم من أن آليات المقاومـة تتخصـص في مقاومـة مضاد حيـوي بعينـه، فـإن معظم البكتيريـا المسـببة للأمـراض قـد نجحت في تجميـع مجموعـات متعـددة من الجينـات ممـا أكسـبها مقاومة ضد تشكيلة متنوعة من المضادات الحيوية.

قلت: ألا يمكن اعتبار اكتساب البكتريا مقاومة ضد المضادات الحيوية على هذا النحو نوعا من التطور؟

قال: لا.. ذلـك مسـتحيل.. ذلـك أن التغيـيرات الوراثيـة الـتي يمكن أن توضـح النظريـة ينبغي ألا تضـيف معلومـات إلى جينـوم البكتـير فحسـب، بـل ينبغي أن تضـيف معلومـات جديـدة للكـون الحيوي، كما أن النقل الأفقي للجينات ينتشر فقط حـول الجينـات الموجودة فعليا في بعض الأنواع.

وانطلاقا من هذا، لا يمكننا أن نتحدث عن أي تطور هنا نتيجـة لعدم إنتاج معلومات وراثية جديدة؛ فالمعلومات الوراثية الموجودة فعلا تتناقلها البكتيريا فيما بينها فحسب..

ومثـل ذلـك النـوع الثـاني من المناعـة، والـذي حـدث نتيجـة طفرة، هو ليس مثالاً على التطور أيضا، حيث أن الكائن المجهـري

يستطيع أحيانا أن يكتسب مقاومة ضد المضاد الحيوي من خلال الاستبدال العشوائي لنكليوتيد وحيد... فالستربتومايسين الذي تم الإعلان عنه لأول مرة في سنة 1944، هو مضاد حيوي تستطيع البكتيريا أن تقاومه بتلك الطريقة. ولكن على الرغم من أن الطفرة التي تخضع لها البكتيريا أثناء العملية تفيد الكائن المجهري في وجود الستربتومايسين، فإنها لا تصلح لأن تكون نموذجا أوليا لنوع الطفرات التي تحتاجها النظرية الداروينية الجديدة. ذلك أن نوع الطفرة التي تمنح مقاومة ضد الستربتومايسين يتضح في الريبوسوم ويقوم بحل تكافئه الجزيئي مع جزيء المضاد الحيوي.

قلت: هلا وضحت لي هذا أكثر.

قال: إن هذا يُشبه اختلال العلاقة بين المفتاح والقفل، فالستربتومايسين، مثله مثل مفتاح ملائم لقفله تماما، يتعلق بريبوسوم البكتيريا بإحكام ويوقف نشاطه، وتقوم الطفرة، من ناحية أخرى، بحل الريبوسوم، وبالتالي تمنع الستربتومايسين من التعلق بالريبوسوم.. وعلى الرغم من أن ذلك يُفسَّر على أن البكتيريا تكتسب مناعة ضد الستربتومايسين، فإن هذه ليست فائدة للبكتيريا، بل هي بالأحرى خسارة لها.. فهذا التغيير في سطح ريبوسوم الكائن المجهري يمنع جزيء الستربتومايسين من التعلق بالريبوسوم وتأدية وظيفته كمضاد حيوي. وقد اتضح أن هذا التحلل هو فقدان للخصوصية، وبالتالي خسارة للمعلومات. والنقطة الأساسية هنا هي أن التطور لا يمكن أن يتحقق بواسطة طفرات من هذا النوع، مهما كان عددها. ذلك أن التطور لا يمكن أن يُبنى على تراكم طفرات لا تحقق شيئا سوى حل الخصوصية.

قلت: وعيت هذا.. فما تقول في المناعة التي تكتسبها الحشرات ضد المبيدات الحشرية؟

قال: نفس الشيء يقال هنا أيضا.. ففي معظم تلك الحالات، تُستخدم جينات المناعة الموجودة فعليا، وقد اعترف عالم الأحياء التطوري [فرانسسكو أيالا] بهذه الحقيقة، فقال: (يبدو أن الاختلافات الوراثية اللازمة لمقاومة أكثر أنواع المبيدات تنوعا كانت موجودة في كل مجموعة من مجموعات الكائنات التي

تعرضت لهذه المركبات التي صنعها الإنسان)

بالإضـافة إلى هـذا كلـه، فـإن بعض الأمثلـة الأخـرى الـتي تم تفسيرها بواسطة الطفرة، هي عبارة عن ظواهر تسبب عجزا في المعلومـات الوراثيـة الخاصـة بالحشـرات.. وفي هـذه الحالـة، لا يمكن الادعاء بأن آليات المناعـة في البكتيريـا والحشـرات تشـكل دليلا على نظرية التطور. ذلك أن هذه النظرية تسـتند إلى التأكيـد على أن الكائنات الحية تتطور من خلال الطفرات.

الحفريات.. وحقيقتها العلمية:

قال ذلك، ثم استأذنني في الذهاب بكل لطف وأدب، بعـد أن ألح علي أن تبقى أحاديثه بيننا، فوعدته بذلك، ولم أخبر أحدا بها إلا أنتم في هذا المجلس..

بعدها قررت أن أفند كل شبهة لي تتعلق بهذه النظريـة الـتي جعلتني أسيرا لهـا لسـنين طويلـة.. وكـان أول مـا قصـدته متحفـا طبيعيا يحوي صورا لحفريات كثيرة يزعم الداروينيون كل حين أنها تمثل التاريخ الحقيقي للحياة وتطورها.

في مــدخل المتحــف وجــدت رجلا يقــف أمامــه جمــع من الزائرين، وهو يقول لهم: لقد بدأت رحلة الحيـاة في التطـور منـذ أكثر من 3.5 مليار سنة.. وذلك بكائن ينقسم ذاتيا.. ثم تحـول إلى وحيد الخلية البسيط بروكريوتك.. ثم تحول إلى معقد يوكاريوتـك.. ثم تحول إلى عديد الخلايا.. ثم تحول إلى الاسـفنجيات.. ثم تحـول إلى الكائنات البحرية القديمة.. ثم تحـول إلى الأسـماك القديمـة.. ثم تحــول إلى البرمائيــات.. ثم تحــول إلى الزواحــف القديمــة ثم المتوسـطة فالحديثـة.. ثم تحـول إلى الثـدييات القديمـة.. ومنهـا ظهرت القـردة القديمـة.. ومنهـا تطـور الجـد المشـترك للإنسـان والقـردة من أقـل من 7مليـون سـنة.. ومنهـا مراحـل تطـور قبـل الإنسانيات من 4 مليون.. ومنهـا مراحـل الإنسـانيات القديمـة من أقل من 2.5 مليون سـنة حـتى الإنسـان الحـديث الـذي ظهـر من أقل من مائتي ألف سنة.

قال ذلك، ثم أشار إلى المتحف، وهـو يقـول: وسـتجدون هنـا

في هذا المتحف كل الحفريات التي تؤكد ذلك مع تـاريخ اكتشـافها ومكتشفها ومدى دلالتها على ما ذكرنا.

بعد ما انصرف الناس عنه إلى داخل المتحـف، اقـتربت منـه، وقلت: هل حقا يوجد في هذا المتحف كل ما ذكـرت؟.. هـل يوجـد فيه الأدلة على تاريخ الحياة وفق ما تنص على نظرية التطور؟

حدق في بعمق، ثم قال: من أنت أولا؟.. وهـل أنت من هـذه البلاد، أم من غيرها؟

عرفتـه بنفسـي، وببلـدي، فقـال: مرحبـا بـك.. أنـا أيضـا كنت أسكن في ذلك البلد.. وبما أننا من بلد واحد، فلا يحـق لي أن أكتم عنك الحقيقة التي أؤمن بها، والـتي يـدل عليهـا كـل شـيء، ولكن إياك أن تذكر لأحد من الناس أني ذكرت لك ذلك.. حينهـا سـأكون مهددا في وظيفتي.

قلت: لا تقلق.. فأنا لا يمكنني أن أفعل ذلك.. أريدك فقط أن تخبرني الحقيقة.

قـال: كـل مـا ذكرتـه نـوع من الإشـهار والدعايـة والتمثيـل الكاذب، والذي دُربنا عليه في مراكـز مختلفـة، لنجعـل من نظريـة التطور حقيقة لا يناقشـها أحـد، بينمـا هي في واقـع الحـال مجـرد ألغاز وتخمينات ليس هناك شيء يدل عليها.. بل كل شيء يفندها.

قلت: ولكن الناس سيكتشـفون عنـد دخـولهم للمتحـف هـذه الحقيقة.

قال: أكثر الناس يأتون سواحا لا متعلمين.. ولذلك لا يعملـون عقولهم، ويكتفون بمـا يـذكره لهم المرشـدون العلميـون الـذين لا يختلفون عن المرشدين السياحيين.

قلت: ولكن ما الذي يجعلك تقـف هـذا الموقـف السـلبي من هذه النظرية على الـرغم من أنـك تعمـل في متحـف من متاحفهـا الذي تعتبره دليلها الأول والأكبر.

قـال: عملي في هـذا المتحـف، ورؤيـتي للحقيقـة هـو الـذي

جعلني أقف منها هذا الموقف.. وقد كنت سابقا أؤمن بهـا، وأدافـع عنها، لكني عنـدما اكتشـفت ضـحالة الأدلـة الـتي تعتمـدها أنكرهـا عقلي إنكارا تاما.

قلت: فهلا ذكرت لي ما الذي جعلك تقف هذا الموقف.

قال[1]: وفقا لنظرية التطور فإن كـل نـوع حي قـد نشـأ من سـلف لـه، مثلمـا كنت أكـذب على النـاس المحيطين بي.. فهم يذكرون أنه وبمرور الوقت، تحـول النـوع الموجـود أصـلا إلى نـوع آخر، وبهذه الطريقة تكون كل الأنواع قـد دخلت إلى حـيز الوجـود تدريجيا خلال ملايين السـنين.. وهـذا يسـتدعي بالضـرورة العقليـة وجود العديد من الأنواع المتوسطة التي عاشت خلال هـذه الفـترة الانتقالية الطويلة.

قلت: ما تعني بقولك هذا؟

قال: إن نظرية التطور تستدعي وجود كائنـات يكـون نصـفها أسماكا، ونصـفها الآخـر زواحـف عاشـت في الماضـي، واكتسـبت بعضا من خواص الزواحـف، بالإضـافة إلى خـواص الأسـماك الـتي تتمتع بها فعليا.. وهكذا يفترض أن تكون قد عاشت بعض الزواحف الطيـور، الـتي اكتسـبت بعضـا من خـواص الطيـور بالإضـافة إلى خواص الزواحف التي تتمتع بها فعليـا.. لكنـا لا نجـد كـل ذلـك في الحفريات على الرغم من أن دعاة التطور يذكرون هـذه الكائنـات الخياليـة، ويؤمنـون بأنهـا عاشـت في الماضـي، باسـم [الأشـكال الانتقالية]

قلت: ولكن..

قاطعني، وقال: لا يمكنك أن تبرر عدم وجودها بأي مـبرر من تلك المبررات الخادعة التي يذكرها التطوريون.. ذلك أنه إذا كانت مثل هـذه الحيوانـات قـد عاشـت بالفعـل، فإنـه من المفـترض أن توجد منها الملايين، بل البلايين، من حيث العدد والتنوع.. ويفـترض وفقا لذلك أن تكون بقايا هذه الكائنات الغريبة موجودة في سـجل المتحجرات.. كما يفترض أن يكـون عـدد هـذه الأشـكال الانتقاليـة

[1] () انظر مقالا بعنوان: سجل المتحجرات يدحض نظرية التطور، هارون يحي.

أكبر بكثير من عدد الأنواع الحالية من الحيوانات.. كما يفترض أن توجد بقاياها في جميع أنحاء العالم.

قلت: ألا يوجد كل ما ذكرت؟

قال: طبعا لا يوجد.. وهذا غريب جدا، ويتناقض مع ما نص عليه داروين نفسه، فقد قال في كتابه [أصل الأنواع]: (إذا كانت نظريتي صحيحة، فمن المؤكد أن هناك أنواعا لا حصر لها من الأشكال المتوسطة قد عاشت في الماضي، إذ تربط هذه الأنواع معا كل الأنواع التابعة لنفس المجموعة برباط وثيق جدا.. وبالتالي، لا يمكن أن تتوفر أدلة على وجودها في الماضي إلا بين بقايا المتحجرات)

قلت: فهل كان داروين على دراية بغياب مثل هذه الأشكال الانتقالية؟

قال: أجل.. ولذلك كان يأمل في العثور عليها في المستقبل.. ولهذا اعتبر أن أكبر حجر عثرة في طريق نظريته هو هذه الأشكال الانتقالية المفقودة؛ وبناء على ذلك كتب في [أصل الأنواع] عند ذكره للتحديات التي تقف في وجه نظريته يقول: (إذا كانت الأنواع قد انحدرت من أنواع أخرى عن طريق التسلسل الدقيق، فلماذا ـ إذن ـ لا نرى في كل مكان أعدادا لا حصر لها من الأشكال الانتقالية؟.. لماذا لا تكون الطبيعة كلها في حالة اختلاط، بدلا من أن تكون الأنواع ـ كما نراها ـ محددة تحديدا واضحا؟.. ولكن، وفقا لما ورد في هذه النظرية، ينبغي أن يكون هناك عدد لانهائي من الأشكال الانتقالية. لماذا ـ إذن ـ لا نعثر عليها مطمورة بأعداد لا تعد ولا تحصى في قشرة الأرض؟.. لماذا لا نجد الآن في المنطقة المتوسطة، التي تتسم بظروف حياتية متوسطة، أنواعا متوسطة تربط بصفة دقيقة الأشكال البدائية بالأشكال المتقدمة؟.. لقد حيرتني هذه الصعوبة منذ فترة طويلة من الوقت)

قلت: لكن كيف راح يصرح بنظريته على الرغم من افتقادها للأدلة الكافية؟

قال: إنه حب السبق العلمي.. وهو لا يختلف عن السبق الصحفي.. والذي قد يكون معاكسا للمصداقية ومضادا لها.. فداروين بحكم الفترة التي عاش فيها أراد أن يخرج بجديد، فذكر ذلك، ثم طلب من الأجيال بعده أن تثبت ما ذهب إليه.

ولذلك، وتحسبا ـ لمواجهة الاعتراضات التي قد توجه له، وتطالبه بالدليل ـ راح يذكر بأن سجل المتحجرات الذي اكتشف في ذلك الوقت لم يكن كافيا، وأكد أنه عند دراسة سجل المتحجرات بالتفصيل سيتم اكتشاف الحلقات المفقودة.

ونتيجة إيمان دعاة التطور بنبوءة داروين فإنهم ما زالوا يفتشون عن المتحجرات، ويحفرون في كل بقاع الأرض منذ منتصف القرن التاسع عشر باحثين عن الحلقات المفقودة.

وعلى الرغم من جهودهم الحثيثة، لم تكتشف حتى الآن أية أشكال انتقالية.. بل أثبتت كل المتحجرات المكتشفة أثناء الحفر أنه ـ على عكس ما يعتقد دعاة التطور ــ فإن الحياة قد ظهرت على الأرض فجأة في تكوين كامل، وهكذا فإنهم بينما كانوا يحاولون أن يثبتوا نظريتهم، تسببوا ـ دون قصد ـ في انهيارها.

قلت: كيف ذلك.. أو ما تعني بذلك؟

قال: لقد اعترف عالم المتحجرات الإنكليزي المشهور [ديريك آجر] بهذه الحقيقة على الرغم من كونه أحد دعاة التطور قائلا: (تتمثل نقطة الخلاف في أننا إذا فحصنا سجل المتحجرات بالتفصيل، سواء على مستوى الترتيب أو الأنواع، فسنكتشف ـ مرارا وتكرارا ــ عدم وجود تطور تدريجي، بل انفجار فجائي لمجموعة واحدة على حساب الأخرى)

وهكذا ذكر داعية آخر من دعاة التطور، هو عالم المتحجرات [مارك سيزارنكي] ذلك، فقال: (إن المشكلة الأساسية في إثبات النظرية تكمن في سجل المتحجرات؛ أي آثار الأنواع المنقرضة المحفوظة في التكوينات الجغرافية للأرض. ولم يكشف هذا السجل قط أية آثار للأشكال المتوسطة التي افترضها دارون، وعوضا عن ذلك تظهر الأجناس وتختفي فجأة. ويدعم هذا الشذوذ

حجة دعاة الخلق القائلة بأن الأنواع قد خلقها الله)

قلت: ولكن ما هي الحجج التي يدلي بها دعاة نظرية التطـور بعد هذه الاعترافات؟

قال: لا شـيء.. وقـد أوضـح أسـتاذ علم المتحجـرات بجامعـة غلاسكو، [نيفيل جـورج] ذلـك، فقـال: (لا داعي للاعتـذار عن فقـر سجل المتحجرات؛ فقد أصبح هذا السجل غنيا لدرجـة يكـاد يتعـذر معها السيطرة عليه، وأصبح الاكتشاف فيه يسـبق التكامـل.. ومـع ذلـك، مـا زال سـجل المتحجـرات يتكـون بشـكل أساسـي من فجوات)

قلت: لقد ذكـرت لي بـأن سـجل الحفريـات يتنـاقض مـع مـا ذكره دعاة نظرية التطور.. فكيف ذلك؟

قال: عند دراسة طبقات الأرض وسجل المتحجرات، نجـد أن كل الكائنات الحية قد ظهـرت في وقت واحـد.. فأقـدم طبقـة من طبقات الأرض اكتشفت فيها متحجرات لكائنات حية هي تلك التي تكونت في العصر الكامبري، والتي يقـدر عمرهـا بنحـو خمسـمائة مليون سنة.

فقد ظهرت الكائنات الحية التي اكتشـفت في طبقـة العصـر الكـامبري فجـأة في سـجل المتحجـرات؛ أي ليس لهـا أسـلاف سابقون.. فمن المتحجرات التي اكتشفت في الصـخور الكامبريـة قواقـع وحيوانـات ثلاثيـات الفصـوص وإسـفنجيات وديـدانا أرضـية وأسماكا هلامية وقنافذ بحرية، وغيرها من اللافقاريـات المعقـدة.. وقد ظهر هذا الخليط الواسع من الكائنات الحية المكونة من مثـل هذا العديد الكبير من الكائنات المعقدة بشكل فجائي جـدا لدرجـة أن هذا الحدث المدهش يشار إليه في الأدبيات الجيولوجيـة باسـم [الانفجار الكامبري]

بالإضافة إلى ذلك كله، فإن معظم أشكال الحيـاة المكتشـفة في هــذه الطبقــة تتســم بنظم معقــدة الــتركيب مثــل العين، والخياشـيم، وأجهـزة الـدورة الدمويـة، والتركيبـات الفسـيولوجية المتقدمة التي لا تختلف عن نظيراتها الحديثة.

قلت: فهلا ضربت لي أمثلة على ذلك.

قال: من الأمثلة على ذلك اكتشاف عيون الحيوانات ثلاثية الفصوص الممشطة والمكونة من عدسات مزدوجة، وهي معقدة جدا، ومعجزة في التصميم.. وقد قال [ديفيد روب]، أستاذ الجيولوجيا عنها: (إن عيون ثلاثيات الفصوص تملك تصميما لا يستطيع الإتيان به سوى مهندس بصريات معاصر ذو قابليات كبيرة ومتدرب تدريبا جيدا)

ومن الأمثلة على ذلك، ظهور اللافقاريات المعقدة التركيب فجأة في شكل كامل ودون أي حلقة وصل أو شكل انتقالي يربط بينها وبين الكائنات وحيدة الخلية، والتي كانت تمثل ــ قبل اكتشاف اللافقاريات ــ الشكل الوحيد من أشكال الحياة على الأرض.

لقد قال [ريتشارد موناسترسكي]، المحرر في مجلة علوم الأرض التي تعتبر إحدى أشهر المطبوعات الخاصة بأدب التطور موضحا خطورة تلك الاكتشافات على نظرية التطور: (قبل نصف بليون سنة، ظهرت ـ فجأة ـ أشكال الحيوانات التي نراها اليوم، والتي تتسم بقدر لافت للنظر من التعقيد. وتعد هذه اللحظة، عند بداية العصر الكامبري للأرض بالضبط، أي قبل حوالي 550 مليون سنة، علامة على الانفجار التطوري الذي ملأ البحور بأول كائنات معقدة في العالم.. وكانت شعب الحيوانات الكبيرة التي نراها اليوم موجودة بالفعل في أوائل العصر الكامبري، وكانت تتميز عن بعضها البعض بنفس القدر الذي تتميز به عن بعضها البعض اليوم)

التفت إلي، وقال: فكيف أصبحت الأرض تفيض فجأة بمثل هذا العدد الكبير من أنواع الحيوانات؟.. وكيف يمكن أن تكون هذه الأنماط المتميزة من أنواع الأحياء قد ظهرت دون وجود سلف مشترك؟

قلت: حقا.. هذه تساؤلات مشروعة.

قال: لكنها ما زالت تبحث عن إجابة لدى دعاة التطور.. وقد

قـام عـالم الحيـوان [ريتشـارد دوكـنز] أحـد أكـبر أنصـار الفكـر التطـوري في العـالم، بـالتعليق على هـذه الحقيقـة الـتي تبطـل الجذور الأساسية لكل الحجج التي كـان يـدافع عنهـا بقولـه: (على سبيل المثال، تعتبر طبقات الصخور الكامبرية أقدم الطبقات التي وجدنا فيها معظم مجموعات اللافقاريات الأساسـية.. ولقـد عثرنـا على العديـد منهـا في شـكل متقـدم من التطـور في أول مـرة ظهرت فيها.. ويبدو الأمر وكأنهـا زرعت لتوهـا هنـاك دون أن تمـر بـأي تـاريخ تطـوري.. وغـني عن القـول أن مظهـر عمليـة الـزرع المفاجئ هذا قد أسعد المؤمنين بالخلق)

التفت إلي، وقال: انظر كيف اضطر [داوكنز] للاعـتراف بـأن الانفجار الكامبري دليل قوي على الخلق، لأن الخلـق هـو الوسـيلة الوحيدة لتفسير ظهور الحياة على الأرض في شكل كامل.

ومثله شـهد آخـر بقولـه: (إمـا أن تكـون الكائنـات الحيـة قـد ظهرت على وجه الأرض وهي كاملة التطور وإمـا أنهـا لم تظهـر.. وإذا لم تكن قد ظهـرت في شـكل كامـل التطـور، فلابـد أنهـا قـد تطورت من أنواع كانت موجودة من قبل عن طريق عمليـة تحـور ما.. وإذا كانت قد ظهرت في شكل كامل التطور، فلا بـد أنهـا قـد خلقت بالفعل بواسطة قوة قادرة على كل شيء)

بل إن داروين نفسه أدرك احتمـال حـدوث ذلـك عنـدما كتب يقول: (إذا كانت الأنواع الكثيرة، التي تنتمي إلى نفس الأجناس أو الفصائل، قد دبت فيها الحياة فجأة، فستمثل هذه الحقيقـة ضـربة قاتلـة لنظريـة انحـدار الأنـواع بـالتحور البطيء من خلال الانتقـاء الطبيعي)

وهكذا كـان العصـر الكـامبري هـو الضـربة القاتلـة لـدارون.. ولهـذا اعـترف عـالم المتحجـرات السويسـري التطـوري [سـتيفن بنغستون] بعدم وجود حلقات انتقالية أثناء وصفه للعصر الكامبري قائلا: (إن هذا الوضع الذي أربك داروين وأخجله ما زال يبهرنا)

***

بعد أن انتهى من حديثـه، ومن إلحاحـه علي أن أكتم عنـه مـا

ذكره لي، طلب مني أن أدخل إلى المتحف، وأخبرني أنه يوجد أصدقاء له فيه، كلهم يؤمنون بما يؤمن به، لكنهم يكتمون إيمانهم خشية على أنفسهم، وعلى وظائفهم.. ثم طلب مني أن أنتحي بهم جانبا، وأطلب منهم أن يذكروا لي الحقيقة التي يؤمنون بها.. لا التي يتحدثون بها إلى الناس..

وقد فعلت كل ما طلبه مني بدقة، واستفدت من ذلك كثيرا..

وكان أول فرع أدخله في ذلك المتحف الفرع المخصص للحفريات المرتبطة بالأسماك والحيوانات البحرية.. وقد قال لي المرشد الذي يعمل فيه، بعد أن انتحيت به جانبا، وطلبت منه أن يذكر لي الحقيقة التي يؤمن بها، لا التي يدعو إليها: يذكر التطورون أن اللافقاريات البحرية التي ظهرت في الطبقة الكامبرية قد تحولت بطريقة ما إلى أسماك خلال عشرات الملايين من السنين.. لكنا في الواقع لا نجد أي حلقات انتقالية تشير إلى حدوث تطور بين هذه اللافقاريات وبين الأسماك.. مثلما لا نجد أي أسلاف للافقاريات الكامبرية..

بالإضافة إلى ذلك، فإن هناك اختلافات تركيبية هائلة بين اللافقاريات والأسماك؛ إذ توجد الأنسجة الصلبة الخاصة باللافقاريات خارج أجسادها في حين تنتمي الأسماك إلى الفقاريات، وتوجد أنسجتها الصلبة داخلها.. ولا بد أن مثل هذا التطور الهائل قد استغرق بلايين الخطوات ليكتمل، ومن المفترض أن توجد بلايين الأشكال الانتقالية التي تصوره.

قلت: ولكن ربما لم يتم البحث جيدا في طبقات الأرض، ولو فعلوا لوجدوا تلك الأجناس الانتقالية.

قال: كيف تذكر أنهم لم يحفروا، وهم لم يدعوا مكانا إلا حفروه.. لقد أخذ دعاة التطور يحفرون في طبقات الأرض منذ 140 سنة بحثا عن هذه الأشكال الافتراضية.. وعثروا أثناءها على ملايين المتحجرات اللافقارية، وملايين المتحجرات السمكية؛ ولكن لم يعثر أحد أبدا ولو على متحجرة واحدة في حالة متوسطة بين الاثنين.

قلت: هل أنت متأكد مما تقول؟

قال: أجل.. بل إن دعاة التطور أنفسهم يذكرون هذا، ويقرون به، فقد اعترف عالم المتحجرات التطوري [جيرالد تود] بهذه الحقيقة في مقال علمي به بعنوان [تطور الرئة وأصل الأسماك العظمية]، فمما جاء فيه: (لقد ظهرت الأقسام الثلاثة الفرعية للأسماك العظمية في سجل المتحجرات لأول مرة في نفس الوقت تقريبا، وتختلف هذه الأسماك فعليا اختلافا واسعا عن بعضها البعض من الناحية الشكلية، كما أنها مصفحة بقوة.. فكيف ظهرت هذه الأسماك؟ وما الذي سمح لها بهذا الكم الواسع من الاختلاف؟ وكيف أصبحت جميعها مصفحة بقوة؟ ولماذا لا يوجد أي أثر لأشكال متوسطة بدائية؟)

قلت: فما تقول في سيناريو التطور الذي يحاول أن يبرهن على أن الأسماك قد تطورت من اللافقاريات، ثم تحولت إلى برمائيات؟

قال: نفس قولي السابق.. فكل هذه افتراضات وتخمينات وتخيلات ينقصها الدليل.. فلا يوجد متحجرة واحدة تؤكد وجود كائن نصفه سمكي ونصفه الآخر برمائي.. وقد قام أحد أشهر علماء التطور [روبرت كارول] مؤلف كتاب [متحجرات الفقاريات والتطور] بالاعتراف بهذه الحقيقة ببعض التردد، فقال: (ليست لدينا متحجرات متوسطة بين الأسماك الرايبدستية وبين البرمائيات الأولى)

وهكذا علق عالم المتحجرات التطوري [كولبرت] على الطوائف الثلاث الأساسية للبرمائيات وهي: الضفادع والسمندرات والسسيأتيات بقوله: (لا يوجد أي دليل على وجود أية برمائيات تعود إلى العصور القديمة وتجمع بين الصفات المتوقع وجودها في سلف واحد مشترك؛ إذ إن أقدم الأنواع المعروفة من الضفادع والسمندرات والسسيأتيات تشبه بدرجة كبيرة أسلافها الحية)

قلت: هذا قول المعاصرين من علماء التطور، فما كان قول السابقين منهم؟

قال: قبل نحو 50 سنة مضت، كان دعاة التطور يعتقدون أن مثل هذا الكائن موجود بالفعل.. وكانوا يتصورون أن الحفريات المرتبطة به ستكتشف قريبا، وقد تم تقديم سمكة تدعى [كولاكانث] التي قدر عمرها بنحو 410 ملايين سنة، بوصفها شكلا انتقاليا لديه رئة بدائية، ودماغ متطور، وجهاز هضمي، وجهاز للدورة الدموية جاهز للعمل على اليابسة، بل ولديه حتى آلية بدائية للمشي.. وقد تقبلت الأوساط العلمية هذه التفسيرات التشريحية بوصفها حقيقة لا جدال فيها حتى نهاية الثلاثينيات، وهكذا تم تقديم [الكولاكانث] باعتبارها شكلا انتقاليا حقيقيا يثبت حدوث التحول التطوري من الماء إلى اليابسة.

لكن حدث اكتشاف مثير جدا في المحيط الهندي سنة 1938؛ إذ تم اصطياد سمكة حية من فصيلة [الكولاكانث]، والتي قدمت في السابق بوصفها شكلا انتقاليا انقرض منذ سبعين مليون سنة مضت.. وقد كان ذلك بمثابة صدمة قاسية لدعاة التطور.. فقد قال عالم المتحجرات التطوري [ج. ل. سميث]: (إنه ما كان ليندهش أكثر لو أنه صادف ديناصورا حيا)

وفي الأعوام الآتية، تم في أحيان كثيرة اصطياد أكثر من مئتي سمكة [كولاكانث] في مختلف أرجاء العالم.

وهكذا كشفت أسماك الكولاكانث الحية مدى تمادي دعاة التطور في اختراع السيناريوهات الخيالية.. وعلى عكس ادعاءاتهم، فلم يكن لدى هذه الأسماك رئة بدائية ولا دماغ كبير، بل تبين أن العضو الذي اقترح دعاة التطور أنه رئة بدائية لم يكن أكثر من مجرد كيس دهني..

بالإضافة إلى ذلك كله، فإن سمكة الكولاكانث التي تم تقديمها باعتبارها مرشحة الزواحف التي تستعد للخروج من الماء إلى اليابسة لم تكن ـ في الواقع ـ أكثر من مجرد سمكة تعيش في أعماق المحيطات ولم تقترب قط بمسافة تقل عن 180 مترا من سطح الماء.

***

بعـد أن أدلى لي مرشـد ذلـك الجنـاح بكـل مـا لديـه من معلومـات حـول الحفريـات الموجـودة في القسـم المكلـف بـه.. سرت إلى قسـم آخـر، وهـو المخصـص للطيـور والثـدييات.. وقـد فعلت مع صاحبه المسؤول عنـه مثلمـا فعلت مـع زميلـه السـابق، حيث انتحيت به جانبا، وطلبت منه أن يذكر لي الحقيقة التي يؤمن بها، لا التي يدعو إليه، فقال لي: وفقا لنظرية التطور، فإن الحيـاة قد نشأت في البحر، ثم انتقلت إلى اليابسة بواسطة البرمائيـات.. ويقترح هذا السيناريو أيضا أن البرمائيات تطـورت إلى الزواحـف؛ أي إلى كائنات تعيش على اليابسة فقط.

قلت: أعلم كل هذا.. وهو من البديهيات في نظريـة التطـور.. لكن هل هناك من الحفريات ما يدل عليه؟

ابتسم، وقـال: لـو كـان هنـاك من الحفريـات مـا يـدل عليـه، لسمع به كل الناس حتى الصـبيان والرضـع.. ولكن لم يكن شـيء من ذلـك.. بـل إن ذلـك السـيناريو نفسـه لم يعـد مستسـاغا من الناحيـة العقليـة نظـرا للاختلافـات التركيبيـة الهائلـة بين هـاتين الطائفتين من الحيوانات.

فبيضة الحيوان البرمـائي ــ مثلا ــ مصـممة للنمـو في المـاء، بينما بيضة أي زاحف مصـممة للنمـو على اليابسـة، ومن ثم يعتـبر التطور التدريجي للبرمائيات أمرا محـالا، لأنـه بـدون بيضـة مثاليـة كاملة التصميم لا يمكن أن يكتب البقاء لأي نوع.

وفضـلا عن ذلـك، لا يوجـد أي دليـل على الأشـكال الانتقاليـة الـتي يفـترض أن تربـط البرمائيـات بـالزواحف.. وقـد شـهد بهـذا المدافعون عن نظرية التطور أنفسهم، فقد قال عالم المتحجرات التطوري [روبرت كـارول]: (الزواحـف الأولى كـانت مختلفـة جـدا عن البرمائيات ولم يتم العثور على أسلافها بعد)

بالإضافة إلى ذلك كله، فإن هناك مشكلة أكبر تعـترض دعـاة التطور، وهي في جعل هذه الكائنات تطير.. ذلك أنه بسبب كونهم يؤمنون بأن الطيور لا بد أنها قد تطورت بشكل ما، فإنهم يؤكـدون أنها تحولت من الزواحف.. ومع ذلك، لا توجد أية آليـة من الآليـات

المميزة للطيور التي تتصف بتركيب مختلف تماما عن حيوانات اليابسة يمكن تفسيرها عن طريق التطور التدريجي. فتشكل الأجنحة التي تعتبر الخاصية الاستثنائية للطيور مأزق كبير لدعاة التطور.

وقد اعترف أحد دعاة التطور، وهو [أنكين قورور] باستحالة تطور الأجنحة، فقال: (إن الخاصية المشتركة في العيون والأجنحة هي أنهما لا تؤديان وظائفهما إلا إذا اكتمل نموهما.. وبعبارة أخرى، لا يمكن لعين نصف نامية أن ترى؛ ولا يمكن لطائر أجنحته نصف مكتملة أن يطير.. وفيما يتعلق بالكيفية التي تكونت بها هذه الأعضاء، فإن الأمر ما زال يمثل أحد أسرار الطبيعة التي تحتاج إلى توضيح)

ومثل ذلك نرى أن الكيفية التي تكون بها هذا التركيب المثالي للأجنحة نتيجة طفرات عشوائية متلاحقة ما زالت تعتبر سؤالا محيرا يبحث عن إجابة؛ إذ لا توجد وسيلة لتفسير الكيفية التي تحولت من خلالها الأذرع الأمامية للزواحف إلى أجنحة تعمل على أكمل وجه نتيجة حدوث تشويه في أجنتها.

وفوق ذلك كله، لا يعد امتلاك الأجنحة أمرا كافيا لطيران الكائن البري؛ إذ تفتقر الكائنات البرية إلى العديد من الآليات التركيبية الأخرى التي تستخدمها الطيور في الطيران.

فعظام الطيور ـ مثلا ـ أخف بكثير من عظام الكائنات البرية، كما أن رئة الطيور تعمل بشكل مختلف تماما، وتتمتع الطيور بجهاز عضلي وعظمي مختلف، وكذلك بجهاز قلب ودورة دموية على درجة عالية من التخصص.

وتعتبر هذه الميزات متطلبات ضرورية للطيران يحتاجها الطائر بنفس احتياجه للأجنحة.. ولا بد أن تكون كل هذه الآليات قد نشأت معا وفي نفس الوقت؛ إذ من غير الممكن أن تكون قد تشكلت تدريجيا عن طريق التراكم.. ولهذا السبب، تعتبر النظرية التي تؤكد على تطور كائنات اليابسة إلى كائنات جوية نظرية مضللة تماما.

أردت أن أقاطعه، فقال: حتى لو افترضنا أن هذه القصة المستحيلة صحيحة ـ كما يدعي أنصار التطور ـ فإن التساؤل لا يزال قائما حول عدم العثور على أي متحجرات بنصف جناح أو بجناح واحد تدعم قصتهم؟

***

انتقلت إلى مرشد آخر، وتعاملت معه بنفس الطريقة التي تعاملت بها مع زميليه، فقال لي، وهو يشير إلى صورة لطائر سماه [الأركيوبتركس]: هذه صورة لطير منقرض من قبل 150 مليون سنة، وهو من أنواع الطيور ذوات الأسنان الذي يجمع بين صفات الزواحف وصفات الطيور، لذا فهو يعد من الحلقات المتوسطة بين طائفة الطيور والزواحف، وهو أول طير يظهر له ريش في جسمه.

أردت أن أقاطعه، فقال: قال: الأركيوبتركس هو أحد أشهر الأشكال الانتقالية المزعومة من بين القلة القليلة التي ما زال دعاة التطور يدافعون عنها.. وهم يذكرون أنه سلف الطيور الحديثة، ويذكرون أنه عاش قبل 150 مليون سنة.. ويذكرون أيضا أن بعضا من أنواع الديناصورات صغيرة الحجم التي يطلق عليها اسم الفيلوسيرابتور أو الدروميوصور قد تطور عن طريق اكتساب الأجنحة ثم ممارسة الطيران.. ومن ثم، يفترضون أن يكون الأركيوبتركس شكلا انتقاليا تحول عن الديناصور، وبدأ في الطيران لأول مرة.

ومع ذلك، فقد أشارت آخر الدراسات التي أجريت على متحجرات الأركيوبتركس إلى أن هذا المخلوق ليس شكلا انتقاليا أبدا، بل هو أحد أنواع الطيور التي تتسم ببعض الصفات المختلفة عن صفات طيور اليوم.

وحتى فترة قريبة، كانت الفرضية القائلة بأن الأركيوبتركس نصف طائر لا يجيد الطيران بشكل كامل فرضية تلقي شعبية كبيرة في أوساط دعاة التطور.. وقد رأى دعاة التطور أن عدم وجود عظمة القص أي عظمةالصدر في هذا المخلوق، أو على

الأقل عدم وجودها بالشكل الذي توجد بـه في الطيـور الـتي تجيـد الطـيران، يعتـبر أهم دليـل على أن هـذا الطـائر لم يكن يجيـد الطيران إجادة سليمة.

ومـع ذلـك كلـه، فقـد تسـببت المتحجـرة السـابعة لطـائر الأركيوبتركس التي عثر عليها سنة 1992 في إثارة قـدر كبـير من الـذهول بين دعـاة التطـور، ويرجـع السـبب في ذلـك إلى أن متحجرةالأركيوبتركس المكتشفة أخيرا قد وجدت فيها ـ بالفعـل ـ عظمة الصدر التي افترض دعـاة التطـور أنهـا مفقـودة منـذ فـترة طويلة. وقد وصفت مجلة الطبيعة هذه المتحجرة المكتشفة أخيرا كـالآتي: (تحتفـظ العينـة السـابعة المكتشـفة أخـيرا من طـائر الأركيوبتركس بقص شـبه مسـتطيل كـان يشـتبه في وجـوده منـذ فـترة طويلـة ولكن لم يتم على الإطلاق توثيقـه من قبـل. وتشـهد هذه العينة على قوة عضلات الطيران الخاصة بهذا الطائر)

وقد أبطل هذا الاكتشاف الدعامة الأساسية للمـزاعم القائلـة بأن الأركيوبتركس كان نصف طائر لا يجيد الطيران إجادة سليمة.. ومن ناحية أخرى، أصبح تركيب ريش هـذا الطـائر أحـد أهم الأدلـة الـتي تثبت أن الأركيوبـتركس كـان طـائرا قـادرا على الطـيران بـالمعنى الكامـل للكلمـة. إذ إن الـتركيب غـير المتناسـق لـريش الأركيوبتركس الذي لا يختلف عنه في الطيـور الحديثـة يشـير إلى أن هذا الحيوان يجيد الطيران إجادة كاملة.

***

بعد أن مررت على الكثير من المرشدين، الذين اتفقوا جميعا على وجود عدد لا حصر له من الحلقات المفقودة التي تجعـل من نظريـة التطـور مجـرد خيـال لا قيمـة علميـة لـه، قصـدت مـدير المتحـف، وقـد كنت أتصـوره حازمـا، ومن أنصـار التطـور، لكـني وجدتـه عكس ذلـك تمامـا، بـل وجدتـه يعـرف كـل مـا يمارسـه موظفوه، ويتستر عليهم.

عندما دخلت عليه، وعرفته بنفسي، ورحت أذكر لـه أبحـاثي، قال لي، وهو يبتسم: إلى متى يمكننا أن نظل نضـع هـذه النظريـة

المجنونة تحت رحمة أجهزة التنفس الاصطناعي.. إننا كل يوم نكتشف ما يدل على كونها مجرد حكايات عجائز، لا أحاديث علماء.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لن أكرر لك ما ذكره العلماء الذين رأيتهم، وحدثوك عن عقم هذه النظرية، وافتقارها إلى كل أصناف الأدلة، بل تهاويها كل حين أمام الضربات التي توجه لها عند اكتشف أي حفرية، أو تعقيد في الحياة.. ولكني سأكتفي بالحديث عن أمر منهجي خطير يمارسه الدعاة إلى هذه النظرية.. وهو تلك التأويلات الخادعة للمتحجرات.

قلت: كيف ذلك؟

قال: أنت تعلم أن هذه النظرية تعتمد الأسلوب الدعائي الذي بلغت قدرته إلى إقناع العامة بفكرة وجود كائنات نصفها قرد، ونصفها إنسان قد عاشت في الماضي.. وهذا الأسلوب يعمد إلى استخدام إعادة البناء فيما ينسبه إلى المتحجرات.

قلت: ما تعني بذلك؟

قال: أقصد بذلك ما يقومون به من رسم صورة لكائن حي، أو بناء نموذج له، استنادا إلى عظمة واحدة.. وفي بعض الأحيان إلى جزء من عظمة، تم استخراجها من باطن الأرض.

قلت: أكل ما نراه من الرجال القردة الذين نشاهدهم في الصحف والمجلات والأفلام من هذا النوع؟

قال: أجل.. هي كلها إعادة بناء مملوءة بالخيال والوهم.. ذلك أن المتحجرات عادة ما تكون ناقصة، وفي حالة من الفوضى، ولهذا فإن أي تصور يستند إليها يرجح أن يكون تخمينا محضا.

لقد ذكر [ديفيد بيلبيم]، وهو أحد علماء الأنثروبولوجيا من جامعة هارفارد هذت بقوله: (على الأقل في علم المتحجرات الذي هو ساحتي واختصاصي، فإن النظرية ــ أي نظرية التطور ـ

وضعت على أساس تأويلات معينة أكثر من وضعها على أساس من المعطيات والأدلة الفعلية)

بالإضافة إلى ذلك، فإن إعادة البناء القائمة على بقايا العظام لا يمكن أن تكشف سوى الصفات العامة جدا للجسم؛ لأن التفاصيل المميزة الحقيقية المتمثلة في الأنسجة اللينة تختفي بسرعة مع مرور الوقت.. وهكذا، فباستخدام التأويل التخميني للأنسجة اللينة تصبح الرسوم أو النماذج المعاد بناؤها معتمدة تماما على خيال الذي يعدها.

وقد ذكر [إيرنست هوتن]، من جامعة هارفرد، هذا التلاعب التأويلي، فقال: (إن محاولة إعادة بناء أو تركيب الأجزاء اللينة مهمة تحف بها المشاكل والمخاطر، ذلك لأن الشفاه والعيون والآذان وطرف الأنف.. لا تترك أية آثار على الأجزاء العظمية التي تكسوها.. ويمكنك أن تشكل بنفس السهولة من جمجمة شخص شبيه بالشخص النياندرتالي نموذجا بملامح شمبانزي أو بقسمات فيلسوف.. أما فيما يتعلق بإعادة البناء المزعومة لأنواع قديمة من البشر استنادا إلى بعض بقاياها، فإنها لا تحظى بأي قيمة علمية، وهي لا تستعمل إلا للتأثير على العامة وتضليلها، لذا لا يمكن الثقة بإعادة التركيب)

قلت: إن ما ذكرته يتأكد لو أننا وجدنا نماذج متعددة لإعادة بناء عظام واحدة.

قال: الأمر كما ذكرت.. فدعاة التطور ينسبون وجوها مختلفة لنفس الجمجمة.. ومن الأمثلة على ذلك الرسوم الثلاث المختلفة المعاد بناؤها لمتحجرة تدعى القرد الإفريقي الجنوبي القوي.

لم أجد ما أقول له، فقال: ليس الأمر قاصرا على ذلك.. فالتأويلات المتحيزة للمتحجرات، أو تلفيق العديد من إعادات البناء الخيالية تبدو بريئة إذا ما قورنت بأعمال التزييف المتعمدة التي ارتكبت في تاريخ التطور!

قلت: ما تعني؟

قـال: من الأمثلـة على ذلـك أنـه لا يوجـد أي دليـل دامـغ من المتحجرات يؤيد صورة الرجل القـرد، الـتي يتم تلقينهـا باسـتمرار في وسـائل الإعلام والـدوائر الأكاديميـة لـدعاة التطـور.. ذلـك أن دعاة التطور يمسكون فرشـاة الرسـم في أيـديهم، ويصـنعون بهـا مخلوقات خيالية، إلا أن حقيقة عدم وجود متحجرات مشابهة لهذه الرسوم تمثل مشكلة خطيرة بالنسبة لهم.

والأمـــر الأخطـــر من ذلـــك أنهم يلجـــأون أحيانـــا إلى صـــنع المتحجـرات الـتي لا يسـتطيعون العثـور عليهـا.. ومن أمثلـة ذلـك إنسان بيلتداون الذي يعد أكبر فضيحة في تاريخ العلم..

قلت: بنـاء على قولـك.. فإنـه لا يوجـد أي دليـل على تطـور الإنسان من قرد.

قال: أجل.. فلا توجـد أي آليـات في الطبيعـة يمكن أن تـؤدي إلى تطور الأحياء، فأنواع الأحياء لم تدخل حيز الوجود نتيجة عملية تطورية، بـل ظهـرت فجـأة في تركيبهـا المثـالي الحـالي؛ أي أنهـا خلقت ـ كل نوع منها ـ على حدة.. وهكذا فإن تطـور الإنسـان عن القردة أو غيرها مجرد أكذوبة.

قلت: ولكنهم يذكرون أنهم يعتمدون في ذلك على الكثير من المتحجرات.

قـال: لقـد كتب دعـاة التطـور سـيناريو تطـور الإنسـان عن طريق تنظيم بعض الجمـاجم الـتي تخـدم أغراضـهم بـالترتيب من الأصـــغر إلى الأكـــبر، وبعـــثرة جمـــاجم بعض الأجنـــاس البشـــرية المنقرضـة بينهـا.. وحسـبما ورد في هـذا السـيناريو فـإن للبشـر والقـردة الحديثـة أسـلافا مشـتركة، وقـد تطـورت هـذه الكائنـات بمرور الزمن، فصار بعضها قردة اليوم، في حين أصبحت مجموعة أخرى اتبعت فرعا آخر من فروع التطور إنسان اليوم.

غـــير أن جميـــع نتـــائج البحـــوث البالانتولوجيـــة، والتشـــريحية، والبيولوجية قد أظهرت أن هذا الادعاء التطوري يتسم ـ كغيره من الادعاءات الأخرى ــ بالخيـال والبطلان؛ إذ لم يتم تقـديم أيـة أدلـة سليمة أو حقيقية تثبت وجود قرابة بين الإنسـان والقـرد، اللهم إلا

التزييف والتشويه والرسوم والتعليقات المضللة.

بل إن سجل المتحجرات يثبت لنا على مر التاريخ أن الإنسان كان إنسانا، وأن القرد كان قردا.. أمـا بالنسـبة لبعض المتحجـرات التي يدعي دعاة التطور أنها أسلاف للإنسان، فإنهـا تخص أجناسـا بشرية قديمة عاشت حتى فترة قريبة جدا، قبل نحو عشــرة آلاف عام، ثم اختفت.

وفضلا عن ذلك، فإن العديد من المجتمعات البشرية التي مـا زالت تعيش بيننا اليوم تتسم بنفس الهيئة والصفات الجسدية التي تتسم بها الأجناس البشرية المنقرضة، الـتي يـدعي دعـاة التطـور أنها أسلاف الإنسان. وتعتبر كل هذه الأشـياء دليلا واضـحا على أن الإنسان لم يمر قط بأيـة عمليـة تطـور في أيـة فـترة من فـترات التاريخ.

وأهم من ذلك كله، هو وجود اختلافات تشريحية لا حصـر لهـا بين القردة والبشر، لا يعد أي منها من النوع الذي يمكن أن يظهـر من خلال عملية التطـور.. منهـا مثلا المشـي على قـدمين.. ومنهـا سعة الدماغ، والقدرة على الكلام، وغيرها كثير.

وقد صـرحت [إلين مورجـان]، وهي عالمـة باليوأنثروبولوجيـا ومن دعاة التطور، حول هذه المسألة بقولها: (هناك أربعـة أسـرار تعد من أبرز الأسرار التي تحيط بالبشر وهي: لمـاذا يمشـون على قـدمين؟.. لمـاذا فقـدوا فـراءهم؟.. لمـاذا أصـبحوا يملكـون هـذه الأدمغة الكبيرة؟.. لماذا تعلمـوا الكلام؟.. وتعـد الأجوبـة التقليديـة لهـذه الأسـئلة هي: نحن لا نعلم بعــد.. نحن لا نعلم بعــد.. نحن لا نعلم بعد. نحن لا نعلم بعد.. ويمكن أن تطول قائمة الأسئلة بشكل بارز دون أن تتأثر رتابة الأجوبة)

وهكذا نرى [اللورد سولي زوكرمان]، وهو أحـد أشـهر علمـاء المملكة المتحـدة وأكـثرهم احترامـا، وقـد درس ولسـنوات عـدة، سجل المتحجرات، وأجرى الكثير من الدراسات المفصلة، وقد تم تكريمه بإعطائه لقب لورد نظير إسهاماته في مجال العلوم.

وبما أن زوكرمان من دعاة التطور، فلا يمكن ـ إذن ــ اعتبـار

تعليقاته حول هذا الموضوع مجرد ملاحظات معاكسة متعمدة. ومع ذلك، فبعد سنين من إجراء البحوث على المتحجرات المتضمنة في سيناريو تطور الإنسان توصل إلى نتيجة تقضي بعدم وجود شجرة عائلة من هذا النوع في الحقيقة.

لقد وضع زوكرمان أيضا طيفا للعلوم يتسم بالإثارة، فقد قام بتشكيل طيف من العلوم يمتد من العلوم التي اعتبرها علمية إلى تلك التي اعتبرها غير علمية.. ووفقا لطيف زوكرمان: (تتمثل أكثر العلوم علمية، أي تلك التي تعتمد على معلومات ملموسة، في علوم الكيمياء والفيزياء، تليهما علوم الأحياء، ثم العلوم الاجتماعية. وعلى الطرف الآخر من الطيف ــ وهو الجزء الذي يضم أكثر العلوم ابتعادا عن الصفة العلمية ــ يوجد الإدراك غير المعتمد على الحواس، وهو يتمثل في مفاهيم مثل التخاطر والحاسة السادسة، وأخيرا يجيء تطور الإنسان)

وقد شرح زوكرمان منطقه هذا قائلا: (وننطلق ــ إذن ــ من سجل الحقيقة الموضوعية إلى المجالات التي من المفترض أنها تتبع علم الأحياء، مثل الإدراك غير المعتمد على الحواس أو تفسير تاريخ متحجرات الإنسان، حيث يصبح كل شيء ممكنا بالنسبة للمؤمن، وحيث يكون المؤمن الغيور أحيانا قادرا على تصديق عدة أشياء متناقضة في نفج الوقت)

التطور.. والجينات المتقاربة:

خرجت من المتحف، وقصدت مركزا آخر، خاصا بالأبحاث المرتبطة بنظرية التطور، كان اسمه [مركز أبحاث الجينات المتقاربة]، وقد شاء الله أن يكون سببا في رفع آخر شبهة في نفسي كانت بمثابة القشة التي تعلقت بها لتظل على إيمانها بنظرية التطور.

في أحد المخابر الموجودة في ذلك المركز، التقيت بعض الباحثين الكبار، ورحت أسأله قائلا: بما أنك تعمل في هذا المركز، فلابد أن تكون عارفا بمدى الشبه بين جينوم البشر وجينوم القردة.. فقد ذكر لي أن نسبة التقارب وصلت إلى حد 99

بالمائة.. فهل هذا صحيح من الناحية العلمية؟.. وهل في حال صحته يمكن الاستدلال به على نظرية التطور؟

قال: سؤالك من شقين.. أما الشق الأول.. وهو عن نسبة التقارب.. فذلك مما تتبناه كثير من المصادر التي تتبنى نظرية التطور، فهي تنشر كل حين ادعاءها بأن البشر والقردة يشتركون في 99 في المائة من معلوماتهم الوراثية.. وهي تركز بشكل خاص على الشمبانزيات، باعتبارها أقرب القردة إلى الإنسان.

ولهذا يمكننا أن نقرأ في كل أدبية من أدبيات التطور جملا مثل (نحن نتطابق مع الشمبانزيات بنسبة 99 في المائة) أو (لا يوجد إلا واحد في المائة من جزيء (د ن أ) يجعلنا بشرا)

قلت: فما مدى صحة هذا من الناحية العلمية؟

قال: من الصعب الجزم بهذا، ذلك أنه لا توجد مقارنة حاسمة بين جينوم البشر والشمبانزيات.. وقد كشفت إحدى الدراسات التي أجريت عام 2002، أن الدعاية التي ينشرها أنصار التطور حول هذا الموضوع زائفة تماما.. ذلك أن البشر والشمبانزيات لا يتشابهان بتلك النسبة، وإنما بنسبة أقل من 95 بالمائة.. وقد جاء في بعض الأخبار الصحفية تحت عنوان [البشر والشمبانزيات أكثر اختلافا مما نعتقد]: (وفقا لدراسة وراثية جديدة، تبين أن الاختلافات بين الشمبانزي والإنسان أكثر مما كنا نعتقد في الماضي، فلطالما اعتقد علماء الأحياء أن جينات الشمبانزيات والبشر متطابقة بنسبة 98.5 في المائة تقريبا. ولكن [روي بريتن]، عالم الأحياء في معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا، ذكر في دراسة نشرت هذا الأسبوع أن هناك طريقة جديدة لمقارنة الجينات أظهرت أن التشابه الوراثي بين الإنسان والشمبانزي لا يتعدى نسبة 95 في المائة تقريبا.. وقد استند بريتن في دراسته تلك إلى برنامج كمبيوتر قارن من خلاله 780.000 زوج من بين الثلاثة بلايين زوج الأساسية الموجودة في حلزون جزيء (د ن أ) البشري بتلك الخاصة بالشمبانزي. واكتشف فروقا أكثر من تلك التي اكتشفها الباحثون السابقون، واستخلص أن 3.9 في المائة على الأقل من أزواج جزيء (د ن أ) الأساسية مختلفة.. ودعاه

ذلك إلى الاستنتاج بوجود اختلاف وراثي جوهري بين النوعين يبلـغ 5 في المائة)

وهكذا ورد في مجلة نيو ساينتسـت، إحـدى المجلات العلميـة الرائدة الداعمة بقوة للداروينية، فقد نشرت حـول هـذا الموضـوع مقالـــة بعنـــوان [الاختلاف بين جـــزيء (د ن أ) في الإنســـان والشمبانزي يزداد ثلاثة أضعاف]، جاء فيها: (نحن أكـثر تفـردا ممـا اعتقدنا في السـابق، وذلـك وفقـا لمقارنـات جديـدة أجـريت على جزيء (د ن أ) في الإنسان والشمبانزي. فلطالما كان هناك اعتقاد بأننا نشـترك في 98.5 في المائـة من مادتنـا الوراثيـة مـع أقـرب أقربائنا. ولكن يبدو الآن أن هـذا خطـأ. وفي الواقـع، نحن نشـترك في أقل من 95 في المائة من مادتنا الوراثية مع الشمبانزي، وهو ما يعني أن التغاير بيننا وبين الشمبانزيات ازداد ثلاثة أضعاف)

قلت: ولكن مع ذلك فنسبة التقارب حتى لو كانت كما ذكروا، أي 95 بالمائــة، فهي نســبة محترمــة، وقــد تبقى دليلا لنظريــة التطور.

قـال: ذلـك مسـتحيل من الناحيـة العلميـة.. فجـزيء (د ن أ) البشري مشابه أيضـا لنظـيره في الديـدان، والبعـوض، والـدجاج.. وعلاوة على ذلــك، فــإن البروتينــات الأساســية هي عبــارة عن جزيئات حيوية شائعة لا توجد فقط في الشمبانزيات، بل إنها توجد أيضــا في كائنـات حيـة كثـيرة مختلفـة كـل الاختلاف عن بعضـها البعض.. كما أن تركيب البروتينات في كل هذه الأنواع مشابه جـدا لتركيب البروتين البشري.

ومن الأمثلـة على ذلـك أن التحاليـل الوراثيـة المنشـورة في مجلة [نيو ساينتست] كشفت عن وجود تشـابه بنسـبة 75 بالمائـة بين جزيء (د ن أ) في الديـدان الخيطيـة وفي الإنسـان.. وذلـك لا يعـني بـالقطع أن الاختلاف بين الإنسـان وهـذه الديـدان يبلـغ 25 بالمائة فقط.

ومن ناحيـة أخـرى، ذُكـر في اكتشـاف آخـر، ظهـر أيضـا في وسـائل الإعلام، أن المقارنـات الـتي أجـريت بين جينـات ذبـاب

الفاكهة المنتمي إلى جنس الدروسوفيلا وجينـات الإنسـان أثمـرت عن وجود تشابه بينهما بنسبة 60 بالمائة.

وعند دراسة كائنات حية أخرى غير الإنسان، يتضح عدم وجود أي علاقة جزيئية كتلك التي يدعيها أنصار التطور.. وهذا يــدل على أن مبدأ التشابه ليس دليلا على التطور.

قلت: فما السبب إذن في هذه النسب العالية للتشابه؟

قال: السبب بسيط، وهو التصميم المشترك للكائنات الحية.. فهو يدل على أن صانعها واحد..

قلت: ما تعني بذلك؟

قال: من الطبيعي أن يكون في الجسم البشـري بعض أوجـه الشبه الجزيئي بالكائنـات الحيـة الأخـرى؛ لأنهـا جميعـا مكونـة من نفس الجزيئـات، وكلهـا تسـتخدم نفس الميـاه والهـواء، وكلهـا تستهلك أطعمة مكونة من نفس الجزيئات.. ولا ريب في أن يكون أيضها، وبالتالي تكوينها الجيـني، متشـابها. ومـع ذلـك، لا يعـد ذلـك دليلا على أنها تطورت من سلف مشترك.

ذلـك أن هـذه المـادة المشـتركة ليسـت نتاجـا لتطـور، بـل لتصميم مشترك، أي، لكونها خُلقت وفقا لنفس الخطة.

قلت: هلا وضحت لي هذا أكثر.

قال: لك ذلك.. ألا ترى أنه تستخدم كل الإنشاءات في العالم بمواد متشابهة من قرميد، وحديد، وإسمنت، وغيرها.. ومع ذلك، لا يعني ذلك أن تلك المباني تطورت من بعضها البعض.. فقد أُنشـئ كل منها بشكل منفصل باستخدام مـواد بنـاء مشـتركة.. وهـذا مـا ينطبق بالضبط على الكائنات الحية أيضا.

قلت: وعيت هذا.. ومثالك واضح جدا.

قـال: ومـع ذلـك، لا يمكن بـالطبع مقارنـة الـتركيب المعقـد للكائنات الحية بذلك الموجود في أنواع الأبنية..

قلت: فما السبب الذي جعل الكثير من العلماء يتشـبثون إلى هذه الدرجة بهذه النظرية؟.. ولماذا ظلوا يبذلون قصـارى جهـدهم للإبقاء على حياتها؟

قال: الإجابة الوحيدة على ذلك هي خوفهم من الحقيقة الـتي سيضطرون إلى مواجهتها في حال تخليهم عن نظرية التطور.

قلت: فما هي هذه الحقيقة التي يخافون منها؟

قـال: هي [اللـه].. هم يخـافون إن تركـوا هـذه النظريـة أن يضطروا إلى الاعتراف بالله، والإيمان بـه.. وذلـك مـا يقـوض كـل فلسفاتهم وأفكارهم وتصوراتهم للكون والحياة.

***

سرت بعدها في أرجاء تلك المدينة، وفـوجئت بمركـز إعلامي كبـير، كتب عليـه [المركـز الإعلامي لأبحـاث التطـور].. وعنـدما دخلت، وسألت بعض العاملين فيه عنه، وعن غرضه قال لي: هــذا المركـز، ومـا فيـه من وسـائل متطـورة وسـيلة من وسـائل نشـر نظرية التطـور.. بـل هـو وسـيلتها الكـبرى.. فـالكثير من النـدوات والمؤتمرات تعقد هنـا، ويسـجل كـل مـا يحصـل لتنشـره القنـوات الفضائية العالمية.

قلت: ولم كل ذلك؟

قال: لنشر هذه النظرية.. فلذلك إذا تأملنا وسائل الإعلام في بلادنا، فإننـا نجـد أنهـا لا تكـاد تخلـو من أخبـار عن هـذه النظريـة، فالمنظمـات الإعلاميـة الرائـدة والمجلات الشـهيرة الموثـوق بهـا تنشـر موضـوعات بشـكل دوري حولهـا.. وهي تطرحهـا كحقيقـة علميـة ثابتـة بصـورة قاطعـة، ممـا لا يفسـح مجـالا لأي نقـاش أو جدال.

ولهذا كثيرا ما نـرى عنـاوين بـارزة تحتـل مسـاحة كبـيرة في وسائل الإعلام تردد كل حين أمثال هذه العبارات: (نقلا عن مجلـة تـايم: العثـور على متحجـرة جديـدة تسـد الفجـوة في سلسـلة المتحجـرات.. أو تشـير مجلـة الطبيعـة إلى أن العلمـاء قـد ألقـوا

الضوء على آخر وأحدث ما وصلوا إليه في نظرية التطور)

وقد كان لهذا التلقين والفرض من التأثير والفعالية ما جعل نظرية التطور تتحول بمرور الأيام إلى ما يشبه العقيدة، وأصبح ينظر إلى إنكار نظرية التطور باعتباره معارضة لمعطيات العلم وإغفالا للحقائق العلمية الثابتة.

***

بعد أن سمعت هذا وغيره مما حدثتكم عنه رحت أنظف عقلي من كل علم لا دليل عليه.. رحت أنظفه من كل علم فرضه الإعلام، أو فرضته الجامعات، أو فرضته تلك الأصنام التي وضعت في هالة من القداسة، لا يسمح لأحد بالاقتراب منها أو نقدها.

وعندما فعلت ذلك.. عندما وضعت في سلة المهملات علوما كثيرة كانت مجرد أوهام.. أصبحت أشعر بعوز كبير للعلم الحقيقي.. العلم الذي لا تمحوه الأيام، ولا تكذبه الحقائق..

وقد كان أول علم رحت أبحث عنه هو الإجابة عن تلك التساؤلات التي كنت أهيل عليها كل ألوان الغفلة والدجل.. وهي السؤال عن حقيقتي.. وحقيقة الكون.. وحقيقة الحياة.. وحقيقة ذلك النظام البديع الذي يحكم كل شيء.

وقد جعلتني تلك الأسئلة أطالع كتبا كثيرة، وألاقي ناسا كثيرين.. بل أتعلم علوما كثيرة، لا لأكسب بها مالا أو جاها.. وإنما لأعرف بها الحقيقة المجردة عن كل هوى.

وعندما علم الله صدقي أرسل لي معلم الإيمان.. وبواسطته تحولت من الإنسان الطيني المستغرق في عالم الجسد.. المتثاقل إلى الأرض.. إلى الإنسان السماوي الممتلئ بالروحانية.

وقد عرفت حين وصلت إلى ذلك كله مدى العناية الإلهية التي نقلتني من طور الغفلة إلى طور الذكر.. ومن طور الذكر إلى طور الحضور.. ومن طور الحضور إلى طور المشاهدة.

الغريزة.. والإلهام

بعد أن انتهى الخامس من حديثه، قال السادس، وهــو يلتفت لي: أظن أن الدور وصل لي.. ولهذا سأحدثك بحديثي الذي لا يقل جمالا عن حديث زملائي، بل قد يفوقهم جميعـا، فسـترى فيـه من بدائع الصنعة الإلهية ما يملؤك بالعجب.

ولا تخــف.. فلن أحــدثك في حــديثي هــذا عن دقــائق علــوم الحياة، ومصطلحاتها وتعقيداتها، بل سأذكر لك أشياء بسيطة يراها الكثير من الناس.. ويمكنهم التعبير عنها.. ولكن الفلسفات المادية راحت تعبث بها كما عبثت بغيرها من الحقائق لتصرفها عن الله.

قلت: ما تعني؟

قــال: مــا دام أصــحابي قــد حــدثوك عن الصــدفة والخلــق.. والتطــور والعلم.. والعشــوائية والتصــميم.. والصــراع والســلم.. والتكيف والعناية.. فلن أكرر ما ذكروا، بــل سيقتصــر حــديثي على الغريزة والإلهام.. ذلك أن حكـايتي معهمـا هي مفتـاح هـدايتي إلى الله، وسبب تخلصي من كل الخرافات التطورية الـتي كنت أتعلـق بها.

قلت: فما تعني بـالغريزة.. ومـا تعـني بالإلهـام.. ومـا الفـرق بينهما؟

قال: الغريزة ـ كما يتصور الماديون ـ تنبـع من ذات الشـيء.. أي أن الكــائن الحي لوحــده اســتطاع أن يملــك تلــك القــدرات العظيمـة الـتي تيسـر لـه حياتـه.. بينمـا الإلهـام يعـني وجـود جهـة خارجية تهدي الكائن لما ينفعه.

قلت: لعلك تقصد ما ورد في قولـه تعـالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِـذِي مِنَ الْجِبَـالِ بُيُوتًـا وَمِنَ الشَّـجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُـونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَـرَاتِ فَاسْـلُكِي سُـبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْـرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُـهُ فِيـهِ شِـفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69)﴾ [النحل: 68، 69]

قال: أجل.. فالله تعالى يخبر في هاتين الآيتين الكريمتين أنـه أوحى إلى النحل، وألهمها بما عليها فعلـه، لتخـدم نفسـها، وتخـدم المحتاجين إلى عسلها، فمـا يمكن لعقلهـا البسـيط أن يـدرك كـل ذلك من دون إلهام وهداية إلهية.

قلت: فهلم حدثني بحديثك.. فلا شك في كونه ممتعا.

***

اعتدل صاحبنا السادس في جلسته، وحمد اللـه، وصـلى على نبيه ﷺ.. ثم قال: تبدأ قصتي من طفولتي حيث كنت حينهـا لا أزال أدرس في المدرسة الإعدادية، وكان لنا حينها أستاذ يدرسنا علــوم الحياة، وكان عاشقا لداروين ونظريته لدرجة الهيام.. وكان يحـدثنا عنهما كل حين بإعجاب شديد..

لكنه وفي ذلك اليوم.. وفي حديقة الحيوان الـتي ذهبنـا إليهـا في رحلة مدرسية.. وبعد أن عـاين مـا عـاين من سـلوكات غريبـة للحيوانــات المختلفــة.. راح يتملص من تلــك النظريــة العــاجزة، ويحاول أن يفـر منهـا، بـل وصـل بـه الأمـر في الأخـير إلى درجـة التبرئ منها ومن صاحبها.

بعـد أن دخلنـا الحديقـة، كلفت إدارتهـا بعض الخـبراء بعـالم الحيوانــات أن يصــحبنا فيهــا، ويعرفنــا بالحيوانــات المختلفــة، وسلوكها.. وقد اختارته عمدا ليخاطب من هو في مثل سننا.

في مـدخل الحديقـة، سـأل بعض التلاميـذ عن سـر الحيـاة ومبدئها وتنوعها، فقال الأستاذ: كما ذكرت لكم مـرات كثـيرة فـإن قصـة الحيـاة تبـدأ بعـدما بـردت الارض وتكـونت بحارهـا وجبالهـا وسهولها وغلافها الجوى واستعدت لاسـتقبال الحيـاة عليهـا، وذلـك بعد تعرضها خلال ملايين السنين للتطور من حال إلى حال.. وكان أول ظهـور للحيـاة على الأرض فـوق سـطح المـاء والمحيطـات والمسـتنقعات وعلى شـواطئ المسـطحات المائيـة الـتى تكـونت عندها مادة الطين، حيث اختلط الماء بالتراب.

ومن عفن الطين المنتن نشأت أبسـط وأصـغر أنـواع الحيـاة

التى نراها ممثلة في بعض أنواع البكتيريا، وبعض الكائنات وحيدة الخلية التى لم تتميز بعد على أنها نبات أو حيوان.. ومن هذا الأصل المشترك لجميع الكائنات نبت فرعان من الخلايا المجهرية تولد من أحدهما النبات، ومن الآخر الحيوان.

وبعد زمن طويل مضى على هذه الخلايا، وهى تنمو وتتطور نشأت كائنات كثيرة لا عدد لها.. وهي التي سنرى بعضها هنا في هذه الحديقة.

قال تلميذ آخر: هذا تفسيرك للحياة.. فما تفسيرك لهذه السلوكات العجيبة التي تبديها الحيوانات.. بل حتى النباتات؟

قال الأستاذ: إنها الغريزة.. فالغريزة هي التفسير العلمي لتلك السلوكيات.. إنها التفسير الصحيح لقابلية الحيوان للقيام بسلوك معين منذ الولادة.

قال التلميذ: فكيف اكتسبت الحيوانات هذه الغريزة؟.. وكيف كان ظهور أول سلوك غريزي لديها؟.. وكيف تم انتقال هذه الغريزة كابراً عن كابر؟

سكت الأستاذ قليلا، ثم قال: هناك أجوبة كثيرة عن هذا قد لا يطيق عقلكم الصغير الإجابة عنها..

قال التلميذ: أخبرنا فقط.. فلعلنا نطيق فهمها.

قال الأستاذ: هي أجوبة.. ولكنها تكاد تكون أسئلة هي الأخرى، لا أجوبة.. فكل سؤال منها سيستدعي أسئلة أخرى.. ولو بقينا هنا إلى آخر الدهر مع مثل هذه الأسئلة، فلن نخرج أبدا.

ثم أضاف: هناك اختصاصي في علم الجينات، وأحد أصحابنا من دعاة نظرية التطور، كتب كتابا سماه [سر التطور العظيم] ذكر فيه صعوبة الإجابة عن التساؤلات الخاصة بالغريزة، فقال:(لو تساءلنا عن كيفية ظهور أول سلوك غريزي، وعن كيفية توارث هذا السلوك الغريزي لما وجدنا أية إجابة)

وهناك آخرون من أصحابنا يؤمنون بنظرية التطور، أجابوا

على ذلك بكـون الغرائـز تعتـبر جينـات موجـودة لـدى الحيوانـات، تظهر على شكل أنماط سلوكية، واستناداً إلى هذا التعريـف يقـوم نحل العسل ببناء الخلية على الشكل المنتظم المعـروف بوحـدات بنائية هندسية مسدسة وفق الغريزة الحيوانية، وبمعنى آخر يوجــد جين خاص في أجسام كل أنواع نحـل العسـل يجعـل هـذه الأنـواع تبني خلاياها غريزياً وفق الشكل المعروف.

قال التلميذ: وهل تؤمن أنت بهذا؟

قال الأستاذ: لقد ذكرت لك أن هذا نفسه سيحتاج إلى أسـئلة جديدة، بل أسـئلة كثـيرة.. أولهـا سـتقول لي: لـو كـانت الكائنـات الحيـة مبرمجـة على أن تسـلك هـذا السـلوك المعين فمن الـذي برمج هذا السلوك؟.. أنا أعلم أنـه لا يوجـد أي برنـامج مـبرمج من تلقاء نفسه.. وأنه لا بد لكل برنامج من مبرمج.

قال التلميذ: نعم.. كنت سأسألك هذه الأسـئلة.. فمـا الإجابـة التي أعددتها لها؟

قال الأستاذ: لقد وفر أصحابنا العنـاء على أنفسـهم.. فـذكروا إجابة ربما ستستدعي منك أسئلة أخرى.

قال التلميذ: فما قالوا؟

قال الأستاذ: هم يقولون.. أو بالأحرى نحن نقول بأن الطبيعة الأم ــ الـتي تتشـكل من البحـيرات والجبـال والأشـجار والظـواهر المختلفة ـ لها القـدرة على الخلـق، إنهـا بـديل علمي منطقي عن الخالق..

قال التلميذ: إن الطبيعة كيان متعدد الأنواع.. فـأي نـوع منهـا لديه القدرة على إكساب الحيوانـات المختلفـة أنماطهـا السـلوكية المختلفة؟

قال الأستاذ: كنت أعلم أنك ستسأل هذا السؤال.

قـال التلميـذ: لسـت أنـا وحـدي الـذي يسـأله.. بـل أظن أن الجميع يسأله..

حينها تدخل المرشد، وقال: إن عقولنا جميعا تحتاج إلى إجابة منطقية على هذا السؤال.. فالطبيعـة تتـألف من الحجـر والـتراب والأشجار والنباتات.. فمن من هذه العناصر تكون لـه القـدرة على إكسـاب الكائنـات الحيـة هـذا السـلوك المـبرمج؟.. وأي جـزء من الطبيعة لديه القدرة والعقل على فعل ذلك؟

هل ترى أنه يمكن للإنسان العاقل أن يقول، وهو يـرى لوحـة زيتية جميلة:(مـا أحلى الأصـباغ الـتي رسـمت هـذه اللوحـة)؟.. بلا شك فإن كلامه لن يكون منطقيا.. إذن فإن ادعـاء كـون المخلـوق خالقاً للأشياء هو بلا شك ادعاء غير منطقي.

ثم قـال موجهـا كلامـه للأسـتاذ: أنـا أعـرف الكثـير من دعـاة نظرية التطور، أو دعاة التفسير المادي للحياة، فهم يـزورون هـذه الحديقة كثيرا، ويرون السـلوكات الغريبـة الـتي تبـديها الكثـير من الحيوانـات، وعنـدما أسـألهم عن تفسـيرها لا يجيبـون بشـيء، بـل يذكرون أن نظريـة التطـور تعجـز عن التفسـير المنطقي للحيـاة، ولسلوك الحياة..

لقد سمعت بعضهم.. وهو من كبارهم.. يقول ــ وهـو يتحـدث عن سـلوك دودة القــز ــ لعلــك تعرفــه.. إنــه [هيرمــان فــون ديثفـورت].. لقـد سـمعته يقـول:(إن فكـرة اتخـاذ الأوراق الثابتـة المتعددة كوسيلة للتمويه فكرة باهرة، ترى من يكون صاحب هذه الفكرة؟ من صاحب هـذه الفكـرة الذكيـة الـتي تقلـل من احتمـال عثـور الطـير على الفريسـة الـتي يبحث عنهـا؟ ولا بـد للـدودة أن تكون قد تعلمت بالوراثة من صاحب هذه الفكرة الذكية.. كل هذه الظواهر لا بد أن تتوفر لـدى إنسـان ذكي للغايـة يحـاول أن يظـل على قيد الحياة، ولا بد لنا أن نقبل بهذه الحقيقة، علمـاً أن لـدودة القز جهازاً عصبياً بسيطاً للغاية فضلاً عن بدائية سـلوكها الحيـاتي، وتفتقـر هـذه الـدودة إلى القـدرة على قابليـة تحديـد هـدف معين والتحرك باتجاه هذا الهدف)

ثم يتساءل متعجبا:(ولكن كيف يتسنى لهذه الدودة أن تخترع هذه الوسيلة للدفاع عن نفسها، وهي بهذا الضـعف من التكـوين؟. وعندما جابه علماء الطبيعة الأقدمون مثل هذه الظواهر لم يجـدوا

لها تفسيراً إلا بالمعجزة؛ أي تبنوا فكرة وجود قوة غير طبيعية خلاقة، أي أنهم آمنوا بوجود الله الذي يعطي مخلوقاته آليات معينة للدفاع عن النفس. وبالنسبة إلى هذه الطريقة في التفكير تعتبر بمثابة انتحار لعالم أو باحث في الطبيعة، ومن جانب آخر يقوم العلم الحديث بتفسير هذه الظواهر تفسيراً خالياً من أي معنى عبر التمسك بمفهوم الغريزة، لأنه على عكس ما يعتقده أغلبنا، فإن تفسير السلوك بالغريزة يعني اكتساب الحيوان لهذه الأنماط السلوكية بالولادة، وهذا التفسير لا يقدم ولا يؤخر في تساؤلنا بل يعيق بحثنا عن إجابة محدودة وواضحة، ولا يمكن الحديث عن السلوك العقلاني لدودة القز التي تفتقد وجود مثل هذا العقل)

ثم قال:(هناك تفسير وحيد لظاهرة رعاية الكائنات الحية غير العاقلة لصغارها بهذه الشفقة والحنان وذودها عنها، وهو انقيادها للإلهام الإلهي، ومثال على ذلك هذا الطائر الغطاس الذي يرعى صغيره بوحي إلهام إلهي.)

التفت للأستاذ، وقال: هذا الكلام يقوله هذا المتبني لنظرية التطور، وهو يحلل أو يحاول أن يصل إلى تحليل منطقي لسلوك دودة القز، هذا السلوك العقلاني المدروس.

أنت لا ترى في إجابته ـ كما في كل الكتب والإصدارات التي تصدرها هذه النظرية ـ إلا أسئلة بدون ردود واضحة، أو تناقضات فكرية لا تؤدي إلا إلى طريق مسدود.

حتى صاحب النظرية تشارلز داروين قد اعترف بهذه الحقيقة، فذكر أن سلوك الحيوانات وغرائزها تشكل تهديداً واضحاً لصحة نظريته.. لقد ذكر ذلك في كتابه (أصل الأنواع) عدة مرات وبصورة واضحة لا لبس فيها.. اسمع ما يقول مثلا:(أغلب الغرائز تمتاز بتأثير بالغ، وتثير درجة كبيرة من الحيرة، وكيفية نشوئها وتطورها ربما تبدو لقارئ نظريتي كافية لهدم نظريتي من الأساس)

أما نجل تشارلز داروين المدعو فرانسيس داروين، فقد قام

بتحليل وشرح رسائل أبيه في كتابه [الحياة ورسائل تشارلز داروين]، وذكر فيه مدى الصعوبات التي واجهها داروين في تفسيره للغرائز قائلاً في الكتاب، يعني [أصل الأنواع]:(وفي الباب الثالث منه يتحدث في القسم الأول عن العادات الحيوانية والغرائز والاختلاف الحاصل فيها، والسبب في إدخال هذا الموضوع في بداية الباب تشريد فكر القراء عن إمكانية رفضهم لفكرة تطور الغرائز بالانتخاب الطبيعي، ويعتبر باب الغرائز من أصعب المواضيع التي احتواها كتاب (أصل الأنواع)

قال الأستاذ: لداروين ولنجل داروين أن يقولا ما يشاءان.. ولكن النظرية لا تقتصر عليهما.. نعم ربما تكون قد بدأت منهما، لكنها لم تنته عندهما.. بالإضافة إلى هذا، فإن لدينا الجواب على ما طرحته من تساؤلات، فنحن نعتقد أن الحيوانات تكسب أنماطاً سلوكية عن طريق التجربة، ويتم انتقاء الأقوى بواسطة الانتخاب الطبيعي، وفي مرحلة لاحقة يتم توارث هذه الأنماط السلوكية الناجحة عبر الأجيال المتعاقبة.

ابتسم المرشد، وقال: كلامك هذا يحوي معنين.. ثانيهما يبنى على أولهما.. ففسر لي أولهما، لأبين لك وجهة نظري حوله.

قال الأستاذ: المقدمة الأولى التي تعتمد عليها نظريتنا لتفسير الغرائز هي ما نسميه (الانتخاب الطبيعي).. إنه الحجر الأساس لنظرية التطور.

قال المرشد: فما تعنون بالانتخاب الطبيعي؟

قال الأستاذ: هو يعني بكل بساطة اختيار أي تغيير مفيد وصالح للكائن الحي (قد يكون هذا التغيير هيكلياً أو سلوكياً)، ثم اختيار ذلك الكائن الحي لتوريث ذلك التغيير للأجيال اللاحقة.

قال المرشد: فأنت بقولك هذا تجعل الطبيعة هي المحك لتمييز المفيد من الضار، وأنها القوة المؤثرة والعاقلة في الوجود.

قال الأستاذ: أجل.. قولي يستلزم ما ذكرته.

قال المرشد: ولكن، أنت ترى أنه لا يوجد في الطبيعة من

يميز بين الضار والمفيد كقوة مؤثرة حيث لا يوجـد بين الحيوانـات أو غير الحيوانات ذاك الذي يملك قرار ذلك أو القابليـة على اتخـاذ هذا القرار.

لقـد اعـترف داروين نفسـه باسـتحالة اكتسـاب السـلوكيات المفيـدة عن طريـق الانتخـاب الطـبيعي إلا أنـه يعـود ويـدافع عن وجهة نظره الـتي هي محض خيـال واسـتمر في الـدفاع عن رأيـه على الرغم من كونه هـذراً وغـير منطقي حيث يقـول:(في النهايـة يمكن اعتبار أنّ الغرائز التي تجعـل زغلـول الحمـام يطـرد إخوانـه غير الأشقاء من العش، وتجعـل مملكـة النحـل مقسـمة إلى خـدم وملكة ليست غرائز موهوبة أو مخلوقة بل تفاصـيل حيـة وصـغيرة لدستور عام لعالم الأحياء، وهذه التفاصيل الصـغيرة تتـولى مهمـة التكثير والتغيير عبر انتقاء الأصلح من الأضعف. ولكن هذا الاعتبـار لا يبدو لي منطقياً ولكنه قريب إلى الأفكار التي تدور في مخيلتي)

هذه هي المقدمة الأولى.. وذاك ما يبين تهافتها، فما المقدمة الثانية؟

قال الأستاذ: أنا لم أسـلم لـك بكـل مـا ذكرتـه في الـرد على المقدمـة الأولى.. ومـع ذلـك، فالمقدمـة الثانيـة هي أنـا نـرى أن السلوكيات المفيدة والمنتخبة عبر الانتخـاب الطـبيعي يتم توارثهـا عبر الأجيال.

قال المرشد: هل حقا بقي من العلماء من يقول هذا.. إن أي عقل يعلم أن أي سلوك جديد يكتسبه الحيوان عن طريق التجربـة لا يمكن توريثـه لجيـل لاحـق بـأي حـال من الأحـوال، لأن التجربـة المكتسبة تخص ذاك الجيل وحـده، ولا يمكن إدخـال هـذه التجربـة السلوكية الجديدة المكتسبة في البناء الجيني للحيوان إطلاقاً.

فـالمعروف علميـا أن الجينـات مسـؤولة فقـط عن بنـاء البروتينات حيث يتم بناؤهـا أكـثر من إفـراز بعض الهرمونـات لتتم السيطرة على سلوك الكائن الحي بصورة عامة.

فمثلا يكـون الحيـوان نشـيطاً أو بـالعكس خـاملاً أو أن يكـون الوليـد أكـثر ارتباطـاً بأمـه، ولكن لا يوجـد أي دليـل يثبت تـوارث

السلوك الخاص الذي يجعل الحيوان يبني عشه بالترتيب والتزامن والانتظام المعروف.

ولو كان الأمر كذلك، فإن هذا يستدعي البحث عن الوحدات الوراثية المسؤولة عن عملية التوريث؟ لأن هناك فرضيات تثبت وجودها، ولم يستطع أحد الإجابة عن هذا السؤال.

التفت إلى الأستاذ، ثم قال: إن الادعاء بكون الأنماط قابلة للتوارث أمر غير مقبول علمياً، فبناء الطيور لأعشاشها وإنشاء القندس للسدود وإفراز عاملات نحل العسل للشمع يقتضي وجود نوع من الأنماط السلوكية المعقدة، كالتصميم والتخطيط للمستقبل، وهذه لا يمكن توارثها عبر الأجيال.

دعنا من كل هذا.. هناك مثال آخر يفرض نفسه بشدة.. وهو المتعلق بسلوك العاملات القاصرات في مملكة النمل.

فهذه العاملات لها سلوك خاص تتميز به يتطلب منها أن تكون على دراية تامة بالحساب وذات خبرة واسعة، قد ترجع الأمر إلى الوراثة.. ولكنك تصطدم بأن هذه الأنماط السلوكية لعاملات النمل لا يمكن أن تكتسب بالتوارث لسبب وحيد هو كونها قاصرات، ولا يمكن لها التكاثر لذا لا تستطيع توريث هذه الأنماط السلوكية لأجيال لاحقة.

وما دام الأمر بهذه الصورة كيف تسنى لأول نملة عاملة قاصرة أن تورث هذه الأنماط السلوكية لأجيال لاحقة من العاملات القاصرات وهي بالتأكيد لا تستطيع التكاثر؟

ولا يمكننا القول بأن هذه المخلوقات قد بذلت جهداً في اكتساب هذه الأنماط السلوكية لأنها تبدأ في اتباع هذا السلوك منذ اللحظات الأولى لوجودها على وجه الأرض بأكمل صورة.

ولا تصادف في أي طور من أطوار حياتها أية مرحلة للتعليم وجميع سلوكها مكتسب بالفطرة، وهذا الأمر جائز مع جميع الكائنات الحية. إذن فمن الذي علم الكائنات الحية تلك الأنماط السلوكية؟

فلـو افترضـنا أن النملـة العاملـة أو أيـة حشـرة أخـرى قـد اكتسبت جميع صفاتها المتميزة عبر الانتخـاب الطـبيعي وبالتـدرج، أي افترضنا أنها عملية انتخاب للصفات الصالحة ثم يتمّ توريثها بعد ذلك إلى أجيال لاحقة وبصورة متعاقبة وفي كـل مـرة يتم انتخـاب صـفات مفيـدة تـورث إلى جيـل لاحـق وهكـذا، لـو افترضـنا ذلـك لأصبحت فرضيتنا مستحيلة لسـبب وحيـد هـو عـدم تشـابه النملـة العاملة مع أبويها إلى حد كبير إضافة إلى كونها عقيمة، ولهذا فهي لا تستطيع توريث الصفات والأنماط السلوكية الجديـدة المكتسـبة إلى الأجيال اللاحقة. وهنا يطرح السؤال نفسه: كيف يمكن تفسير هذه الحالة بواسطة الانتخاب الطبيعي؟

ألا يتبين لك من خلال هذا استحالة تفسير الأنمـاط السـلوكية المحـيرة لهـذه الكائنـات الحيـة بواسـطة نظريـة التطـور، بسـبب بسيط، وهو أن هذه الأنماط السـلوكية لم تكتسـب عـبر الانتخـاب الطبيعي، ولا يمكن توريثها بالتالي إلى أجيال لاحقة.

سكت قليلا، ثم قال: والأمر الأخطر من ذلك كله هــو زعمكم بأن الغرائز تتطور بتطور الأحياء، فأنتم تزعمون بـأن الكائنـات قـد نشأت عن بعضها البعض عبر التطور.

ووفقاً لهذه النظرية تكون الزواحف قد نشأت من الأســماك، والطيور من الزواحف.. مع أن النوع الواحد يختلف تماماً من حيث السلوك، حيث تختلف السمكة عن الزواحف اختلافاً كلياً.

لم يجد أستاذنا ما يجيب به، لكنـه راح يمسـك بطنـه، ويقـول مخاطبا المرشد: أظن أن مغصا أصابني.. لقد تعـودت أن يصـيبني مثله.. لـذلك أرجـو أن تتجـول بالتلاميـذ في الحديقـة، ودعـني هنـا أنتظركم.

حيوانات برية:

كان ذلك فرصة عظيمة لنـا حينهـا لتكـون لنـا الحريـة في أن نسأل المرشد عن أي شيء يخطر ببالنا، وبكل حرية.. وقد كان له من دماثة الأخلاق ما جعلنا جميعا نتعلق به.

قال لنا، وهو يتجول بنا في أرجـاء الحديقة[1]: ستكتشـفون ـ أبنـائي ــ في هـذه الجولـة البسـيطة بعض الممـيزات الخارقـة للكائنـات الحيـة الموجـودة في محيطنـا، وسـتتعلمون من خلالهـا الخصائص المدهشة والطريفة عند هذه الكائنات..

وسترون كيف خلق الله تعالى في المخلوقـات المختلفـة مـا تتميز به من خصائص مدهشة وخارقة لتمارس حياتهـا بكـل راحـة واستقرار.. لكن، تأكدوا أن ما سترونه ليس سوى بعض الحيوانات فقط، إذ يوجد ما لا يحصى ولا يعد من أنواع الحيوانات الأخرى.

والله تعالى يريد منا عند اكتشافنا خصائص هذه الحيوانات أن نفكر في قدرته اللامحـدودة وإبداعـه المـدهش، وأن نعي أن اللـه خالق كل شـيء، كمـا علينـا أن نشـكر اللـه تعـالى ــ ونحن نتمتـع بالنظر إلى مخلوقاته ـ على هذا الجمال اللامحـدود الـذي نسـتمتع به من خلال مخلوقاته.

بعد أن حدثنا بهذه الأحاديث المفعمة بالإيمان، والتي لم نتعود سماعها من أساتذتنا، راح يتجول بنا في القسـم الأول من أقسـام الحديقة، وهو قسم الحيوانات الأليفة.

وكان أول من مررنا عليه في جولتنا تلك هي الأرانب.. والتي رحنـا نسـتمتع بـالنظر إليهـا، وهي تلتهم كـل مـا يقـدم لهـا من مأكولات.. وقد قال لنا المرشد، وهو يشير إليها: ألا تلاحظون أنكم كلما حاولتم الاقتراب منها تهرب بسرعة؟

فسألناه عن سر ذلك، فقال: إنهـا تملـك حاسـة سـمع قويـة، ولـذلك نراهـا بمجـرد الإحسـاس بـأي صـوت أو خشخشـة تهـرب بسرعة كبيرة..

ثم قال: لقد خلـق اللـه في الكائنـات الحيـة خصـائص أخـرى إضافة إلى الخصـائص الـتي تخص الأكـل والشـرب، إذ توجـد على وجـه الأرض أنواعـا مختلفـة من الأرانب تتمـيز بخصـائص مختلفـة بعضها عن بعض.. فالأرانب الـتي تعيش في المنـاطق البـاردة مثلا

---

[1] () لخصنا المادة العلمية الواردة هنا من كتاب: رحلة فى عـالم الحيـوان، هـارون يحي، ترجمة: محمد رضا بن خليفة.

تكون عادة بيضاء اللون، وهي خاصية هامة تسهل عليها الاختفاء وعدم تمييزها من الثلوج.. أما الأرنب الوحشي فهو أكبر وله أرجل وأذنان أطول مقارنة بالأنواع الأخرى من الأرانب.. أما الأرنب الأمريكي الذي يعيش في الصحاري الأمريكية فله أذنان كبيرتان تساعدانه على اتقاء الحرارة.

وعندما سألناه عن سر تجمع الحيوانات بعضها مع بعض، قال: تعيش الحيوانات عادة في المناطق الطبيعية التي تناسب خصائصها مثل البيوت التي يعيش فيها الإنسان مع عائلته، وغالبا ما تتجنب مجموعة الحيوانات دخول المنطقة التي تعيش فيها مثيلاتها من الحيوانات الأخرى.

قلنا: فكيف تعرف ذلك؟

قال: تحدد الحيوانات حدود منطقتها بطرق مختلفة.. ومن أمثلة ذلك إصدار الروائح، حيث نرى الغزلان ـ مثلا ـ تفرز من فكها الأسفل لعابا له رائحة تشبه رائحة القطران تتركه فوق الأغصان الرقيقة والحشائش، وهذه الرائحة تتقبلها بقية الغزلان فتعرف أن هذه المنطقة هي مكان عيش غزلان أخرى، أما الأيل فيخرج هذه الرائحة من أسفل أرجله الخلفية وتساعده على وضع إشارة على المكان.. وهكذا الأرانب، فهي تفرز من أفواهها رائحة تشير بها إلى المنطقة التي تعيش فيها.

***

مررنا بعدها على قفص خاص بالكلاب بأنواعها المختلفة، فقال لنا المرشد: إن الكلاب ذكية، ولها قدرة على التعلم بسهولة مقارنة بالكثير من الكائنات الأخرى، وهي تستعمل للحراسة في أغلب الأحيان، بسبب قدرتها على التغلب على حيوان أكبر منها بخمسة أو ستة أضعاف.

لكن الطريف أن هذه الكلاب التي تتحول أحيانا إلى وحشية، شرسة لا تضر صاحبها أبدا وتفديه بروحها لإنقاذه من الخطر ولا تتخلى عنه مهما كان الخطر.

وعندما سألناه عن الخصائص التي تتميز بها الكلاب، قال: وهب الله لكل كائن حي مميزاته الخاصة به، والتي تتناسب مع حاجاته، ووظائفه، فلذلك جعل للكلاب والكائنات الأخرى أجساما مختلفة.

فعدد أسنان الكلاب هي أكثر من عدد أسناننا بعشرة أسنان، إذ تعد 42 سنا، وهكذا تستطيع الكلاب أكل العظام بكل سهولة.. وهي تتمتع بعيون أفضل بكثير من عيوننا، حيث تستطيع رؤية الأشياء في الظلام أفضل بكثير من الإنسان، ولها القدرة على تمييز الأجسام بسرعة.. وهي تتمتع أيضا بقدرتها على سمع أصوات لا يمكننا نحن سماعها، فقوة سماعها للأصوات هي أربعة أضعاف قوة سماع الإنسان، إذ أنها تميز الأصوات من مسافات بعيدة.. وهي تتمتع أيضا بقوة حاسة الشم، فمركز استقبال الروائح الموجود بالمخ هو 40 مرة أكبر من مركز استقبال الروائح عند الإنسان، لذلك، فقدرة الكلاب على استيعاب الروائح أعلى بكثير من قدرة الإنسان.

و بفضل جميع هذه المميزات تتعقب الكلاب رائحة الصيد وتجلب الصيد الذي يصيبه الصيادون ولو كان على بعد عدة كيلومترات، كما أن كلاب البوليس تشم الملابس فتستطيع العثور على صاحبها.. فالكلاب التي هي من نوع [برنارد] لها أنوف حساسة جدا إلى درجة أنه بإمكانها إخراج الجرحى من تحت الثلوج.

***

بعدها مررنا على قفص خاص الخيول، فقال لنا المرشد: الخيول من أكثر الحيوانات وفاء للإنسان عبر التاريخ، فهي لا تفارق صاحبها أبدا.. ويوجد منها 25 نوعا، ويمكنها أن تحملنا لمسافات طويلة دون تعب أو كلل.

ثم حدثنا عن الخواص المودعة في أسنانها، فقال: تتآكل أسنان الخيول عبر الزمن لأنها تأكل الحشائش الصلبة والملوثة بالتراب والغبار، لكن الله جعل لها أسنانا طويلة مغروسة في

عمق الحنك.. فلهذا كلما تآكلت يظهر القسم الذي بداخل العظم.. وكل سن يمكنهـا أن تتآكـل بمعـدل 2 ونصـف إلى 5 سـم دون أن تفقد قدرتها على قطع الطعام..

ثم قال لنا: تخيلوا لو أن الله لم يهب الخيول هـذه المـيزة، لا بد أنها ستفقد أسنانها خلال زمن قصير، وبذلك تموت من الجوع.

ثم ذكر لنا ما أودع الله في هامة شعرها من خصائص، فـذكر لنا أنها تعمل كالمصفاة، فهي تقوم بضـبط درجـة حـرارة الجسـم، ذلك أن أجسام الخيول تحتاج دائما إلى درجـة حـرارة تسـاوى 38 درجة مئوية، لذلك يطول شعر الخيل في فصـل الشـتاء، ويسـقط في فصــل الصــيف ليحافــظ الجســم على المســتوى نفســه من الحرارة في الفصول الحارة.

ثم ذكـر لنـا من خواصـها المثـيرة أنهـا تنـام واقفـة، وأنهـا لا تسقط على الأرض أثناء نومها.. وعندما سألناه عن سر ذلك، قال: سبب ذلك هو أن لهـا خاصـية تثبت بهـا أرجلهـا، فاللـه وهبهـا هـذه الخاصية في أرجلها، فتنام وهي واقفة كما أنـه باسـتطاعتها حمـل ثقـل جسـمها، بخلاف الإنسـان الـذي لا يسـتطيع منـع نفسـه من السقوط على الأرض إذا ما جاءه النوم وهو واقف.

ثم ذكر لنا أن اللـه تعـالى وفـر لهـا كـل مـا تحتاجـه للـركض بسرعة، فأرجلها ليست صالحة لتحمل الأثقال فقط، بل لهـا مـيزة الركض أيضا.. وهي أيضـا ليس لهـا ترقـوة مثـل سـائر الحيوانـات الأخرى، وهذا يسـاعدها على الـركض بسـرعة وبخطـوات كبـيرة.. وعلاوة على ذلك، يوجد لديها قدرات في عظـام أرجلهـا تسـاعدها على مجابهة التعب كلما ازدادت سـرعتها.. وهـذه القـدرات تشـبه نظام ضبط السـرعة عنـد السـيارة، فكلمـا ازدادت السـرعة يغـير ذراع تغيير السرعة فتقل بذلك طاقة الدفع وتزداد السرعة.

***

مررنـا بعـدها على قفص خـاص بـأنواع القطـط، فـذكر لنـا المرشد الكثير من خصائصـها، ومنهـا أنهـا تـرى في الليـل بشـكل جيدا.. ذلك أنها لا تحتاج إلا لقليـل من الضـوء حـتى تـرى، وسـبب

ذلك أن عيونها تختلف عن عيوننـا، فقزحيـة عيونهـا تكتمـل عنـدما تكون في الظلام، وهكذا يمكنها رؤية الأشياء بسـهولة، علاوة على ذلك، توجد طبقة داخل عيونها لا توجد داخـل عين الإنسـان، وهـذه الطبقة تتمركز مباشرة خلف غشـاوة العين.. وبـذلك فـإن الضـوء الـذي يخـترق العين باتجـاه الغشـاوة الأولى ينعكس أولا ثم يـدخل مباشرة إلى هذه الطبقة فيتم بذلك انعكاس الضوء مرتين، وهكـذا ترى القطط جيدا في الأماكن المظلمة التي يصعب على الإنسـان الرؤية فيها.

ثم ذكر لنا مميزات مخالبها، فذكر لنـا أنهـا تتحـول من أقـدام ناعمة فجـأة إلى مخـالب حـادة، عنـد الإحسـاس بـالخطر، فلـذلك تخرج أظافرها الحادة، وتكبر أقدامها استعدادا لمواجة العدو.

وعندما سـألناه عن سـر سـقوط القطـط دائمـا على أرجلهـا الأربعة، قال: الهدف من ذلك هـو المحافظـة على تـوازن جسـمها عند القفز من الأعلى.. وبمـا أنهـا تسـتمتع بـالقفز من شـجرة إلى أخرى لذلك منحها الله عز وجل هذه المميزات للدفاع عن نفسـها من الخطر.

***

بعدها مررنا على قفص خاص بالكنغر، فقال لنا المرشد: هـذا الحيوان من الحيوانات الغريبـة الـتي خلقهـا اللـه لتـدل على بـديع صنعته، وكونه فعالا ما يشـاء.. وهـو بشـكله هـذا ومـا مـيز بـه من خصائص يهدم نظرية التطور وكل التصورات المادية للحياة..

ففي بطن هذا الحيـوان منطقـة تعـرف باسـم [الكيس] فيـه تغذي أنثى الكنغر صغيرها وتحميه وتعتني بـه.. انظـروا إلى صـغير الكنغر وقد أخرج رأسه من جيب أمه التي تضعه داخله، إنه يخــرج من رحمها، وطولـه لا يتعـدى 1 سـم، أي لم يكتمـل نمـو أعضـائه بعد..

ويوجد داخل كيس الأم أربعة أنواع من الأثداء، واحد منها ينتج حليبا للمولود الجديد حسب قوامه وحرارته، أما بقيـة الأثـداء فهي تنتج الحليب للمولود الذي يكون قد اشتد عـوده قليلا.. ويبـدأ خلال

أسابيع برضع الثدي الذي يناسب سنه، وكلما كبر يمر إلى الثدي الذي يليه.. وهذا عجيب جدا، فكيف يميز صغير الكنغر الذي يبلغ طوله 1 سم؟.. وكيف توفر الأم حليبا مختلفا في كل ثدي؟

ثم قال لنا: إن الحليب الذي يشربه صغير الكنغر من الثدي أكثر حرارة مقارنة بالحليب الذي يخرج من بقية الأثداء، كما أن القيمة الغذائية تختلف أيضا.. فكيف تسخن الأم حليبها؟ وكيف تفرز الحليب حسب قيمته الغذائية داخل أثدائها؟.. انتبهوا ولا تنسوا، إن من يقوم بهذا العمل ليست أنثى الكنغر فهي لا تعي حتى بما يوجد بداخلها من أنواع الحليب، إذ لا يمكنها ضبط حرارة حليب كل ثدي من أثدائها، كما أنها لا تعرف ضبط خصوصية كل نوع من أنواع الحليب، فهي ـ كما ترون ـ كائن ضعيف تعيش كما أمرها الله تعالى، والله تعالى هو الذي أوجد فيها ما يحتاجه صغارها.. فالله الرحمن الرحيم هو الذي وضع الحليب في أفضل مكان ببطن الأم.

ثم قال لنا: يقضي صغير الكنغر ستة أشهر ونصف متواصلة داخل كيس الأم دون أن يخرج، ثم يقضى ثمانية أشهر تارة خارج جيب الأم وتارة داخله، ثم بعد ذلك يعيش خارج هذا الجيب باستمرار.. وفي الأثناء تنجب الأم صغيرا آخر، ويعيش الاثنان معا مدة طويلة داخل الجيب دون أن يتضرر أي منهما.. بل يرضع كل واحد منهما من الثدي المناسب لسنه.. فمن أين عرف كل واحد من الأخوين الثدي المناسب له؟.. وهل يمكن لأي نظرية في الدنيا أن تجيب على ذلك، ما لم تسند الأمر إلى عناية إلهية خاصة؟

ثم قال لنا: إن جسم الكنغر يدعو إلى التأمل، فطوله حوالي متر ونصف، وطول ذيله متر واحد، وبإمكانه قطع مسافة ثمانية أمتار بقفزة واحدة بفضل طول أرجله الخلفية، ويساهم ذيله المائل في الحفاظ على توازنه عندما يركض بسرعة.. فهل ترون أن أرجله الكبيرة كانت بهذا الشكل صدفة.. أم أن أمه فكرت في حاجة صغيرها إلى أرجل كبيرة كي لا يتعب؟..

ثم أجاب عن سؤاله بقوله: طبعا، لا شيء يوجد بالمصادفة،

فكل شيء من خلق الله الذي خلق للكائنات خصائص كل حسب احتياجه، وهو الذي خلق الكنغر وجميع الكائنات الحية الأخرى في أحسن صورة.

***

كانت أحاديث المرشد في غاية اللطف والأدب، فلذلك جعلتنا نرى تلك الحيوانات بصورة أجمل من الصورة التي كنا نراها عليها..

مررنا بعد الكنغر على حيوان يسمى [الكوالا]، ذلك الرمادي الذهبي الشعر الذي يلف رجليه وذراعيه فوق شجرة الكافور.. والذي نطلق عليه وصف [النؤوم].. وقد شرح لنا المرشد سر تلك التسمية، فذكر لنا أن هذا الحيوان ينام 18 ساعة يوميا، وبذلك فإن القسم الكبير من حياته يقضيه فوق شجرة الكافور..

وذكر لنا أنه يمكنه تسلق الأشجار بسرعة بفضل ذراعيه ومخالبه الحادة وإصبعي رجليه الأماميتين المنفصلتين عن أصابعه الثلاثة الأخرى.. أما رجلاه الخلفيتان ففيها أصابع أمامية بها مخالب حادة وأصابع خلفية لا يوجد بها مخالب.

وذكر لنا أن اختلاف الأصابع يساعده على تسلق الأغصان الصغيرة، كما أنه يغرز مخالبه في الأماكن اللينة من الشجرة فيقبض عليها تماما مثلما يقبض الواحد منا على العصا، وهكذا يتسلق الأغصان بسهولة، وهذا ما يسهل حياته فوق الأشجار.

وذكر لنا أن أهم شيء يفعله عند إحساسه بالخطر هو التحرك بسرعة فوق الأشجار حتى إنه يقدر على القفز من غصن يبعد مسافة متر عن الغصن الآخر.

وذكر لنا أن أنثى الكوالا تلد مولودا واحدا خلال سنتين، وهي تحمله في كيسها مثل الكنغر، والمولود يخرج من كيس أمه خلال الأشهر الأولى حتى إذا بلغ السنة من عمره تحمله فوق ظهرها.

وذكر لنا من العجائب المرتبطة به، أنه يتغذى من شجرة الكافور، والتي تنتج مواد سامة لجميع الحيوانات ما عدا الكوالا

الذي يمضغها بأسنانه قبل أن يبتلعها، وتقوم رئتاه بتنظيـف المـواد السامة الموجـودة في ورق الشـجرة، ثم يلفظهـا خـارج جسـمه.. ولذلك يسمم هذا الطعام بقية الحيوانـات لكنـه لا يضـره، مـع أنـه يأكل الكثير منه دون أن تحصل له أي مشاكل.

وذكر لنا أنه يأخذ ما يحتاجه من الماء من أوراق تلك الشجرة نفسها لأنهـا تحتـوي على قـدر كبـير من المـاء في وقت معين من السنة.. ولهذا السبب يمكنه أن يبقى أشهرا عديدة دون أن يشرب الماء.

وذكر لنا أنه عندما تهب رياح عاتية فوق قمم شجرة الكافور لا يحس الحيوان بالبرودة لأن لـه فـروا غليظـا يحميـه من قسـاوة البرد.

وبعد أن ذكر لنا كـل ذلـك: ألا تـرون أبنـائي كيـف يعيش هـذا الحيـوان من ورق مسـموم، ودون أن يشـرب مـاء لمـدة طويلـة، وفوق ذلك كله يعيش فوق شجرة، وفي البرد القـارس.. ألا تـرون العنايـة الإلهيـة الـتي خصـته بـذلك، فلولاهـا لم يتمكن من العيش لحظة واحدة؟

***

مررنا بعد الكوالا على الفيلة، وقد شدنا فيها ضخامة حجمهـا، وقد ذكر لنا المرشد أنها أكبر الحيوانات التي تعيش على اليابسـة، وذكر لنا من عجائبها التي خصت بها الخرطوم، والـذي يتكـون من 50 ألف عضلة.. وذكر لنا أن الفيلة تسـتعمله لتعبئـة المـاء وصـبه في أفواهها، كما تستعمله لحمل الأشياء وشمها.

وذكر لنا أنه يمكن لخرطوم الفيل اسـتيعاب أربـع لـترات من الماء، يستعمله إما للشرب أو الاستحمام.. وفي المقابل يسـتطيع الخرطوم الذي يحمل الأشياء الثقيلة قطع ورقة البازاليـا الصـغيرة ووضعها في فم الفيل ليأكلها.

وبعد أن ذكر لنا ذلك وغـيره، قـال: ألا تـرون أبنـائي كيـف أن هـذا الخرطـوم يصـلح للكثـير من الأعمـال، فتـارة يكـون كالإصـبع

الطويل، وتارة كالبوق، وتارة كمكبر الصوت، وتارة يستعمل للاستحمام ونفض الغبار؟.. ألا يدعونا إلى التساؤل عن سر هذه الخصائص العجيبة، ومن أودعها في هذا الكائن العجيب؟

وذكر لنا أنه، وبسبب صعوبة التعامل مع الخراطيم تقوم الأم بتعليم صغارها كيفية ذلك، بل إنها تظل تستمر في تعليمهم ذلك ستة أشهر كاملة دون كلل أو تعب.

وذكر لنا أنه يوجد في طرفي فم الفيل سنان كبيران يساعدانه على الدفاع عن نفسه، كما يستعملهما لحفر الأرض بحثا عن الماء، لكن هذه الأسنان تتآكل كالألياف الممضوغة، لذلك خلق الله فيها خصائص مهمة جدا، فكلما تآكل سن خرج مكانه سن آخر.

وعندما سألناه عن الطريقة التي يستخدمها الفيل لكي يبرد جلده الغليظ، قال لنا: إن للفيل طرقا مختلفة في ذلك.. منها أن يستعمل أذنيه للتبرد من حرارة الطقس، فيحولها بذلك إلى مروحة، فالشرايين الدموية الموجودة في الأذنين تبرد أولا مما يساعد على برودة الجسم بأكمله..

وذكر لنا أن للفيلة ميزة مهمة حيرت الصيادين وعلماء الحيوان مدة طويلة، وهي قرقرة بطنه، فهي عندما تقرقر تصدر صوتا عاليا.. والمدهش ليس الصوت الذي يخرج من بطنه، وإنما قدرة الفيل على التحكم فيه.. ذلك أنه لا علاقة له بعملية الهضم، بل الهدف منه بعث رسالة إلى أصدقائه يخبرهم فيها بمكان وجوده.

وذكر لنا أنه يوجد شيء آخر أكثر إثارة، وهو أن الفيل عندما يحس بخطر محدق يوقف هذا الصوت على الفور.. وهكذا، يمكن للفيلة أن تتواصل مع بعضها البعض على بعد أربعة كيلومترات.

وذكر لنا أن هجرة الفيلة موضوع حير العلماء أيضا، إذ تهاجر هذه الحيوانات كبيرة الأذنين عظيمة الجسم في مواسم الجفاف وتتبع جميعها طريقا واحدا.. والغريب أنها تنظف الطريق من أغصان الأشجار أثناء قيامها بعملية الهجرة.

وذكـر لنـا أن الفيلـة بحكم معيشـتها في الأمـاكن الشاسـعة، فإنها تحتاج إلى التواصـل فيمـا بينهـا، ولهـذا فـإن هـذا التواصـل لا يقتصر فقط على قوة حاسة الشم والسمع، بل وهبها الله مع تلك الخصـائص قـدرة على إصـدار أصـوات قويـة لا يسـتطيع الإنسـان تحملهــا.. وبفضــل ذلــك تتواصــل فيمــا بينهــا بحيث لا تســتطيع الحيوانات الأخرى فهمها، فكأنهـا تسـتعمل لغـة الرمـوز للتخـاطب عن بعد.

***

مررنـا بعـدها على الزرافـة، وقـد شـدنا فيهـا طولهـا وطـول عنقهـا، وقـد ذكـر لنـا المرشـد أن طولهـا يصـل إلى مـا بين 5 و6 أمتار..

وعندما سألناه عن غاية ذلك الطـول، ذكـر لنـا أنـه يسـاعدها للوصول إلى أعلى أغصان الشجر، فتأكل الأغصان، وتبتلع النباتات دون هضـم، فتـذهب إلى معـدتها المقسـمة إلى أربـع منـاطق، ثم تخرجها مرة أخرى، وتجترها ثم تبتلعها، وبذلك يستقر الطعــام في المعدة..

وذكـر لنـا أن الطعـام يقطـع مسـافة مـا بين 3 و4 أمتـار من الأسفل إلى الأعلى، وهو طول عنق الزرافة المزركش ليصـل إلى الفم..

وعندما سألناه عن كيفيه رجوعـه كـل تلـك المسـافة، قـال: يوجد في عنـق الزرافـة نظـام متطـور جـدا مثـل المصـعد يحمـل الطعـام من الأسـفل إلى الأعلى.. ومن المسـتحيل أن يكـون هـذا النظام قد وجـد مصـادفة كـأن يقـول أحـدهم: قبـل عـدة سـنوات وضعت في أرض فارغة ما يلزم لبنـاء مـنزل، وفجـأة انتصـب بنـاء مكان تلك اللوازم التي وضعتها، لقد حدث هذا الأمر نتيجـة اختلاط قليـل من المطـر وقليـل من الطـوب وقليـل من الشـمس.. إنكم ستضحكون من هذا القول حتى إنكم ربمـا تتأسـفون عليـه لفقـده مداركه العقلية، وهذا ينطبق تماما على القول بأن نظـام المصـعد الموجود داخل عنق الزرافة تكوّن عن طريق المصادفة، فمثل هذا

النظام من المستحيل أن يكون من صنع المصادفة، علاوة على أن الزرافة ليست بناء جامدا يتكون من الحجر والتراب والطوب، إنه كائن حي يركض ويأكل وله صغاره أيضا.. فهل تستطيع المصادفة منحه هذا الجسم الطويل والأنظمة التي بداخله؟ طبعا لا يمكنها أن تفعل شيئا من ذلك.

ثم قال لنا بتأثر جعلنا نشعر بقشعريرة الإيمان: واضح جدا أن الله هو الذي منح الزرافة كل حاجياتها منذ ولادتها.. والله تعالى هو الذي وهبها فما ومعدة تستطيع بهما أكل النباتات الشوكية بكل سهولة.. كما وهبها طريقة نوم خاصة حيث أنها تمد عنقها وراء جسمها وتنام للحظات واقفة على أقدامها.

ثم راح يذكر لنا تعاون الزرافات فيما بينها وتضحيتها بنفسها في سبيل جماعتها، فقال: الزرافات لا تنام جميعها معا، وإنما يبقى بعضها مستيقظا لحراسة المجموعة.. وبهذا نتبين أن اتفاق الزرافات على بذل التضحية من أجل المجموعة دليل واضح على أنها ـ وجميع الكائنات الحية الأخرى ـ تتحرك وفق العناية الإلهية.

***

مررنا بعدها على حيوانات كثيرة.. منها النمل الذي ذكر لنا عند مرورنا ببعض قراه: من النمل أكثر حيوانٍ اجتماعيّ موجود على الأرض من حيث العدد، كما أنّه من عجائب هذا الحيوان أنّه يَستطيع أن يَشمّ الأشياء برجله.. حيث يؤكّد العلماء أنّه يمكنه أن يَعود للمكان الذي قصده مرّةً أخرى عن طريق أرجله.

ومررنا على بركة ضفادع، فقال لنا: من الغرائب المتعلقة بالضفادع أنّه يُمكنها أن تمتصّ الماء من خلال جلدها، كما يُمكنها أن تمتصّ الماء من منديل مبلّل.. كما أنّها لا تتنفّس باستعمال فمها، لأنها إذا فتحته تموت مختنقة.

ومررنا على بعض ديدان الأرض، فقال: يُمكن للدودة أن تعيش حتى لو قسمتها إلى أجزاء، كما يُمكن لكلّ قسمٍ منها أن يعيش ويُعوّض الأجزاء التي فقدها.

حيوانات بحرية:

بعد أن مررنا على الكثير من الحيوانـات البريـة، ممـا ذكـرت لكم وممـا لم أذكـر، راح المرشـد يمـر بنـا على جنـاح الحيوانـات البحرية، وكان عبارة عن حوض مائي كبير، مصنوع بغايـة الإتقـان، حيث تظهر فيه الحيوانات وكأنها تعيش معنا.. أو كأننا نعيش معها.

قال لنا المرشد عند دخولنا: كـل مـا مررنـا عليـه في الجنـاح السابق موجـودات في دنيانـا الـتي نعيش فيهـا، ويمكننـا أن نراهـا بسهولة في الغابات والحدائق.. لكن هناك عـالم آخـر لا نعرفـه إلا من خلال السماع أو شاشة التلفاز أو مثل هذه الأحواض المائيــة.. وهو عالم من الحيوانات والنباتات التي لا نعـرف عنهـا إلا القليـل، وهي لا تستطيع العيش على اليابسة..

إنه عالم أعماق البحار الذي لا تعيش فيه الأسماك فقط، بــل تعيش فيــه الزواحــف والحشــرات والنباتــات وملايين الأنــواع من الكائنات الحية.. ولهـا جميعـا طرقهـا الخاصـة في الأكـل والتنفس والنوم.

ثم ذكر لنا أن نظام التنفس عند الأسـماك يختلـف تمامـا عن نظـام التنفس عنـد بقيـة الكائنـات الأخـرى.. فـالأنف الـذي عنـدنا تقابله الخياشيم عند الأسماك، وبها تتنفس الأكسجين تحت المــاء، ويمر من الخياشيم ويخرج من مؤخرة السمكة.. أما الأشواك التى توجد في الخياشيم فتأخذ الأكسيجين وتخرج الكربون من الجســم إلى الخارج..

وذكــر لنــا أن أغلب الأســماك لهــا أنــوف مثقوبــة لكنهــا لا تستعملها أبدا للتنفس، بل لتشتم الروائح داخل المـاء كـأن تشـتم رائحة كلاب البحر.

وقال: لا توجد عند الأسماك رموش مثل الـتي عنـد الإنسـان، فهي تنظر من وراء غشـاء شـفاف يغطى العيـنين.. وهـذا الغشـاء يشبه النظـارة الـتي يسـتعملها الغـواص في أعمـاق البحـار.. وقـد صممت لترى بها الأجسام القريبة منها، أما عنـدما تنظـر السـمكة إلى أماكن بعيدة فينقشع هذا الغشاء وتظهـر مكانـه آليـات خاصـة

تقوم بهذا الدور على أحسن وجه.

ثم ذكر لنا أن الأسماك تتواصل بمحيطها باستعمال الحواس الخمس وهي الشم والسمع واللمس والذوق والبصر إضافة إلى أن لها قوة إدراك حساسة وسريعة تمكنها من الإحساس بأي جسم سواء كان كبيرا أو صغيرا يقترب منها.

وذكر لنا أن أسماك المغارات المظلمة تستطيع التحرك بسهولة داخل الظلام الدامس، وأن كثيرا منها لها نظام رادار أو ما يسمى نظام المراقبة عن بعد..

وذكر لنا أنه توجد داخل الأسماك بالونات بيضاء مليئة بالهواء.. وأنها تساعد على حفظ توازن الأسماك داخل أعماق الماء.

وبعد أن ذكر لنا هذا كله، قال: لقد خلق الله تعالى أنواعا كثيرة من الأسماك بألوانها المختلفة وأشكالها وحركاتها مما جعل الإنسان يبقي مندهشا إزاءها.. فالألوان البراقة التي نراها عند بعض الأسماك هي في الأصل مصدر قوة للأسماك تعيش بها بين الحيوانات.

ثم ذكر لنا أن الأسماك الكبيرة قد تجد حاجتها لتنظيف فمها مما علق به من طفيليات.. ولهذا تسمح للأسماك الصغيرة بالدخول داخل فمها دون خوف وبكل راحة بال فتنظف أسنانها وخياشيمها، وتتغذى بذلك..

ثم علق على ذلك بقوله: الغريب في الأمر أن الأسماك الكبيرة لا تؤذي هذه الأسماك المنظفة على الإطلاق.. حسنا، كيف تطمئن الأسماك المنظفة للأسماك الكبيرة؟.. ألا تخشى أن تأكلها؟.. من أين تعرف أن الأسماك الكبيرة لا تصيبها بأي ضرر؟.. كيف تثق بها وكأنه يوجد اتفاق مسبق بينهما؟.. لو افترضنا أن هذا الاتفاق قد حصل بالفعل، كيف تضمن الأسماك الصغيرة التزام الأسماك الكبيرة بالاتفاق؟.. نعم، إن الأسماك الصغيرة لا تملك أي ضمانات أمام هذا الخطر، ولكن الله تعالى ألهم الطرفين تبادل المنفعة بينهما، فلا تضر الأسماك الكبيرة الأسماك الصغيرة،

ولا تخشى الأسماك الصغيرة شـر الأسـماك الكبـيرة فتفـر منهـا.. فتنظـف الأسـماك الكبـيرة نفسـها، وفي الـوقت نفسـه تشـبع الأسماك الصغيرة بطونها من تلك الطفيليـات.. وهكـذا بإلهـام من الله تعالى تعيش الأسماك في تعاون وانسجام مع بعضها البعض.

***

بعدها مررنا على [عجل البحر]، والذي وصفه المرشد بكونـه السباح الماهر.. لكونه يقضي معظم حياته في الماء، وقال لنا: إنه سباح وغواص ماهر، هو سعيد ومرتاح وسط المـاء والثلـوج مثلمـا نكون نحن سعداء فوق اليابسة.. إنه يستطيع أن يعيش في بـرودة شديدة قدرها 5 درجات تحت الصفر في فصل الربيـع.. ونحن في مثـل هـذا الطقس علينـا أن نلبس ملابس كثـيرة، وعلينـا أن نأخـذ الكثير من التدابير حتى لا نبرد، أمـا هـو فلا يـبرد أبـدا لأن الشـحم الكثير الذي في جسمه يحول دون ذلك.

ثم راح يسـألنا قـائلا: بمـا أن عجـل البحـر يعيش في شـكل جماعات كبيرة.. فكيف تعرف أنثى عجل البحر صغيرها داخل ذلك الازدحام؟

ولما عجزنا عن الإجابـة، قـال: هـذا سـهل جـدا، فـالأم تقبـل مولودها عندما يولد قبلة نسـميها قبلـة التعـرف، وبفضـلها تتعـرف على رائحة صغيرها، ولا تخلطه أبدا بصغير آخر.

وذكر لنا أن صغار عجول البحر يولدون مغلفين بطبقة شـحم تسمى شحم الصغار، وبفضل هذه الطبقة يبقى الصـغار دائمـا في درجة حرارة مرتفعة.. بالإضافة إلى جعلها تطفو فوق الماء عنـدما تعلمها أمها السباحة، فلا يغرق لأن الزيت أخف من الماء.

***

مررنا بعدها على [سمك السوتاريا] المزركش بألوان جذابـة، وقـد ذكـر لنـا المرشـد أن أهم خصائصـه الطريفـة المكـان الـذي اختـاره لـه اللـه ليعيش فيـه، إذ يعيش بين أغصـان نباتـات بحريـة تعرف بدعابة البحر.. وهذه النباتات لها أغصـان سـامة، وهي تضـر

الأسماك الأخرى، أو تقتلها بينما لا تضر السوتاريا أبدا حتى أنها تدخل بين الأغصان لتحمي نفسها من الأعداء.

وذكر لنا أن سر ذلك يعود إلى مواد تفرزها، بها تبطل مفعول السم الذي يوجد في أغصان النباتات السامة.

ثم قال لنا: تأملوا جيدا.. سمكة تفرز إفرازات مختلفة عن الأسماك الأخرى تساعدها على التأقلم مع المحيط الذى تعيش فيه وتحميها من التسمم بسم الكبسولات السامة الموجودة في النباتات.. كما أنها تختبئ فورا بين تلك الأغصان السامة حين تحس بالخطر الداهم.. حسنا، كيف يعرف سمك السوتار أن الأسماك الأخرى تخاف الاقتراب من تلك النباتا،ت وأنها لا تستطيع إخراج إفرازات تمنع التسمم؟.. بالطبع لا يمكن لسمكة صغيرة ليس لها عقل أن تدرك ذلك.. ولكن هناك قوة علمتها وألهمتها، وهذه القدرة قد أحاطت بكل شيء، إنها قدرة الله خالق السماء والأرض وما بينهما.

***

مررنا بعدها على [الدرفيل] صاحب الوجه البشوش.. والذي يحبه الجميع.. ومما لا أزال أذكره من حديث المرشد عنه قوله: هل تعلمون أن الدرفيل لا رائحة له وهو لا يرى؟ لكن في المقابل وهبه الله حاسة سمع قوية جدا، إذ له القدرة على سماع الأصوات التى تبعد كيلومترات طويلة بكل سهولة.. وإلى جانب ذلك يستطيع مواصلة رحلته تحت الماء وتحديد مكان فريسته بكل سهولة، وذلك بفضل نظام الإدراك عن بعد.. فالأصوات التى لا يستطيع الإنسان سماعها تنتشر مثل الأمواج البحرية، وهذه الأمواج الصوتية عندما يعترضها حاجز تصطدم به وتعود فعندما تعود تصطدم الموجات الصوتية بالسمك أو الأحجار، وعندئذ يتمكن الدرفيل من تحديد المسافة التى تفصله عن مكان فريسته.

ثم ذكر لنا أن نظام الإدراك عن بعد، والموجود عند الأسماك قلده الإنسان، وصنع أنظمة اتصالات مماثلة له.

بعـد أن مررنـا على حيوانـات بريـة وبحريـة كثـيرة، قـال لنـا المرشد: والآن تأملوا فيما تعلمتموه من معلومات حول الحيوانات الـتي ذكرناهـا.. فقـد رأيتم من خلالهـا كيـف خلـق اللـه الكائنـات ووهبها الخصائص الضرورية لتحافظ على حياتها.

***

بعـد أن انتهينـا من جولتنـا في تلـك الحديقـة بصـحبة ذلـك المرشد، ذهبنا إلى المحـل الـذي تركنـا فيـه أسـتاذنا، وقـد تعجبنـا كثـيرا إذ رأينـاه يتأمـل في بعض الحيوانـات، ويبكي، فسـألناه عن سبب ذلك، فقال: اعذروني أبنائي.. فقد كنت ممتلئا أوهاما.. وقـد سربت إليكم الكثير منها.. فلذلك لا تلتفتوا لكل مـا سـبق أن قلتـه لكم.. واسمعوا لهذا المرشد الناصح، فهـو أدرى مـني بهـذا العـالم العجيب.

تعجبنا من حاله هذا، وسببه، لكنا، وبعد ذلك اليـوم رأينـاه قـد تغير تماما، وأصبح يحدثنا عن الله.. وعن عظمته.. ويـذكر لنـا كـل حين من المعلومات عن عالم الحياة وعجائبها مـا تسـقط بـه كـل الفلسفات المادية الهاربة من الحقيقة.

لم أكتـف بمـا اسـتفدته من الأسـتاذ والمرشـد، بـل رحت أتخصص في علوم الحيوان.. وأبحث أكـثر عن عوالمهـا العجيب.. وقـد أدركت من خلال بحـوثي الطويلـة مـدى عنايـة اللـه بعبـاده جميعا، إنسانهم وحيوانهم.. بل كل ما في الكـون هـو محـل عنايـة خاصة من الله تعالى.. فهو رب العالمين جميعا.

وقد جعلني ذلك كله أصل ـ من خلال صحبتي لعـالم الحيـوان ـ إلى معارف كثيرة وحقائق عظيمة ترتبط بالوجود جميعـا.. وكـان كل ذلك سببا في زيـارة معلم الإيمـان لي، وإرشـاده إيـاي لأكمـل الطريق.. فمعارج الإيمان لا نهاية لها.

المحدودية.. والامتداد

بعد أن انتهى السادس من حديثه، قال السابع، وهو يلتفت لي: وأخيرا وصل الدور لي.. ولهذا سأحدثك بحديثي الذي لا يمكن أن يضاهيه أي حديث من أحاديث زملائي، فهو يفوقهم جميعا، ذلك أنك سترى فيه من بدائع الصنعة الإلهية ما يفوق بملايين المرات كل ما نراه ونعيشه.. بل إنه يتجاوز بملايين المرات كل ما نتخيله أو نحلم به.

ذلك أن كل أحاديث زملائي ـ مع احترامي لهم ـ لم تكن تتجاوز حديث هذه الأجساد التي نعيش فيها، كما تعيش الكائنات من حولنا.. لكن حديثي عن عالم الروح الذي هو أوسع بكثير من عالم الجسد.. وهو حديث أيضا عن عالم الامتداد بدل عالم المحدودية.

قلت: ما تقصد بعالم الامتداد.. وما الفرق بينه وبين العالم المحدود؟

قال: العالم المحدود، هو ما نعيشه من فترة زمنية ضيقة جدا في هذه الحياة الدنيا.. وهو كذلك ما نشعر به ونراه ونعيشه من أجسادنا المحدودة الممتلئة بالضعف والقصور.. وهو ما نعرفه كذلك من صور الحياة التي رأيناها على كوكبنا الذي نعيش فيه.. والذي توهمنا أنه وحده الكوكب الحي، وما عده ميت.

قلت: وعالم الامتداد؟

قال: هو العالم الذي لا زمان فيه.. ولا ضيق.. ولا جسد محدود.. بل فيه من القوى والطاقات ما لا يمكن تصوره.

قلت: لكن ذلك محجوب عنا، فكيف وصلت إليه؟

قال: لقد جعل الله شعوري بوجود هذا العالم سببا لبحثي عنه.. فأنا مع اهتماماتي الكثيرة بعلم الحياة، بل مع تخصصي فيها كنت أشعر بحاجتي إلى عالم أوسع، وأكثر إطلاقا، حتى أتمكن فيه من تلبية حاجاتي التي لا يمكن لهذا الزمن القصير أن يلبيها، ولا

لهذا الجسد الضعيف أن يطيقها.

قلت: فهل وجدته؟

قال: أجل.. وجدته..ووجدت أن الأدلة والـبراهين الدالـة عليـه أقـوى بكثـير من كـل تلـك الأدلـة الـتي يسـتعملها أصـحابي من الماديين لإثبات أمور لا حقيقة لها.

قلت: لكني أرى علماء الحياة يعرضون عن الحديث في مثـل هذه الأمور لكونها من غير تخصصهم.

قـال: أنـا بحثت في هـذه الأمـور بكـوني إنسـانا.. ولا يمكن للإنسان أن يظل سجين تخصصه.. لكن تخصصي أعانني على فهم الكثـير من الأمـور.. بـل اكتشـاف الكثـير من الأدلـة الـتي لم أكن لأكتشفها لولا تخصصي.

قلت: فهل ستحدثني عن ذلك؟

قال: أجل.. سأحدثك عما تطيقه، ويطيق أكثر الناس.. أما مـا عدا ذلك، فإنه لم يؤذن لي به.

الامتداد المكاني:

اعتدل صاحبنا السـابع في جلسـته، وحمـد اللـه، وصـلى على نبيه ﷺ.. ثم قال: أول حكايتي تبدأ من ذهـابي مـع بعض أصـدقائي من علماء الفلك والطبيعة والنفس والاجتماع وغـيرهم إلى صـديق لنا سمعنا بتحوله إلى الإسلام.. فرحنا إليه جميعا نستفسر منه سر ذلك.. وفي أنفسنا أننا يمكننا بالحوار معـه أن نحولـه إلى مـا كـان عليه، وإلى ما كنا عليه جميعا.

لكنه استطاع بقوة حجته، ولطفه وأدبه، أن يجعلنا جميعا نعيد تفكيرنا في كل المعتقدات التي كنـا نعتقـدها، ونتصـور أنهـا الحـق المطلق.

طبعا لن أحدثكم بكل حديثنا معه، فقد ذكـر أصـدقائي الكثـير مما ذكره لنا.. ولكني سأقتصر من حديثنا معه على ما يرتبط بتلك الامتدادات التي ذكرتها لكم.

قلت له [1] ـ بعد أن أثبت لنا بكل أنواع الأدلة عدم مصداقية نظرية التطور ـ: فلنفرض أن نظرية التطور انهارت.. فما البديل العلمي الذي تراه؟

قال: كل الأدلة العلمية تشهد لله بأنه مصمم الحياة.. ولذلك فالبديل العلمي بكل بساطة هو أن كل حي من الأحياء خلقه الله عالما قائما بذاته ليؤدي دورا معينا في هذه الحياة.. ولهذا فإن الله يعبر عما نراه من أشياء بأنها عوالم قائمة بذاتها.. لكل عالم طبيعته وخصائصه، ففي أول سورة من القرآن الكريم نجد قوله تعالى:﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاتحة:2)

بل إن الله يعتبر كل حي من الأحياء أمة قائمة بذاتها، كما قال تعالى:﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنعام:38)

والله تعالى يعتبر التنوع مقصودا من أول الخلق، فهو يقول:﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (النور:45)، وقال: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (لقمان:10)، وقال: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ (الشورى:29)

تأثرت كثيرا لسماعي تلك الآيات القرآنية، فقد كانت أول مرة أسمعه فيها.. لقد سمعت الله وكأنه يخاطبني مباشرة، ويدعوني للتخلي عن كبريائي والبحث عن الحقيقة..

لست أدري كيف رحت أقول لصاحبي المؤمن بكل تواضع: هل في قرآنكم شيء عن الحياة، غير ما ذكرت؟

---

[1] () النص المنقول هنا مقتبس بتصرف من كتابي [معجزات علمية]، وفيه ذكر المصادر المقتبس منها.

قال: أجل.. القرآن الكريم كله حديث عن الحياة وأركانها وأسرارها وأنواعها وامتدادها في الزمان والمكان..

قلت: امتدادها في الزمان والمكان!؟.. ما الذي تقصد بذلك؟

قال: علوم الحياة التي تعرفونها تعطي الحياة صورة واحدة لا تتصور إمكانية الحياة فيما عداها.

قلت: أجل.. علم الحياة كله يقوم على هذا.

قال: ولكن هذا العلم بهذه الصورة ينطوي على كبر عظيم..

قلت: العلم هو الحقيقة.. والحقيقة لا ينبغي أن تحمل أي كبر.

قال: الكبر ليس في العلم.. وإنما فيمن يدعيه.

قلت: ما الذي تقصد؟

قال: لو تأملت جميع فترات التاريخ البشري، فإنك تجد كل فرد من الأفراد، بل كل أمة من الأمم تتصور أن ما عندها من العلم هو الحقائق التي لا تقاوم، فلذلك تفرح بها، وتتيه، وتقاوم كل من يقف في وجهها.

القرآن الكريم يذكر هذا، فهو يذكر أن تلك القرى التي جاءتها أنبياؤها بالعلم الإلهي الذي لا يعتريه التغيير والتبديل رفضت العلم الإلهي مستغنية بعلمها، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾ (غافر:83)

مع أن عملهم ليس إلا مرحلة بسيطة في التطور العلمي، كما قال تعالى:﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ (لنجم:30)

قلت: ما الذي تقصد من كل هذا؟

قال: أقصد أن من العلم ما لا نستطيع إثباته في المخابر.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لأن المخابر تعتمد على عقولنا، وعلى ما وصلت إليه عقولنا من مكتشفات، فلذلك تعجز هذه المخابر عن التعرف على حقائق كثيرة يمتلئ بها الكون.

قلت: فمن أين نستقي تلك المعلومات إذن؟

قال: من الله.. أليس هو مبدع كل شيء؟

قلت: فلنفرض صحة ذلك.. فما علاقته بهذا؟

قال: إن المبدع دلنا على أسرار إبداعه وأنواع مبدعاته.

قلت: ولكن كلام المبدع دين.. ونحن نتحدث عن العلم.. وشتان بين العلم والدين.

قال: لا.. الدين مصدر من مصادر العلم.. بل هو المصدر الأعلى للعلم.. فالله تعالى يقول: قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (الملك:26)

فالله هو مصدر العلم.. وخزائن العلوم بيد الله.. وهو يفيض علينا منها كل حين بحسب استعداداتنا.

قلت: فلنفرض صحة هذه المقدمات التي ذكرتها.. ما الذي ترمي من خلالها.

قال: أرمي إلى ما طلبت مني الحديث عنه.

قلت: تقصد (امتداد الحياة)!؟

قال: أجل.. لأن العلم بامتداد الحياة الزماني والمكاني يقتضي التسليم لله بالعلم..

قلت: لم؟

قال: لأن هذه المعلومات لن نستطيع إثباتها في المخابر.

قلت: ولكن عقولنا لن تستطيع التسليم لما لم نستطع إثباته.

قال: بل تستطع التسليم بكل سهولة بشرط واحد.

قلت: ما هو هذا الشرط؟

قال: الثقة..

قلت: ما معنى ذلك؟

قال: إذا وثقت في مصدر المعلومة سلمت لها.. فلذلك إذا وثقت في الله وفي كتاب الله سلمت له ما يذكر لك من الحقائق، ولو لم تره بعينك.

قلت: لا أرى أني أستطيع التسليم لشيء لا يلمسه عقلي..

قال: بل أنت تسلم للكثير.. بل إنه لا يمكن أن يتعلم أحد من الناس ما لم ينطلق من التسليم لمن يتعلم على أيديهم..

وكمثال بسيط أنت تسلم لجميع أصدقائك من العلماء في كل ما يذكرونه من العلم مع أنه لم تتوفر لديك الأدوات الكافية لتقتنع بما يقولون.. أليس ذلك صحيحا؟

قلت: أجل.. وإلا فإن ذلك سيتطلب مني أن أدرس كل العلوم.. والعمر يفنى دون ذلك.

قال: أنت تسلم لصديقك الفلكي ما يذكره عن الأفلاك الواسعة مع أنك لم ترها مرة واحدة في حياتك، وتسلم لصديقك الجيولوجي ما يذكره عن تاريخ الأرض مع أنك لم تعش تلك الأزمان التي يذكرها.

قلت: أجل..

قال: فكيف سلمت لهم؟

قلت: ثقة فيهم، وفيما لديهم من العلم.

قال: وكيف وثقت فيهم؟

قلت: رأيتهم يجيبوني عن الأسئلة التي تحيرني بأدلة منطقية يتقبلها عقلي.

قال: فاعتبر الله أستاذا من أساتذتك.

انتفض الفلكي، ومثله الجيولوجي..وصحت: ما الذي تقوله؟.. الله رب.. وليس أستاذا؟

قال: أتنزه الله عن الأستاذية.. أم تنزه الأستاذية عن الله؟

سكت، فقال: الله هو المعلم.. القرآن الكريم يذكر ذلك كل حين ففي أول ما نزل من القرآن الكريم هذه الآية: عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ (العلق:5)

قلت: فلنفرض أني أسلم لك بكل هذا.. فهل ترى أن الله علمنا من علوم الحياة ما لم نصل إليه؟

قال: أجل.. كما علمنا الله أصل الحياة.. فهو يعلمنا امتدادها.

قلت: ما الذي تقصد بامتدادها؟

قال: الحياة أعمق من أن تنحصر فيما تخبرنا به المخابر.. هي أعمق مكانا، وأعمق زمانا.

قلت: ما الذي تريده بالعمق أو الامتداد المكاني.. فإني أراك قدمت كل تلك المقدمات لأجل إثباته.

قال: أنتم تتساءلون كثيرا، وبلهفة كل حين قائلين:(هل توجد حياة في الفضاء؟)

قلت: لا أنكر ذلك.. وأنا شخصيا أميل إلى وجود حياة في الفضاء الخارجي.. وقد سألني أحدهم مرة قائلا: أليس غريباً أنكم تتحدثون عن وجود حياة خارج الأرض في الكون؟ فأجبت على الفور: إن الغريب ألا نتحدث عن وجود مخلوقات في الكون، لأننا لسنا الوحيدين في هذا العالم.

ولست الوحيد في ذلك، فمنذ صعود الإنسان إلى الفضاء الخارجي، وهو يحاول جاهداً اكتشاف حياة جديدة على كوكب غير الأرض.

وعلماء الفلك ـ اليوم ـ يؤكدون وجود هذه الحياة، فلدينا في الكون أكثر من عشرة آلاف مليون مليون مليون نجم، وهذه النجوم منها ما هو بحجم الشمس ومنها ما هو أكبر من الشمس وما هو أصغر منها. فاحتمال وجود مجموعات شمسية كشمسنا هو احتمال كبير وكبير جداً أمام هذا العدد الضخم من النجوم أو الشموس.

ومع بداية القرن الواحد والعشرين ازداد شيئاً فشيئاً اعتقاد العلماء بوجود حياة خارج الأرض في الفضاء، فلهذا تراهم يرسلون المراكب الفضائية محاولة منهم لكشف أي آثار للحياة في هذا الكون الواسع.

ومن آخر الرحلات رحلة باتجاه كوكب المريخ تكلفت أكثر من (800) مليون دولار.. وكان الهدف الأصلي منها البحث عن وجود حياة في ذلك الكوكب.

وقد بدأ العلماء منذ السبعينات من القرن العشرين بمحاولات للاتصال مع الفضاء الخارجي من خلال بث رسائل تتضمن معلومات عن كوكب الأرض.

ثم تطورت المحاولات في التسعينات من القرن العشرين من خلال ابتكار مراصد ضخمة يتم زرعها في الفضاء الخارجي لرصد الكواكب الشبيهة بالأرض.

لقد أصبحت مسألة وجود كواكب تدور حول نجوم شبه حقيقة، وذلك بعدما أمكن تطوير أجهزة الرصد الفضائي.

بل أصبحت مسألة كشف حياة وكائنات حيَّة على كواكب أخرى مسألة وقت، ولولا تأكد العلماء وإحساسهم القوي بوجود مخلوقات أخرى في الكون لما عملوا بجدّ للبحث عن هذه المخلوقات.

قال: فأنتم متأكدون من وجود الحياة في غير الأرض، ولكنه لم تتوفر لديكم الوسائل الكافية لإثبات ذلك.

قلت: أجل.. ذلك صحيح.. وأنا وأكثر العلماء نؤمن بذلك.

قال: إن هذه الحقيقة التي تؤمنون بها من غير أن تستطيعوا إثباتها هي حقيقة مثبتة لدينا نحن المسلمين.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد أخبرنا معلمنا العليم الخبير بها، بل أخبرنا بسجودها لله، فقال: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (النحل:49)

بل اعتبرها من آياته الدالة على عظمته وقدرته ولطفه، فقال: وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (الشورى:29)

إن هذه الآية الكريمة تخاطبنا وتخاطب المستقبل.. وهي تدل على أنه يمكن أن يتعرف البشر على تلك العوالم..

وأنا من خلال هذه الآية الكريمة أوقن تماما أن الجهود التي تبذلها البشرية في هذا الميدان لن تذهب هدرا.. لأن هذه الآية لابد أن يقع تأويلها كما وقع تأويل جميع آيات الله.

لقد حلمت البشرية طويلا بالصعود إلى الفضاء الخارجي.. واستعملت كل الوسائل لأجل ذلك[1].

قلت: وقد تحقق هذا الحلم في نهاية القرن العشرين عندما بدأت رحلة البحث العلمي، وبدأ آلاف العلماء في مشارق الأرض ومغاربها بكتابة أبحاثهم وإجراء تجاربهم حول آلية الخروج من الأرض، وما هي الخطوات التي يجب سلوكها لتحقيق ذلك.

قال: لقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك.. حقيقة إمكانية الصعود.. بل وصف آلية ذلك، فقال: وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (الحجر:14 ـ 15).. فهذه الآية الكريمة تشير إلى من آلية الصعود، فقد ذكرت أبواب الغلاف الجوي، التي هي أبواب السماء، وذكرت الحركة التعرجية في الفضاء.

1() انظر: القرآن يتنبأ بعصر الفضاء، عبد الدائم الكحيل، في موقعه الخاص بالإعجاز القرآني.

وفوق ذلك أخبرت بما عساه يقول من وفق لهذه الرحلة، لقد ذكرت أنهم يقولون: ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾.. وقد حصل هذا.. فقد أخبرنا به رواد الفضاء الذين صعدوا إلى القمر أن أول ما يصادفهم عند تجاوزهم الغلاف الجوي هو الظلام الشديد الذي يظن معه المرء أن بصره قد توقف.

حتى إن الأطباء المشرفين على سلامة هؤلاء الروَّاد وجدوا بأن الإنسان عندما يتحرر من الجاذبية الأرضية يتعطل العصب البصري لديه بشكل مؤقت، فلا يعود يرى شيئاً وكأن بصره قد أغلق، وهذا يحدث بسبب انعدام الجاذبية والذي يؤدي إلى خلل في الدورة الدموية والتفاعلات الحيوية في جسم الإنسان.

قلت: أسلم للقرآن بهذا.. فهل تستنتج منه حقيقة ما ذكره القرآن من إمكانية اطلاع الإنسان على أنواع الحياة المبثوثة في العالم الخارجي؟

قال: أجل.. فثقتنا في كتابنا تستدعي ذلك.. فهو لم يتنبأ بشيء إلا حصل كما تنبأ به.

قلت: أهذا ما تقصد من امتداد الحياة المكاني؟

قال: ليس هذا فقط.. أو بالأحرى هذا ما تفهمه أنت وغيرك من العلماء فقط.

قلت: فهل هناك غيره مما لا نفهمه؟

قال: لا أقصد رميكم بالقصور.. ولكن العلم الآخر الذي يرتبط بالحياة وأعماقها يستدعي ثقة في المعلم..

قلت: فلنفرض أنا وثقنا في معلمك هذا.. فما الذي دلنا عليه من أنواع الحياة وامتدادها؟

قال: أنتم تبحثون عن وجود حياة في الكون؟

قلت: أجل..

قال: لكن الحقائق الكبرى ـ التي تبينها الوثيقة الإلهية التي

تنطوي على حقائق الوجود وأسراره ـ تخبر أن هذا الكون لا يحوي أحياء فقط، بل هو نفسه حي، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني.. أما ما نتصوره نحن من حياة فهو صورة فقط من صور الحياة، وهي صورة ارتباطات مادية حيوية بعضها ببعض.

وكما أن العلم الحديث يقر بوجود حياة في الخلية الواحدة، سواء كانت ضمن نسيج واحد أو كانت مستقلة منفردة، فكذلك تنبئنا النصوص الشرعية أن الكون كله حي جملة وتفصيلا، وكل ذرة فيه أو ما دونها كائن حي له حقيقته التي استدعت وجوده، كما أن له صورته التي نعرفه من خلالها.

قلت: أتقصد أن كل ما نراه من جمادات حي.. له حياة يعي بها؟

قال: أجل.. هذا ما تنبئنا عنه النصوص المقدسة..

قلت: ولكن الحياة تقتضي أشياء كثيرة..

قال: تلك الحياة التي نعرفها نحن.. أما الحياة في صورتها الحقيقية، فلا تستدعي ذلك.

قلت: كيف ذلك؟

قال: أنتم مثلا تلتزمون بأنه لا يمكن أن تكون هناك حياة من دون الأوكسجين؟

قلت: أجل.. فهو ضروري للطاقة التي يحتاجها الكائن الحي ليستمر وجوده.

قال: هذا بحسب وعينا.. ولكن الحقيقة غير ذلك.

قلت: كيف ذلك؟

قال: سأقرب لك الأمر.. ألا ترى أن الآلة الجامدة يمكن أن تتصرف تصرفات كثيرة.. بل قد تؤدي من الخدمات ما نعجز نحن عن أدائه، ولكنها مع ذلك لا تستنشق أوكسجينا، ولا تزفر كاربونا.

قلت: ولكنها مع ذلك لا تتصرف إلا في ضوء ما نوحي لها نحن به.

قال: إذا كنا نحن البسطاء الضعفاء استطعنا أن نحول من الآلة الجامدة متكلما بارعا، وشاشة رائعة، وذاكرة حية، بل معالجا ذكيا.. أفلا يستطيع مصمم هذا الكون أن يفعل ذلك؟

لم أجد بما أجيبه، فقال: ولذا.. فإن النصوص تخبرنا عن حياة الأشياء ووعيها.. بل ومشاعرها الفياضة..

فحياة الكون ـ كما تدلنا النصوص المقدسة ـ حياة عاقلة، فلذلك تمارس ما يمارسه العقلاء من صنوف التعبير عن المشاعر.. وقد ذكر القرآن الكريم أن الحياة العاقلة المدركة للعواقب هي التي منعت هذا الكون من قبول أمانة التكليف، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (الأحزاب: 72)

فلولا ما في الكون من طاقة الإدراك والاختيار ما عرض عليه هذا العرض الخطير، ولولاها ما أجاب هذه الإجابة الواعية.

وللحجارة من الوعي ـ كما يعبر القرآن الكريم ـ ما يجعلها تهبط من خشية الله، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ (البقرة: 74)

والجبل يخشع لنزول القرآن، قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر:21)

بل يندك لتجلي الله، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً ﴾ (لأعراف: 143)

بل ينهد لسماع شرك المشركين، قال تعالى: ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً ﴾ (مريم: 90 ـ 91)

الامتداد الزماني:

كان لحديثه من القوة والجمال ما جعلـني وأصـحابي نـرغب في أن نستزيد منه، وإن كنا لم نتقبل حينها كل ما ذكره..

بعد أن أنهى حديثه عن الامتداد المكاني قلت له: وعيت مرادك بالامتــداد المكــاني، والعلم في الحقيقــة لا يتكلم في هــذا.. وإن شئت الصراحة، فإن العلم يكاد يسير نحو إثبـات هـذا.. فقـد وجـد في ذكاء الكائنات ابتداء من ذراتها ما يكـاد يثبت لـه من القـدرات ما نجهله جهلا مطبقـا.. ولـذلك فـإن المنطـق العلمي السـليم هـو الذي يتوقف في هذا الموضع.

قال: والمنطـق الأسـلم منـه هـو الـذي يجـد مصـدرا موثوقـا يستلهم منه الحقائق.

قلت: من وجد مثل هذا المصدر، فليعض عليه بالنواجذ.

قــال: حــدثتكم عن الامتــداد المكــاني الــذي أوحت لنــا بــه النصــوص المقدســة.. ولعلكم في انتظــار المــراد من الامتــداد الزماني.

قلت: أجل.. وأصدقك في هذا كما صـدقتك في ذلـك.. ولعـل الجميع يشاركني في هذا.. فإن في كل نفس شـوقا لهـذا الامتـداد الزماني الذي تتحدث عنـه.. إن كـل نفس تـرغب في حيـاة دائمـة مستقرة لا ينتابها الموت، ولا يقطعها الفناء.

قــال صــديقنا عــالم النفس: أجــل.. لقــد قــال البروفيســور (كنجهــام) يــذكر هــذا: (إن عقيــدة الحيــاة بعــد المــوت لا أدريــة مفرحة.. ومن الممكن اعتبار هـذا القـول خلاصـة أفكـار فلاسـفتنا الملحدين المعاصرين؛ فهم يرون أن عقيدة الآخرة اخترعتها عقلية الإنسـان الباحثـة عن عـالم حـر، مسـتقل عن حـدود هـذا العـالم، ومشكلاته، مليء بالأفراح.. وإنما يدفعه إلى الايمان بهـذه العقيـدة أمله في الحصول على حياته المفضلة، التي لاجهد فيهـا ولاكـدح.. وأن هذه العقيدة تنتهي بالإنسـان إلى عـالم مثـالي وخيـالي، حيث يحلم بأنه سوف يظفر بـه بعـد المـوت. ولكن الحقيقـة كمـا يراهـا

الفلاسفة أن لاوجود لشيء كهذا العالم الثاني في الأمر الاقع)

قـال صـديقنا المـؤمن: لكن يمكننـا اعتبـار هـذا المطلب الإنسـاني في حـد ذاتـه دليلا نفسـيا قويـا على وجـود عـالم آخـر، كالظمأ، فهو يدل على الماء، وعلى علاقة خاصة باطنـة بين المـاء وبين الإنسان.. وهكذا فـان تطلـع الإنسـان نفسـيا إلى عـالم آخـر دليل في ذاته على أن شيئا مثل ذلك موجـود في الحقيقـة، أو أنـه على الأقل خليـق أن يوجـد. وهـذا المطلب النفسـي يؤكـد علاقـة مصـيرنا بهـذه الحقيقـة، ويـدلنا التـاريخ على وجـود هـذه الغريـزة الإنسـانية منـذ أقـدم العصـور على مسـتوى انسـاني، وهـو أمـر لا أستطيع فهمه: كيف يمكن أن يؤثر أمر باطل على البشر في هـذا الشكل الأبدي، وعلى مستوى انساني؟ وهـذا الواقـع نفسـه يـدلنا على قرينة قوية بامكان وجود العـالم الآخـر. وانكـار هـذه الحاجـة النفسية، بدون أدلة، يعتبر جهلا وتعصبا.

إن الذين ينكرون حاجة نفسية عظيمة مثل هذه زاعمين أنهـا باطلة، هم من أعجز الناس حقـا عن تفهم أي (واقـع) على سـطح الأرض بعد هذا.. ولو كانوا يزعمون الفهم في الواقـع فلاأدري بـأي دليل؟... وعن أي برهان؟

قال واحد منا، وكـان عـالم اجتمـاع: ألا يمكن أن تكـون هـذه الأفكار نتاج المجتمع؟

قال: لو كانت كذلك، فكيف لاتزال تطابق التفكـير الإنسـاني، بهذه الصورة المدهشة، من أقدم العصور؟.. هل تجدون مثالا لأيـة أفكـار إنسـانية أخـرى ظلت باقيـة إلى العصـر الحاضـر، وبهـذا التسلسل الرائع منذ ألوف السنين؟.. هل يسـتطيع أذكى أذكيـائهم أن يخـترع فكـرا واهيـا، ثم يدخلـه إلى النفس الإنسـانية، وكأنـه موجود بها منذ الأزل؟.

إن لكل انسان أمـاني كثـيرة لاتكلـل بالنجـاح في حياتـه، انـه يتمنى حيـاة أبديـة، ولكن الحيـاة الـتي أعطيت لـه تخضـع لقـانون الموت.. والعجيب أن الإنسان عندما يكون على أبواب حياة ناجحة عظيمـة، بعـدما كسـب من العلم والمعرفـة، والخـبرة والتجـارب

الثمنية، حينئذ تداهمه دعوة الموت..

لقد أكدت إحصائية عن تجار لندن الناجحين أن أمرهم يستقر فيما بين 45 -65 سنة من أعمارهم، ثم يبدأون يربحون مابين خمسة آلاف إلى عشرة آلاف جنيه في السنة، وفي ذلك الوقت الثمين فجأة تتوقف حركات قلوبهم ذات مساء، أو ذات صباح، فيرحلون إلى عالم مجهول، تاركين تجارتهم الممتدة إلى ماوراء البحار..

قلت: صدقت في ذلك، وقد قال الأستاذ [وينوود ريد] يذكر هذا المعنى: (إنه لأمر هام يدعونا إلى التفكير فيما إذا كانت لنا علاقة شخصية مع الإله؟ هل هناك عالم غير عالمنا هذا؟ وهل سوف نلقى جزاء أعمالنا في ذلك العالم؟ إن هذا السؤال ليس بعقدة فلسفية عظيمة فحسب، وإنما هو في نفس الوقت أعظم أسئلتنا العملية أيضا.. إنه سؤال تتعلق به مصالحنا الكثيرة؛ فحياتنا الراهنة قصيرة جدا، أفراحها عادية موقوتة، إذ أننا عندما نظفر بما نحلم به، يفاجئنا الموت، ولو استطعنا الاهتداء إلى طريق خاصة تجعل أفراحنا دائمة وأبدية، فلن يرفض العمل به أحد غير البله والمجانين منا)

لكن الكاتب نفسه يستطرد فينكر ذلك المطلب النفسي الكبير من أجل أمور لاوزن لها ولاقيمة؛ فهو يقول: (إن هذه العقيدة كانت معقولة جدا حين كنا لانبحث جوانبها بعمق وجد.. ولكن بعد هذا البحث اتضح لنا أنها أمر سخيف، ويمكن اثبات سخافته بسهولة، فالفلاح المحروم العقل الجاهل لايتحمل مسؤولية خطاياه، وسيدخل الجنة، ولكن العباقرة مثل (جوته)، و(روسو)، سوف يحترقون في نار الجحيم؛ فلأن يخلق الإنسان محروم العقل خير له من أن يكون من أمثال جوته وروسو!! ان هذا الكلام تافه وسخيف)

قال صديقنا المؤمن: ما أشبه ما قاله [وينوود ريد] بالموقف الذي اتخذه [اللورد كلوين] تجاه التحقيق العلمي الذي قام به [ماكسويول]؛ فقد زعم اللورد أنه لايستطيع أن يفهم نظرية ما إلا بعد وضع نموذجها الميكانيكي، وبناء على هذا الفرض أنكر نظرية

ماكسويل عن البرق والمغناطيس، لأنها لم تحل في أحد نماذج اللورد المادية..

إن مثل هذه المواقف والادعاءات الخرافية أصحبت غريبة في عالم الطبيعة الحديثة.. وقد تساءل العالم الكبير [سوليفان] قائلا: (كيف يروق لأحد أن يدعي أن الطبيعة لابد أن تكون كما يضعها مهندس القرن التاسع عشر في معمله؟)

وهذا نفسه يقال للأستاذ [وينوود ريد].. حيث يقال له: (كيف يجوز لفيلسوف القرن العشرين أن يرى أن يكون الكون الخارجي، في حقيقة الأمر مطابقا لما يزعمه هو؟)

إنه لم يستطع أن يفهم أمرا في غاية البساطة.. وهو أن الحقيقة لاتحتاج إلى الواقع الخارجي، وانما الواقع الخارجي هو الذي يكون في حاجة إلى (الحقيقة).. فالحقيقة أن لهذا الكون إلها، وسوف نمثل أمامه يوم الحساب.. فلابد لكل منا سواء أكان روسو أم كان مواطنا عاديا أن يكون وفيا ومطيعا لإلهه؛ فنجاتنا لن يحققها جحودنا، بل هي تكمن في إيماننا وطاعتنا.. والغريب أن [وينوود ريد] لم يرق له أن يطالب (جوته) و(روسو) أن يسلكا مسلك الحق، وانما طالب الحق بالتغير.. ولما لم يطع الحق راح ينكره.. وهذا اشبه بمن ينكر قانون حفظ الأسرار العكسرية، الذي يكرم أحيانا جنديا بسيطا، ويعدم عالما ممتازا، مثل (روزنبيرج وعقيلته الحسناء) بالكرسي الكهربائي.

سكت قليلا، ثم قال: لايوجد على سطح الأرض من يفكر في الغد غير الإنسان.. فهو يتميز عن سائر الحيوانات بدوام تفكيره في المستقبل، وجهاده المتواصل، وسعيه الدائب في سبيل تحسين أحواله. ولاشك أننا قد نجد بعض الحيوانات تعمل لمستقبلها؛ كالنمل الذي يدخر غذاءه للشتاء القادم؛ والطيور التي تصنع أعشاشا يسكنها أولادها بعد فقسهم، ولكن هذا العمل لدى الحيوانات صادر عن غير شعور بالمسؤولية؛ لأنها لاتقوم بهذه الأعمال لقلقها من مشكلات الغد، وانما تأتي بها طبيعيا، ومن ثم تنتفع بها في المستقبل فالتفكير في المستقبل يتطلب فكرا مدركا واعيا، وهو من ميزات الإنسان فحسب، ولايتمتع به شيء

من الحيوانات غيره.

هذا الفـرق الكبـير بين الإنسـان والحيـوان يؤكـد أنـه لابـد أن تكون للانسان مواقع أكثر بالنسـبة إلى أي نـوع آخـر للانتفـاع بهـا، فحياة الحيوانات هي ما تسمى (حياة اليوم)، ففكـرة الغـد لاتوجـد عندها، ولكن مطالعة حياة الإنسان تقتضي (غدا)، ولو أنكرنـا هـذه الحاجة لخالفنا الطبيعة.

قلت: أنت تعلم أن بعض العلماء والفلاسفة يعتقدون أن خيبة آمال الإنسان في حياتـه الراهنـة هي الـتي تجعلـه يفكـر في حيـاة أفضل، وهم يرون أن هذا الفكـر سـوف يتلاشـى لـو أتيح للانسـان مجتمع رفاهي كامل، ومن الأدلة الواقعية على ذلك أن عددا كبـيرا من أسرى الروم اعتنقوا المسيحية لأنها وعدتهم بأفراح الســماء.. ولذا تتوقع هذه الطائفة من العلماء والفلاسفة أن سعادة الإنسـان ورفاهية المجتمع سـوف تـزداد أكـثر فـأكثر، إلى أن تقضـي نهائيـا على نظرية العالم الآخر.

قال صديقنا المؤمن: لكن تاريخ الأربعمائة سنة الأخيرة الــتي ازدهرت فيها العلوم والتكنولوجيا يكذب هـذا التوقـع؛ فـان أول مـا هيـأ التقـدم التكنولـوجي للانسـان أنـه أتـاح لـه وسـائل عديـدة، احتكرتها أيد محدودة، قامت بدورها باستغلالها، وقضت على صغار العمال والحرفيين، وحـولت تيـار الـثروات إلى كنوزهـا، وخزائنهـا، وجعلت من الشعب عمـالا فقـراء معـوزين، ويمكن مطالعـة هـذه المناظر القبيحة التي جاءت نتيجة للتقـدم التكنولـوجي، في كتـاب كارل ماركس (رأس المال)، الذي يعتبر ضـجيجا للطبقـة العماليـة التي عاشت القـرنين الثـامن والتاسـع بعـد الألـف، ثم بـدأت ردود فعـل هـذا الضـجيج، وتبعـه كفـاح طويـل، قـامت بـه المنظمـات العمالية، حتى تحسنت الأحوال إلى حد ما.

ولكني أرى أن التغيير الذي طرأ على أحوال العمـال ليس الا ظاهريا؛ فعامل اليوم يتقاضى أكثر مما كان يتقاضاه بـالأمس، أمـا السعادة الحقة، فانه أكثر افتقادا لها من سـلفه.. ذلـك ان النظـام التكنولوجي لم يعط الإنسان أكثر من مظاهر ماديـة، فهـو لايملـك القيم الروحية، حتى يمنح لأتباعه السعادة والطمأنينة القلبية.

لقد اعترف (برتراند راسل) قائلا: (إن حيوانات عالمنا يغمرها السرور والفـرح، على حين كـان النـاس أجـدر من الحيـوان بهـذه السعادة، ولكنهم محرومون من نعمتها في عالمنا الحديث)

***

قلت: دعنـا من علمائنـا وفلاسـفتنا.. فـأنت تعلم مـواقفهم.. وحدثنا عن المصدر المقدس الذي كنت تحدثنا عنه.

قال: لقد دلتنا مصادرنا الموثوقة على هذا.. فهي تبشرنا، كما تبشر كل النفوس بأن الحياة ليست لحظـات تمـر وتنقضـي ليلـف العدم بعدها الوجود.. بل هي دائمة ثابتة مستقرة، قـد تتغـير بعض صورها، ولكنها تبقى ولا تفنى[1].

قلت: والموت.

قال: هو انقضاء لصورة من صـور الحيـاة لتولـد منهـا صـورة جديدة من صورها.

قال رجل منا: ولكن.. ألا ترى أن مثل هـذا ادعـاء عظيم يكـاد يكون أقرب إلى الخرافة منـه إلى الحقيقـة العلميـة؟.. نعم إن أي عقل يحب وجود حياة بعد الموت.. ولكن العلم لا يدل على شــيء من ذلك.

قال آخر بنـوع من الهسـتيرية: لا... لا حيـاة بعـد المـوت، لأن الحيـاة الـتي أعرفهـا لا توجـد إلا في ظـروف معينـة من تـركيب العناصر المادية.. وهذا التركيب الكيماوي لا يوجد بعد الموت، إذن فلا حياة بعـد المـوت.. وبنـاء علي علم الأعصـاب لا يمكن معرفـة العالم الخارجي والاتصال به إلا عندما يعمـل الـذهن الإنسـاني في حالته العادية، وأما بعد المـوت فهـذا الإدراك مسـتحيل، نظـرا إلى بعثرة تركيب النظام الذهني.

رد عليه صديقنا المؤمن بهـدوء: ولكن هنـاك قياسـات أخـرى أقوى من هذا القيـاس؛ وهي تؤكـد أن بعـثرة الـذرات الماديـة في

1() انظر (الإسلام يتحدى) لوحيد الدين خان.

الجسم الإنساني لا تقضي على الحياة؛ لأن (الحياة) شيء آخر، وهي مستقلة بذاتها باقية بعد فناء الذرات المادية وتغيرها.

أنت تعلم أن الجسم الإنساني يتألف من خلايا كثيرة جدا ومعقدة، وهي مثل الطوب الصغير، ينبني منه هيكل أجسامنا.

ولكن الفرق بين طوب أجسامنا والطوب الطيني شاسع جدا، فطوب الطين الذي يستخدم في العمارات يبقي كما هو، نفس الطوب الذي صنع في المصنع، واستخدم في البناء للمرة الأولى، بينما يتغير طوب هياكلنا في كل دقيقة، بل في كل ثانية.

فالجسم الإنساني يغير نفسه بنفسه بصفة مستمرة.. ولذلك، فهو كالنهر الجاري المملوء دائما بالمياه، لا يمكن أن نجد به نفس الماء الذي كان يجري فيه منذ برهة، لأنه لا يستقر، فالنهر يغير نفسه بنفسه دائما، ومع ذلك فهو نفس النهر الذي وجد منذ زمن طويل ولكن الماء لا يبقي، بل يتغير.

وجسمنا مثل النهر الجاري، يخضع لعملية مستمرة حتى أنه يأتي وقت لا تبقي فيه أية خلية قديمة في الجسم، لأن الخلايا أخذت مكانها.

إن عملية فناء الجسم المادي الظاهري تستمر، ولكن الإنسان في الداخل لا يتغير، بل يبقي كما كان علمه وعاداته وحافظته وأمانيه وأفكاره، تبقي كلها كما كانت.

إنه يشعر في جميع مراحل حياته بأنه هو (الإنسان السابق)، الذي وجد منذ عشرات السنين، ولكنه لا يحس بأن شيئا من أعضائه قد تغير، ابتداء من أظافر رجليه حتى شعر رأسه.

ولو كان الإنسان يعني الجسم لكان لازما أن يتأثر علي الأقل بفناء الخلايا وتغيرها الكامل، ولكننا نعرف جيدا أن هذا لا يحدث؛ وهذا الواقع يؤكد أن (الإنسان) أو (الحياة الإنسانية) شيء آخر غير الجسم، وهي باقية رغم تغير الجسم وفنائه، وهو كنهر مستمر فيه سفر الخلايا بصفة دائمة.

قلت: لا يمكن التسليم بهذا الاستدلال، فالعقل، أو الوجود

الـداخلي الـذي نسـميه (إنسـانا) ليس بشـيء آخـر، ولم يوجـد إلا نتيجة علاقـة الجسـم بالعـالم الخـارجي، أمـا الأفكـار والأمـاني فلا توجد خلال العمل المادي إلا كـالحرارة الـتي توجـد نتيجـة احتكـاك قطعتين من حديد.

إن العقـل والمنطـق ينكـران (الـروح) بشـدة، و(الشـعور) لا يوجد كوحدة، وإنما هو وظيفة، وتفاعل وتنسيق.

قال: ما دمت تقول هذا، وما دمت تعتـبر أن هـذه هي حقيقـة الإنسان، فلنجرب أن نخلق إنسانا حيـا ذا شـعور، ونحن ــ اليـوم ـ نعرف بكل وضوح جميع العناصر التي يتألف منها جسـم الإنسـان، وهـذه العناصـر توجـد في الأرض وفي الفضـاء الخـارجي، بحيث يمكننا الحصول عليها.

لم أدر بما أجيبه به، فقال: دعنا من هـذا.. وربمـا سـترى في مستقبل أيامك من يثبت لك وجود الروح بـالمنطق الـذي تفهمـه.. أما نحن الذين من الله علينا بالثقة فيه، فنعلم أن لنا أرواحــا تبقى بعد اختلاط أجسادنا بالتراب.. ونعلم كذلك أن هذه الروح من أمــر الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الاسراء: 85)

إن الله يخاطبنا في هذه الآية بـالمنطق العقلي.. فالعـالم لن يكون عالما حتى يعلم أنه لم يؤت من العلم إلا قليلا.. بل لولا هـذا العلم ما استمر العلماء في الوجود والاستمرار.

الجاهل فقط هو الذي يتصور الأشياء من زاويـة واحـدة.. أمـا العالم فيعلم أن الكون أعمق من أن يحده بتصوراته المحدودة.

دعنـا من هـذا.. ولنتحـدث عن شـيء آخـر.. العقـل السـليم يعتبره من الأدلة المنطقية على امتداد الحياة.

إن الحياة ـ في منطق الكون، وفي منطقنـا نحن المؤمـنين ـ ليست غدوا ورواحا فقط كما صورها فيلسـوفكم (نيتشـه)، والـتي تمتلئ وتخلو كالساعة، ولا هدف لها أكثر من ذلك.

إن الحيــاة (الآخــرة) ذات هــدف عظيم هــو المجــازاة علي

أعمال الدنيا، خيرا أو شرا، سواء كان نية أو قولا أو فعلا.

قال صديقنا الفلكي الذي كان حاضرا معنا ذلك المجلس: نعم.. إن كل ما تذكره من هذا صحيح.. والعلم الآن يسير نحو إثبات هذا.. فأعمال كل إنسان تحفظ وتسجل بصفة دائمة، وبغير توقف، بأبعادها الثلاثة، من النية، والقول، والعمل.

فهذه الأبعاد الثلاثة تسجل بأكملها، فكل حرف يخرج من لساننا، وكل عمل يصدر عن أي عضو من أعضائنا يسجل في الأثير؛ ويمكن عرضه في أي وقت من الأوقات بكل تفاصيله، لنعرف ـ إذا شئنا ـ كل ما قاله أو فعله أي إنسان في هذه الحياة.

إن الأفكار تخطر علي بالنا، وسرعان ما ننساها، ويبدو لنا أنها انتهت، فلم يعد لها وجود ولكنا، بعد فترة طويلة، نراها رؤى خلال النوم، أو نذهب نتكلم عنها في حالات الهستريا أو الجنون، دون أن ندري شيئا مما نقول.

وهذه الوقائع تثبت قطعيا أن العقل أو الحافظة ليست تلك التي نشعر ونحس بها فحسب، وإنما هناك أطراف أخرى من هذه الحافظة لا نشعر بها، وهي ذات وجود مستقل، وذات كيان قائم بنفسه.

قال صديقنا عالم النفس: أجل.. لقد أثبتت التجارب العلمية أن جميع أفكارنا تحفظ في شكلها الكامل، ولسنا قادرين علي محوها أبدا.

وأثبتت هذه التجارب أيضا أن الشخصية الإنسانية لا تنحصر فيما نسميه (الشعور)، بل هناك أجزاء أخري من الشخصية الإنسانية تبقي وراء الشعور، يسميها فرويد: (ما تحت الشعور)، أو (اللاشعور). وهذه الأجزاء تشكل جانبا كبيرا من شخصيتنا، بل هي الجانب الأكبر منها ؛ ومثلها كمثل جبل من الجليد في أعالي البحار، أجزاؤه الثمانية مسكنة تحت الماء، علي حين لا يطفو منه إلا الجزء التاسع، وتلك هي ما نسميه: (تحت الشعور)، الذي يسجل ويحفظ كل ما نفكر فيه، أو ننتويه.

لقد سلم علماء النفس بهذه النظرية بصفة عامة اليوم، ومعناها أن كل ما يخطر علي بال الإنسان من الخير والشر، ينقش في صفحة اللاشعور، فلا يزول إلي الأبد، ولا يؤثر فيه تغير الزمان وتقلب الحدثان، ويحدث هذا على رغم الإرادة الإنسانية ـ طوعا أو كرها.

قال: لو قارنا هذا الواقع مقرونا إلي نظرية الآخرة لاستطعنا أن نصل إلى حقيقتها بسرعة، إن هذا الواقع يؤكد بكل صراحة إمكان وجود سجل كامل لأعمال الإنسان في حيازته، وعندما يبدأ حياته الأخرى، فإن وجوده نفسه سوف يشهد علي الأعمال والنيات التي عاشها.

لقد نص القرآن الكريم على هذه الحقيقة، قال تعالى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (قّ:16)

والأقوال مثل النيات، فجميع ما نلفظه من كلام، حسنا كان أو قبيحا، حمدا أو سخطا؛ سواء استعملنا اللسان في إبلاغ رسالة الحق، أو استعملناه في إبلاغ رسالة الشيطان، كل ذلك يحفظ في سجل كامل، قال تعالى: مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (قّ:18)، وهذا السجل سوف يعرض أمام محكمة ليتم حساب الإنسان.

قال صديقنا الفلكي: إن إمكان وقوع هذا لا ينافي العلم الحديث، فنحن نعرف قطعا أن أحدا عندما يحرك لسانه ليتكلم، يحرك بالتالي موجات في الهواء، كالتي توجد في الماء الساكن عندما نرمي فيه بقطعة من الحجر.

ثم إن آلاف المحطات الفضائية في العالم تذيع برامج كثيرة ليل نهار، وتمر موجات هذه البرامج في الفضاء، بسرعة 186.000 ميلا في الثانية، وكان من المعقول جدا عندما نفتح المذياع أن نسمع خليطا هائلا من الأصوات لا نفهم منه شيئا، ولكن هذا لا يحدث، لأن جميع محطات الإذاعة ترسل برامجها على موجات يختلف طولها، فمنها ما يرسل برامجه علي موجات

طويلة؛ ومنها ما يرسل موجات قصيرة، ومتوسطة.

وهكذا تمر هذه البرامج في الفضاء بموجات مختلفة طولا، فتستطيع أن تسمع أية موجة من المذياع، بمجرد أن تدير عقربه إلي المكان المطلوب.

إن علماءنا لم ينجحوا في اختراع آلة تفرق بين أصوات الزمن القديم، ولولا ذلك لكنا قد سمعنا تاريخ كل عصر وزمان بأصواته، وبناء على هذا يثبت إمكان سماع الأصوات القديمة في المستقبل، فيما لو نجحنا في اختراع الآلة المطلوبة؛ ومن ثم لا تبقي نظرية الآخرة بعيدة عن القياس، وهي القائلة بأن كل ما ينطق به الإنسان يسجل، وهو محاسب عليه يوم الحساب.

إن مناقشتنا لجوانب المسألة لا تنفي وجود مسجلين غير مرئيين، ينقشون علي صفحة الفضاء كل ما ننطق به من الكلام، وهو ما يصدق قول الله تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (قّ:18)

قلت: لم يبق لك إلا أن تبرهن لنا على حفظ العلم كما برهنت على حفظ النية والقول.. فهل تراك ستستدل لهذا من القرآن، أم من العلم الحديث.

قال: من كليهما.. فالقرآن كلام الله.. والعلم هو الحقائق التي ينطق بها الوجود.. ويستحيل على الوجود أن يخالف ما يقوله بارئه.

قال صديقنا الفلكي: صدقت في ثقتك بكلام ربك.. فمعلوماتنا الكونية في هذا الصدد تصدق بصورة مدهشة إمكان ما تذكره من ذلك.. فالعلم الحديث يؤكد بأن جميع أعمالنا، سواء أباشرناها في الضوء، أم في الظلام، فرادي، أم مع الناس، كل هذه الأعمال موجودة في الفضاء في حالة الصور، ومن الممكن في أي لحظة تجميع هذه الصور، حتى نعرف كل ما جاء به إنسان من أعمال الخير والشر طيلة حياته.

فقد أثبتت البحوث العلمية أن كل شيء حدث في الظلام أو

في النور، جامدا كان أو متحركا، تصدر عنه (حرارة) بصفة دائمـة، في كـل مكـان، وفي كـل حـال، وهـذه الحـرارة تعكس الأشـكال وأبعادها تماما، كالأصوات التي تكون عكسا كـاملا للموجـات الـتي يحركهـا اللسـان، وقـد تم اخـتراع آلات دقيقـة لتصـوير الموجـات الحرارية التي تخرج عن أي كائن، وبالتالي تعطي هذه الآلة صورة فوتوغرافية كاملة للكائن حينما خرجت منه الموجات الحرارية.

قال: لقد عبر القرآن الكريم عن هذا التسجيل العجيب، فقال على لسان الذين يناقشون الحساب يوم القيامة: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَـابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْـفِقِينَ مِمَّا فِيـهِ وَيَقُولُـونَ يَـا وَيْلَتَنَـا مَـالِ هَـذَا الْكِتَابِ لا يُغَـادِرُ صَـغِيرَةً وَلا كَبِـيرَةً إِلَّا أَحْصَـاهَا وَوَجَـدُوا مَـا عَمِلُـوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ (الكهف: 49)

قلت: فأنتم تـرون أن كـل مـا نـراه في الكـون أجهـزة تقـوم بتسجيل كامل لكل أعمال الإنسان.

قال: أجل.. فكل ما يدور في أذهاننا يحفظ إلى الأبد، وكل ما ننطـق بـه من الكلمـات يسـجل بدقـة فائقـة، فنحن نعيش أمـام كاميرات تشتغل دائما، ولا تفرق بين الليل والنهار.

لقد ذكر القرآن الكريم هذا، فالله تعـالى أخبرنـا أنـه مـا من صـوت من الأصـوات، ولا عمـل من الأعمـال، ولا حركـة من الحركات، إلا وهي مسـجلة في سـجل الكـون، ومدونـة في كتـاب الوجود، فليس شيء منها ضائعاً ولا يمكن لشـيء منهـا أن يـزول، يقول الله تعالى: ﴿ إِذَا زُلْـزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَـا(1)وَأَخْـرَجَتْ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا(2)وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا(3)يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا(4)بِـأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَـا(5)يَوْمَئِذٍ يَصْـدُرُ النَّاسُ أَشْـتَاتًا لِيُـرَوْا أَعْمَـالَهُمْ(6)فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَـلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ شَـرًّا يَـرَه ﴾ (سورة الزلزلة)

وإذا كان الباحثون في هذا الزمان قد اكتشـفوا أن كـل عمـل محفوظ مسجل على صفحة الوجود، فلماذا سجلت الأعمال إذن؟ ألا تجد العقول جواباً إلا أن تقول سجلت الأعمال لإعادة عرضـها.. ولكنا لا نرى الإعادة في الـدنيا، إذاً لا بـد أن العـرض سـيكون بعـد

هذه الحياة كما نطق الكتاب وقال المرسلون.

قلت: كل ما تذكره من هذا جميل.. ولكن الفطرة التي نتلمسها في نفوسنا تصيح بأن الحياة التي نعيشها هي الحياة الوحيدة والنهائية..

قال: أتتحدث عن فطرتك.. أم تتحدث عن الفطر البشرية؟

قلت: الفطرة البشرية واحدة.. وفطرتي هي فطرة جميع الناس من جميع الأجناس..

قال: ولكن البشرية جميعا بحضاراتها المختلفة، وفي أزمانها المختلفة تكاد تتفق على هذا.. فجميع الحضارات الإنسانية بما فيها الفرعونية المصرية القديمة والبابلية والآشورية والصينية والزرداشتية والهندية واليونانية واليهودية والنصرانية والإسلام تتفق في أن الموت ليس هو نهاية الحياة.

قلت: ولكنهم يختلفون بعد ذلك.. يختلفون كثيرا.. هل تعود الروح إلى هذا الجسد، أم تعود إلى جسد آخر.. كما تختلف في كيفية خروجها وخلوصها من هذا البدن.. فالبوذيون والهنادكة والشنتو يعتقدون أن الروح تظل حبيسة في الجسد وبالذات في الجمجمة عند الموت، وأنها لا تنطلق إلا بعد حرق الجثة وانفجار الجمجمة ولذا تراهم يحرقون جثث موتاهم.. والهنادكة والبوذيون يعتقدون بتناسخ الأرواح، وأن الروح الشريرة تعاد في جسد حقير مثل الكلب والخنزير، وتظل في تلك الدورات حتى تتطهر، وأن الروح الصالحة الخيرة تظل تنتقل في الأجساد الخيرة حتى تصل مرحلة النرفانا، وهي السعادة الأبدية المطلقة في الروح المتصلة بالأبد والأزل كما يزعمون.

قال: لا يهم ذلك الاختلاف.. نحن نبحث فقط في اتفاقهم رغم اختلافهم وتنوعهم على امتداد الحياة، وهذا يظهر من ملاحمهم وأشعارهم وأساطيرهم.

قلت: لقد ذكرت مذاهب الأمم في هذا، ولم تذكر رأي الإسلام فيها.. أتراك تستحيي من ذكره؟

قال: لا.. بل إن الحقائق التي جاء بها الإسلام في هذا هي الحقائق المنطقية التي تنسجم مع العقول السليمة [1]..

إن نصوصنا المقدسة تتحدث عن هذه المسألة الخطيرة التي تتوقف عليها سعادة البشر بكل عقلانية.. إنها لا تخاطبنا فقط بما يملأ نفوسنا من الرغبة والرهبة، وإنما تخاطب محال التحليل الواعي فينا.

ولن يكفي هذا المقام لذكر كل ما ورد في نصوصنا من ذلك، ولكني أكتفي ببعض ما ترشد إليه من الأدلة العقلية على امتداد الحياة، لأن وعينا بهذا الامتداد هو الذي يجعلنا نتقبل بعد ذلك كل ما جاءت به النصوص من الأحداث التي تحصل فيه.

لعل أول ما نراه في القرآن الكريم من الأدلة العقلية على ذلك ما يمكن تسميته ببرهان المماثلة، فالعالم المماثل لهذا العالم ممكن الوجود، لأن هذا العالم ممكن الوجود، وحكم المثلين واحد، فلمّا كان هذا العالم ممكناً وجب الحكم على الآخر بالإمكان.

هذا دليل عقلي لا شك فيه.. ونحن نستخدمه كثيرا في حياتنا، فإذا سمعنا بأن شركة ما أنتجت منتوجا حسنا لا نستغرب أن تنتج مثله أو ما هو أحسن منه.

ولهذا، فإن القرآن الكريم يستدل بالمساواة بين الإحياء في الدنيا والإحياء في الآخرة، وذلك من خلال نمطين في المماثلة.

أولهما: مماثلة النشأة الأُولى من العدم بالنشأة الآخرة، كما قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (الروم: 27)

وثانيهما: مماثلة إحياء الأرض بعد موتها بالإحياء في الآخرة، كما قال تعالى: فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

[1] () انظر هذه الأدلة في (توحيد الخالق) للزنداني.

(الروم:50)، فهذه الآية الكريمة تقرّر أن حُكم الأمثال واحد، فإذا تحقّق الإحياء في الأرض بعد موتها، أمكن تحققه في الإنسان بعد موته، وفي غيره من الأحياء.

فتبين إذن أن العقل يحكم بتساوي الأمثال في الحكم، ومنه يتبيّن أن القادر على الإحياء الأول قادر على الإحياء الآخر ؛ لأنهما مثلان.

هذا برهان المماثلة..

هناك برهان آخر يستدل به القرآن الكريم يمكن تسميته بـ (**برهان القدرة**)، فكل شيء في الكون يدل على قدرة الخالق العظيم غير متناهية، وما دامت كذلك، فيجوز في العقل أن تتعلق بكل شيءٍ مقدور، يستوي في ذلك السهل والصعب على السواء، نرى ذكر هذا كثيرا في القرآن الكريم.. فكثيرا ما نقرأ هذه الفاصلة إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، ولهذا أشارت الآيات القرآنية إلى صورتين من الاستدلال على المعاد، بذكر عموم القدرة الإلهية وعدم تناهيها:

تتمثل أولاهما في بيان قدرته تعالى على المعاد في الآخرة مرتباً على ذكر المبدأ في الأُولى في آيات كثيرة، إشارة إلى أن القادر على الإيجاد من العدم ابتداءً قادر على إعادة الموجود.. بل هو أقدر على ذلك، قال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (العنكبوت:19 ـ 20)

وقال تعالى: وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (51) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (52) (الإسراء)

وقد بيّن تعالى أن قدرته على الخلق الأول والخلق الجديد

من حيث الامكان والتأتّي، كخلق نفسٍ واحدةٍ، فقال تعالى: مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (لقمان: 28)

وتتمثل الثانية في بيان قدرته تعالى على المعاد في الآخرة مرتّباً على ذكر خلق السماوات والأرض، قال تعالى: أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُون (يّس:81 ـ 82)

والقرآن الكريم ينص على أن خلق الإنسان في نفسه أسهل وأهون من خلق السماوات والأرض، قال تعالى: لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (غافر:57)

هذا برهان القدرة..

هناك برهان آخر يستدل به القرآن الكريم يمكن تسميته بـ (**برهان الحكمة**)، فالله تعالى حكيم في أفعاله.. وكل الكون يدل على ذلك.. فالمنظومة الكونية في نظامها العجيب تسير بكل جزئياتها وفق حركة هادفة، وتتّجه صوب نهاية مرسومة بدقة وإحكام، يقول الله تعالى في تقرير هذا الدليل: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (المؤمنون:115)، وقال تعالى: أَيَحْسَبُ الإنسان أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (القيامة:36)

فلو كان الإنسان ينعدم بالموت، دون أن تكون هناك نشأة أُخرى يعيش فيها بما له من سعادة أو شقاء، لكان خلقه في هذا العالم عبثاً وباطلاً.

هذا برهان الحكمة..

هناك برهان آخر يستدل به القرآن الكريم يمكن تسميته بـ (**برهان العدالة**)، فالله تعالى ــ على حسب ما تدل نصوصنا المقدسة ـ جعل الحياة الدنيا دار امتحان وابتلاء للإنسان، ووهبه النوازع الخيّرة إلى جنب النوازع الشريرة، لتتمّ بذلك حقيقة

الابتلاء، وأعطاه العقل الذي يميّز بين الخير والشر، وبعث له الأنبياء والرسل ليحدّدوا له طريق الخير وطريق الشرّ، ثم كلّفه باتباع سبيل الخير والحق، وتجنّب سبيل الشرّ والباطل، وأعطاه الإرادة والاختيار ليستحقّ الثواب أو العقاب، قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (هود:7)، وقال تعالى: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (الملك:2)، وقال تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (الانبياء:35)

وعلى هذا فإن واقع الحياة الدنيا بما يحمل من متناقضات هو امتحان وابتلاء، وليس فيه ما يصلح للمكافأة والجزاء، وبما أن ضرورة التكليف تقتضي ضرورة المكافأة، لذا يجب المعاد ليجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وإلاّ لبطلت فائدة التكليف، ولكان عبثاً ولغواً.

والله على حسب ما تدل عليه صنعته هو العدل الذي لا حدود لعدله.. ولذلك فإن الله يستدل بعدله على امتداد الحياة ليجازى المحسن بإحسان، ويجازى المسيء بإساءته، قال تعالى: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحياهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (الجاثية:21)، وقال تعالى: وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى(134)قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنْ اهْتَدَى(طه: 134 ـ 135)

هذا برهان العدالة..

هناك برهان آخر يستدل به القرآن الكريم يمكن تسميته بـ (**برهان الرحمة**)

إن الرحمة تقتضي أن يكرم الله خلقه بما تتطلبه حاجاتهم.. وأنت ترى هذا في الحياة، فالله أعطى لكل شيء خلقه الكامل،

ووفر له حاجاته بكرم عظيم.. لقد خلق الله كل جزء من أجزاء الإنسان، وخلق له ما يكفيه: خلق القلب وخلق له من الدماء ما تكفيه، وخلق المعدة وخلق لها من الطعام ما يكفيها، وخلق العين، وخلق لها من الضوء ما يكفيها وهكذا.

ولا نجد شيئاً في الإنسان ليس له ما يكفيه إلا تلك الآمال الواسعة، فإنه لا يكفيها من العمر إلا الخلود، ولا يكفيها من الحاجات إلا أن تحصل على كل ما تشتهي.

وإذا رأينا الحياة الدنيا لم نجد فيها الكفاية لهذا الجانب الهام من كيان الإنسان، فلماذا خلقت الآمال والواسعة في الإنسان إذن وما يكفيها؟!

إذا رأيت آلة من الآلات قد جهزت مستلزماتها، ثم وجدت فتحة كبيرة في هذه الآلة، فلا شك أنك ستقول: إن صانع هذه الآلة صانع حكيم، ولا يمكن أن يكون قد صنع هذه الفتحة عبثاً، وإذا كنت شاهداً أنها بحاجة إلى غطاء، فلا شك أن الصانع قد صنع لها غطاء وإذا كان غير موجود الآن فربما كان في مكان آخر، وإذا لم يأت من الصانع إلا هذا فالراجع عقلاً أن الغطاء سوف يأتي وربما تأخر في الطريق.

وهل يبقى لك شك إذا وصلتك رسالة من الصانع تخبرك بالغطاء، وأنه سيأتي إليك؟ هل يبقى في قلبك شك؟

قال تعالى معبرا عن هذا البرهان: الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (الكهف:46)، وقال تعالى: وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (الأنبياء:102)[1]

الامتداد الروحي:

بعد أن أنهى حديثه عن الامتداد الزماني قلت له: وعيت مرادك بالامتداد الزماني، فحدثنا عن امتداد آخر من امتدادات الحياة التي

1() هناك تفاصيل كثيرة أخرى ترتبط بالحياة الآخرة، وما يتعلق بالبرهنة عليها من أدلة، وما يميز العقيدة الإسلامية في هذا الجانب، وقد تحدثنا بتفصيل عن ذلك في (أسرار الحياة).

لم نتعلمها في علومنا الحديثة.

قال: الامتداد الـروحي.. فنحن لا نـدرك من الحيـاة إلا جانبهـا الجسدي الظاهري السطحي، ونغفـل عن أهم جـزء من أجزائهـا.. وهو الروح.

قلت: ما تقصد بالروح؟

قال [1]: ألا ترون أن الإنسان ذو طبيعة مزدوجة.. فله طبيعة خارجية ظـاهرة مشـهودة هي جسـده.. وهي تتصـف بكـل صـفات المادة، فهي قابلة للوزن والقياس، ومتحيزة في المكان، ومتزمنة بالزمان.. ودائمة التغـير والحركـة والصـيرورة من حـال إلى حـال ومن لحظة إلى لحظة.. وملحق بهذه الطبيعة الجسدية شريط من الانفعـالات والعواطـف والغرائـز والمخـاوف لا يكـف لحظـة عن الجريان في الدماغ.. ولأن هذه الطبيعـة والانفعـالات الملحقـة بهـا تتصف بخواص المادة نقـول إن جسـد الإنسـان ونفسـه الحيوانيـة هما من المادة..

ولكن هناك طبيعة أخرى مخالفة تمامـا للأولى، ومغـايرة لهـا في داخـل الإنسـان، وهي طبيعـة من نـوع آخـر تتصـف بالسـكون واللازمان واللامكان والديمومة..

قلت: ما هي.. وكيف لا نراها؟

قال: إنها العقل بمعاييره الثابتة وأقيسته ومقولاته.. والضمير بأحكامه.. والحس الجمالي، والـ [أنا] التي تحمل كل تلك الصفات من عقل وضمير وحس جمالي وحس أخلاقي.

قلت: أليست الـ [أنا] هي هذا الجسد؟

قال: لا.. الــ [أنـا] هي الـذات العميقـة المطلقـة.. وهي تلـك التي نشعر بها شعورا ثابتا ممتدا لا يطـرأ عليـه التغـير، فــ [أنـا] لا يسمن ولا يهزل ولا يمرض ولا يتصف بالزمـان.. وليس فيـه مـاض وحاضـر ومسـتقبل.. إنمـا هـو آن مسـتمر لا ينصـرم كمـا ينصـرم

---

[1] اقتبسنا بعض الحـوار الـوارد هنـا من كتـاب: حـوار مـع صـديقي الملحـد، مصـطفى محمود.

الماضي.. وإنما يتمثل في شعور بالدوام والديمومة.

والـ [أنا] الذي هـو حقيقـة الإنسـان، نـوع آخـر من الوجـود لا يتصف بصـفات المـادة، فلا يطـرأ عليـه التغـير، ولا هـو يتحـيز في المكان، أو يتزمن بالزمان، ولا هو يقبل الوزن والقيـاس.. بـل إننـا بالعكس نجـده هـو الثـابت الـذي نقيس بـه المتغـيرات، والمطلـق الذي نعرف به كل مـا هـو نسـبي في عـالم المـادة.. ولـذلك فـإن أصدق ما نصف به هذا الوجود هو أنه روحي وأن طبيعته روحية.

قلت: ولكن علماءنا علماء الطبيعـة يـذكرون أن الإنسـان هـو جسـده، وأن الجسـد هـو الحـاكم وأن كـل مـا ذكـرت من عقـل ومنطق وحس جمـالي وحس أخلاقي وضـمير وهـذه الـتي اسـمها الذات أو الـ [أنا] كل هذه ملحـق بالجسـد، ثـانوي عليـه، تـابع لـه، يأتمر بأمره، ويقوم على خدمته، ويتولى إشباع شهواته وأهوائه.

قال: هذا كلام الماديين، وهو غير صحيح.. والأدلة كلهـا تشـير إلى أنه مجرد أوهام.. فالحقيقة بكل براهينها تدل على أن الجسـد تابع وليس متبوعا.. مأمور وليس آمرا..

ألا ترون أن أجسادنا تحن إلى طعام معين، ومع ذلـك نـرفض إمدادها بما تريده.. وهكذا ترون الـذي يضـحي بجسـده في سـبيل إنقاذ الآخرين.. فـأين جسـده هنـا؟.. وأين المصـلحة الماديـة الـتي يحققها بموته؟.. ومن الذي يأمر الآخر؟

وعنـدنا اليـوم أكـثر من دليـل على أن الجسـد هـو الوجـود الثـانوي.. فمـا يجـري الآن من حـوادث البـتر والاسـتبدال وزرع الأعضاء.. وما نقرأه عن القلب الإلكتروني والكلية الصناعية وبنـك الدم وبنك العيون ومخازن الإكسسوار البشري حيث يجري تركيب السـيقان والأذرع والقلـوب.. إلى الدرجـة الـتي يجـري فيهـا فـك الجسم وتركيبه واستبداله دون أن يحدث شيء للشخصية..

وسبب ذلك هو أن هذه الذراع أو تلك السـاق أو ذلـك الشـعر أو العين كلها ليسـت هي الإنسـان.. فهي تنقـل وتسـتبدل وتوضـع مكانها بطاريـات ومسـامير وقطـع من الألومـنيوم دون أن يحـدث شيء.. فالإنسان ليس هذه الأعضاء، وإنما هو الروح الجالسة على

عجلة القيادة لتدير هذه الماكينة التي اسمها الجسد.

قلت: فالإنسان في رأيك هو الإدارة التي تمثلها خلايا المخ؟

قال: المخ مثله مثل خلايا الجسد يصدع بـالأوامر الـتي تصـدر إليه، ويعبر عنها، ولكنه في النهاية ليس أكثر من قفـاز لهـا.. قفـاز تلبسه هذه اليد الخفية التي اسمها الروح وتتصرف بــه في العـالم المادي.

قلت: أنت تريد أن تقول بهذا أن الإنسان له طبيعتان: طبيعـة جوهرية حاكمة هي روحه.. وطبيعة ثانوية زائلة هي جسده.

قال: أجل.. ومـا يحـدث بـالموت أن الطبيعـة الزائلـة تلتحـق بالزوال، والطبيعة الخالدة تلتحق بالخلود، فيلتحق الجسد بـالتراب وتلتحق الروح بعالمها الباقي.

قلت: ولكن كيف لا نستطيع إدراكها؟

قال: ألا ترون أننا لا نستطيع رصد الحركة إلا من خارجها.

قلت: كيف ذلك.. وما دلالته على ما تقول؟

قال: لا يمكننا أن ندرك الحركـة، وأن نتحـرك معهـا في نفس الفلك، وإنما لا بد من عتبـة خارجيـة نقـف عليهـا لرصـدها.. ولهـذا تأتي علينا لحظـة ونحن في مصـعد متحـرك لا نسـتطيع أن نعـرف هـل هـو واقـف أم متحـرك، لأننـا أصـبحنا قطعـة واحـدة معـه في حركتــه.. ولا نســتطيع إدراك هــذه الحركــة إلا إذا نظرنــا من بــاب المصعد إلى الرصيف الثابت في الخارج.

وهكذا لا نستطيع أن نحيط بحالة إلا إذا خرجنا خارجها.. ولهذا ما كنا نستطيع إدراك مرور الزمن لولا أن الجزء المدرك فينا يقف على عتبة منفصلة وخارجة عن هذا المرور الزمني المستمر ــ أي على عتبة خلود ـ ولو كان إدراكنـا يقفـز مـع عقـرب الثـواني كـل لحظة لما استطعنا أن ندرك هذه الثـواني أبـدا، ولا نصـرم إدراكنـا كما تنصرم الثواني بدون أن يلاحظ شيئا.

وهي نتيجة مذهلة تعني أن هناك جزءا من وجودنا خارجـا عن

إطار المرور الزمني، وهـو الـذي يلاحـظ الـزمن من عتبـة سـكون ويدركه دون أن يتورط فيه، ولهذا لا يكبر، ولا يشيخ، ولا يهـرم، ولا ينصرم.. ويوم يسقط الجسـد ترابـا سـوف يظـل هـذا الجـزء على حاله حيا حياته الخاصة غير الزمنية، هذا الجزء هو الروح.

كنا مندهشين لكل ما يقول، لكننا نجد فيه قوة في الاستدلال لا يمكن رفضها بسهولة..

استأنف صاحبنا المؤمن قوله، وهو يشير إلينا جميعا: كل منـا يستطيع أن يحس بداخله هذا الوجود الروحي على صـورة حضـور وديمومة وشخوص وكينونة مغايرة تمامـا للوجـود المـادي المتغـير المتقلب النابض مع الزمن خارجه.

هذه الحالة الداخلية التي ندركها في لحظات الصحو الباطني، والتي يمكن تسميتها حالة حضـور.. هي المفتـاح الـذي يقودنـا إلى الوجود الروحي بـداخلنا، ويضـع يـدنا على هـذا اللغـز الـذي اسـمه الروح...

سكت قليلا، ثم قال: دليـل آخـر على طبيعتنـا الروحيـة، وهـو شعورنا الفطري بالحرية، ولو كنا أجساما مادية ضـمن إطـار حيـاة مادية تحكمنا القوانين المادية الحتمية لما كـان هنـاك معـنى لهـذا الشعور الفطري بالحرية.

طاقات الروح:

خرجنا من عنده.. ونحن نختلف عما كنا عليه، وقد سـلك كـل واحد منا بعد ذلك سبيلا من السبل للبحث عن الحقيقة..

أما أنا فقد وفر الله لي حينها فرصا كثيرة لتأكيد كل الحقـائق الـتي ذكرهـا صـاحبنا المـؤمن، وقـد هـداني اللـه بواسـطتها إلى الإيمان.. بل إلى أكبر تجل للإيمان الصادق الذي يتوافق فيه العقل والفطـرة والعلم، وهـو الإسـلام.. على منهجـه المحمـدي الأصـيل الذي لم تطله أيدي التحريف والتزييف والتشويه.

طبعا.. لن أحـدثكم عن كـل ذلـك.. فهـذا المجلس ومجـالس كثيرة لا تفي به.. ولكني سـأكتفي بمجلس من المجـالس جمعـني

بثلة محترمة من العلماء.. كان فرصة لتأكيد الحقائق التي ذكرها صديقنا المؤمن حول الروح وطاقاتها الكثيرة.. وضعف الجسد أمامها.. بل تحوله إلى خادم بسيط من خدمها.

كان أول المتحدثين في ذلك المجلس عالم متخصص في وظائف الأعضاء، وكان مؤمنا وصل إلى الإيمان بعد بحث طويل في مجال تخصصه وغيره من التخصصات.

قال لنا[1] ـ وهو يقدم المقدمات المختلفة ليوضح لنا الأدلة على وجود الروح وطاقاتها المختلفة ـ: تذكروا جيدا أنه في الواقع الفعلي لا يوجد أي ألوان أو أصوات أو صور داخل أدمغتنا.. فكل ما يوجد هناك مجرد إشارات كهربائية.. ولذلك فإن أي منظر طبيعي ترونه، أو أي موسيقى تسمعونها، أو طعام تجدون مذاقه، كل ذلك يتكون نتيجة لانتقال إشارات كهربائية إلى المخ..

قلت: أتقصد أن العالم الخارجي غير موجود؟

قال: معاذ الله أن أقول ذلك.. فالعالم لن تأتي نهايته إذا توقفت الحواسّ الخمس عن إرسال إشارات كهربية للمخ.. في هذه الحالة، سينتهي العالم بالنسبة لك فقط، لأنك تدرك وجود العالم من حولك عن طريق تفسير عقلك للإشارات الكهربية المرسلة إليه.

قلت: لم أفهم ما تعني.. هل لك أن توضح أكثر؟

قال: سأنقل لك ما قالت الكاتبة العلمية [ريتا كارتر] حول تصور العالم في كتابها [تخطيط العقل]، فلعل أسلوبها في نقل الأفكار أحسن من أسلوبي، فقد قالت: (يتكيف كل عضو من أعضاء الحس بصورة محكمة على نوع محدد من المحفزات، كالجزيئات، أو الموجات، أو الاهتزازات.. ولكن الإجابة لا تكمن هنا، لأنه برغم اختلاف تلك الأعضاء، إلا أنهم يقومون جميعاً بنفس العمل، أي ترجمة أحد أنواع المحفزات التي يستقبلها إلى نبضات كهربائية.. تلك النبضات هي عبارة عن طاقة كهربائية، أي أنها ليس لها لون أو ما شابه.. أي أن أعضاء الحس تقوم بترجمة

---

[1] استفدنا المادة العلمية الواردة هنا من كتاب: معضلة داروين: الروح هارون يحي.

المـدخلات الحسـية بمختلـف أنواعهـا إلى نـوع واحـد، ألا وهـو الإشارات الكهربائية)

بعد ذلك، تصل جميع المحفزات الحسـية إلى المخ على هيئـة نبضات كهربائية أنشأتها الخلايا العصـبية وهي ذات مسـار محـدد.. وهذا كـل مـا يحـدث، فلا يوجـد محـوِّل عكسـي لإعـادة الإشـارات الكهربائية في مرحلة ما إلى موجـات ضـوئية أو جزيئـات.. وهكـذا فإن ما يفرّق بين تيار كهربائي وآخر، فيجعل أحدهما صورة والآخر رائحة، هو نوع الخلايا العصبية التي يتم تحفيزها.

ثم التفت إلي، وقـال: ألا تـرى أن هـذا الأمـر مـذهل.. فـأي إحسـاس أو صـورة أو طعم أو رائحـة نسـتقبلها تتكـون من نفس الشيء، ألا وهو إشارات كهربائية.. الأجزاء المعينـة في المخ الـتي تتأثر بهذه الإشـارات تفسـرها إلى طعـام لذيـذ، أو منظـر طـبيعي خلاب، أو موسيقى..

لكن لابد أن يكون ثمّة كائن مختلفا تماما يشعر بهذه الأشـياء ويراها، فـالمخ والإشـارات الكهربائيـة لا يمكنهم تـذوق الطعـام أو رؤية اللون، أو شم رائحة الزهور.

وهـذا الكـائن هـو الـروح، وهي مختلفة تمامـا عن المخ، فهي التي تدرك وتقيم ما تستقبله حواسنا.

قال رجل منا: إن هذا صعب الاستيعاب.

قال العـالم: ولكن هـذا مـا تـدل عليـه جميـع الأبحـاث.. فقـد وصـف الـدكتور [جيفـري م. شـوارتز] كيـف ينشـأ الإدراك بشـكل مستقل عن المخ، فقال: (كل موقف تمر به لديه شعور معين، بل وقد يكون شعوراً فريداً، فعندما تقضم شطيرة من الهامبرغر تجـد طعمها مختلفاً عن شريحة من اللحم.. كما أن أي شعور بالمـذاق، يختلف تماماً عن سماعك لمقطوعة موسيقية، أو رؤيتـك لعاصـفة برقيّة.. فالمكان الذي ينشئ اللون الأحمر في القشرة البصـرية لا علاقة لـه بتفسـير شـعورنا بـاللون الأحمـر، أو سـبب كـون اللـون الأحمر يختلف عن تذوق طعام ما، أو سـماع مقطوعـة موسـيقية، خصوصاً أن كل تلك الأمور تؤدي إلى إرسال إشـارات عصـبية إلى

القشرة الدماغية المسئولة عن الشعور.. وحتى التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي لا يتيح لنا معرفة أي شيء غير الأساس المادي للإدراك أو الوعي، فلا يعطي تصوراً قريباً يشرح ما يحدث بالداخل.. كذلك لا يمكننا من خلاله أن نعرف شعور شخص ما باللون الأحمر. كيف يمكننا أيضاً معرفة إذا ما كان شعور هذا الشخص مشابهاً لشعور باقي البشر؟ ولماذا لا تستطيع دراسة الجزيئية لآليات عمل المخ تقديم إجابة على هذه الأسئلة؟)

وهكذا قال [بيتر راسل]: (في كل مرة نحاول التمسك بالجانب المادي لا نأتي بأية نتائج، وكل الأفكار التي كانت لدينا عن المادّية أُثبت خطأها.. لكن إيماننا بالعالم المادي لا زال راسخاً ومدعماً بقوة من قِبَل خبراتنا لدرجة أننا نتمسك باعتقادنا بأنه يجب أن يكون هناك جوهر مادّي.. الأمر مشابه لعلماء الفلك في القرون الوُسطى الذين اعتقدوا ولم يشككوا في افتراضهم بأن الأرض هي مركز الكون، كذلك نحن لا نشكك في افتراضنا بأن العالم الخارجي هو ماديّ في طبيعته.. لقد اندهشت للغاية عندما أدركت أن الجواب قد يكون موجوداً أمام أعيننا.. قد لا يوجد أي شيء في العالم فعلاً، لا جانب مادي.. قد يكون الجانب العقلي فقط هو الموجود)

إن هذه الشهادات وغيرها كثير، وهي من علماء مختصين تدل على أن الوعي خاصية تنتمي إلى الروح فقط.. فمن خلال الروح، يكون الإنسان كياناً قادراً على التفكير والإدراك، واتخاذ القرارات..

بعد أن انتهى عالم وظائف الأعضاء من حديثه تحدث طبيب عيون، وقال: صدقت صديقي العزيز.. فالأبحاث المرتبطة بآلية الإبصار كلها تدل على ذلك.. وقد قال [كريج هاميلتون] يعبر عن ذلك: (كيفية حدوث ذلك هو مثال على ما يعرف بـ [مشكلة الربط]، وهي لغز لم يستطع أحد إيجاد حل مقنع لها حتى الآن.. رغم ذلك، من المهم أن نعرف أن كل عين من العينين ترى جزءاً مختلفاً من الصورة، ويقوم الدماغ بجمع الصورتين معاً إلى صورة واحدة)

وهذا التفسير يعطينا وصفاً عاماً للطريقة التي ترى العين بها، حيث تمثل العين المرحلة الأولى في تشكيل الصورة.. حيث يُنسَخ العالم الموجود بالخارج داخلنا في منطقة صغيرة جداً في الدماغ، وذلك بسبب الضوء الذي يمر خلال أعيننا، وعن طريق الإشارات الكهربائية التي تنتقل إلى الدماغ، وعندما ننظر حولنا، فإن الصور التي نراها حتى ولو كانت صورة السماء التي لا حدود لها تتكون في منطقة صغيرة جداً في الدماغ، ومن المستحيل أن نعرف إذا ما كانت الصورة الأصلية تطابق التي نراها أم لا.

لقد لخص [بيتر راسل] ذلك، فقال: (عندما أرى شجرة، أشعر بأنني أراها مباشرة، لكن العلم يخبرنا أن شيئاً مختلف تماماً يحدث.. فالضوء الذي يدخل العين يحفز عمليات كيميائية في الشبكية، فتنتج نبضات كهروكيميائية تنتقل عبر الألياف العصبية إلى الدماغ، ثم يقوم الدماغ بتحليل البيانات التي يتلقاها، ويكوِّن صورة عمّا هو في الخارج، وبالتالي أشعر برؤية الشجرة، لكنني لا أرى الشجرة نفسها في الواقع، وإنما أرى الصورة التي تظهر في العقل فقط، ينطبق هذا على كل شيء تراه، كل شيء تعرفه وتدركه وتتخيله، أي لون أو صوت أو إحساس أو تفكير، أو شعور.. كل هذا يعتبر ناتجاً عن الوعي)

قال له رجل منا: بما أننا لا نرى العالم الخارجي الأصلي بشكل مباشر، وبما أن كل شيء هو عبارة عن تصور ينشأ في الدماغ، فهل العين هي التي ترى بالفعل؟

قال: خلال حياتنا، نعتقد أننا نرى العالم الواقع خارجنا عن طريق أعيننا.. لكن الوصف العلمي للوظائف البصرية التي يقوم بها الدماغ، يوضح أن العين ليست هي التي ترى.. فالعين وملايين الخلايا العصبية في شبكية العين يعملون على نقل رسالة إلى الدماغ لكي تحدث الرؤية، ذلك أن العين تستطيع إدراك الفوتونات التي تقع عليها، ثم ترسلها إلى الدماغ عن طريق تحويلها إلى إشارات كهربائية.. أي أننا نرى موجات الضوء التي تقع على خلايا شبكية العين، والتي تتكون من الدهون والبروتين والماء، والإشارات الكهربائية التي تنقلها. في الدماغ، كل ما يوجد

هو عبارة عن إشارات كهربائية.. فليس في الدماغ أطفالا يلعبون في الحديقة، ولا سماء مشمسة، ولا سفنا تسير عبر الأمواج.

وعندما نقوم بفحص الدماغ بشكل دقيق للغاية، نجد أن الخلايا العصبية تتفاعل مع بعضها البعض، ونجد أن المواد الكيميائية والإشارات الكهربائية تنتقل بينها.. لكن داخل الدماغ، لا يمكنك أن تجد ألواناً أو أشكالاً أو نصوصاً أو أي شيء ينتمي للعالم الخارجي.. لن تجد بداخله أوراقاً خضراء، ولا حشوداً من الناس تتسوق، ولا منازل ولا سيارات ولا أثاثا.

والعلماء الذين يزعمون أن الصور موجودة داخل الدماغ، سيعجون عن الإجابة عن هذا السؤال: إذا كانت الصورة تتكون في الدماغ، من الذي يرى هذه الصورة إذاً؟

قال أحد أصحابنا، وهو عالم أعصاب: صدقت في هذا، وقد قال [فيلايانور راماشاندران]، وهو مدير مركز الدماغ والإدراك وأستاذ بقسم علم النفس وبرنامج علم الأعصاب في جامعة كاليفورنيا في سان دييجو، يحكي هذا السؤال: (إذا أردت أن تعرض صورة كوب على شاشة عصبية داخلية، سوف تحتاج إلى شخص آخر صغير داخل الدماغ لرؤية تلك الصورة.. وهذا لن يحل المشكلة لأنك ستحتاج إلى شخص آخر أصغر حجماً ليكون بداخل رأسه ليرى تلك الصورة، وهكذا إلى ما لا نهاية.. سوف ينتهي الحال بك بأعين وصور وأشخاص صغيرين لا نهائيين، دون أن تحل مشكلة الإدراك)

وبما أنه لا يوجد كيان يشاهد الصور داخل الدماغ، إذاً الفرض بأن هناك صورة داخل الدماغ هو فرض غير واقعي وغير منطقي.. فداخل الدماغ مظلم تماماً، فلا يوجد أي ضوء أو صوت.. داخل الدماغ لا توجد ألوان زاهية، أو زهور جميلة، أو مواقد تعطي الشعور بالدفء، أو طيور مغردة.

قال طبيب الأذن: كما أنه لا توجد الصور في أدمغتنا.. كذلك لا وجود للأصوات فيها.. فعملية السمع تشبه عملية الرؤية، فالمعلومات التي تصلنا كصوت هي مجرد إشارات كهربائية، تماماً

مثل الصور.. حيث تجمع الأذن الخارجية موجات الصوت من حولنا وترسلها إلى الأذن الوُسطى، والتي تقوم بتقوية الاهتزازات وإرسالها إلى الأذن الداخلية، والتي تقوم بتحويل هذه الاهتزازات إلى إشارات كهربائية اعتماداً على ترددها وتركيزها، ثم ترسلها إلى الدماغ.

وفي الدماغ، يتم إرسال هذه الإشارات إلى مركز السمع حيث يتم معالجتها وتحليلها، وهذه هي آلية حدوث السمع.

لقد قال [بيتر راسل] يصف ذلك: (ينطبق الشيء نفسه على الصوت. عندما قال الأسقف بيركلي أن لا شيء موجود خارج تصوراتنا، وأتبع ذلك بنقاش قوي حول ما إذا كان سقوط شجرة سيصدر صوتاً أم لا إذا لم يكن أحد موجود ليستمع إليه. في ذلك الوقت، لم يكن معروفاً كيفية انتقال الصوت خلال الهواء، ولا آلية عمل الأذن والمخ. اليوم، نحن نعرف الكثير عن ذلك، وإجابة السؤال بكل وضوح هي لا، فلا يوجد أي صوت في الواقع المادي، فقط موجات تنتقل في الهواء. الصوت موجود في عقل الكائن المدرك فقط، سواء كان هذا الكائن إنساناً أو طائراً، أو غزالة أو نملة)

فالأصوات مثل الصور المرئية لا توجد داخل الدماغ.. كل ما نجده في الدماغ هو عبارة عن إشارات كهربائية.. فكل الأصوات التي نعتبرها حقيقية هي ناتجة عن هذه الإشارات الكهربائية الموجودة في الدماغ.. ففي الواقع، هناك صمت عميق داخل الدماغ.

لقد شرح [بيتر راسل] ذلك، فقال: (أسمع موسيقى الكمان، لكن الصوت الذي أسمعه هو عبارة عن خاصية تظهر في العقل.. ليس هناك أي صوت في العالم الخارجي، فقط يوجد جزيئات الهواء المهتزّة)

قال صديق آخر لنا كان عالم نفس: ونفس الشيء ينطبق على الروائح والطُعوم، فهي تنشأ داخل عقولنا فقط.. ذلك أننا نعتقد أن الآخرين يشمّون نفس الرائحة التي نشمها، ونعتقد أن

لدينا نفس الإحساس.. لكن كل هذا مجرد تخمين، فما يصل إلينا بالفعل هي جزيئات الرائحة، والتي يتم تحويلها إلى إشارات كهربائية، كما هو الحال مع الصورة والصوت.

فما نشير إليه بـ [الرائحة] هي خليط معقد من الإشارات الكهربائية، إذ أن جزيئات الرائحة نفسها لا تصل إلى الدماغ أبداً.

لقد وصف العالِم الشهير جورج بيركلي هذه الحقيقة، فقال: (في البداية، اعتقد الناس أن الألوان والروائح موجودة في الواقع، لكن بعدها تم رفض هذه الآراء، وأصبحنا ننظر إليها أنها موجودة بناءً على حواسنا فقط)

وكمثال على ذلك أننا في الأحلام، وعندما لا تكون جزيئات الرائحة موجودة فعلياً، يمكننا إدراك الرائحة وكأنها حقيقية تماماً.. فمثلما يمكنك تخيل صور واضحة للغاية، وسماع أصوات واضحة أثناء الحلم، يمكنك كذلك إدراك الروائح بالطريقة نفسها. بالتالي، يمكنك معرفة أن الرائحة لا تحتاج إلى وجود ماديّ من أجل إدراكها.

وينطبق الأمر نفسه على إدراك الطعم، حيث تقوم مُستقبِلات التذوق بتحويل المُحفِّزات المختلفة التي تصلها إلى إشارات كهربائية، مثلما تفعل أعضاء الحواس الأخرى..

قال صديقنا عالم الأعصاب: صدقتم جميعا.. وما ذكرتموه محير للماديين الذين يبحثون داخل مخ الإنسان عن تلك العناصر التي تجعل الإنسان إنساناً، كالفرح والشكوك والمعتقدات والهوية الشخصية، ويزعمون أن المشاعر كالفرح والحزن، والمعتقدات، واتخاذ القرارات، والعاطفة تنبع كلها من الخلايا العصبية.. غير أن العلماء وأطباء الأعصاب الذين يدرسون مخ الإنسان فشلوا في العثور على مصدر أيٍ من ذلك.. لهذا السبب قاموا بوضع تعريف جديد لمصدر هوية الإنسان، وهو أن ما يجعل الإنسان إنساناً هو [الوعي].. وهو ما لا يستطيع الماديون تفسيره.

لقد قال [فريد آلن وولف] معبرا عن ضرورة وجوده: (نحن نعرف ما يقوم به المراقب من وجهة نظر فيزياء الكم.. لكننا لا

نعلم ماهية هذا المراقب.. هذا لا يعني أننا لم نحاول العصـور على إجابة.. لقد بحثنـا داخـل رأس الإنسـان، وبحثنـا عن شـيء يسـمى مراقبًا، لكن دون جدوى.. لا يوجد أحـد في المخ، ولا في المنطقـة الطرفية في المخ.. لا يوجـد مـا يسـمى بـالمراقب.. لكننـا جميعـاً نشعر بوجود مراقب ما يراقب العالم من حولنا)

لقد أدرك العلماء الآن أن المخ ليس هو مصدر إدراكنا، وإنمـا هـو بمثابـة وسـيلة فقـط. علاوة على ذلـك، تخلى العلمـاء بشـكل كامل عن فكرة وجود شـخص صـغير داخـل الـدماغ، والـتي كـانت سائدة قبل قرون.. حيث وجـد العلمـاء أن الكيـان الـذي يشـيرون إليه بالمراقب هو مستقل تماماً عن المخ، ويعلمون الآن أن مصدر إدراكنا هو الوعي البشري.

لقـد قـال [روبـرت لـورنس كـوهن] في كتابـه [أقـرب إلى الحقيقة: تحديّ الاعتقـاد الحـالي] يـذكر ذلـك: (لمـاذا أصـبح بعض علماء الفيزياء فجأةً مهتمين بالعقل البشـري؟ هـل العقـل حقيقي كالمادة؟ القليل فقط من تسـاءلوا مـا إذا كـان العقـل هـو الواقـع الحقيقي والمادة هي وهم خادع. ثمّـة نظريتـان أساسـيتان غـيرت نتائجهما مفهومنـا عن الواقـع إلى الأبـد وهمـا ميكانيكـا الكم الـتي أدخلت عدم التأكد في النطاق دون الذري، ونظرية النسـبية الـتي تُوحِّد الزمان والمكان على النطاق الكبـير للكـون. لكن هـل يمكن لنظريات الفيزياء شرح آليات العقل؟ هـل يمكن لسـلوك الـذرات أن يحدد سـلوك النـاس؟ هـل يمكن لـتركيب الكـون وصـف كيـف نفكر ونشعر وندرك؟)

وقال: (إن حياة الإنسان وإدراكه وأفكاره وكـل مـا يشـعر بـه من حب وفرح وحزن ـ أي كل ما يجعل الإنسـان إنسـانًا ــ بالتأكيد ليس ناتجـــاً عن ســـلوك مجموعة من الـــذرات.. ما يمنح البشر البشـرية ويجعلهم قـادرين على إدراك العـالم الخارجي هـو شـيء مسـتقل عن مخ الإنسـان.. نحن بحاجـة إلى تفسـير أعمـق من المفهـوم المـادي فيمـا يخص إدراك الإنسـان وقدرتـه على تحليـل الأمـور والتفكـير والاختيـار، وغيرهـا من الصـفات الـتي يتمـيز بهـا البشر)

وقال: (القول بأن شيئا استثنائيا مثل الـوعي يمكن أن يكـون ناتجًا عن نشـاط الأنسـجة العصـبية، هـو شـيء غـير منطقي مثـل ظهور الجن عند فرك علاء الدين للمصباح)

قـال صـديق آخـر: صـدقتم جميعـا .. فمن المسـتحيل لبنـاء يتكون من الدهون والمـاء والـبروتين أن يكـون السـبب في هويـة الإنسان التي تجعله قادرًا على الإدراك والتفكير والشـعور بـالفرح والفخر والحماس.. ولذلك فإن مزاعم الماديين قد انهـارت تمامـاً أمام جقيقة أن الإدراك مستقل عن المخ.

لقد صرح السير [رودولف بيرلس] أحد أبـرز علمـاء الفيزيـاء في القـرن العشـرين بهـذا، فقـال: (الافـتراض بأنـك تسـتطيع من خلال الفيزياء أن تصف جميع وظائف الإنسـان بمـا فيهـا المعرفـة والواعي هو افتراض غير مقبول.. هناك شيء لا يزال مفقوداً)

وقال: (عندما نـدرك أن كـل مـا نعرفـه بمـا في ذلـك العـالم المادي الذي نعيشه ناتج عن الوعي، تجد أن الحقيقة تناقض تماماً كل ما نـراه يوميـاً.. المـادة هي من صـنع الـوعي.. وبالتـالي فـإن الطبيعــة الأساسـية للواقــع الــذي نعيشــه هي الــوعي.. المكـان والزمان والمادة والطاقة وكل العـالم المبـني على إدراكنا هو من إنشاء وعينا.. فالمادة ليست هي أساس هذا العـالم الكبـير، وإنمـا هو الوعي)

وقد فسر سبب عدم استطاعتنا ملاحظـة الـوعي في العـالم الخارجي، فقال: (السبب في أننا لا نجـد الـوعي في العـالم الـذي نراه هو أن الوعي ليس جزءاً من الصورة التي تنشأ في عقولنا)

فالوعي الذي هو سبب إدراكنـا للعـالم الخـارجي ليس جـزءاً من العالم الخـارجي الـذي نلاحظـه، وبالتـالي فمن المسـتحيل أن نراه..

وقد شبه راسل ذلك بالضوء المنعكس على شاشة السـينما، ففي القصة التي يتم تمثيلها في الفيلم لا يوجد أي دليل على أنهـا مجرد أشعة ضوئية يتم إسقاطها على الشاشة.. فالناس يختـبرون الصورة الظاهرة على الشاشة فقط، والضوء الذي بدونـه لم تكن

هنــاك صــورة على الإطلاق لا يلاحظــه أحــد.. وبنفس الطريقــة، فالوعي ليس له وجود ملموس أو مرئي لأنه ليس جزءاً من العالم المادي الذي نلاحظه.

وقـد وصـفت [ديـان أكرمـان] الـوعي بقولهـا: (المخ صـامت مظلم أبكم، لا يشعر بـأي شـيء، المخ يمكن أن يلقي بنفسـه من فوق جبل أو إلى الفضـاء الخـارجي.. يمكن للمخ أن يتخيـل ثمـرة تفاح ويشعر بأنها حقيقية.. في الواقع، يجد المخ صعوبة بالغــة في التفريق بين قمـرة تفـاح خياليـة وأخـرى حقيقيـة.. المخ ليس هـو العقل.. العقل بالنسبة لجسم الإنسان هو بمثابة شـبح داخـل آلـة، كما يصفه البعض)

قال صديق آخر: هنـاك سـؤال هـام يجب تفسـيره.. وهـو مِمّ يتكون الوعي؟.. وما الذي يجعل هذا العالم ينشأ داخل الوعي؟

قـال عـالم الأعصـاب: يعتـبر الـوعي واحـداً من أكـبر أسـرار القـرن الحـادي والعشـرين، فمعظم البـاحثين والكُتّـاب والأسـاتذة الجامعيين المعنيين بهـذا الموضـوع بـدأوا بحثهم بـالقول بـأن هـذا الموضوع غير مفسر حتى الآن، وانتهوا بالتأكيد على ذلك.

ومن الأمثلة على ذلك قـول [جيفـري شـوارتز]: (بـالرغم من أن الربط بين النشاط المادي للمخ والنشاط العقليّ يعتبر انتصارا عِلميّا لا شك فيه، إلا أنه لم يُرضِ العديد من دارسـي المخ، إذ أنـه لم يعطي تفسيراً كافياً لأي من علمـاء الأعصـاب أو الفلاسـفة عن كيف يمكن أن يـؤدي سـلوك الخلايـا العصـبية إلى الشـعور بحالـة الوعي.. وهذا اللغز ـ أي كيفية تحوُّل أنماط نشاط الخلايا العصـبية إلى وعي ذاتي ـ قد قال عنه عالم الأحيـاء العصـبية روبـرت دوتي عــام 1998 إنــه لا يــزال الغمــوض الرئيســي بالنســبة للوجــود الإنساني)

***

هذا مـا ذكـره أصـدقائي في ذلـك الحين.. وقـد جعلتـني تلـك الأحاديث أبحث مدة طويلة عن ذلـك الـوعي الـذي اتفقـوا عليـه.. والذي لم يمكنهم تفسيره..

لكني عرفت بعد إيماني بالله، وثقتي في رسل الله وكلماته أن ذلك الوعي ليس سوى طاقة من طاقات الروح التي أنعم بها الله على الإنسان.. وأنها أكبر بكثير من كل ما نراه من عالم المادة.. بل إن كل عالم المادة لا يساوي شيئا أمامها.

وقد علمت أيضا أن العلماء الماديين يدركون هذه الحقيقة، لكنهم لا يريدون قبولها أو الإفصاح عنها.. لذلك يزعمون أن مسألة الوعي لم تُحسم بعد.

النهاية

بعد أن أنهى ضيوفي السبعة أحاديثهم، والتي سجلتها بكل دقة، رحت أقول لهم: لقد سجلت كل ما ذكرتم.. لكني إلى الآن لم أعرف المصير الذي صرتم إليه، ولا كيف اجتمعتم، ولا كيف التقيم بمعلم الإيمان، ولا كيف أرسلكم إلي.. ولا كيف..

قاطعني أحدهم، وقال: نحن حدثناك عما ينفعك، وينفع الناس.. أما ما عدا ذلك، فلا شأن لك به.. ولا حاجة لك إليه.. وهو قد يسيء إلينا، ويضر بنا، فأنت ترانا قد أتينا خفية، ولو سمع بنا أعداؤنا لسامونا الخسف، ولحرمونا من كثير من فرص الدعوة إلى الله، وتبيان الحقائق، والرد على الملاحدة.

قلت: لا تخافوا .. فلن أذكر أسماءكم ولا أوصافكم.. ولا شيئا عنكم.. بل سأطلي حياتكم ببعض الرموز التي تحيلكم قصة من القصص القديمة.. لا حقيقة من الحقائق الحادثة.

قال: ما دمت قلت ذلك.. فيمكنك أن تعتبرنا أولئك السبعة من أصحاب الكهف الذين بحث كل واحد منهم على الله.. وفي مجلس من مجالس الطاغوت راح كل منهم يصيح بكل قوة: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15) ﴾ [الكهف: 14، 15]

فقد حصل لنا ما حصل لهم.. ففي مجلس من مجالس الطغيان المادي، وفي مؤتمر من مؤتمراته، قام أحدنا، وعلى الملأ، وأمام أسماع الإعلام العالمي يصيح بالحقيقة التي ارتجت لها القاعة، وارتج لها الجمهور.. ثم رحنا واحدا واحدا نؤيد ما ذكر، ونكرره، ونؤكده بكل أصناف الأدلة.

قلت: ولكنكم بحمد الله لم تتعرضوا لما تعرض له أهل الكهف من الأذى حتى فروا بدينهم.

قال: ومن ذكر لكم أنه لم يحصل لنا ذلك.. لقد حصل لنا الكثير منه.. فقد جردنا من مناصبنا، وصودرت أموالنا.. واتهمنا بالإرهاب والعنف.. ورفعت علينا قضايا كثيرة.. ولذلك لم نجد حلا إلا الفرار إلى بعض الكهوف.

وهناك ألقى الله علينا سوابغ رحمته ولطفه.. ولم ندر إلا ونحن نخرج من كهفنا، ولا أحد يلتفت لنا، أو يبحث عنا.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد سقطت تلك الحكومة التي تبنت تلك الأحكام، وسقط معها نظامها.. وأحرق أثناء الشغب الذي حصل كل ما يرتبط بنا من قضايا.. ولذلك ولدنا ولادة جديدة.. وعادت لنا حياتنا التي سلبت منا.. فانتسبنا لبعض الجامعات والمراكز.. ورحنا نترقى من جديد في مناصبها إلى أن عادت لنا الكثير من الوجاهة التي افتقدناها.

قلت: فقد ركنتم إلى الدنيا إذن؟

قال: معاذ الله أن نفعل ذلك.. بل رحنا نغير استراتيجيتنا، ونستبدلها بما تراه.

قلت: أنا لم أر شيئا.. فأنتم اليوم لم تفعلوا شيئا.. لا سلبا ولا إيجابا.

قال: وحديثنا الذي حدثناك به.. ألا تعتبره نورا من أنوار الهداية.. ومعولا يحطم تلك الأصنام التي تعبد من دون الله؟

قلت: بلى .. هو كذلك.. لكن ما عساه يفعل؟

قال: نحن نرحل إلى كل بلاد.. ثم نبث أحاديثنا لخاصة الناس.. ونترك لهم الفرصة ليؤدوا دورهم.. فنحن نعلم أن العامة بيد الخاصة، وأن العقل الجمعي بيد العقل الفردي.. ولهذا صرنا لا نصيح في المؤتمرات.. وإنما نتحدث لكل من نتوسم فيه القبول.

قلت: فقد انتقلتم من الدعوة الجهرية إلى الدعوة السرية.

قال: ما دمنا قد اضطررنا لذلك.. والله لا يكلف نفسا إلا وسعها.. وقد قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9)﴾ [نوح: 8، 9].. ولنا في رسول الله ﷺ في ذلك أسوة حسنة.. فقد دعا قومه بكلا الدعوتين، وما كان لنا أن نخالف رسول الله ﷺ، أو نسير على خلاف خطاه.

قلت: وعيت هذا.. ولكن كيف التقيتم بمعلم الإيمان.. وكيف اهتديتم إلي؟

قال: أما معلم الإيمان.. فهو يزورنا مثلما يزورك.. ولولاه لما حصل لنا من الإيمان ما حصل.. فالإيمان هدية الله لعباده الصادقين المخلصين الذين استعملوا كل وسائل التحقيق والنظر، ولم يستكبروا على الحقيقة.

قلت: فكيف اهتديتم إلي؟

قال: لقد التقينا بك في رحلاتك السابقة، لكنك لم ترنا، لأنك كنت مشغولا بقلمك وقراطيسك.. وقد عرضنا على معلم الإيمان أن تُسجل أحاديثنا مثلما سُجلت أحاديث غيرنا.. فأرسلنا إليك.

***

هذا ما بثوه إلي من أحاديث، وقد ذكروا لي من بعض أسرارهم ما لا أستطيع أن أكتبه هنا خشية عليهم وعلى نفسي.. ولذلك اكتفيت بما أوردته.

وأضيف إليه أنهم في اليوم التالي، وفي الجلسة الأخيرة، وفي آخر توصية من توصيات تلك الاجتماعات، والتي تلاها أحد الضيوف السبعة، قال: وفي الأخير نرجو من الحضور الكرام، أن يهتموا بالعلم، ويحققوا في كل ما يقال.. وألا يخدعوا بأي خدعة قد تتسرب لهم من وسائل الإعلام تحت أسماء براقة.

فالحقائق العلمية ليست محصورة في أوروبا ولا أمريكا، وليست خاصة بالرجل الأبيض أو الأسود.. بل قد تكون في بلادكم.. وقد تجدونها في أناس تحتقرونهم، ولا تعرفونهم.. لكن

الحقيقة عندهم، تسطرها أقلامهم، وتسجلها قراطيسهم.. فلذلك ابحثوا عنهم، واسمعوا لهم، واقرأوا ما يسجلون.. فالحقيقة لا وطن لها.

وقد فوجئت بعد تلك الكلمات بعض الشخصيات المهمة في بلدتي تتقدم إلي، وتصافحني بكل حرارة وصدق، وتطلب مني تخصيص مواعيد لاستقبالها.

وفي اليوم التالي، فوجئت برئيس المركز الثقافي نفسه يدق باب بيتي، ويطلب مني نسخا من كتبي، ليعيد طباعتها، ويضعها في المركز.. ويطلب مني مع ذلك أن أقدم دورة علمية في الرد على الإلحاد، وتكوين إطارات علمية تقوم بذلك.

وقد تعجبت من موقفه هذا.. وسألته عن سره، فقال: لا يصح أن نفشي الأسرار التي طولبنا بكتمانها..

ثم راح يقول لي: لا تنس أن تحضر كتابك الأخير [الحياة: تصميم .. لا صدفة] لنقوم بطباعته وتوزيعه في أقرب فرصة.

قلت: فكيف سمعت به.. وأنا لم أحدث عنه أحدا من الناس؟

قال: لقد حدثني عنه من حدثك به.. ولا تغتر كثيرا.. فلست سوى راوية.

قال ذلك، ثم انصرف.. وتركني .. وقد حصلت لي بعدها الكثير من المفاجآت .. لكن أكبرها وأهمها عندي.. والتي ملأتني سرورا هي أن الذي قدم الدورة التكوينية التي كلفت بها هو نفسه ذلك الذي راح يربط نظرية التطور بالقرآن الكريم.. لكنه بدل أن يفعل ذلك، راح يحمل حملة شديدة على من يقول بذلك، ويتهمهم بالخداع والتزوير والتلاعب بالحقائق.. ويذكر عن نفسه أنه كان ضحية لهم، ويعتذر للحاضرين بسبب الأخطاء التي أوقعهم فيها بسبب ذلك.. ويعدهم أنه سيؤلف كتابا في الرد على نفسه، وعلى جميع المقالات التي كتبها، والمحافل التي شارك فيها.

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب أن يناقش أكثر الأطروحات المادية والإلحادية شهرة وانتشارا، والتي استعملت كل الوسائل، ومارست كل الخدع لتفسير نشأة الحياة وتنوعها تفسيرا ماديا يبعدها عن الحاجة إلى الله، وإلى تصميمه المبدع، وعنايته الرحيمة.

وبما أن النظرية التي تولت ذلك هي نظرية التطور، بمراحلها المختلفة، فإن هذا الكتاب هو مناقشة علمية هادئة لكل أطروحات تلك النظرية، وردود علمية عليها، وإجابات عن كل الشبهات التي تطرحها، ابتداء من نشأة الحياة، وانتهاء بتنوعها إلى الصورة التي نراها عليها.

وقد اعتمدنا في هذه الردود على ما ذكره العلم الحديث من حقائق لم تكن موجودة زمن داروين والعلماء الذين وقفوا في صفه.. فالعلم اليوم يسير بخطا سريعة نحو تحطيم هذه النظرية والأسس التي تقوم عليها.. بل ظهرت مؤسسات وجمعيات كثيرة من الغرب نفسه تبين أن هذه النظرية لم يبق لها ما يسندها، ويدل عليها، لا من الحفريات، ولا من غيرها.. ولذلك رموها بالخرافة والدجل.. وكونها تحولت إلى أداة أيديولوجية، لا نظرية علمية.